كلمة الوزارة

أ. الدكتورة لبانة مشوح
وزيرة الثقافة

موطن الإبداع

قبل أن تولد الكلمة، ولد الإبداع..

أبى إنساننا الأوَّل أن يظل سجين كهفه، فحفرت أصابعه على جدرانه خطوطاً أعادت تكوين الحياة. عبثت أنامله القاسية بالطين فصيّرته كتلاً فراغية جمالية. نحتت الخشب والحجر فطوّعته، وزينت به حنايا الوجود..

ولد الإبداع من رحم هذه الأرض الطيبة. نفخ إنسانها الأوَّل في الأشياء من روحه.. اختزل عظمة الكون بجملة خطوط وأشكال وألوان، فبث في زوايا الحياة العتمة أنوار الأمل وأريج

الفـرح. ابتـدع النغم، فعزفه على أوتار الأيام الصـعبة. أنشَـدَ قصـائد الخلود، فتعالت لتشـقّ سُحُبَ السـماء وتمْطِرَ إلهاماً أنبتَ حضارةً منحتِ البشرية سِمة الخلود.

مغامـرة إبـداع خلاّقة أطلقها إنسـاننا من عتمـة التاريخ، فحفّزت العقل على اكتشـاف عوالم الجمال.. لينطلق مرفرفاً بأجنحة الفضول الفَرِح فيحلّق بعيداً، متحرراً من إسار الأرض وقيود الحزن والظلم والألم.. مجدِّداً في كل رحلة اكتشـافَ ذاته والعالمَ من حوله.

قبـل أن تولـد الكلمة، ولد الإبـداع.. وكلاهما ولد من رحم الشام.

على الأرض السـورية الطيبة تجلـى الإبداع عـبر التاريخ بأجمل صـوره.. منهـا انبثق نوره ليَعدَ بالأبهـى والأكثر غنى. أبجديتهـا أخرجـت البشرية من ظلماتهـا، ومدّتها بزادٍ يتيح لها كتابة صـفحات التاريخ. سـواعد أبنائها وفكرهم وقيمهم أعلت للبشرية منارات الهُدى. أناملهم ضفرت بخيوطٍ من نور جدائل وجدٍ لوطنٍ عظيم.. وعزفـت له بلون الأرجوان أجملَ نشيد حب.. وغرست في بستان الحياة ورود محبّة.

شآمنا.. يا موطن الإنسان الأوّل.. أيّتها الأرض المباركة التي تكفّل الله لأنبيائه بها وبأهلها.. يا منبت الحرف الأوّل الذي رسم للأقدار سبلاً أخرى.. يا وردة غمرت الكون بأريجها.. وقيثارة هدهدت الدنيا أنغامُها.. وقصائد حب تلألأت بها أنهار العشق فغدت أناشيد الخلود..

أيّتها الجميلة الوادعة، يا أيقونة الأرض والسماء، يا منارة العلماء وموئل الضعفاء.. يا من شرّعت أبوابك لكل قاصد. آويتِ وأطعمتِ وسقيتِ. فرَدْتِ أجنحة الرحمة وأرخيتها بجلال فاحتضنْتِ اللاجئ والنازح والهارب والمقهور. منحتِ أجمل الأنساب، وحفظتِ أقسى العهود، وما أثناكِ جحودٌ ولا عقوق..

أنتِ يا حضننا الحاني، وثغرنا الباسم، وجبيننا المتوهّج المكلل بتاج الياسمين.

أنت يا من نتنفّس برئتيك، ونستعذب قيودك..

أتراهم نسوا من تكونين، وأيّ سطور كتبت في سفر التاريخ؟!

أم أنّ الحسد أعمى بصيرتهم، كما غشى الحقد بصائرهم؟

أيعقل أن تركن الضمائر لجريمة رميك ولو بزهرة؟

لا تحزني يا أميرة الأزمان.. فستظلين الحسناء البهية، شامخة بقببك ومآذنك وأجراس كرامتك.. لن تخفي خيوط عناكب الحقد بهاءك، وستظل أنغام عِشقك تُعزَفُ أبداً في زوايا أزقّتك وأسواقك.. في دورك وبساتينك، تصدح بها قممك الشامخة، ويتردد صداها فوق وديانك الحانية.

حماك الله يا شآم المجد والمحبة.. يا موطن الإبداع.

كلمة العدد

د. علي القيّم
رئيس التحرير

سحر الزمن القادم من إيبلا

خمسون سنة مرّت، على الزيارة الأولى التي قام بها عالم الآثار الإيطالي «باولو ماتييه» إلى سورية، باسم جامعة روما، ليبحث عن موقع أثري ينقّب فيه، وذلك في شهر أيلول من عام ١٩٦٣م، وزار بتشجيع من المديرية العامة للآثار والمتاحف تدمر والساحل والمنطقتين الوسطى والشمالية، وخلال زيارته تم لفت نظره إلى ماعُثر عليه من حوض أثري بازلتي في «تل مرديخ» الواقع قرب بلدة سراقب، التابعة لمحافظة إدلب، على بعد خمسة وخمسين كيلومتراً، جنوب شرق حلب، وعلى بعد كيلومترين إلى الشرق من الطريق العام الذاهب إلى حماة..

وبعد أن تشجع «ماتييه» للتنقيب في الساحل السوري، عزم على العمل في تل مرديخ، وفي ١٤ تشرين الأول عام ١٩٦٣م، وكما أخبرنا الصديق الراحل الدكتور عدنان البني، حصلت البعثة الأثرية الإيطالية على رخصة التنقيب الرسمية، وتمّت المباشرة في أيلول عام ١٩٦٤م، وتمّ أوّل كشف أثري ذي بال عام ١٩٦٥م، وهو عبارة عن جرن من الحجر الكلسي

عليه مشاهد «ميثولوجية» ويعود تاريخه إلى الألف الثالث قبل الميلاد، كما عثر على منحوتة من الحجر البازلتي تمثّل ربّاً جالساً على كرسي..

في موسم عام ١٩٦٨م بدأ التعرّف على اسم الموقع، إثر ظهور تمثال في السوّية الآمورية، في معبد الربّة عشتار أقامه «ابت ليم بن أجرش خب ملك إيبلا» وإثر هذا الاكتشاف العظيم، أصبح من الواضح أنّ المدينة الجاثية في تل مرديخ هي إيبلا المفقودة، وبعد صبر طويل، وسنوات عجاف نسبياً، سعدت البعثة الأثرية الإيطالية في عام ١٩٧٣م بظهور القصر الملكي، الذي يعود تاريخه إلى الألف الثالث قبل الميلاد،(سلالة إيبلا الأولى) وفي شهر آب من عام ١٩٧٤م ظهر أربعون رُقيماً مسمارياً، وفي عام ١٩٧٥م، أخذت الرُقم المسمارية الساحرة تظهر بالمئات، ثم استكملت في عام ١٩٧٦م لتظهر بالآلاف..

لقد زرت موقع إيبلا (تل مرديخ) عشرات المرات، وقمت بالكتابة عنه مقالات كثيرة، وكانت رسالتي للدكتوراه عن عظمة هذا الموقع تحت عنوان «إمبراطورية إيبلا» في عام ١٩٨٩م هذا العملاق الذي نهض من رقاده الطويل، ليقول كلمته، ويبوح لنا بأسراره المذهلة، على مساحة تبلغ/٥٦/ هكتاراً، في موقع إستراتيجي وزراعي هام، وكانت منطقته قديماً مشجرّة وفيها أحراش، كما دلّت على ذلك ترجمات النصوص المسمارية.

لا نعرف، متى أطلق اسم إيبلا على الموقع، ولكننا نعرف، أنّه يعود على الأقل إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وليس له معنى واضح في مفردات اللغات المشرقية القديمة، وقد قرّب معناه من البياض، أو من التفاف الشجر، وقام العالم اللغوي «فرانزارولي» (أستاذ اللغات القديمة في جامعة فلورانسا) بتحليل للجوانب الاشتقاقية لكلمة إيبلا، الموثقة في الشواهد الكتابية المسمارية منذ نحو /٢٤٠٠/ق.م، وقد تبيّن أن (إيبلا) مستمدّة من كلمة (عبل) التي تعني في المعاجم العربية (عبلة) أي الشريط الضيّق من الصخر الأبيض في أرض سوداء..

وبالفعل إذا تأملنا طبيعة التضاريس في موقع (تل مرديخ) نجد أنّ القسم الجنوبي الغربي منه يظهر على شكل هضبة منخفضة من الصخر الكلسي الأبيض، كما أنّ الصخر الطبيعي الأبيض لايزال يطل من فوق سطح التربة في أماكن عدّة من موقع(تل مرديخ)..

يوجد في إيبلا سبع سوّيات أثرية أقدمها يعود إلى النصف الثاني من الألف الرابع

قبل الميلاد، وأحدثها إلى فترة العهد الروماني المتأخر والعهد البيزنطي، وعلى الأسوار عند مدخل إيبلا، وجدت كتابات عربية معروفة جيداً في العهد الأموي، ولا ندري، إن كانت تواكبها طبقة سكنية من ذلك العهد..

❁ ❁ ❁

استمرت عمليّات الكشف والتنقيب في إيبلا، بشكل متواصل في شتى أرجاء الموقع، وكانت النتائج والدراسات مذهلة، أسفرت عن الحي الملكي «الأكروبول» الذي يضم القصر أو القصور الملكية الضخمة، وبعض المعابد وأهمها معبد«عشتار» المجدد في الألف الثاني قبل الميلاد، والمراكز الإدارية التابعة للقصر، وأسوار المدينة الضخمة الترابية المكسوّة بالحجارة، التي يبلغ سمكها عند القاعدة نحو/ ٦٠/ متراً، وللمدينة أربعة أبواب، مدعومة بالأبراج، والمداخل مدعّمة جدرانها بصفائح الحجارة البازلتية والكلسيّة، ومن الأبواب كانت تمتد أربعة طرق مشرعة نحو «الأكروبول»، وفي المدينة الواطئة أحياء سكنية عدة تتخللها مساحات، غير مبنية، لعلها كانت تستخدم للزراعة، وكانت الآبار متوافرة في المدينة، والماء كان يجمع في صهاريج، ولكن الاعتماد الأساسي كان على مياه الأمطار..

القصر الملكي في إيبلا يتميّز بخصائص معمارية سورية فريدة، فله قسم إداري مستقل، وقسم خاص بالملك، يتوسطه باحة العرش، المحاطة بالأروقة العالية، له منصة يصعد إليها بدرج صغير، كان الملك يجلس عليها خلال استقبالاته الرسمية، ويعود تاريخ هذا القصر الفريد إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وإلى الغرب منه، بني قصر جديد يعود تاريخه للفترة الآمورية (١٨٠٠-١٦٠٠)ق.م، أي ما أطلق عليه فترة الازدهار الثاني من حضارة إيبلا، وقد وجد في هذا القصر مجموعة كبيرة من القطع والأواني الفخارية الجميلة والأسلحة والحلي النادرة المتنوعة الغنية بالزخارف والنقوش الجميلة، التي تدل على تطور الحرف والفنون في إيبلا في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد، وقد ألقت هذه المكتشفات بشكل غير مباشر، الضوء على العلاقات الاقتصادية، وطرق المبادلات التجارية بين سورية والبلدان والممالك المجاورة مثل: بلاد الرافدين ومصر والأناضول وإيران وغيرها..

الاكتشاف الأعظم والأهم في إيبلا، حدث بين تنقيبات عامي ١٩٧٤ و١٩٧٥م، عندما عثر في حجرة من حجرات القصر الملكي العائد للألف الثالث قبل الميلاد، على مكتبة

ضخمة، تضم السجلات الملكية، ومكوّنة من /١٦/ ألف رُقيم مسماري أو تزيد (منها ألفا رقيم سليم، وستة آلاف رقيم ناقص وثماني آلاف كسرة).. آه ما أجمل خطّها الهندسي، وما أروع لحظات اكتشافها.. لقد اعتبر هذا الكشف الأثري، الأعظم في القرن العشرين، وثورة في تاريخ الشرق القديم في الألف الثالث قبل الميلاد.. حتى زمن هذا الاكتشاف العظيم، كانت سورية حلقة مفرغة في تاريخ الشرق القديم، فالوثائق الكتابيّة التي تغطي الألف الثالث قبل الميلاد، تعد بالمئات، وكان مصدرها بلاد الرافدين ووادي النيل، وكان ينظر إلى سورية في ضوء غياب الوثائق الكتابية التي تعود إلى تلك الفترة، على أنّها منطقة نزاع سياسي عسكري بين الدولتين، ولم تلعب أي دور حضاري يُذكر..

وجاءت هذه الرُقم، لتقلب المعادلة، وتؤكد بما لايقبل الشك أنّ سورية كانت في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد منطقة ثقل حضاري وفكري وثقافي واقتصادي وسياسي لايقل مكانة وأهمية عن المنطقتين المذكورتين.. لقد شُكلت لجنة من أشهر العلماء والاختصاصيين في قراءة الرُقم المسمارية، من بريطانيا وأمريكا وفرنسا وألمانيا وبلجيكا وإيطاليا والعراق، وانكب هؤلاء العلماء بكل جدّ ونشاط على دراسة وترجمة هذه الرُقم المسمارية، وقاموا بنشر نتائج قراءاتهم وأبحاثهم في مجلة «دراسات إيبلائية» التي بدأت بالصدور في جامعة روما منذ عام ١٩٧٩م، وفي مجلة «حوليات إيبلا»، وفي عام ١٩٨١م، عقدت في جامعة روما، ندوة عالمية حول مكتشفات إيبلا، شارك فيها عدد كبير من علماء اللغات القديمة والآثار، الذين قدّموا دراسات مهمة، ردّت علمياً، على التخرّصات التي روّجتها الصهيونية، حول علاقة إيبلا بالتوراة، ومدن السهل الخمس، وكانت حصيلة الدراسات أنّ لا علاقة لإيبلا، لا من قريب أو بعيد، ولا من حيث الشكل أو المضمون بالعبرانيين أو التوراة أو تاريخهم المشبوه..

إنّ التفسيرات الركيكة والمتسرعة لنصوص من إيبلا، قد أوهمت بعض المغرضين بقراءة اسميّ (سودوم وعمورا) المذكورين في سفر الخليقة من (التوراة)، كما تردّد في بعض وسائل الإعلام الغربية الصهيونية عن العثور، ولو بشكل مشوّه، على أسماء (إبراهيم وداوود) ولكن الاختصاصيين في اللغات المشرقية القديمة، سرعان ما أبطلوا هذه «الاكتشافات» المزعومة، وبيّنوا أنّ لغة إيبلا بعيدة جدّاً عن «العبريّة» وأنّ «داوود» متأخر أكثر من ألف سنة عن إيبلا..

لقد كانت إيبلا، كما اتضح من ترجمات نصوصها المسمارية، مركزاً لقوة سياسية كبرى، وقد هيمنت على ممالك أخرى في الهلال الخصيب، كماري (تل الحريري) على الفرات الأوسط، وحلب (يمحاض- حبابو- أرمانو) وكانت قوتها السياسية مستمدّة من حيوية اقتصادها، فتجّارها يجوبون البلاد من الأناضول شمالاً إلى فلسطين جنوباً، ومن بلاد الرافدين شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً، وتذكر النصوص التجارية الإيبلائية أسماء مدن قديمة، وبلاد كثيرة جداً، مما أغنى معارفنا الجغرافية في العالم القديم خلال الألف الثالث قبل الميلاد، ومن المدن القديمة التي ورد ذكرها: ماري(تل الحريري)-إيمار (مسكنة)- كركميش (جرابلس)- حرّان - أوغاريت (رأس شمرا)-بابل- أوروك - لاغاش - نيبور- كيش...

❁ ❁ ❁

عظمة وروعة إيبلا وجدتها في روما، العاصمة الإيطالية، التي استقبلت في الفترة الواقعة ما بين (١٨ آذار و١٥ تموز ١٩٩٥م) معرض الآثار السوري (إيبلا أصل التمدن) الذي أقيم في «قصر فينيسيا» التاريخي، وحظي بتغطية إعلامية واسعة، واعتبرته وكالات الأنباء الإيطالية والعالمية، أهم تظاهرة ثقافية تقام في إيطاليا خلال الخمسين سنة الأخيرة، وكان لي شرف تمثيل بلادي في مرحلة من مراحل إقامة المعرض لمدة أسبوعين..

لقد كتب عن معرض إيبلا مقالات ودراسات، تجاوز عددها /١٠٠/ مقالة ودراسة، نشرت في كبريات الصحف الإيطالية، وتكرر نشر بعضها في عدد من صحف المدن والأقاليم الإيطالية، كما عرضت محطات التلفزيون الحكومية والخاصة، ما يزيد عن عشرين برنامجاً خاصاً عن المعرض وأهميته وروعة العطاء الذي قدّمته إيبلا للإنسانية جمعاء، وكانت فرصة للحديث عن سورية، والحضارات العظيمة التي مرّت عليها منذ عصور ما قبل التاريخ، وهذه سابقة لم يحظ بها أي من المعارض الأثرية والفنيّة والثقافية الكثيرة التي تقام في العاصمة الإيطالية...

أهم ما لفت نظري في تلك المقالات والدراسات، تركيزها على دور سورية الحضاري في التاريخ القديم، فهي مهد الرسالات والحضارات والثقافات العديدة، ولا تزال شواهدها ماثلة للعيان، وقد كانت إيبلا، أوّل من تبادل العلاقات التجارية والاقتصادية والسياسية،

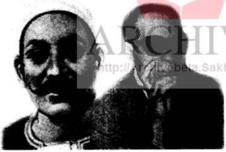
مع الدول الأخرى، وكانت أوغاريت على الساحل السوري أوّل من عرف الأبجدية في العالم، وكان موقع «المريبط» في منطقة سد الفرات، أوّل من قدّم تماثيل للربّة الأم في الألف التاسع..

وقد حملت بعض المقالات عناوين طريفة لافتة، فجريدة «لاستامبا» نشرت دراسة مطوّلة حملت عنوان: «حوض الغسيل اعترف، عن مصدر مياه إيبلا» ومما جاء فيها: «بحثوا عنها لأكثر من مئة سنة.. كانوا يعلمون بوجودها ويجهلون موقعها.. كيف نعثر على مدينة اختفت قبل ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد.. حفروا وعثروا على كتابات تجهل اسمها، وهي تحمل اسماً جميلاً حقاً (إيبلا.. التلال البيضاء).. صامتة تحت سطح الأرض السوريّة، اختبأت هناك لفترة أبدية تقريباً.. في عام ١٩٢٦م، كاد عالم الآثار الأمريكي -أولبرات- أن يقترب منها، ويعثر عليها، لكنّها كتمت أنفاسها. لقد حدّق بتلك التلال البيضاء، ومشى إلى الأمام، وهو يردد ما أغرب هذه التلال...

لقد دخلت سورية، منذ ذلك التاريخ، ذهن الرأي العام الإيطالي بفضل معرض «إيبلا أصل التمدّن».. لقد دخلته في العصر الحديث والمعاصر من أوسع الأبواب (الباب الثقافي) وأستطيع القول بثقة أكيدة، أنّه لم تتمكن دولة عربية أخرى، من الحضور إعلامياً وثقافياً لدى الشعب الإيطالي، كما فعلت سورية، بفضل هذا المعرض الذي مازالت فعالياته محفورة في الذاكرة الثقافيّة الإيطالية.. على اعتبار إيبلا.. القطب الثالث للثقافات المدنيّة في العالم القديم، وأولى مدن وممالك العالم المهمة في الألف الثالث قبل الميلاد.. ومدينة الأسرار التي عادت إلى الأضواء الساطعة، لتقول لعشاق الفن والحضارة، هذه هي حضارة سورية الزاهية، التي انبثقت منها أصول الحضارات المدنيّة.. إنّه سحر الزمن القادم من إيبلا..

الفساد والإصلاح
المنفلوطي وطه حسين

د. صلاح الدين يونس ✪



المنفلوطي.. مصطفى لطفي ١٨٧٦ - ١٩٢٥م كغيره من رجالات النهضة وذهنية الانبعاث تخرّج في المؤسسة الدينية «الأزهر» ولم يغدُ أزهرياً، فقد حفظ «القرآن» قبل أن يفِد الأزهر. ورغم مكوثه بين ظهرانيه عشر سنوات لم يصرفه عن الاهتمام بالشعر والأدب وشؤون المجتمع وقضايا الوطن والسياسة، ومن هنا تجده ناثراً كأنه ناظم، وتقرأ شعره كأنك أمام حكاية ظريفة.. وفي إثر نزاع فردي مع المؤسسة يغادر المنفلوطي الأزهر ليلتحق بالمصلح الديني الشيخ محمد عبده الذي تتلمذ له في الأدب والأخلاق والطبيعيات.. كما أن التحاقه بالشيخ «عبده» عزز عنده الوجود الفردي وقد انتزع مشروعه من الخلاف مع المؤسسة، ومن

✪ أديب وناقد وأستاذ جامعي.

اللافت في سيرته أنــه دخل السجن لا لموقف سياسي، إنَّما لقصيدة هجا بها الخديوي لكنه أخرج في إثر شفاعة من الوجهاء.. وبعد وفاة أستاذه محمد عبــده ١٩٠٥م التزم -سياسياً- حزب سعد زغلـول، إذ عينه كاتباً في البرلمان حيث توفي وهو على رأس عمله.

وقد عهد عنــه مواقفه المعادية للاحتلال الإنجليزي، ويبـدو هذا واضحــاً فيما تركه مــن «نثرية» قصصية وسياسيــة واجتماعية، واستبقاعــاً فقد عارضــ «المدنيــة» الغربية بشـدة ليطرح عنهــا البديلــين: «الإسلامي» و«الشرقي».

ومن أهم آثاره: «النظرات» وهي المقالات التــي نشرهـــا في «المؤيد»، و«العبرات» وهي الأقاصيص التــي كتبهـا أو ترجمهـا عن الفرنسية.. و«الشعريــات» وهي نوعان: شعر عديد الأغراض لا ينظمه جامع، وشعر نظمه لطلاب المدارس.. ومــن «النظرات» قرأنا له عنواناً مثيراً «أفسدك قومك» يتوجه فيه إلى المؤسســة المنزلية والأخرى المجتمعية والثالثة الحكومية، إذ رأى الفساد لاينحصر في سلوك فردي وحســب، وإنَّما تعـود أسبابه إلى تلك المؤسسات.. ولا بد من الضحية..

«أيها المجــرم القاتل الذي يسلب الخزائن نفائسهــا والأجســام أرواحهــا- لست أحمل عليــك من العتب فوق مـــا يحتمله ذنبك، ولا أنظر إليك بالعين التي نظر بها القاضي الذي قسا في حكمه عليك، لأني أعتقد أن لك شركاء في جريمتك، فلا بدّ لي أن أنصفك، وإن كنت لا أنفعك..».

يفصل المنفلوطي- من موقع المتأمل- بين الفاسد بسلوكــه أو بالنتيجة وبين القوى التي تدفعــه نحو الفســاد، أو الأسبــاب المؤهبة.. فالفصل الحاصل لايعترف عليه القانون، إنَّما يعترف عليه أهل الرأي، والرأي القادم من رؤية الأديب أقوى على اختراق البنيات الاجتماعية وأقدر على تحســس وتائر المعاناة فيها، ولعلَّ النية الكامنة في خلفية المنفلوطي الأديب هي نيّة الإصلاح. إصلاح الأخلاق التي تتعرض- مع كل هزيمة سياسيــة للأمة- إلى الاهتزاز، ولذلك تجد الناثــر منشغلاً بالأخلاق، وتجد الشاعر منشغلاً هو الآخر.. يقول شوقي:

صــلاح أمــرك لــلأخــلاق مرجعــه
فقـوّم النفـس بـالأخــلاق تستقم

وقد كرر هذا في غير موقع

وإنَّمــا الأمم الأخـــلاق مــا بقيت
فــإن هــم ذهبـت أخلاقهـم ذهبـوا

ومن الحديث النبوي قوله (صلى الله عليه وسلــم): «إنَّما بعثت لأتمم مــكارم الأخلاق»، والأخلاق المنوه بها هي مثالية شرقية الطابع، ليست بمباربة لـ«الأخــلاق» الغربية استحالت إلى علم.

ثم يفصل المنفلوطــي في«الشركاء» شركاء الجريمة، فيقول: «شريكك في الجريمة أبوك

لأنه لم يتعهدك بالتربية في صغرك، ولم يَحُلْ بينك وبين مخالطة المجرمين، بل كثيراً ما كان يُبخبخ «يستحسن» إذا رأى أنك قد تمكنت من اختلاس درهم من جيب أخيك، أو اختطاف لقمة من يده، فهو الذي غرس الجريمة في نفسك، وتعهدها بالسقيا حتى أينعت وأثمرت هذا الحبل الذي أنت معلق به اليوم، وها هو يذرف عليك العبرات ويصعّد الزفرات ولو عرف أنها جريمته لضحك مسروراً بغفلة الشرائع عنه وسجد لله شكراً على أن لم يكن حبلك في عنقه».

يذكرنا رأي المنفلوطي بالحديث النبوي: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه إمَّا يهودانه أو ينصرانه أو يُسلمانه» والحديث النبوي إنَّما يُعول على الأسرة، فالأسرة هي المدرسة المستمرة، وقد أشار حافظ إبراهيم الشاعر المحافظ الذي خالطه كثير من الآراء التربوية المرتبطة بثقافة له مخالفة/ يقول:

من لي بتربية النساء فإنها
في الشرق علة ذلك الإخفاق
الأم مدرسة إذا أعددتها
أعددت شعباً طيِّبَ الأعراق
الأم أستاذ الأساتذة الألى
شغلت مآثرهم مدى الآفاق

ثم يتجه إلى فكرة الإصلاح، والدعوة إلى الإصلاح إقرار بفساد ماهو قائم.

وكأن حافظاً يعيش اليوم في المجتمعات الإسلامية، فتلك المجتمعات وهذه ما تزال أمام الإشكالية نفسها طالما أن «الثقافة» التي أدت إلى تلك تؤدي إلى هذه:

أيُّها المصلحون أصلحتم الأر
ض وبتّم عن النفوس نياما
أصلحوا أنفساً أضرَّ بها الفق
ـرُ وأحيا بموتها الآثاما

التفاتة الشاعر هنا إلى مشكلة «الفقر» على أنَّها الدافع الأول نحو الانحراف تظهر وعياً متقدماً لشاعر على ناثر، فالأسرة مهما جاهدت لتحمي أبناءها يغلبها الفقر والحاجة، ولا قدرة للأسرة على المواجهة مع رفاق السوء إن كان البيت معوزاً للأساسيات..

ولكن أمير الشعراء يعزز دور الأسرة ويراه حاسماً من دون الالتفاتة إلى العلل الاجتماعية والمدنية، يقول:

ربوا على الإنصاف فتيان الحمى
تجدوهم كهفَ الحقوق كهولا
ليس اليتيم من انتهى أبواه من
هم الحياة وخلّفاه ذليلا
إن اليتيم هو الذي تلقى له
أُمّاً تخلّت، أو أباً مشغولا

أمَّا الشريك الثاني في الجريمة- على رأي المنفلوطي- فهو المجتمع، يقول: «شريكك في الجريمة هذا المجتمع الإنساني الفاسد الذي أغراك بها، ومهد إليك السبيل إليها، فقد كان يسميك شجاعاً إذا قتلت، وذكياً فطناً إذا

سرقت، وعالماً إذا احتلّتَ، وكان يهابك هيبة الفاتحين، ويجلك إجلال الفاضلين.

وكثيراً ما كنت تحب أن ترى وجهك في مرآته، فتراه وجهاً أبيض ناصعاً فتتمنى أن لو دام لك هذا الجمال، ولو أنه كان يؤثر نصحك ويصدقك الحديث عن نفسك لمثّل لك جريمتك بصورتها الشوهاء، وهناك ربما وددت بجدع الأنف لو طواك بطن الأرض عنها، وحالت المنية بينك وبينها».

يُبدي المنفلوطي رأياً- نراه- حصيفاً، وهو إدانة المجتمع الذي لا يقف من المفاسد الموقف المناسب، ولا ندري لماذا لم يكمل وجهة نظره، ويعلن أن «ثقافة» المجتمع هي الأدعى -بتخلفها- إلى تشجيع الجرائم، أو تحفز الأجيال إلى «الارتكاب»، ولكن هل يقوى رجل النهضة على اختراق حصون «الثقافة» السائدة؟ وإن تجرأ فهل يمتلك الأدوات القادرة على تفكيك «المنظومة» وإحالة «مقدّسها» إلى «تاريخيته»؟!

من البيّن الذي صار التدليل عليه هيناً أنّ «المنفلوطي» ليس عميق الثقافة ولاسيما في جانبها النقدي، فقد ينطبع لدى القارئ المتابع له اتساعه الأفقي الذي بات يقابل قلة العمق، إذ لم يتسنّ له «المثاقفة» مع «الوافد» من العالم الجديد، وهذا ما حرمه من إدراك التحليل السوسيولوجي لطبائع الأفراد وعلاقتهم بالمجتمع اتصالاً وانفصالاً، فليس كفرح أنطون المشبع بثقافة «الأنوار» وليس كخليل مطران المتشبّع من شرق وثني وغرب علماني، إنّما هو أحادي الرؤية مثالي التفكير وعلى الرغم من تقدمه على أبناء جيله الأزهريين إلا أنّه ظلّ متمسكاً بالحلول «الإسلامية» المثالية.. لعل ابتعاده عن التثاقف مع «الغرب» ناتج عن أمرين: الأول التشبع الإسلامي، والثاني رفض الغرب المستعمر، ولم يقوَ على الفصل بين الغرب بوصفه عالماً من المعرفة متقدماً- ولا مندوحة عن الإفادة من تقدمه- وبين الغرب بوصفه ظاهرة استعمارية أذلّت الشعوب ونهبت ثرواتها.

وأمّا الشريك الثالث في الجريمة كما وصف المنفلوطي فهو «الحكومة» وإن شئت قلت «السلطة» يقول: «شريكك في الجريمة حكومتك، لأنّها كانت تعلم أن الجريمة هي الحلقة الأخيرة من سلسلة كثيرة الحلقات، وكانت تراك تمسك بها حلقة حلقةً، وتعلم ما سينتهي إليه أمرك فلا تضرب على يدك، ولا تعترض سبيلك، ولو أنها فعلت لما اجترمت، ولا وصلت إلى ما وصلت إليه.

كانت حكومتك تستطيع أن تعلمك وتهذب نفسك، وأن تُغلق بين يديك أبواب الحانات والمواخير، وأن تحول بينك وبين مخالطة الأشرار بإبعادهم عنك وتشريدهم في مجاهل الأرض ومخارمها، وأن تَعديك «تنصرك» على قتيلك قبل أن يبلغ حقدك عليه مبلغة من

نفسك، وأن تحسن تأديبك في الصغيرة قبل أن تصل إلى الكبيرة، ولكنها أغفلت أمرك حتى إذا فعلتَ فِعْلَتكَ استيقظتْ على صراخ المقتول، فاستحضرت جندها وأعدَّتْ جلادها، وكان كل مافعلت أنها أعدمت حياتك.. هؤلاء شركاؤك في الجريمة، وأقسم لو كنت قاضياً لأعطيتك من العقوبة على قدر سهمك في الجريمة، ولجعلك تلك الجذوع «أجسام البشر من غير الرأس قسمة بينك وبين شركائك».

يرمي رجل النهضة «السلطة» بالتقصير، ويذكرنا هذا الموقف بابن المقفع ٧٥٩م وهو يؤسس للآداب السلطانية، وعلى التحديد في «رسالة الصحابة» وقد دفع ابن المقفع حياته ثمناً لها على يد أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي الثاني، وقد أدلى طه حسين برأيه في الرسالة فقال: «تكاد تكون برنامج ثورة على أبي جعفر المنصور».. واللافت عند مفكري النهضة أنَّهم- عندما يضعون للسلطة نموذجاً يُقاس عليه- إنَّما يضعون «الخلافة» المسطرة التي لا تعرف الانحراف.. ولكنهم لا يضعون في تصوراتهم انقلاب الخلافة إلى «مُلك» وأن النموذج الفارسي في صياغة الحاكم هو النموذج الماثل.. على أن النموذج «الإسلامي» -كاعتراف ضمني- غير قادر على تلبية الحاجات السياسية والثقافية والمجتمعية لدولة الخلافة.. وقد أخذت تلك الأمثولات شكل النصيحة التي يسديها الأديب للحاكم، وقد اعتمدت مرجعيات في الإصدار أهمها المرجعية الفارسية كإرث إمبراطوري «الساساني» والمرجعية الثانية كانت «الحكمة» اليونانية في طورها الهيلينيستي- والمرجعية الثالثة هي التعاليم الإسلامية المشتقة من الأصول «القرآن- الحديث» ومن المدونات المفهومية حول الأصول إلى أن صارت المشتقات أقرب إلى الحكم والحاكم من الأصول.. وعلى الرغم من تناقض البنى بين المرجعيات تلك، إلّا أن الآداب السلطانية قرّبت بينها عبر الوظيفة «اللعبية» للغة، أمَّا المنفلوطي الذي استبدل «بالخلافة» «الحكومة» فقد أظهر نفسه مخالفاً لنمطية السلطة «الحكومة» المدانة من قبله إدانة مباشرة، من دون أن يُظهر نوعية السلطة وقربها من «الشريعة» أو «بعدها» عنها.. والغريب الآخر أن المنفلوطي لم يُجرِ أية قراءة داخلية لطبيعة النظام الخلافي الإسلامي ولا لطبيعة البديل السياسي، إنَّما اكتفى بالمعارضة القيمية القائمة على «الإدانة» من دون التحليل أو طرح البديل، وإنَّ مبدأ تحميل الحاكم المسؤولية مبدأ إسلامي راشدي، ومن هنا نتفهم موقف عمر بن الخطاب: «لو أنَّ شاة على أطراف الفرات ضاعت لأحسست أني المسؤول» مثل هذا الرأي كان يفسر بدايات الدولة، ولكنه لا يفسر طوراً متقدماً في مسيرتها.. فالمؤسسات تنوب عن «الواحد» وهو الخليفة الذي تُختزل

فيه الشريعة والمجتمع والحياة.

وكم كثرت العناوين الدالة على الانتقالة التاريخية من «الخليفة» إلى «المالك» ومن أهمها سراج الملوك لأبي بكر الطرطوشي ت ٥٢٠هـ وكتاب الشهب اللامعة في السياسة النافعة لابن الرضوان ت ٧٨٢هـ، وكتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك لأبي حمو الزياني ٧٩١هـ.. والكثرة دالة -هنا- على طبيعة التحول السياسي لدولة الخلافة، وكأن الشريعة لم تعد وحدها في الميدان.. لكن المحاولة التوفيقية كانت من أبي الحسن علي البصري الماوردي ت ٤٥٠هـ تحت عنوان «أدب الدين والدنيا» إذا رأى مواضع تنفصل فيه أمور الدين عن الدنيا، ورأى في مواضع أخرى تتصل الدنيا فيها بأمور الدين وكأنهما مسألة واحدة.

ومما يُحسب للمنفلوطي عدم «حضور الهاجس التراثي» في متونه الأدبية والسياسية مما يدل على أمرين: الأول عدم متاخمته للنصوص الشرعية بعمق، والثاني انشغاله بقضية الاستبداد والعدل من فوق سطوح المسائل.

وعلى الضفة الأخرى..

نعاين آراء مفكر ناقد هو طه حسين ١٨٨٩-١٩٧٣ عندما كتب «في الأدب الجاهلي ١٩٢٧م» قدّم له بمجموعة من الآراء في التربية، والسياسة واللغة والإعلام نختصر منها «إن لغتنا لا تُدرس في مدارسنا، إنما يُدرس فيها شيء آخر، لا صلة بينه وبين الحياة، ولا صلة بينه وبين عقل التلميذ وشعوره، وما أكثر مانشكو من أن العربية ليست لغة تعليم، ولكن ما أقل ما نبذل من جهد لنجعلها لغة التعليم، فالميدان الذي تعتمد عليه الأمم ليس الصحف والمجلات، بل هو المدارس حيث يتكون الشباب، وتنشأ فيها العقول والملكات، فإذا أردت أن ترقى الأمة فاعمد إلى المدرسة».

يتضح الفارق بين رؤيتين: الأولى ترى المشكلات من حيث هي أمر قائم، والثانية ترى المشكلات من حيث الأسباب والعلل، وعلى الرغم من أن آراء المنفلوطي في مفهوم الانحراف لدى الجيل الشاب آراء وصفية دقيقة، لكنه بحكم أزهريته النسبية- لم يقو على طرح البدائل الشاملة الممكن منها والمحتمل، لكنه أثار المشكلة وأخرجها إلى العيان، وجعل السلطة والمجتمع في منزلة واحدة.. في حين نجد طه حسين قد وجد المشكلة تنحصر في غياب «التربية- التعليم» لا كحرفة لها أربابها، إنّما كمشروع نهضة يقوم على «الانعتاق» من سلطة النموذج «القروسطوي- الأزهري» وعلى «الالتحاق» بآفاق العصر المفتوحة.. وتحت عنوان «سبيل الإصلاح» استزاد طه حسين في المشروع ذاته فيقول: «وإذن، فالإصلاح محتوم لا مفرَّ منه، وما سبيل هذا الإصلاح! لهذا الإصلاح سبيلان:

الأولى أن نجتهد ما استطعنا في أن نحبب إلى طلاب المدارس العالية وتلاميذ المدارس الثانوية والابتدائية قراءة النصوص العربية وتفهمها، ونحسن لهم اختيارها ونُظهرهم على أن الأدب العربي ليس كما يمثله لهم معلموه من الشيوخ- جافاً جدباً عسر الهضم- وإنَّما هو على عكس هذا كله لين خصب لذيذ فيه ما يرضي حاجة الشعور، وفيه مايُصلح من فساد الخلق، وفيه ما يُرضي حاجة الإنسان في حياته الفردية والمنزلية والوطنية والإنسانية.. أيضاً.

والسبيل الثانية وحدها طريق الإصلاح، وهذه السبيل هي إعداد المعلمين» من الطبيعي أن يلجأ مفكر ناقد كطه حسين إلى «التعليم» كوسيلة إصلاح وإلى «المعلم» كوسيلة نهضة، فهو قد تلقى المعرفة الأولى على الطريقة الشرقية «مصر» وتلقى المعرفة العليا على الطريقة الغربية «فرنسا» ورأى الفارق التاريخي بين المؤسسة التعليمية هنا ونظيرتها هناك.. وقد اطلع بنفسه على دور دار المعلمين العليا الفرنسية ورأى رؤية البصير كيف تخرَّج في هذه المؤسسة علماء التنوير الفرنسيون..

ثم ينتقل طه حسين إلى فكرة أخرى تعزز رؤيته، وهي العلاقة مع الذات والآخر، يقول: «أليس من شيوخ الأدب في مصر من يعلم طلابه الآن أن ليس لليونان أدب ولا شعر ولا خطابة كما لأهل الضاد؟ وكيف السبيل إلى درس الأدب العربي إذا لم ندرس اللغات الإسلامية المختلفة، ولاسيما الفارسية منها، ونتبيّن ما لهذه اللغات وآدابها من تأثير في أدبنا الذي لم ينشأ في برج من العاج.. والأدب بطبيعته شديد الحاجة إلى المقارنات والموازنات.. وأن الأدب هو «الأخذ من كل شيء بطرف»».

قد يظهر للقارئ أننا- بعرض الرأي الأخير لطه حسين- قد ابتعدنا عن المنفلوطي، وفي حقيقة الأمر يبدو كل منهما بعيداً عن الآخر، فالمنفلوطي شغل نفسه بمشكلة الفساد الفردي، ولكنه أرجعه إلى المرجعيات التي ذكرناها، وأمَّا طه حسين فقد شغل نفسه بـ«فساد التاريخ الجمعي» وإن كان قد خصص الحديث في اللغة والشعر وتاريخ الأدب، إلا أنه- رغم تهجمه على دار العلوم وشيوخ الأدب- عاد بالمسألة إلى عهد التدوين والرواية وهو العهد الذي أخذ على عاتقه الشروع بالانتقال من «الشفوية» إلى «الكتابية»، وما كان لذلك العهد أن يكون إلا كما ظهر، فالبداية دائماً تبدو مرتجّة، يُداخل الفرديُّ فيها الجمعيُّ والشفويُّ الكتابيُّ ويداهم الظن متونَها فيغلب «اليقيني».. إنما توجه طه حسين إلى المعاصرين حملة ألوية العلم ليبدأ معهم رحلة التساؤل والشك، ثم يمضي بهم إلى «المقارنة» على أنها جوهر «المثاقفة» ومن هنا كانت دعوته لتأمل تجارب الأمم، وإلى معرفة لغات الشعوب الإسلامية التي شاركت

في المفاعلة الثقافية في ظل دولة الخلافة.. وحتى لا يغدو الذهن العربي مشدوداً إلى ذاته على مدى العمر كان تنبيه طه حسين مدخلاً تاريخياً لإعادة قراءة «الذات» و«الآخر» تحت أضواء العلم الجديد..

وفي كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» ١٩٣٨ يصوغ طه حسين المنهج الليبرالي لمصر في فضاء حضاري يظهر فيه البعد التربوي فارقاً بين عالمين: عالم الشرق الكلاسيكي وعالم الغرب التحديثي، وما على «مصر» - كما يرى- إلا الاختيار التغريبي «أوروبة»، والعقل المصري عند طه ذو أصل متوسطي «إن العقل المصري منذ عصوره الأولى إن تأثر بشيء فإنما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط» وما إصرار طه حسين على المطابقة بين مصر وأوروبة إلا لسعي منه حثيث لفك الارتباط مع ثقافة الجزيرة العربية وما نتج عن تحولات القرن الميلادي السابع، ثم يتابع: «لا ينبغي أن يفهم المصري أن الكلمة التي قالها «إسماعيل» وجعل بها مصر جزءاً من أوروبة قد كانت فناً من فنون التمدّح، وإنّما كانت مصر دائماً جزءاً من أوروبة، فلنشعر كما يشعر الأوروبي ولنحكم كما يحكم الأوروبي ثم لنعمل كما يعمل الأوروبي ونصرف الحياة كما يصرفها».

هذا الإصرار من طه حسين على النمذجة الأوروبية، إنّما يعكس موقفه الفارق الحاسم في العلاقة مع الجزيرة وآسيا العربية والعالم العثماني.. فتلك العوالم لا يمكن لها أن تعد منطلقاً لدولة حديثة، إنّما العودة بمصر إلى الجذور المتوسطية يمكّن لها منطلقاً للتخطي والتجاوز، وهنا- بهذه الخصوصية- يفصل مصر عن الشرق العربي، بينما يرى المفكر د سمير أمين في أطروحته «النمو المتكافئ» إنّ هذه نزعة غربوية OCCIDENTALISM عند طه حسين تغطي فراغاً ثقافياً حقيقياً، وعلى أهمية سمير أمين في المجال الاقتصادي إلا أنّه لم يقوَ على قراءة «منهجية» طه حسين في العلاقة التاريخية لمصر مع ثقافة المتوسط الشمالية. ولكنه في الفترة الواقعة ما بين ١٩٤٥- ١٩٤٧م ينسحب من الإيمان المطلق بالليبرالية الغربية إلى التعلق الثقافي النسبي، وقد تصاحب الانسحاب ذاك بميل نسبي آخر إلى المجتمع «الجماهير البائسة» حتى ليبدو فيه شيء من «اليسارية» ويبدو عمله «المعذبون في الأرض ١٩٤٩م» شاهداً على التحول المذكور، حيث فقد حماسه لإمكانية التطور المصري على الطريقة الأوروبية بعد أن عاين المجتمع المصري من الداخل، فيرى فيه «البؤس» يتأبى على المطابقة مع عالم الغرب، إذاً لا بدّ من القراءة الداخلية، وهذا التحول إنما يُفصح عن تحولات المفكر في المعاينة والتجربة «نعم لا يشعر المترفون المصريون بأن أمهم مصر مريضة وبأن مرضها هو النزيف المهلك، ولكنها لا تنزف دماً وإنما

تنزف أبناءها، وإن المصريين بين اثنين لا ثالث لهما، فإما أن يمضوا في حياتهم كما ألفوها، وإذاً فليثقوا بأنها الكارثة الساحقة الماحقة، وإما أن يستأنفوا حياة جديدة قوامها إلغاء المسافات بين الأقوياء والضعفاء وبين الأغنياء والفقراء».

هنا يلتقي طه حسين مع المنفلوطي في الأماني الطيبة، لكن اللقاء لا يعدو كونه ردة فعل على الأحداث بدءاً من ١٩١٩- إلى ١٩٣٦- إلى ١٩٤٥م، أمّا بعد ذلك فيفترق طه حسين عن المنفلوطي افتراق العلماني عن السلفي.. وقد انقسم النظام المعرفي في القرن العشرين ولاسيما النصف الثاني منه إلى تيارين: الأوّل هو الإسلام والفلسفة المثالية والثاني هو الفلسفة الوضعية..

لقد وضع الكواكبي ١٨٤٩- ١٩٠٢م مفهوماً للإصلاح «بأنه تنظيم الإدارة السياسية للحصول على قانون يجري بموجبه تفويضنا حرية النظر في شؤون بلادنا» ولم يكن الكواكبي ليدرك مفهوم الإصلاح إلا بالإصلاح السياسي، وكان الإصلاح عنده مرهوناً بالمعطيات الإسلامية- بعيداً عن الدولة العثمانية- ويميز بين ديمقراطية إسلامية وديمقراطية غربية فالأولى تحكم بما أنزل الله وهذا منوط بسيطرة الكل ورضاء الأكثر» وخلاصة الرأي أنّ الكواكبي يحمل في داخله فكراً سلفياً، ويحمل في الجانب الآخر فكراً ليبرالياً، لكنه تقدم بفعل طرحه «للرؤيا السياسية» إذ يبدأ الإصلاح مشروعاً سياسياً قبل «العدل» المنفلوطي و«التعليم» عند حافظ إبراهيم و«الأخلاق» عند شوقي.. بتعبير آخر: ليست الأطروحات المثالية هي المعول عليها في الحل، إنّما الحل في إعادة النظر في «الدين» و«الدولة» وطبيعة العلاقة بينهما.. بينما استشاط طه حسين بعيداً في المسألة ليطرح العلاقة بين الدين والدولة على أساس آخر هو «الرائد النخبي» و«جمهور السواد» ليعلن الانفصال التام بين الفريقين بقوله:

«لي علمي ولكم دينكم» واضعاً الاشتراط القاطع: فأيّ منهما كان صواباً كان نقيضه باطلاً، من دون البحث عن القاسم المشترك بالحد الأدنى» بين الطرفين مشيراً بذلك إلى الخصوصية التي يُفصح عنها علم الاجتماع النقدي من رؤية «النخبي» المستعلي على الجمهور «السواد» ومن نافل الرأي نذكر برأي د.طيب تيزيني في المسألة إذ يقول:

«إننا نواجه في النسيج الثقافي للمجتمعات التي لم تتحول فيها الثقافة النظرية النقدية إلى ناظم عام مشترك يخترق معظم فئاتها ومجتمعاتها. نواجه سؤالاً مؤداه: لماذا لم يستطع التحول الاجتماعي «الثورة» أن يعمم الثقافة النقدية وأن ينشرها في الطبقات التي أنتجتها، وقد واجهنا مثل هذه الوضعية في بعض الدول الرأسمالية الأوروبية التي

أنجـزت ثورتهـا البرجوازيـة في أجـواء من المشاركة الشعبية الكبرى ومن النزعة الإنسانية والتفاؤل التاريخي».

لقد طرح حسن حنفـي المسألة من موقع آخر وهو «الـتراث والتجديد»: «مازلنا نواجه الحضـارة المعاصرة بمقولاتنا القديمة.. نحن نـرزح تحت عبء الـتراث القديم في مواجهة التراث العربي المعاصر» يعلق جورج طرابيشي علـى حسن حنفي قائـلاً: «استطاع أن يطور موقفاً نقدياً من الـتراث وأن يصمم مشروعاً لإعـادة بناء التراث وتجديده وقلبه من «تراث القهر إلى تراث التحرر». وبعيداً عن «إطلاقية» الرأي، فإن «الوسطية» التي احتمى بها حسن حنفـي لا يمكن أن تكـون إلا فضـاء للعبور بين مركزية «تراثيـة» تراكمت بفعل المدونات المفهومية على النصوص «المقدسة» الأولى من «التدوين» إلى «النهضة» وبين «عقلانية» نقدية استعادت البحث التراثي من «مالكه» السلفي وشريكـه «العروبي» لتضعـه في سياق «المادي التاريخـي» بـأدوات فردية مختلفـة المنهج، لكنها متفقة على فك الارتباط بين اللحظات المقدسة والزمـن الاجتماعي الفاعل المنفعل، وقد كان لطه حسين- كما نرى- فضل الريادة والتقـدم عبر مواجهة مكشوفة مـع المؤسسة المالكة المستبـدة، تلك المؤسسة وهذه ما تزال قائمة هي الأخرى فاعلة، قادرة على الإزاحة والإقصاء والمباعدة بالعنف، ونستحضر مقولة المنفلوطي في «قتيلة الجوع»: «فما أعظم ذنب الأمة التي لا يموت فيها شرفاؤها وأعفاؤها» ويضيـف حسـين مـروة إلى كلام المنفلوطي «وعلماؤها».

المراجع

١- قصـص المنفلوطـي- محمد مصطفى الهيمـاوي- أدباء العـرب في الأندلس وعصـر الانبعاث- بطرس البستاني.
٢- ديوان حافظ إبراهيم- دار العلم للملايين+ الشوقيات- دار العودة- بيروت ١٩٨٦م.
٣- راجع- «الآداب السلطانية»- د.عز الدين العلام عالم المعرفة- الكويت. ع ٣٢٤- الفصل الأول.
٤- مقدمته لكتابه في الشعر الجاهلي «١٩٢٧» دار المعارف- مصر- ص١٧-١٩.
٥- مستقبل الثقافة في مصر ج١- ص١١.
٦- المعذبون في الأرض.
٧- راجع مقال محمد علي الطحان- الكواكبي بين الدين والدولة- الوحدة- ع٩٦- ١٩٩٢م- المغرب
٨- طيب تيزيني- على طريق الوضوح المنهجي- دار الفارابي ١٨٨٩م ص١٠٣- ١٠٤.
٩- حسن حنفي- في فكرنا المعاصر ص٦٢.
١٠- جورج طرابيشي- المثقفون العرب والترك دار الريس- ص٢١٨- ١٩٩١م.

عائشة الباعونية
عالمة دمشق وشاعرتها الكبيرة

إبراهيم محمود الصغير ✱

شهد عهد المماليك (البحرية والبرجية)، الذي امتد حوالى (٢٦٧) سنة، في كل من مصر والشام، أي منذ استلم عز الدين أيبك السلطنة في مصر عام (١٢٥٠)م، إلى أن انتهى بمقتل قانصوه الغوري على يد العثمانيين عام (١٥١٧)م. شهد هذا العهد حركة علمية واسعة في كل بلاد الشام ومصر، وخاصة في مدن دمشق والقاهرة والإسكندرية وحلب وحماة، والتي أصبحت قبلة العلماء والمفكرين والمسلمين المهاجرين، والتي استقطبت أيضاً علماء العراق وفارس بعد أن اجتاحهما المغول. وقد أخلد هؤلاء العلماء لحياة علمية خصبة في عهد الأمراء المماليك.

وبما أنّ الكثير من العلماء المهاجرين كانوا من أئمة الفكر الإسلامي، فقد ساعدوا بما لديهم من معرفة وعلم على تنشيط الحركة العلمية في المدن التي اختاروها موطناً جديداً لهم. وكان يحضر مجالسهم العلمية أعداد كبيرة من طلاب العلم، الذين أصبحوا فيما بعد أئمة الفكر الإسلامي في بلادهم.

كان من نتائج تلك الحركة العلمية، وجود هذا العدد الضخم من العلماء والمؤلفات العلمية في ميادين مختلفة، في علوم القرآن

✱ أديب وباحث في التراث العربي.

والحديث والعربية والآداب والتصوف والتاريخ. بل إنَّ بعضها لا يزال من أمهات كتب التراث العربي والإسلامي حتى عصرنا الحاضر. كما تجلى في بعضها طابع الإبداع والابتكار، والمثال الأبرز نأخذه من مؤلفات ابن خلدون وابن حجر والسخاوي والهيثمي والعراقي والغزي وابن الحنبلي وعائشة الباعونية وغيرهم من علماء ذلك العصر.

وكانت دمشق خلال عهد المماليك مركزاً نشيطاً من مراكز النشاط العلمي في العالمين العربي والإسلامي، حيث كثرت فيها مجالس العلم، وحلقات الدروس، والمناظرات العلمية في المدارس والمساجد والزوايا. وقد قدم إليها الكثير من العلماء من شتى البلدان العربية والإسلامية لذلك كثرت فيها المؤلفات الهامة في شتى المجالات العلمية، فكانت دمشق والحق يقال: موطن العلم وقبلة العلماء.

والسبب المباشر لازدهار العلوم في عهد المماليك، هو أنَّهم تركوا المناصب ذات الصبغة الدينية مثل: قاضي القضاة، وقاضي العسكر، ونقابة الأشراف، ومشيخة الشيوخ، تركوها لأهل البلاد. بينما احتكروا لأنفسهم جميع المناصب السياسية والعسكرية، فلم يسمحوا لأحد من سكان البلاد استلام أي منصب منها.

والذي دفعهم إلى ذلك هو أنهم كانوا رجال حرب وسياسة، لا رجال علم وثقافة وقضاء، بل إنَّ معظمهم كانوا لا يتقنون اللغة العربية، وكان العلم بعيداً جدّاً عن اهتماماتهم. فالصراعات السياسية والعسكرية جعلتهم لا يفكرون إلا بالطريقة التي يستطيعون من خلالها البقاء في مناصبهم. وقد أدى هذا إلى حدوث انفصال حاد بين المركز السياسي والمركز الديني، مما ساعد على إيجاد نوع من الحرية الفكرية، وساهم في تنشيط الحركة العلمية. واجتذاب أعداد كبيرة من السكان للاهتمام بالعلم والتحصيل العلمي.

ومن الظواهر العلمية المميزة لعهد المماليك ظاهرة (النساء العالمات). حيث ظهرت أسماء مجموعة ضخمة من عالمات المسلمين. ومن أهم المؤلفات التي تحدثت عن تلك الظاهرة كتاب (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) لمؤلفه الإمام شمس الدين السخاوي، الذي قدم في الجزء الأخير من كتابه تراجم لعدد كبير من النساء العالمات بلغ حوالى (١٠٧٥) ترجمة لأشهر أعلام النساء في القرن التاسع الهجري. فقد أقبلت النساء في عهد المماليك، على دراسة العلوم، وحضور مجالس العلماء بشكل لم يسبق له مثيل. وكان اهتمام أكثرهن منصبّاً على دراسة الحديث النبوي. فمعظمهن محدثات شهيرات في علم الحديث، حتى

أنَّ شهرتهن العلمية ذاعت في الأمصار. وصار الطلبة يأتون إليهن من جميع أرجاء العالم الإسلامي، حتى قيل إنه لم يكن في عهد المماليك عالم إلا وتتلمذ على واحدة من عالمات ذلك العصر، ومن أشهر العالمات المحدِّثات المعروفات في ذلك العصر (عائشة بنت عبد الهادي) ويطلق عليها لقب (مسندة الدنيا) و(فاطمة ابنة ابن المنجا) و(فاطمة بنت خليل الحرستاني). ومن أشهرهن إطلاقاً العالمة الفقيهة والصوفية الشاعرة (عائشة الباعونية) والتي هي موضوع مقالتنا هذه. فمن هي عائشة الباعونية؟

عائشة الباعونية: حياتها وأعمالها: هي العالمة الفقيهة، والصوفية الشاعرة، والأديبة المحدثة عائشة بنت يوسف بن أحمد بن ناصر الدين الباعونية الدمشقية، وتكنى بأم عبد الوهاب، وتعرف ببنت الباعوني. ولد جدها في قرية (باعون عجلون) في الأردن، ومنها أخذت كنيتها الباعونية، ثم انتقلت الأسرة كلها إلى دمشق. وأغلب الظن أنها ولدت في صالحية دمشق عام (٨٦٤هـ) كما يؤكد الدكتور (حسن الربابعة)، بينما يؤكد السيد (فارس العلاوي) أنها ولدت عام (٨٦٥هـ) الموافق لعام (١٤٦٠م). وقد ولدت في بيت علم وفضل، وفقه وأدب، وتصوُّف وزهد، إذ كان أبوها وجدها قاضيين، كما كان عماها إبراهيم ومحمد وعمهما إسماعيل، وأخواها محمد وأحمد من نوابغ العلماء في الفقه والحديث، والتصوف والتاريخ والأدب، لذلك نهلت عائشة من حياضهم، وجنت من شهد رياضهم، كيف لا وهي فقيهة بنت فقيه ابن فقيه؟ وفي دمشق الفيحاء نشأت عائشة، وعاشت فيها طفولتها وسني شبابها ودراستها الأولى. فحفظت القرآن الكريم ولها من العمر ثمان سنوات. ثم تابعت تحصيلها العلمي، فقرأت كتب الفقه والعربية على أشهر علماء عصرها، وكان في مقدمتهم، كما ذكرنا والدها وأفراد أسرتها وأعمامها، ثم تعلمت على يد أستاذها المشهور الشيخ جمال الدين إسماعيل الحوراني، ويسمى في مواضع أخرى إسماعيل الخوارزمي، وثم على يد أستاذها الشيخ محي الدين الأرموي، وتعلمت من الجميع الفقه والنحو والعروض.

وقد لعبت السنوات الأولى من حياة عائشة في طفولتها وشبابها دوراً هاماً ومؤثراً في تكوين شخصيتها، إضافة إلى الجو الأسري المحب للعلم ولأهل العلم، فأصبحت عاشقة للكلمة شعراً ونثراً. وحفظت المتون، ونهلت من مختلف العلوم والفنون، فبلغت مكانة علمية مرموقة، وفاقت أقرانها وعلماء عصرها، وتابعت عائشة بذلك مسيرة العائلة العلمية التي

بدأها جدها الشيخ شهاب الدين الباعوني، ووالدها الشيخ جمال الدين الباعوني.

تزوجت عائشة الباعونية بابن نقيب أشراف دمشق أحمد بن محمد بن أبي بكر ابن علي بن إبراهيم الذي ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)، نحو سنة (٨٩٦هـ)، ورزقت منه بمولود أسمه عبد الوهاب سنة (٨٩٧هـ) وبمولودة اسمها بركة سنة (٨٩٩هـ). وقد سطرت عائشة نسب زوجها وولديها على آخر صفحات مؤلفها (المورد الأهنا)، وذلك تبركاً بمولد النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، ولمواصلة قبض مخصصاتها من معلومة الوقف الجاري للأشراف، لأنَّ في سلسلة نسب زوجها الشريف سهماً يشير إلى معلومية الوقف المذكور.

كانت عائشة تأمل أن يصبح ولدها عبد الوهاب نقيباً للأشراف، ولم يكن قد جاوز السادسة عشرة من عمره، ولكن المنصب أعطي لشخص آخر، وربما كان صغر سنه حاجباً دون تعيينه نقيباً للأشراف بدمشق.

وكان لمنصب نقيب الأشراف أهمية فائقة، ويصدر بالمنصب مرسوم سلطاني. ولم يرق لعائشة أن يكون ولدها عبد الوهاب كعامة الأشراف، يجري عليه ما يجري على عامتهم من مخصصات الأوقاف مالاً وجاهاً. بل أرادته إمامهم وسادن نقابتهم.

وتأجج طموحها بعد أن بلغ ابنها سن الرشد، وتجاوز العشرين من عمره. فأزمعت على مقابلة السلطان قانصوه الغوري في القاهرة سنة (٩١٩هـ). وقد غادرت دمشق إلى القاهرة سنة (٩١٩هـ)، واستعانت بمحمود ابن أجا الحلبي في قضاء طلبها، ومدحته بقصيدة. وكانت رحلتها إلى مصر وبالاً عليها. فقد فقدت مؤلفاتها في الطريق ما بين شعر ونثر ومنظومات شعرية وغيرها. وهي لم تمدح محمود بن أجا الحلبي إلا لتجعل لولدها جاهاً في الدولة. وكان محمود ابن أجا الحلبي صاحب ديوان الإنشاء بالديار المصرية.

ولأنَّ زوجها وابنها حرما من منصب نقابة الأشراف، فقد حاولت عائشة في سفرتين متتابعتين من سفراتها، بما لها من نفوذ وصداقات، أن تعيد الحق إلى نصابه، وذلك بلقاء السلطان نفسه، وقد علقت على ابن أجا كبير آمالها لتنفيذ مطلبها، لما له من نفوذ عند السلطان قانصوه الغوري.

ولكن مطلبها لم يتحقق، لأنَّ قانصوه الغوري كان مشغولاً بالخطر المطل على ملكه من الدولة العثمانية. كما كثرت في تلك السنة الزلازل، وانتشر الطاعون، كما بخل نهر النيل بفيضانه، واحترقت زردخاناة أسلحة القاهرة، وهاجم الإفرنج اليمن، واستشرى الغلاء، فاصطدمت أمانيها

بنوائب السنة المذكورة. وظلت في القاهرة حتى سنة (٩٢١هـ)، ثم عادت إلى دمشق من دون أن تحقق ما كانت تصبو إليه. ولكنها لم تيْئس، فخرجت لملاقاة السلطان الغوري في منطقة حلب، وسكنت بساحة (الطنبغا) وهي ساحة بها حوض في مدينة حلب. واجتمعت بقانصوه الغوري سنة (٩٢٢هـ)، ولكنها لم تحقق بغيتها، إمَّا لانشغال السلطان. بما هو أهم، حيث موعد المعركة مع جيوش بني عثمان كانت بين عشية وضحاها. أو أن المنية عاجلت الغوري بعد المقابلة بأيام، فأسدلت الستارة على ما دار بينهما من حديث ووعود.

وكانت لعائشة الباعونية رحلة دينية إلى البلاد المقدسة، مهبط النور والوحي، وقد حظيت بزيارة الكعبة المشرفة ومجاورتها، وقد سجلت هذا في أحد مؤلفاتها وهو (المورد الأهنا في المولد الأسنى). كما زارت مدينة الرسول الكريم، ومسجده، وقبره، وخاطبت النبي (صلى الله عليه وسلم) قائلة:

قد جئت أنهي قصتي لشفيعي
بتذللي وترفعي وخضوعي

وناجته من باب حجرته عليه الصلاة والسلام:

والآن قد وافيت بابك سيدي
لتكون لي عند الإله شفيعي

ثم تذللت على عتباته المقدسة:

ياسيد الرسل قد جاءتك جارية
مسيئةٌ ذاتُ آثامٍ وأوزارِ
أشكو إليك ذنوباً قد كسيت بها
بين الخلائق أثواباً من العارِ

ولكن متى كانت زيارتها الدينية وما هي ظروفها، وكم كانت مدتها، ومن رافقها، وأين سكنت، فنحن لا نعرف عن ذلك شيئاً، إلا ما كتبته في مؤلفها المذكور.

ومع أنَّ عائشة الباعونية كانت متصوفة، وتتلمذت لأشياخ صوفيين، إلا أن تصوفها لم يكن انقطاعاً للعبادة فحسب، مثل رابعة العدوية، التي كان كفنها أمام وجهها، وموضع سجودها، مبللاً بدموع عينيها، والتي كانت ترفض الزواج ومتع الدنيا. بينما عائشة تزوجت وأنجبت على الأقل ولداً وبنتاً، ولم تعتزل الناس، بل درَّستْ وأفتت، ونالت من الشهرة والاحترام ما لم تنله غيرها في ذلك الزمان.

فهذا (الغزي) يقول عنها في كتابه (الكواكب السائرة) بأنَّها: «من نوادر الزمان فضلاً وأدباً وشعراً وديانة وصيانة. كما يصفها (ابن الحنبلي) في كتابه (درر الحبب في تاريخ أعيان حلب): (بأنها الشيخة الأديبة العالمة.. العاملة.. فازت بوافر حظ من العلوم، وحازت كامل نصيب من روائع وبدائع المنثور والمنظوم).

ويصفها (محمد كرد علي) بأنَّها: (المحدثة الصوفية الشاعرة المجيدة) ويقول عنها (أحمد تيمور باشا) بأنها: (العالمة الفاضلة الشاعرة الناثرة). ويرى (المغربي) أنَّه: (ربما لم يقم في الإسلام بعد كبار الصحابيات والتابعيات من يشبهها في العلم والتفنن في النظم والإجادة في التصنيف والتأليف.

كانت كالشيخ عبد الغني النابلسي في الجمع بين علوم الدين والأدب وعلوم التصوف» لقد كانت عائشة بحق كما وصفها القدماء والمحدثون من المؤرخين والعلماء، كانت من كبار شعراء وأدباء عصرها. ولذلك ليس من المستغرب أن يطلق عليها عبد الغني النابلسي في كتابه (نفحات الأزهار من نسمات الأسحار) لقب (فاضلة الزمان، وحليفة الأدب في كل مكان). وقد أجيزت بالإفتاء والتدريس عندما كانت في القاهرة. وقد أجمع العارفون على أنّ عائشة الباعونية هذه بين المولدين تزيد على الخنساء بين الجاهليين. وهي أعلم نساء القرن العاشر، الذي عاشت فيه. وقد مدحها أحدهم قائلاً:

أتت ببديع لو رآه ابن حجة
لأذعن أن الفضل حازته عائشة
فقد عشتِ في روض الجنان عزيزةً
كما كنتِ في روض البلاغة عائشة

لقد كانت عائشة الباعونية بحق، كما وصفها العلماء والمؤرخون، الأقدمون منهم والمحدثون، كانت من كبار شعراء وأدباء عصرها. وكانت من الرواد بين الشاعرات المسلمات. فهي أوَّل من كتب المولد النبوي من النساء، وأوَّل من نظم قصيدة بديعية بين النساء، وأوَّل من ألّف عدداً كبيراً من الكتب شعراً ونثراً بين النساء.

توفيت عائشة الباعونية عام (٩٢٢هـ) الموافق لعام (١٥١٦م)، كما أجمع المؤرخون على ذلك. وإن كان بعضهم يقول إنَّها توفيت عام (٩٢٣هـ). وقد دفنت بأعلى الروضة، وقبرها في بستان الشلبي في منطقة (زقاق طاحونة الأحمر) من ضواحي دمشق. ومن الجميل ذكره، بهذه المناسبة، أن اسمها يطلق الآن على أحد شوارع دمشق، التي أحبتها عائشة، وهو ما بين شارعي بغداد ومرشد خاطر. وكأن مدينة دمشق ما زالت تبادلها الحب وتحمل لها الود والتقدير، وأنَّها ماتزال عائشة، من خلال اسمها الذي تحمله، في طيات قلبها، والذي سيبقى بإذن الله ما بقيت دمشق. كما أن هناك مدرسة تحمل اسمها أيضاً في المنطقة نفسها.

عائشة الباعونية: الشاعرة والأديبة:
خطت عائشة الباعونية بقلمها مجموعة كبيرة من القصائد، معظمها في مدح النبي (صلى الله عليه وسلم). وما تبقى من شعرها

مدحت فيه بعض الأعيان وأدباء عصرها، أو وصفت فيه بعض الأمكنة، أو أجابت فيه على بعض الأسئلة الفقهية التي وجهت إليها شعراً. وأكثر قصائدها نظمتها خلال إقامتها في القاهرة، وهي تشير إلى ذلك في آخر كل قصيدة من قصائدها.

وشعر عائشة بشكل عام رشيق الأسلوب، سهل الألفاظ، لا غموض فيه ولا تعقيد. وجل شعرها نظمته على أوزان الخليل، كما نظمت في فنون شعرية أخرى كثيرة، كالموشحات والزجل والدوبيت والمواليا، وفي المخمسات والمسمطات، مما يدل على اطلاعها وتمثلها ثقافة أدبية ترفد ثقافتها الدينية.

وقد مدحت عائشة في حياتها بعض الأعيان والعلماء ورجال الدولة، كأستاذها إسماعيل الحوراني، وصاحب دواوين الإنشاء بالديار المصرية أبو الثناء محمود بن أجا الحلبي، الذي أحاطها بالرعاية والتقدير والإجلال، فما كان منها، تقديراً لموقفه هذا إلا أن مدحته بقصيدة، قالت في مطلعها:

روى البحر أخبار العطا عن نداكُمُ
ونشر الصَّبا عن مستطاب ثناكُمُ

وقد أعجبت هذه القصيدة ابن أجا الحلبي، وكانت قصيدة طويلة، فعرضها على شيخ أدباء مصر في ذلك العصر الشاعر الكبير عبد الرحيم العباسي القاهري فأعجب بالقصيدة كثيراً، وهذا الإعجاب دفعه لنظم قصيدة في مدحها، فردت عليه بقصيدة مماثلة مطلعها:

وافتْ تترجمُ عن حبْرٍ هو البحرُ
بديعةٌ زانها مع حسنها الخفر

فكان ذلك بداية لمساجلة شعرية استمرت ثلاثة أعوام من سنة (٩١٩هـ) إلى (٩٢١هـ) ومن القصائد الجميلة التي نظمها العباسي في مدح عائشة الشاعرة الكبيرة، والتي أصبحت تنافس كبار الشعراء القصيدة التي مطلعها:

قل لمن بالقريض بزَّ الفحولا
وانثنى عن قصورهم مستطيلا
وأرانا عرائس الشعر تجلى
بمعانٍ أضحى علاها جليلا
رافلات من زاهيات المعاني
في مروط تجر فيها الذيولا

لقد كان الشاعر العباسي شديد الإعجاب بعائشة كشاعرة وأديبة، ولو لم تكن شاعرة مجيدة وأديبة مبدعة، لما توطدت صداقته الشعرية معها لمدة ثلاثة أعوام، وقد قدرت فيه صداقته الشعرية الوفية فقالت تمدحه:

ياحسيباً قد حاز مجداً أثيلا
وفخاراً بالمصطفى لن يحولا
وإماماً فيما حوى لا يجارى
في علوم جرَّتْ له التفضيلا

كما قالت تمدحه في قصيدة أخرى مطلعها:

تساميت مرمىً فاللحاق بعيدُ
وحسبك ما أبدعت فهوَ شهيدُ
حصلت على الغايات مجداً وسؤدداً
وفضلاً مبيناً ليس فيه جحودُ
وأصبحت في روض العلوم مفكهاً
تجول وتجني ما تشا وتفيدُ

ولم يقصر الشاعر العباسي بدوره، في مدحها، فقال في قصيدة رائعة مطلعها:

ليهنك مجدٌ طارفٌ وتليدُ
يخصك آباءٌ به وجدودُ
وقدرٌ له أعلى السماكين منزلٌ
وفوق متون الفرقدين قعودُ
فيا روضة العلم التي بان فضلها
سقاك من الفيض البسيط مديدُ

وعندما كانت عائشة الباعونية في القاهرة، شعرت بحنين جارف إلى وطنها الحبيب، وبشوق لاهب إلى مدينتها دمشق، وموقع صباها وشبابها في الصالحية، وإلى نهر يزيد الذي يمر بحيها، فقالت:

حنيني لسفح الصالحية والجسر
أهاج الهوى بين الجوانح والصدْرِ
ألا ليت شعري والأماني كثيرة
أأبلغ ما أرجوه قبل انقضا عمري؟
وهل أردَن ما في يزيد وأجتلي
محاسن ذاك السفح والمرج والقصر؟

ويذكر لها ابن طولون الدمشقي الصالحي، قصيدة ثانية تصف فيها مدينتها دمشق بمغانيها وأنهارها وجمالها وقصورها، حيث تقول:

نزّه الطرف في دمشق ففيها
كل ما تشتهي وما تختارُ
هي في الأرض جنة فتأمّلْ
كيف تجري من تحتها الأنهارُ
كم سما في ربوعها كل قصرٍ
أشرقت من وجوهها الأقمارُ
وتناغيك بينها صادحاتٌ
خرصت عند نطقها الأوتارُ
كلها روضةٌ وماءٌ زلالٌ
وقصورٌ مشيّدةٌ وديارُ

ويعود شعرها الصوفي إلى تأثرها بأسرتها، فقد كانوا من كبار المتصوفة في عصرهم، فكان للجو الصوفي في أسرتها تأثير عليها وإلهام لها، حيث أصبحت فيما بعد من أشهر أعلام التصوف في عصرها، فكتبت الكثير من المؤلفات النثرية والشعرية الصوفية. ومن شعرها المتميز بالنغمة الموسيقية، التي نجدها في أناشيد الصوفية قولها:

يامحبوبي يا مطلوبي　　يامقصودي يا موجودي
كن لي كن لي واجبر كسري　　واغن فقري بالتداني والوصال
حبك تيّم فيك المغرم　　ولي هيّم لا بلْ أعْدم

عقلي عقلي وا حيْرني وأسْهرني وأضْناني

بالدلال

ومن شعرها الصوفي في أيضاً قولها:

حبيبي أنت من قلبي قريبُ

ومن سري جمالك لا يغيبُ

خلعت الحسن في خلع التجلي

فشاهدت الجمال ولا رقيبُ

وأبديت الوصال فلا صدودٌ

ولا وهمٌ ولا شيءٌ يريبُ

أمَّا عن مدحها للنبي (صلى الله عليه وسلم) فهي تقول في مقدمة ديوانها: «أمَّا بعد فإن المديح النبوي الشريف شعار أهل الصلاح وسيما أهل الفلاح، وهو مما يتنافس فيه المتنافسون، ويدأب فيه المخلصون، إذ هو من أعظم وسائل النجاح، وسبب مضاعفة الأرباح». وقد نافست عائشة شعراء عصرها في مدح الحبيب الشفيع، فتفوقت عليهم. وديوانها الشعري شاهد عليها فجميع قصائده في مدح النبي (صلى الله عليه وسلم) ومنها قصيدتها (فتوح الحق في مدح سيد الخلق) والتي تقول في بعض أبياتها:

براعتي في ابتدا حالي بحبهم

براعة تقتضي فوزي بقربهم

ومذهبي في الهوى أن لا أحول ولا

ألوي عناني لحيّ غير حيِّهم

صلى عليك إلهي دائماً أبداً

أزكى صلاة تديم الفيض بالكرم

وكانت عائشة الباعونية شديدة الإعجاب بقصيدة (البردة) للإمام البوصيري، وقد كتبت قصيدة بعنوان (القول الصحيح في تخميس بردة المديح) وتقول في أولها بعد تخميسها:

كتمت عشقي فأضحى غير مكتتم

بمدمعٍ عندميّ اللون منسجم

وقال صحبي ووجدي صار كالعلم

أمن تذكّر جيران بذي سلم

مزجْت دمعاً جرى من مقلة بدم

ومن قصائدها في مدح الرسول الكريم، قصيدتها الميمية (فتوح الحق في مدح سيد الخلق) ومنها قولها:

صلى عليك إله العرش أفضل ما

صلى على أحد ممن سما وسُمي

وأنشد المتفاني في الغرام بكمْ

أنوار بدر بدا من جانب العلم

وتعتبر بديعية عائشة المعروفة بالفتح المبين في مدح الأمين من أشهر ما نظمته في مدح النبي الكريم، وهي قصيدة ميمية ذات نغمة موسيقية جميلة ومطلعها:

في حسن مطلع أقمار بذي سلم

أصبحتُ في زمرة العشاق كالعلم

أقول والدمع جار جارحٌ مقلي

والجار جار بعذلٍ فيه متهم

أعظمُ به من نبي مرسلٍ نزلتْ
في مدحه محكم الآيات من حكمِ
ولو غدا البحر حبراً والفضا ورقاً
في حصر أوصافه ضاقا ببعضهم

لقد كانت عائشة الباعونية الدمشقية محبة وعاشقة للنبي (صلى الله عليه وسلم)، وقد عبرت عن محبتها وعشقها في جميع مؤلفاتها الشعرية والنثرية، ويشهد على ذلك كتابها في المولد النبوي وقصيدتها البديعة المعروفة في الفتح المبين في مدح الأمين وديوانها الشعري، وجميعها كانت في مدح الرسول العظيم (صلى الله عليه وسلم)، وقد استمرت شاعرتنا الكبيرة على حالتها تلك حتى آخر يوم في حياتها.

المصادر والمراجع

١- عائشة الباعونية: أشهر أعلام دمشق في أواخر عهد المماليك. فارس أحمد العلاوي- دار معد- دمشق- ١٩٩٤
٢- عائشة الباعونية: شاعرة- الدكتور حسن محمد الربابعة- دار الهلال للترجمة- إربد- الأردن-١٩٩٧م.
٣- درر الحبب في تاريخ أعيان حلب- حققه محمد أحمد الفاخوري ويحيى بن زكريا عبارة- وزارة الثقافة- دمشق- ١٩٧٢م.

الطبيب خالد محمد الخطيب..الثائر..

أحمد سعيد هواش *

«خالد بن محمد الخطيب، طبيب من رجال الثورة السورية الاستقلالية، ولد ونشأ في «حماة»، وتعلم الطب في دمشق.. وناوأ الاستعمار الفرنسي فاعتقل في سجن «أرواد» ثمانية عشر شهراً، ثم التحق بالثورة السورية سنة ١٩٢٥م، وحكم عليه الفرنسيون بالإعدام، فظل بعيداً عن وطنه في مصر والحجاز وفلسطين ثم وافته منيته.

وقال العلاَّمة خير الدين الزركلي في أعلامه عن الشاعر الثائر الطبيب خالد الخطيب أيضاً: «وكان شريف النفس أبياً، فيه أريحية كاملة وفتوة»[1].

وهذه صفات الثوار الحقيقيين الذين وهبوا نفوسهم وأرواحهم لأوطانهم أمثال:

الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، وصقر الصحافة السورية نجيب الريس زميلي الثائر الشاعر خالد الخطيب في الثورة والمنفى في سجن «أرواد».

وبذلك يكون الطبيب خالد الخطيب إحدى العبقريات الشابة الموهوبة التي اختطفتهم يد المنون وهم في عمر الورود أمثال: طرفة بن العبد، و أبي تمام، وأبي فراس الحمداني، و أبي قاسم الشابّي، وإبراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود وعبد الباسط الصوفي وغيرهم..

* باحث وناقد سوري.

وفي جلسة مع الشاعر الأستاذ مدحة عكاش صاحب مجلة الثقافة بدمشق راح- يحدثنا عن قريبه الشاعر الثائر خالد الخطيب فقال[٢]:

«ولد خالد الخطيب في حماة.. ودرس الابتدائية والثانوية في حماة، وانتقل إلى معهد الطب في دمشق، وتخرج طبيباً جرّاحاً.. وكان طبيباً سَخَّرَ طبه لخدمة الثوار وأبناء شعبه.. قارع الفرنسيين في أثناء دراسته الثانوية واعتقل في حماة ثم أفرج عنه، ثم مارس النضال ضد الفرنسيين فلوحق واختبأ ثم قبض عليه وأودع سجن «أرواد» مع المناضلين الشهبندر ونجيب الريس الصحفي المعروف، وبعد خروجه من سجن (أرواد) نفي إلى عَمَّان، فمارس الطب هناك بفتح عيادة له بجبل عَمَّان.

كان شاعراً وخطيباً وطبيباً وموسيقياً، وقد اقترن بامرأة إنكليزية ورزق منها بنتاً تدعى (عدوية) تيمناً باسم والدته وكانت قد تزوجت من إنكليزي اعتنق الإسلام ويقول الأستاذ مدحة عكاش متابعاً سيرة خالد الخطيب وحنينه لحماة:

لما زارته عمته في عَمَّان (والدة الأستاذ مدحة عكاش) وذلك لعدة أيام، رجعت وبرفقتها زوجته الإنكليزية وابنته (عدوية) إلى حماة، وكانت عمته قد سألته عمّا يحتاجه ويطلبه من حماة؟ فأجاب:

(غطسوا ابنتي في نهر العاصي ثلاث مرات وأرسلوها لي).

توفي في عَمَّان ونقل جثمانه إلى دمشق ووري الثرى في مقبرة باب الصغير في مطلع عام ١٩٢٣م، بعد أن رفض الفرنسيون دفن جثمانه في مسقط رأسه (حماة) خشية قيام مظاهرات إثر وصول جثمانه برفقة شقيقه السيد عارف الخطيب ووالدته وشقيقاته.

ويقول الأستاذ مدحة عكاش: وكانت بعض الأصوات الناشزة قد انطلقت من أفواه بعض المغرضين آخذة على الثائر خالد الخطيب تخفيه في زي امرأة لهروبه من سورية إثر ملاحقة الفرنسيين له مراراً، وذلك بمساعدة الوطني الغيور (فريد مرهج) من غسانيي مدينة (حماة) وقد رد على هؤلاء الثائر الشهيد الدكتور عبد الرحمن الشهبندر صديقه ورفيقه في الجهاد وسجن (أرواد) قائلاً لهم: «إنَّ تخفّي المرحوم خالد الخطيب بزي امرأة تضليلاً للمستعمر الفرنسي ليتيسر له الاختفاء والهرب من اعتقاله خير من بعض المحسوبين في عداد الرجال، وقد اختبؤوا عن الأعين وعن مساعدة الثوار كالنساء...»[٣].

إنَّ شخصية الطبيب خالد الخطيب على الرغم ممَّا اتصفت به من مواهب وبطولة حقة ما زالت مغيبة عن كثيرين من المتعلمين، ولم تلق من الاهتمام ما تستحقه بسبب عمره

القصير وبعده عن أرض الوطن، ترى هل قمنا بما يترتب علينا نحو تلك النخبة من أبطالنا الذين ضربوا أروع الأمثلة في النضال والبطولة والمروءة والتضحية إنَّ ضريحي (المغفور لهما) البطلين الثائرين خالد الخطيب وعبد الرحمن الشهبندر في مقبرة باب الصغير في (دمشق) يكاد لا يعرفهما أحد، فهل فكرنا بإقامة نصب تذكاري لهما ليكونا مع بقية أبطال الأمة العربية منارةً للناشئة العربية والصديقة، ومتحفاً يحوي تراثهما الأدبي والنضالي؟

وكان مما كُتبَ عن حياة الطبيب خالد الخطيب:

- ما جاء في مقدمة ديوانه[٤]، إضافة لما كتبه المؤرخ أدهم آل الجندي عنه. كما ترجم له الباحث الدكتور عبد الله حنا ترجمة جيدة في كتابه: «المثقفون في السياسة والمجتمع» نموذج أطباء سورية في أواخر القرن التاسع عشر إلى أواخر القرن العشرين.

وترجم له صاحب المقال في الموسوعة العربية بدمشق، المجلد الثامن، وفي معجم البابطين للشعراء الراحلين في القرن التاسع عشر والعشرين الذي صدر في خريف عام ٢٠٠٨م.

٢- ديوان الشاعر خالد الخطيب:

لقد أفادنا الشاعر مدحة عكاش بفقدان ديوان الشاعر خالد الخطيب، وكان لصاحب المقال شرف التفتيش عن الديوان المفقود والعثور عليه، وقد علاه الغبار في إحدى مكتبات دمشق العامة، وكانت فرحة لا توصف.

ولما علم الأستاذ مدحة عكاش بذلك أبدى رغبته في تجديد طباعته ونشره، نظراً لوجود أخطاء مطبعية وإملائية، ونحوية ولغوية، وعروضية، واستعمال بعض الألفاظ العامية وتحريف بعض الصيغ الصرفية لأجل الوزن، واستعمال بعض الغريب كالهيرع والأسنع، وما ذاك إلاّ بسبب مشاغل صاحب الديوان النضالية التي جعلته يترك الديوان في شكل مجموعة مسودة من دون تمحيص وتدقيق، فعمدت زوجته الأجنبية لنشرها على ما هي عليه من دون تحقيق وتدقيق وتصويب، والزوجة أجنبية لا تعرف بهذه الأمور شيئاً، ولم تكلف بالتصويب والمراجعة أحداً من ذوي الخبرة، لذا قام صاحب المقال بعرض ديوان الطبيب خالد الخطيب على الباحث المحقق الأستاذ عبد الرزاق الأصفر الذي قام مشكوراً بقراءة الديوان وأبدى الملاحظات التالية: «الذي نراه أنه لابد من إعادة النظر بهذه الطبعة واستكمال ما نقصها لتوضع بين يدي القرَّاء

لهذا الجيل والأجيال المقبلة، وأرى أن في هذه المهمة خدمة لهذا الشاعر المناضل وديوانه وانقاذاً لشعره، وإفساحاً للمجال أمام دراسات واختيارات كثيرة تعتمد على هذه الطبعة المنقحة، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يجب ألا يهمل هذا الديوان، ويبقى طي الإهمال والنسيان، وفيه الكثير من القصائد الوطنية الرائعة، والقصائد المفعمة بروح العروبة والنضال، والمثل العليا التي شغف بها الشاعر خالد الخطيب وشخصها في حياته العملية، وهنالك شعر الحنين للوطن ولمدينة (حماة) ولإخوانه وأصحابه، وهذه مزية إيجابية في شعره الذي ينحو في معظمه منحى التقليد والاتباع في الصور والتعابير، ونلاحظ أن الشاعر أهتم بفن القصة الشعرية.

وقد قام الأستاذ المحقق عبد الرزاق الأصفر مشكوراً، بمراجعة الديوان وصحح معظم مشكلاته، وأصبح جاهزاً للطباعة.

وقال عن المجاهد خالد الخطيب:

«خالد الخطيب، شاب متحمس، مندفع، ثائر، اختلف مع الدكتور صالح قنباز في قضية الاشتراك في الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥م وذلك لأنّ صالحاً كان يرى العنف المسلح غير مجد في ذلك الوقت، وليس في إمكان مدينة غير مستعدة أن تقف أمام قوات الاحتلال الفرنسي الضخمة، ويكتفي بالمقاومة الفكرية، بينما كان الدكتور خالد الخطيب يرى ضرورة الاشتراك في الثورة المسلحة، وأثبتت الوقائع صواب نظرية الدكتور صالح قنباز، مع العلم بأنّه استشهد على مدخل منزله وهو يقوم بإسعاف أحد الجرحى». ولسان حاله يقول ما قاله الحارث بن عُباد البكري:

لم أكن من جُناتها علم الله
وإني بحرّها اليوم صالِ

و أضاف الأستاذ عبد الرزاق الأصفر:

«وكان الشاعر خالد الخطيب عضواً في النادي الأدبي في حماة الذي حمل مسؤولية بث الوعي الوطني في أوائل العشرينيات من القرن الماضي ضد الاحتلال الفرنسي، وكانت له مهمة ثانية وهي افتتاح المدارس الوطنية الخاصة مثل دار العلم والتربية التي كان لها تأثير كبير في تربية الجيل الجديد على المبادئ القومية، وقد قامت بلدية حماة بإطلاق اسم الشاعر الطبيب خالد الخطيب على أحد شوارع المدينة».

٣- قبسات مما قيل في حفلات تأبين الثائر خالد الخطيب:

من يقرأ صحيفة (القبس) الدمشقية، وخاصة الأعداد الصادرة عقب رحيل الثائر الدكتور خالد الخطيب يرى سيلاً من برقيات العزاء مرسلةً إلى صديقه الأستاذ

نجيب الريس صاحب صحيفة (القبس) ورئيس تحريرها ورفيقه في النضال والثورة والجهاد وفي سجن (أرواد) من الدول العربية والمحافظات السورية، كما يقرأ الاحتفالات التأبينيّة... ومجالس العزاء التي أقيمت أيضاً للراحل الثائر الدكتور خالد الخطيب، و ألقيت فيها أبلغ الكلمات وأحرها وأصدقها وذلك في حماة، ودمشق، والقاهرة وعمّان.

وإن دل ذلك على شيء فإنه يدل على أصالة الأمة العربية وتقديرها لأبطالها الميامين أحياءً وراحلين.

ففي حفل أربعين تأبين فقيد الشباب والوطن خالد الخطيب الذي أقيم في دمشق[5] بتاريخ ١٥/ ٢ / ١٩٣٣ م وقف الأستاذ تيسير ظبيان سكرتير لجنة الاحتفال وأخذ يقدم الخطباء وأعلن أن الكلمة للأستاذ زكي الخطيب، فقال:

«خالد الخطيب سفر مجد من تاريخ الفتوة المثقفة وصفحة لامعة من تاريخ البطولة والنضال، قصيدة عصماء من الشعر الرقيق أو قطعة من الموسيقى تسمعون ألحانها الإلهية تأتينا من ذلك الماضي المجيد».

كما تكلم في هذا الاحتفال الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، وتليت الكلمات المرسلة من شيخ العروبة أحمد زكي باشا من مصر، وكلمة الأستاذ إسعاف النشاشيبي من فلسطين، وبعد ذلك اعتلى المنبر الأستاذ منير الريس أحد أعضاء لجنة الاحتفال وتلا الكلمة المؤثرة التي وردت من لجنة تأبين الفقيد في حماة، واعتلى المنبر السيد حسن مراد وتكلم نثراً وشعراً ممثلاً عن مدينة حمص فأجاد أيما إجادة وكان إلقاؤه مؤثراً واستهل خطابه بهذين البيتين:

أي جنود الشهيد نادوا جهاراً
وإذا لم يجب فشقوا الثيابا[1]
لم يعوِّد جنوده يوم خطب
أن ينادى فلا يرد الجوابا

وبعد ذلك تليت برقية عطوفة سلطان باشا الأطرش، وجُمَل من كلمة المجاهد الكبير سعيد العاص، وقد كانت مؤثرة جدا أسالت العبرات من الآفاق، وجاء دور كلمة جبل عامل فقام الشاعر المجيد الأستاذ عبد الرؤوف الأمين المعروف بفتى الجبل وألقى قصيدة مؤثرة منها:

بردى يذكرك المصابُ بخالد
من قد قضى حراً من الأشبال
بردى يذكرك المصابُ بفتية
في ميسلون مشوا إلى الأجيال
ذادوا عن استقلالهم بنفوسهم
في كل معترك ويوم نزال

وقف الشهيد هناك يهتف قائلاً

نفسي فدى وطني العزيز الغالي

وفي مدينة حماة جرى احتفال تأبين كبير للراحل خالد الخطيب[٧]: بمناسبة مرور أربعين يوماً على رحيله، تكلم فيه الصحفي الأستاذ نجيب الريس، صاحب جريدة (القبس)، وتليت فيه كلمة الرئيس الجليل هاشم الأتاسي في فقيد الوطن والشباب المجاهد خالد الخطيب. كما ألقى كل من الشعراء: بدر الدين الحامد، وعمر يحيى، وطاهر النعساني قصائدهم الرائعة.

وتليت في الحفل، كلمة العلاّمة (التفتازاني) التي أرسلها من القاهرة في تأبين الفقيد المرحوم الدكتور خالد الخطيب.

و مما قاله العلاّمة (التفتازاني) في كلمته البليغة:

«أية رجولة هذه التي طواها الردى في ثوب ذلك الشّاب، وأية نفس عالية هي تلك النفس التي لقيت ربها راضيةً مرضية، وأي قلبٍ جريء كان يحمل ذلك الفتى، إنّه لقلب جبار، ولكن ما أضعفه عند التحنان إلى الوطن، فهو دائم الخفقان للوطن ومجد الوطن».

وقد عَبَّر خير تعبير عن الحزن الذي تركه الفقيد خالد الخطيب برحيله في قلوب الأصدقاء وأبناء الوطن، شاعر العاصي بدر الدين الحامد في قصيدته الدالية الرائعة التي جاء فيها:

ذكراك طي جوانحي وفؤادي
فاذهب سقتك من الدموع غوادي
لا دَرّ درك يا منون أهكذا
ختلاً تكون مصارع الآساد
حم القضاء ونحن عنك بمعزل
نلهو وأنت على المنية غادي
يا لهف نفسي أين منك صحابة
تفديك بالأرواح والأكباد
أنا يا شقيق الروح بعدك لم أجد
حزناً عليك لذاذة برقاد
فلئن بكيت فإنما أبكي أخاً
أفردته بمحبتي ووداد

ثم يشير الشاعر بدر الدين الحامد لما عرف عن الراحل خالد الخطيب من ملكة الخطابة والشاعرية والموهبة الموسيقية والغناء فقال:

يا منبر الوادي خطيبك صامتٌ
من للخطابة بعد قس إياد
الشاعر العذب القريض، نظيمه
كالسحر أو كالدر في الأجياد
(إسحق) في الصوت الرخيم إذا شدا
(زرياب) في ضرب على الأعواد
شَقَّت عليه المكرمات جيوبها
وأرَنّ بالبلوى حمام الوادي

كما أشار الشاعر الحامد إلى الفصاحة وسحر البيان عند المرثي فقال:

عن الفصاحة والبيان ندية
في كل حقل بعده أو نادي
كنا نفاخر والزمان مطاوعٌ
بعلاه كل مفوّهٍ في الضاد

والشاعر المبدع عمر يحيى الذي ذاق مرارة التشرد وعانى من مرارة الطغيان الفرنسي أيضاً فهاجر إلى البحرين كان الأقدر على تصوير ما تحلى به الراحل خالد الخطيب وزملاؤه الأبرار من جلد وصبر وبطولة في مقارعة الاستعمار الفرنسي عَبَّر عن بعضها في قصيدته التي ألقاها في حفل أربعين المرحوم خالد الخطيب في مسقط رأسه (حماة) فقال[8]:

لهم في ظلام السجن ذكرى مريعة
زئير أسود والأسود غضابُ
وفي جنبات البيد روّاد قفرة
عليهم من الخلق المتين نقاب

ثم يشير الشاعر عمر يحيى لوفاة الشاعر خالد الخطيب غريباً بعيداً عن وطنه ومدينته (حماة) فيعبر عن ذلك خير تعبير إذ قال:

وما ضرّ ليث الغاب مثواه نازحاً
فكل مكان فيه ينزل غاب

وقد أشار الشاعر عمر يحيى إلى حنين الشاعر الراحل خالد الخطيب لنهر العاصي ومدينته (حماة)، كما أشار إليها أكثر من أديب وخطيب فقال:

حنين إلى العاصي يردد رجعَه
حنين قلوب إن دعوت أجابوا
ولو نطق العاصي لكان جوابه
مآثر يحدوها العلاء عرابُ
وشكوى على فقد الفتى من عرينه
غريباً وإن كان الثكول يُثابُ
كأن ترانيم الدوائر حوله
أنين محب غاب عنه صحابُ
تهب على أغصانه نفحة الأسى
فيبدو على لحن الهزار عذابُ
مراد الصبا مأوى الطفولة ماله
عن القلب إن حمَّ البعاد غيابُ

ولئن حرمت (حماة) من أن تضم الفقيد خالد الخطيب في ثراها المتعطش لاستقبال الأبطال فهم في قلوب أبناء شعبهم جميعاً، وكل مدينة في وطننا العربي هي (حماة) فليسعد فقيدنا ولتقر عيناه في عاصمة الأمويين قرب بردى في دمشق، هذه المدينة العظيمة التي ضمَّ ثراها أبطالاً عظاماً أمثال صلاح الدين الأيوبي محرر القدس من الصليبيين وغيره من الشخصيات المجيدة، فقال الشاعر عمر يحيى دالاً إلى ذلك:

إلى بردى يهدي الخطيب وديعة
وفي بردى يحمي الضيوف نصاب

هناك صلاح الدين كالليث رابضٌ

لـه في سجلات الخلـود كتـاب

ويختتم الشاعر عمر يحيى قصيدته البليغة ببيتين عَبَّرا عن منزلة الأبطال والعظماء في نفوس أبناء شعبهم وخلودهم في ذاكرتهم فقال:

تمـوتُ ألـوف لا يـؤثـر فقدها

كـأنـهـم عـنـد الحـيـاة سـراب

ويـذهب فـرد واحـد في عـديده

فيبكي عليه الدَّهرُ حين يصاب

وعلى مثل الفقيد خالد الخطيب تبكي العيون دماً، وما أجمل ما قاله العلاَّمة (التفتازاني) فيه: «إنَّ حماة عرين المجاهدين قديماً فلا عجب أن تظل سلسلة الجهاد في بنيتها موصولة الأطراف، وسنجد بين شباب الجزيرة الأبية ألف خالد وخالد، ولكن المجموعة النادرة التي كونت خالد الخطيب أظنها ستبقى نادرة المثال إلى الأبد»(٩).

قراءة في ديوان الزعيم المناضل الدكتور خالد الخطيب:

إنَّ ديوان الدكتور خالد محمد الخطيب غني بموضوعاته المتنوعة، رائع في تبويبه وإخراجه، عذبٌ شعره، قوي سبكه، يبهرك في الجمع بين الصورة والإبداع، إنَّه يذكرنا بفحول الشعراء العرب الفرسان: عبد الله بن رواحة، شعراء الخوارج، سيف الدولة الحمداني وأبي فراس الحمداني، ومن المعاصرين الشاعر العربي الفلسطيني عبد الرحيم محمود.

وإذا غلبت على الحلقة الأولى من هذا الديوان الأغراض الثورية التي قالها الفقيد في سجن (أرواد) وفي ساحات الجهاد، فإننا نجده في باقي قصائد ديوانه ينحو لقرض الشعر في مجالات أخرى كالرثاء لعظماء الأمة، وكذلك المشاركة في المناسبات الوطنية، و الإخوانيات، وفي الشعر الأسري، وفي الأغراض الاجتماعية والإنسانية.

ففي مصر كانت له صداقات عدَّة مع علية القوم، ومن يقرأ الكلمات التي قيلت في مجالس العزاء التي أقيمت في القاهرة، ودمشق، وحماة يعلم ما يكنه أبناء شعبنا العربي في أقطاره كافة من حب للفقيد خالد الخطيب، وما ذلك الحب إلا لما كان يتمتع به المجاهد الخطيب من أريحية ومحبة لجميع المخلصين للأمة العربية، ويأتي على رأس قائمة هؤلاء الزعيم الوطني المصري سعد زغلول (باشا) – طيب الله ثراه – الذي رثاه الشاعر خالد الخطيب في أثناء وجوده في القاهرة في شهر أيلول عام ١٩٢٧م وذلك بقصيدة عينية تفيض حزناً وأسى، ومن أقدر من الشاعر الوطني خالد الخطيب على إعطاء المرثى حقه من الرفعة والتكريم والأسى على رحيله إذ قال(١٠):

يا يراعي اليوم يوم اليراع
هات جدّد مناحتي والتياعي
كلما قلتُ: راح داعي التأسي
جذبتني من التأسي دواعي
نكبة إثر نكبة تتوالى
نحن والخطب دائماً في صراع
صاح هلا رأيت كيف الأماني
أودعت أمس قبضة الإبداع
صرعتها المنون في شخص سعد
ليس صد المنون بالمستطاع

إنَّ فقد الرجال المخلصين لوطنهم وأمتهم العربية لمحزن وصعب على قلوب أبناء الشعب العربي فكيف إذا كان المصاب بفقد الزعيم الوطني المصري «سعد زغلول» الذي دافع عن «مصر» دفاع الأبطال أمام جبروت المحتل البريطاني، طالباً الاستقلال لبلده، فقال الشاعر خالد الخطيب:

يا لهول المصاب مَنْ بعد «سعد»
يسمع المعتدي زئير السباعِ
من إذا حل بالكنانة ضيمٌ
بعد «زغلول» يُرتجى للدفاع؟

ولم يكن حزن أبناء الشام بأقل من حزن أهل الكنانة، ذلك أنَّ الرجال العظام هم ملك لأمتهم العربية بغض النظر عن أقطارها المصطنعة، فنحن أمة عربية واحدة، عمل الاستعمار على تجزئتها، فمصاب «مصر» مصاب لكل قطر عربي، وهو مصاب الشام أيضاً، فقال الشاعر الخطيب:

والشآم الشآم يا ويح قلبي
تندب اليوم عطف ذاك الراعي
يومها فيه كان يوم عويلٍ
وبكاء ولوعة وانصداع

ذلك أنَّ فضل المرحوم المجاهد «سعد زغلول» كان قد غمر الشام في وقت المحن التي أصابتها، فكان يواسي أبناء الشام بحنان الوالد ووفاء الأخ والابن البار فقال:

كم تولى جراحها داميات
بحنان الآباء يوم القراع
كم لها مدَّ في الشدائد باعاً
يوم في غوثها ارتخى كل باع

وعندما كان الفقيد المجاهد رهين سجن «أرواد» أتاه نعي والده، وما أصعب سماع أخبار الأحزان في الغربة، ولاسيما إذا كان الخبر وفاة أعز إنسان على قلب الابن الغائب، فقال الشاعر خالد الخطيب بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاة والده المرحوم محمد الخطيب[١١]:

الله في حزني وفي أشجاني
الله في قلبي الكبير العاني
الله في عين تشتت نومها
ودم جرى في المدمع الهتّانِ
ملكت فؤادي لوعةٌ لو لامست
وجه الخضم لشب بالنيرانِ

لقد أضفى الحزن واللوعة الصادران من قلب الابن البار المكلوم جمالاً في الألفاظ المعبرة عن هول المصاب الذي حل بالمجاهد خالد الخطيب برحيل الوالد المعلم، لذا لجأ الشاعر إلى الله تعالى طالباً منه الصبر والسلوان على تحمل هذه المصيبة الكبيرة التي عقدت لسانه فقال:

يا خطب معذرة إذا عجز النهى
فلقد عصاني منطقي وبياني
هيهات أن أستطيع وصفك بعدما
عقد المصاب يراعتي ولساني

ولم يفت الشاعر الغريب المكلوم الإشارة إلى مكانة الوالد الراحل في قلبه، وتعليمه إياه الصبر على الشدائد، وها هو يراه قد طواه الثرى وهو بعيد عنه، فكيف لا يحزن؟ فقال:

علمتني حمل المصائب إنما
هذا مصابك بالأشد رماني
وطواك قبر في الثرى وأمضه
قبرٌ بطيات الشجون طواني
في ذمة الأوطان حرقةُ نازحٍ
جارت عليه فرائض الأوطان

ثم يختم المرثية الحزينة بهذه الحكمة الخالدة إذ قال:

يا أيها الآباء لم يقض الذي
أغنى البنينَ بثروة العرفان

أجل لم يمت من أنجب مثل الشاعر المجاهد «خالد الخطيب» الذي كان خير خلف لخير سلف.

وفي قصيدة «ابنة الشهيد»[١٢] التي ألقاها في الحفل الذي أقيم لوداعه من قبل اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني بمصر في شارع عابدين في التاسع والعشرين من كانون الثاني (يناير) ١٩٢٩م، يظهر المجاهد خالد الخطيب حنينه للوطن الذي نزح عنه مجبراً، فبكاه على البعد شوقاً، و لجأ للصبر على نار الغربة والقيام بزيارة الأحباب والأصدقاء في «القاهرة» ثم يعرج على ذكر ابنة أحد شهداء فلسطين التي لفتت نظره بجمالها العربي فخطب ودها، وهو الشاب المجاهد الممتلئ حماسةً وحيوية، ولكن الفتاة تطلب مهراً غالياً ألا وهو الثأر من قتلة والدها الشهيد فلنسمع بعض ذلك إذ قال:

ألا في سبيل الله طول تنهدي
وفرط حنيني للحمى وتوجدي
فلا الدمع يشفيني ولا الشوق يرعوي
ولا الصبر في همي وغمي بمسعدِ

ثم يذكر ابنة الشهيد التي أذهبت عنه الحزن بجمالها فأنسَ بوجودها مع أصدقائه الذين زارهم للترويح عن النفس فقال:

ويوم به والنفس فاضت شجونها
قصدت خليلاً لي على غير موعد
فـإن بـتـزوار الأحـبـة مؤنساً
وكم تذهب الأحزان زورة عود
وطافت علينا قهوة عربية
تعيد إلينا ذكر مجدٍ مخلد
لها نشوة تقصي عن النفس همها
وتبعث فيها نخوة الجِد والجَد
أتتنا بها حسناء لا أعرف اسمها
سوى أنـهـا فـتـاة المتعهد
بسطت إليها الكف أخطب ودها
فقالت رعاك الله يا بن محمد
إذا كنت ترضى بي عروساً وفيةً
فمهري تَـثـأرَ لأهلي وسؤددي

ثم بدأت الفتاة تروي ما حل بأهلها وذويها من قتل فتشردت بعدهم فلبست لباس الفقر، وأصابها العوز فلجأت للعمل الذي رآها فيه، وهي التي كانت تعيش في نعيم الأسرة الموسرة في بيت عز ورفعة وأمان، فقال على لسانها:

أراقوا دما أخي وأختي ووالدي
لئام بضربات الحسام المهند
فسالت على حد السيوف دماؤهم
وبت أقاسي غص عيش منكدِ
وأحرق مأوانا فلا سكن لنا
وأصبح أهلي كالقطيع المشرَّدِ
وكنت وأهلي منعمين بعيشنا
أتيهُ على غيري بقصري المشيَّدِ
فصرت إلى حال تفتت مهجتي
أعيش مع الخدّام في قصر سيدي

ولما عرف الشاعر المجاهد خالد الخطيب واقعها الأليم رأف بها وعاهدها على الثأر والانتقام من المعتدين، وهو مستعد لمقارعتهم في كل قطر عربي فقال:

ولما سمعت القول، قول مفجع
تفجعت حتى غصَّ بالريق مزردي
وقلت لها والدمع ينثر ساخناً
على خدها نثر الجمان المنضدِ
ألا هوِّني فالدهر شهدٌ وعلقمٌ
ومهما تمادى اليوم لا بد من غدِ
فجلِّقُ فوق الكل والكل خادمٌ
لنهضتها من حانقٍ لمؤيدِ
وقومك قومٌ لا يطيقون ذلة
ومحتدهم في الناس أكرم محتدِ

إنها قصة شعرية.. رواها الشاعر المجاهد خالد الخطيب شعراً حزيناً مؤثراً وهذا إبداع شعري يحسب له.

وفي غربته، في مصر العربية، في القاهرة، قاهرة المعز لدين الله الفاطمي، مدينة المجاهدين والشعراء يرسل الشاعر الخطيب الثائر السوري، تحية الثورة السورية تحية الإباء لأمير الشعراء أحمد شوقي، بتكليف من اللجنة التنفيذية للمؤتمر

السوري الفلسطيني وهو الشاعر الثائر الذي يعرف قيمة الشعر الرفيع في تأجيج أوار الثورة، ومن أجدر من أمير الشعراء بذلك؟ فقد عرفته دمشق إبان ثورتها على العدوان الفرنسي عام ١٩٢٥م، فقال[١٣] الشاعر الخطيب محيياً شاعرية أمير الشعراء أحمد شوقي بتمجيد الثورة السورية وثوارها:

أمير المعاني والمعاني مطيعة
وأنت لها ذاك الأمير الممجد
تربع على العرش الذي أنت أهله
له فاتنات السحر جند مجند
وقفت بنا بالأمس تندب مجدنا
وتبكي دياراً أهلها قد تبددوا
فأوقدت ناراً في الضلوع شبوبها
تعال نريك اليوم ماكنت توقد
فتكنا بهم حتى تشتت شملهم
وحتى كمذعور النعام تشردوا

ثم يشير الشاعر خالد الخطيب إلى أريحية مضيفيه الكرام في مصر العربية مظهراً دور مصر النضالي في توحيد كلمة العرب في أقطارهم كافة فقال:

بني مصر والدنيا لمصر مدينة
ومصر منار الرشد يهدي ويرشدُ
ومصرُ على طول الزمان جمانةٌ
وفي غرة الدنيا شهابٌ موقدُ
ومصرُ لها في المجد أسمى مكانة
ومصر عروس الدهر والدهر أمردُ

لقد كان اختيار الشاعر الثائر خالد الخطيب لتقديم تحية الإباء لأمير الشعراء أحمد شوقي موفقاً وصائباً فرد التحية بالتحية وهذا وسام يعلق على صدري الشاعرين شوقي والخطيب وإن ما قاله الشاعر الخطيب بمصر العربية في الأبيات الثلاثة السابقة جديرٌ بأن يدون بماء الذهب.. وهذا يرفع من مكانة شاعرنا المجاهد خالد الخطيب بياناً وسناناً، وأذكر أن الدكتور إحسان النص - رحمه الله -كان قد أشاد بشاعرية الدكتور خالد الخطيب بعد قراءته لمختارات من شعره اطلع عليها في أثناء إعدادي استمارة لاختيار الشاعر الدكتور خالد الخطيب ليدرج اسمه في معجم البابطين للشعراء الراحلين في القرن التاسع عشر والعشرين في عام ٢٠٠٢م.

وكما أحب شاعرنا المجاهد خالد الخطيب شاعر مصر الأبي وأبطالها وأحرارها فكذلك بادله الإخوة في مصر حباً بحب، وهو المجاهد الشاعر الثائر، فعندما سمع أصدقاؤه في مصر بخبر وفاته في عَمَّان، أرسلوا برقيات العزاء بوفاة فقيد الشباب والمروءة وأقاموا له مجالس العزاء في القاهرة تليت فيها كلمات لا أجمل ولا أحلى.

وكان للموضوعات الإنسانية نصيبٌ في ديوان الدكتور خالد الخطيب، فقد

اشتهر صاحب الديوان بقصيدته: (السائل الأعمى)[١٤]، فلنسمع لهذا الوصف الرائع إذ قال:

أعمى يسير ويهتدي بعصاه
والعجز أنهكه وهدّ قواه
سلبته أيدي النائبات نعيمه
فقد الأسى وأخا الأسى وأباه
والفقر أعوزه فمد يد الرجا
يتطلب الإحسان لا يلقاه

ولكن السائل الأعمى لم يلق من يساعده من الأغنياء، وهم لا يرغبون في رؤية مثل هذه المناظر التي تفسد عليهم حياتهم المترفة، فبقي جائعاً وارتدّ إلى مأواه خائباً يجر ذيول الخيبة والمرارة، والجوع كافرٌ كما يقال: ولا يعلم كنهه إلا من عضه ناب الجوع فقال:

لم يلق بين الناس من جادت بما
يقصي عن الشيخ الطوى كفاه
ضاقت به الدنيا وضاق بها أسى
وارتد «جوعان» إلى مأواه
والجوع أفتك من جراحات القنا
يدري مرارته الذي عاناه

وهذه لفتة إنسانية اجتماعية أخرى: فلمْ يشغل الشاعرَ الخطيبَ الجهادُ والنفيُ عن النظر إلى ما تقع عليه العين ويمر عليها الكثير منا مرور الكرام غير آبه بما يسمعه:

«يا فاعلين الخير» نادى صارخاً
لكن تصامم عنه من ناداه

والمجاهد خالد الخطيب وفيٌّ لرفاق الدرب من المجاهدين الذين سقطوا شهداء في سبيل الوطن، فها هو يرثي شهيد الوطن والثورة السورية البطل (أبا خالد الميداني)[١٥] مظهراً حزنه الشديد على الفقيد الكبير الذي يستحق البكاء.. وما يفيد البكاء هل يرجع المبكيَّ عليه، فقال:

أيّ داع من الخطوب نجيب
هدّنا بعدك الأسى يا نجيبُ
كل يوم نوائبٌ فكان قد
لـَذّ للنائبات فينا النشوبُ
رب حماك يوم فقد نجيب
مهج الصابرين كادت تذوبُ
لو يفيد البكاء كنا بكينا
هل بدمع العيون ماض يؤوبُ

وما ذلك البكاء إلاّ لمكانة الشهيد بين قومه ورفاقه المجاهدين نظراً لما كان يتمتع به من شجاعة واستبسال ورجاحة عقل وبيان حر، وفكر أصيل ناضج، مما جعل حبه يقع في سويداء قلوب أبناء شعبه الذين عرفوا بلاءه في الدفاع عنهم من ظلم المحتل الفرنسي الغاشم، فقال مخاطباً الشهيد:

يا حبيب البلاد قم واستمعها
صرخات البلاد أين الحبيب

ثـم يشـير الشاعر إلى فصاحـة المرثي ورجاحـة عقله وحكمتـه وإزالة الهموم عن رفاق الدرب فقال:

فكشفت الهموم عنا وزالت
بأياديك عن حمانا الكروب
بيراع أمضى من السيف فتكاً
مترع الوحي ما اعتراه نضوب
وبفكر رجاحة العقل فيه
تتجلى وحكمة لا تغيب

وكذلـك رثـى الشاعر المجاهـد خالد الخطيب الشهيد البطل عز الدين الجزائري (١٩٠١– ١٩٢٧م) بقصيدة عنوانها: (الموقف الأخير لبطل الثورة السورية الأمير عز الديـن الجزائري) الذي استشهد في موقعة عين الصاحب (وادي بسيمة) شمال دمشق في شهر أيار وهي إحدى معارك آخر الثورة السورية فقال[١٦] مصوراً حال الشهيد البطل الصامد:

أنذرتك العدى وأنت شهيدٌ
وصدى المرهفات يدوي دويا
ألق عنك السلاح نبقك حياً
وأطعنا نهبك عيشاً رضيا
كان منك الجواب ناراً تلظت
حيث آثرت أن تموت أبيًا
إن من كان جده مثل جدي
كيف يُلقي السلاح مادام حيا

لقد كان الشهيد عز الدين الجزائري أبياً وبطلاً شجاعاً وفياً لجده الأمير عبد القادر الجزائري – طيب الله ثراه – ولزملائه المجاهدين الشجعان، ولأمته العربية الخالدة وهو الشاعر الفارس القائل:

يا قوم إنا من سلالة يعرب
والعرب لا ترضى المهانة مرقدا

تحية للشاعر المجاهد خالد الخطيب ولزملائه المجاهدين ولشهداء الأمة العربية جمعاء..

الهوامش

(١) الأعلام، خير الدين الزركلي، المجلد الثاني، دار العلم للملايين، بيروت، ط (١٤)، ١٩٩٩م.
(٢) جلسة مع الشاعر مدحة عكاش في مكتبه في برج الفردوس، كانون الأول عام ٢٠٠٢م.
(٣) المصدر السابق، من حديث الشاعر مدحة عكاش، كما ذكرها أدهم آل الجندي أيضاً في كتابه: تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي، مطبعة الاتحاد – دمشق، ١٩٦٠م، ص (٢٦١).
(٤) ديوان الدكتور خالد الخطيب، يحوي ما نظمه في قلعة (أرواد) وفي ساحات الجهاد، إعداد حرمه: ج. ز الخطيب، مطبعة دار الأيتام، القدس، لم يذكر تاريخ الإصدار.
(٥) جريدة القبس، يومية سياسية، صاحبها نجيب الريس، العدد الصادر بتاريخ ١٦شباط، ١٩٣٣م، ص (٢).
(٦) ورد هذا البيت أيضاً على الشكل التالي (وهو للشاعر حافظ إبراهيم):

أي جنود الرئيس نادوا جهاراً فإذا لم يجب فشقوا الثيابا

(٧) القبس: مصدر سابق العدد الصادر بتاريخ ٩ آذار سنة ١٩٣٣م.

(٨) ديوان عمر يحيى، وزارة الثقافة، دمشق، ط ١، ١٩٨٠م، الجزء الأول، ص (٢٢٩).

(٩) جريدة القبس، مصدر سابق، العدد الصادر بتاريخ ٩ آذار - ١٩٣٣م.

(١٠) قصيدة (مواساة سورية لمصر، أو رثاء سعد، القصيدة التي ألقاها المجاهد خالد الخطيب في بيت الأمة بمصر بحضور صاحبة العصمة أم المصريين بتاريخ ٤ سبتمبر (أيلول)، ١٩٢٧م. الديوان ص (١٧).

(١١) قصيدة (الاعتراف بالجميل) بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاة والد المجاهد خالد الخطيب الأستاذ المرحوم محمد الخطيب: الديوان، ص (٢٤).

(١٢) قصيدة (ابنة الشهيد)، الديوان، ص (٢٦).

(١٣) قصيدة من الثورة السورية لأمير الشعراء.. (تحية الإباء)، الديوان: ص (٢٨).

(١٤) الديوان، ص (٣٤).

(١٥) الديوان، ص (٣٥).

(١٦) الديوان، ص (٣٧).

المراجع والمصادر

١. الأعلام - خير الدين الزركلي، المجلد الثاني، دار العلم للملايين - بيروت، ط٤، ١٩٩٩م.
٢. تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي، مطبعة الاتحاد، دمشق ١٩٦٠م، ص (٢٦١).
٣. جلسة مع الشاعر مدحة عكاش، مكتب مجلة الثقافة - دمشق - بناء برج الفردوس - شتاء ٢٠٠٢ م.
٤. جلسة مع الباحث الأستاذ عبد الرزاق الأصفر - فرع اتحاد كتاب حماه - ربيع عام ٢٠٠٧ م.
٥. جريدة القبس، يومية - سياسية - دمشق، لصاحبها نجيب الريس عدد ٦ شباط ١٩٣٣م، و عدد ٩ آذار ١٩٣٣م.
٦. ديوان الدكتور خالد الخطيب، إعداد حرمه : ج-ز الخطيب - مطبعة دار الأيتام - القدس.
٧. ديوان الشاعر عمر يحيى، وزارة الثقافة - دمشق ط(١)١٩٨٠م، الجزء الأول ص (٢٢٩).

المعجم العربي.. الماهية والوظيفة

عصام مفلح ✿

المعجم كتاب يشتمل على عدد كبير من مفردات اللغة مرتبة ترتيباً معيناً، مقرونة بطريقة نطقها وشرحها وتفسير معانيها. ويطلق عليه أحياناً اسم القاموس، ولا يعرف أوّل من أطلق كلمة المعجم ولا تاريخ أوّل استعمال لها بالمعنى المتداول اليوم. وترجع أهمية المعجم إلى أنه يحتوي على معاني الكثير من الكلمات التي لا يمكن أن يحيط بها فرد واحد من أفراد تلك اللغة مهما بلغ حرصه على استقصاء هذه الكلمات. ومفردات اللغة تتوزع بين أفراد أبنائها، كل بحسب بيئته وثقافته.



نظرة تاريخية

يعود أوّل فهرس بلغة واحدة إلى القرن الثالث قبل الميلاد، ولكن علماء اللغة والآثار يؤكدون أنّ أوّل فهرس للكلمات عرفه البشر من لغتين هو سومري وأكادي يعود تاريخه إلى عام ألف وثلاثمئة قبل الميلاد، وقد اكتشفه الأثريون في مدينة إيبلا السورية.

✿ أديب وباحث سوري.

وإذا كانت لكل حضارة قصصها وتاريخها حول القاموس، فإنّ للغة العربية باعاً طويلاً في هذا الشأن، ولاسيما أنّها لغة القرآن الكريم ولها إيقاع موسيقي تطرب له الآذان، وفيها ما فيها من دلالات ومعان لا تقف عند حدود. وقد وعى العرب منذ القدم أنّ لغتهم سلاحهم الأمضى، فعشقوا الشعراء وأنصتوا للفصحاء منهم، فرفعوا لغتهم إلى أسمى المصاف، وانكبوا يشتغلون عليها حتى صارت صنعة فعلماً.

ويعد كتاب «العين» للخليل بن أحمد الفراهيدي نقطة تحول أساسية يؤرخ بها للعمل المعجمي العربي، ولاسيما أنّ الفراهيدي الذي توفي عام ٧٨٦ للميلاد، يوصف بأنه أعلم علماء عصره في مضمار اللغة، وله تدين اللغة العربية ببحور الشعر. وقد بدأ معجمه بحرف العين ولم ينسق كلامه على ترتيب حروف الهجاء المتعارف عليها ولا على ترتيبها في حساب الجمل، بل وضع للحروف ترتيبا من عنده، فقدم الحروف الحلقية ثم أعقبها بالحروف الشجرية ثم الأحرف اللسانية ثم الشفهية ثم المعتلة. وعلى أثره ألف إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي كتاب «البارع» الذي رتبه متأثراً بنظرية سيبويه المشروحة طولاً وعرضاً في كتابه «الكتاب» الذي قدّم حرف الهاء على سائر الأحرف ووضع العين بعدها.

وفي القرن العاشر الميلادي تداول العلماء كتاب «التهذيب» لأبي منصور محمد ابن أحمد الأزهري، الذي هدف منه لتنقية اللغة من شوائبها إلى أن وضع الفيروز أبادي معجمه «القاموس المحيط» في القرن الخامس عشر ميلادي، الذي شكل مرحلة مفصلية في تاريخ البشرية، حيث تمكن الألماني «غوتنبرغ» من اختراع أول مطبعة عام ١٤٤٠، ومن طباعة الكتاب بالكامل عام ١٤٥٥.

ثم تتالت قواميس النهضة العربية كمحيط المحيط لبطرس البستاني الذي صدر في عام ١٨٨٣، والمنجد للويس معلوف في عام ١٩٤٦، وقد صدرت هذه القواميس في لحظة تبدل خلالها وجه العالم، فتم تمديد شبكات الكهرباء وسكك الحديد وافتتاح المصانع وتشييد المدن. ورغم مرور الزمن لم يفقد المعجمان التاريخيان «لسان العرب» لابن منظور و«القاموس المحيط» للفيروز أبادي ألقهما حتى اليوم، ولا يهنأ عيش للمشغوفين باللغة ما لم يعرجوا يوما بعد يوم على هذين المصدرين. فبعد سبعة قرون من ظهور قاموس العين نذر العلامة أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور الأفريقي المصري الأنصاري الخزرجي المعروف بابن منظور حياته للغة مستقصيا ومرتبا مفرداتها، وذلك كما جاء في مقدمته: «انتشار الجهل بين الناس بالعربية وافتخارهم لمعرفة اللغات الأجنبية».

وقد جمع ابن منظور لسانه استناداً إلى

خمسة كتب مؤسسة هي: تهذيب الأزهري ومحكم ابن سيده وصحاح الجوهري وحواشي ابن بري ونهاية ابن الأثير. فاستفاد منها من كل ما تم تأليفه قبله، فجاء عمله موسوعيا وإن أخذ عليه بعضهم عدم استفادته من الجمهرة لابن دريد والبارع للقالي وغيرهما، إلا أنه رغم ذلك فإنَّ لسان العرب يمتع متصفحه، فهو فرد في دنيا المعاجم العربية بشموله وجمعه شمل ما تمَّ وضعه من كتب قبله.

وسيلة لغوية

تعد المعاجم العربية أوَّل الكنوز التي حافظت على الثروة اللفظية العربية لمدة ستة عشر قرنا من الزمن. ودور هذه المعاجم جلي في حراسة هذه الثروة اللفظية وصيانة التراث الحضاري بشتى أنواعه.

ولولا هذه المعاجم لضاعت هذه الثروة، على اعتبار أنَّ علماء اللغة ومستعمليها لا يستغنون عن الرجوع إلى هذه المعاجم. فالمعاجم وسيلة لغوية وهي حرفة وصناعة قبل كل شيء. هدفها هو جمع اللغة ووضعها. وبذلك نقف أولا عند معنى الجذر المعجمي (ع، ج، م) الذي يعطينا كلمة معجم في اللغة والاصطلاح.

١- لغة: في البداية لابد أن نتتبع خطوات اشتقاق مادة «معجم» في اللغة، كما وردت في كتب ومعاجم اللغة العربية. ولذلك يقول ابن جني: «اعلم أن (ع، ج، م) إنَّما وقعت في كلام العرب للإبهام والإخفاء وضد البيان والإفصاح». وجاء في المعجم الوسيط ما يلي: «عجم فلان عجمة، كان في لسانه لكنة، ويقال كذلك: عجم الكلام إذا لم يكن فصيحا، فهو أعجم وهي عجماء، فالإعجام غير الإعراب». وجاء فيه أيضا «عجم الحرف والكتاب عجما، أزال إبهامه بالنقط والشكل، وعجم الشيء عجماً وعجوماً، عضه ليعلم صلابته من رخاوته». ويقول الجوهري في الصحاح: «الأعجم الذي لا يفصح ولا يبين كلامه وإن كان كلامه من العرب». إذن، من خلال ما تقدم نستنتج أن الجذر (عجم) له دلالتان اثنتان هما:

- عجم وعجم بكسر العين أو ضمها، عدم البيان وضد الإفصاح.
- عجم بفتح العين معناها الإيضاح والبيان.

وتأتي مادة «عجم» في اللغة للدلالة على الإبهام والإخفاء وعدم الإفصاح فمنها الأعجم الذي لا يفصح، حيث تتصرف صيغة (فعل) من هذه المادة إلى معاني الإبهام وعدم الإيضاح.

وقد أطلقت لفظة المعجم على الكتاب الذي يراعى في بنائه وترتيبه ترتيب الحروف. وهذا الكتاب يزيل إبهام تلك المادة المرتبة على حروف المعجم أو يزيل اللبس ويوضح المبهم بما يحتوي عليه من مواد لغوية وغير لغوية المرتبة على حروف

المعجم. وهذا كله يقودنا إلى تعريف المعجم في اصطلاح اللغويين.

٢- اصطلاحاً: من الناحية الاصطلاحية يقصد بالمعجم في التراث العربي مجموع الثروة اللفظية اللغوية التي خلفها العلماء في المعاجم على مدى العصور. وكثيراً ما تطلق كلمة «معجم» على الكتب اللغوية التي تعالج وتحدد المجال المعنوي للفظة ما. والشيء نفسه يتبادر إلى الذهن عند سماع هذه الكلمة اليوم.

وبذلك فكل ما يتناول أسماء الأعلام والقبائل والأماكن، والفهارس، وحتى الموسوعات الفكرية، يندرج ضمن كلمة معجم أو قاموس. إذن فالمعجم هو: «مرجع يشتمل على كلمات لغة ما، أو مصطلحات علم ما، مرتبة ترتيباً خاصاً، مع تعريف كل كلمة أو ذكر مرادفها أو نظيرها في لغة أخرى، أو بيان اشتقاقها أو استعمالها أو معانيها المتعددة أو تاريخها أو لفظها، وقد يكون المعجم عاماً أو متخصصاً، وقد يكون وصفياً أو تاريخياً، وقد يكون المعجم مفردات أو مصطلحات، كما قد يكون مترادفاً أو ترجمات أو تعاريف».

ومن خلال هذا الكلام، فالمعجم يعنى بالدرجة الأولى بمصطلحات موضوع أو علم معين، مع إبراز معانيها وتطبيقاتها المختلفة، ويكون المعجم مرتبطاً بتطور العلوم والفنون ومطالب الحياة المستجدة، لذلك يبقى البحث فيه مستمرا ويبقى أمر وضع المعاجم عملا لا ينقطع في أية لغة من اللغات. وذلك لتصبح هذه اللغات قادرة على تأدية مطالب الفكر والحضارة ومسايرة الزمن.

المعجم والقاموس

هناك نوع من العلاقة بين مصطلح «معجم» ومصطلح «قاموس» على اعتبار أنه يوجد نوع من التداخل بين المصطلحين. وكثيراً ما يتم الخلط بينهما. فقد جاء في لسان العرب ما يلي: «قمس الرجل في الماء إذا غاب فيه. وقمست الدلو في الماء إذا غابت فيه... القاموس: البحر العظيم، وكل معجم لغوي على التوسع يقال له قاموس».

ويورد الفيروز أبادي صاحب «القاموس المحيط» في مادة «قمس» أنها تعني الغوص وأن «القموس» هي «بئر تغيب فيها الدلاء من كثرة مائها، أمَّا القاموس فهو معظم ماء البحر. وبذلك تعني كلمة «قاموس» البحر أو وسطه أو معظمه، فكثير من علماء اللغة العربية الذين حاولوا جمع اللغة، يطلقون على أعمالهم أسماء من أسماء البحر، نحو: ابن سيده الذي أطلق على معجمه «مجمع البحرين» وابن عباد الذي سمى معجمه باسم «المحيط»... إلخ. فأول من سمى معجمه بالقاموس هو الفيروز أبادي صاحب «القاموس المحيط» نظراً لما يمتاز به من دقة وضبط. حيث اشتهر هذا القاموس لكثرة تداوله في أيدي المتأخرين واعتمادهم

عليه. وأصبح يرادف المعجم اللغوي، فصار كل معجم لغوي قاموساً على سبيل التوسع مع أن الأصل هو قاموس الفيروزأبادي».

أمَّا الدكتور إبراهيم السامرائي فهو يرفض كلمة «قاموس». ويرى أن الصواب هو استعمال كلمة «معجم» وذلك من أجل التمييز بين كتاب الفيروز أبادي المشهور وباقي المؤلفات المعجمية الأخرى. ويسير في هذا الاتجاه أيضا الدكتور عبد العلي الودغيري الذي يرى أن كلمة «قاموس» تعني وسط البحر أو معظمه. لتعني أخيراً كل كتاب لغوي يحتوي على طائفة من الكلمات المرتبة والمشروحة. ولهذا فمن الضروري الفصل بين المصطلحين: «معجم وقاموس» لأنَّ «القاموس» يستعمل للدلالة على كل كتاب أو تأليف له هدف تربوي وثقافي، يجمع بين دفتيه قائمة من الوحدات المعجمية (المداخل) التي تحقق وجودها بالفعل في لسان من الألسنة، ويخضعها لترتيب وشرح معين.

أمَّا مصطلح «معجم» فيرى الودغيري أنه أنسب للدلالة على المجموع المفترض واللامحدود من الوحدات المعجمية التي تمتلكها جماعة لغوية معينة بكامل أفرادها، بفعل القدرة التوليدية الهائلة للغة. كما نجد عبد القادر الفاسي الفهري بدوره يدعو إلى التمييز بين المصطلحين. وبذلك يقول عن مصطلح القاموس «إنَّه الصناعة التي تتوق إلى حصر المفردات ومعانيها». ويقول عن مصطلح معجم «فهو المخزون المفرداتي الذي يمثل جزءاً من قدرة المتكلم – المستمع اللغوي».

الاصطلاح المولد

يقصد بالاصطلاح أو المصطلح في اللغة: الاتفاق والتوافق، وبذلك يعتبر من صيغ المطاوعة التي تفيد المشاركة والتفاعل. ويعني الاصطلاح عند الجرجاني اتفاق قوم على تسمية الشيء باسم ما. فمجال علم المصطلح هو دراسة ميدانية لتسمية المفاهيم التي تندرج تحت ميادين مختصة من النشاط الإنساني. وذلك باعتبار وظيفتها الاجتماعية. ولذلك: «فالمصطلح لغة خاصة أو معجم قطاعي يسهم في تشييده ورواجه أهل الاختصاص في قطاع معرفي معين». إلا أن هذه اللغة القطاعية تبقى متصلة أشد الاتصال باللغة العامة المشتركة. كما ينطبق على هذا المعجم القطاعي ما ينطبق على المعجم العام من ضوابط صرفية ودلالية وتركيبية وصوتية. والمصطلحية أو «علم المصطلح»، علم لساني حديث العهد، حيث أدت إليه النظرة المعمقة في المصطلحات المولدة من أجل الحديث عن كل ما هو جديد من المفاهيم والأشياء في شتى العلوم والميادين المختلفة.

وقد حظي هذا المبحث باهتمام بالغ من قبل اللسانيين والمختصين وخاصة

في النصف الثاني من القرن العشرين، حيث عالجوا أسسه النظرية والتطبيقية والعلاقات التي تربطه بالعلوم والمباحث الأخرى وخاصة منها مباحث التوليد. إلا أن ما يمكن أن يؤخذ عن هؤلاء هو اختلافهم في الصلة التي تربط المصطلح بالمعجمية. حيث منهم من يعتبر المصطلحية علماً منفصلاً عن المعجمية. ومنهم من يعتبرها امتداداً واستمراراً لعلم المعجم وفرعا من فروعه. ومن هؤلاء نذكر إبراهيم بن مراد (من جمعية المعجمية التونسية)، الذي يعتبر المصطلحية فرعا من علم المعجم والذي سماه «بالمعجمية المختصة»، على اعتبار أن علم المعجمية يضم قسمين رئيسين هما: «المعجمية العامة» وينصبُّ اهتمامها بالأساس على ألفاظ اللغة العامة.

ثم «المعجمية المختصة» وقوامها المصطلحات المختصة بكل مجال معرفي معين. فالمعجمية العامة تبحث عن الوحدات المعجمية من حيث هي مداخل معجمية تجمع مصادر ومستويات مختلفة. أمَّا المعجمية المختصة فتبحث في المصطلحات من حيث مكوناتها ومفاهيمها ومناهج توليدها. فالوحدة المعجمية على هذا الأساس، إمَّا أن تكون عامة فتكون بذلك لفظا لغويا عاما، لتؤدي خصائص معينة من دلالة واشتراك في المعنى والوظيفة. وإمَّا أن تكون مختصة فتكون مصطلحا له خصائص تميزه عن اللفظ اللغوي العام. ومن هذه الخصائص وحدة الدلالة والانتماء إلى حقل مفهومي قابل للضبط والتحديد.

المعجم الذهني

إلى جانب المعجم المكتوب أو الصناعي الذي يجمع بين دفتيه مفردات لغة من اللغات أو بالأحرى لغتين أو أكثر، وتكون هذه المفردات مرتبة ترتيباً معيناً يختاره المعجمي بنفسه، ومصحوبة بتعاريف وشروحات عامة أو ترجمات.. إلخ. والهدف الأساس من هذا المعجم هو مساعدة القارئ على فهم ونطق الألفاظ وما يتعلق بها من معلومات صوتية وصرفية وتركيبية ونحوية ودلالية.

وهناك أيضاً المعجم الذهني والاجتماعي الطبيعي. ويقصد به «الوحدات اللغوية العرفية المتغيرة في كل زمان ومكان، التي تكمن في أذهان الأفراد المنتمين جميعا إلى مجموعة لغوية واحدة. وتخضع هذه الوحدات اللغوية في نظامها للعرف الاجتماعي وكذا للوضع الحضاري الخاص بكل عشيرة لغوية. كما تخضع أيضا لما يسود المجتمع من معارف تتعلق بالموجودات والأشياء التي يدركها الأفراد في المجتمع. كما تخضع أيضا للتغيير وذلك بتغيير الأوضاع الاجتماعية والتطور المعرفي والفكري لدى الأفراد، وما يستوجبه هذا التغيير والتطور من تغيير في العرف الدال عليها دلالة التسمية على المسمى».

وعلى هـذا الأساس، فمن الصعب جداً أن تجتمع هـذه الوحـدات في ذهن متكلم واحد أو فرد واحد، على اعتبار أنَّ لكل فرد مجموعة مـن الوحدات التـي يشاركه فيها أفراد من مجتمعه دون غيره. كما أنه قد يفهم هذا الفرد وحدات لا يستعملها إذا نطق بها غيره. ويتكلم أيضا بوحدات يفهمها غيره ولا يستعملها في معجمـه الذهني. وبذلك فإنَّ هذه الوحدات موضوعة في المعجم الذهني للأفراد على صورة معقدة شيئاً ما.

لكن مع ذلك هنـاك شعور لدى الأفراد بالانتماء إلى مجموعة لغوية واحدة. وهكذا فإنَّ المعجم الذهني ليـس كالقاموس الذي يرتـب ترتيبـاً ألفبائيا أو خطيـا. فلو كان معجمنا الذهنـي مرتبا بطريقـة ألفبائية لصعب استرجاع المعلومات. وكذلك القاموس الصناعي له عدد محدود من الكلمات يمكن عدها وحصرها، في حين القاموس الذهني ليس له محتوى محـدود، بل نضيف كلمات جديدة ونغير نطقهـا ومعانيها. فنجدد في الصوت والتركيب والدلالـة والمقام اللغوي وغير ذلك.

وللعناية بهذا النوع من الدراسة وخاصة من الوجهـة اللسانية نجد الكاتب الفرنسي جورج ماطـوري في كتابه «منهج المعجمية»، يدعـو إلى تأسيس مادة علمية جديدة أو ما سماه: بمنهج جديد في دراسة المعجم. وهذه المادة العلمية الجديدة أو المعجمية الجديدة هي التي يسميها بالمعجمية الاجتماعية. ذلك أن هذا العلم يهـدف إلى دراسة المعجم من زاوية اجتماعية وإلى دراسة المجتمع بأدوات لغوية معجمية، استناداً إلى أنَّ اللغة ظاهرة اجتماعيـة وأنَّ اللسانيات في حد ذاتها علم اجتماعـي محض. وبذلك يمكـن القول إن الأفعال والظواهر اللغوية في الأساس ما هي إلا تفسير وانعكاس لأفعال المجتمع وظواهره، نظرا لوجـود نوع من التقاطـع بين دراسة المفردات ودراسة المجتمع، الشيء الذي جعل «ماطوري» يقول: إن هذه الدراسة ما هي إلا «أداة فعالة مـن أدوات البحث الاجتماعي، وأن بالانطلاق مـن دراسة المفردات نحاول تفسير مجتمع معين». ليصل في نهاية الأمر إلى تحديـد الدراسة المعجميـة بأنها «علم مجتمعي يستخدم الأدوات اللسانية التي هي الكلمات».

إذن، حسب مـا سبق ذكره، فـإنَّ اللغة والمعجـم خاصـة يدرسان لتفسـير ظواهر المجتمـع بأسره، على اعتبار أن المناسبة بين الدال والمدلول مناسبـة اجتماعية محضة. بمعنى آخر، إن العلاقة بين الاسم والمسمى هي علاقة اجتماعية مرتبطة بما يجول في أذهان الأفراد من الأسباب التي تدفعهم إلى وضـع اسم ما. والغرضـ الأساس من هذه الدراسة، هو أن تستفيد المعجمية من عطاء ونتائج أذهان الأفـراد. كما تستفيد من كل العلوم المجاورة مـن تاريخ واقتصاد ودلالة،

وغير ذلك من العلوم التي لها علاقة وطيدة بالمعجمية. والمعجم الذهني لابد أن يكون قائما على نظام معين، لأنَّ الكلمة أو الوحدة اللغوية، تتم معانيها في بضع لحظة. فهناك إذاً قدرة خاصة على البحث عن الكلمات وإصدار قرار معجمي في نصف ثانية، إنَّ المعجم الذهني المنظم تنظيماً محكماً هو الذي يترجم القدرة على التخزين الكثيف، وعلى الاسترجاع السريع. ذلك أنَّ الإنسان كيفما كان نوعه يتوافر على قدرة هائلة لتذكر آلاف الكلمات التي هي مخزونة في معجمه الذهني. فكلما وجد نفسه في حاجة إلى هذه الكلمات فإنَّه يسترجعها من خزانه الذهني. فالمتكلم المؤول من الضروري أن يتوافر على آلة معجمية ذهنية تساعده على التخزين الكثيف والمنظم للمواد المعجمية.

ترتيب المعاجم

ونحن في هذه الوقفة اللغوية حول معاجم اللغة العربية نريد توضيح وتبيين الطرق الثلاث لمعرفة ترتيب المعاجم العربية حتى يسهل على أي شخص السبر في أغوار معاجم اللغة باختلاف طرقها، وعلى هذا نجد العرب سباقين لعالم المعاجم:

-الطريقة الأولى: طريقة الإمام الأوحد الخليل بن أحمد الفراهيدي في كتابه «العين»، يقول العلامة طاهر الجزائري في كتابه «الكافي في اللغة»: وهو أوَّل كتاب ألف في اللغة وسمي بذلك لابتدائه بحرف العين فإنه رتب كتابه على الحروف وهي مسوقة على هذا الترتيب: ع ح هـ خ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط د ت ظ ذ ث ر ل ن ف ب م وا ي. ولا إشكال في كتابه من جهة هذا الترتيب وإن خالف ما ألفه الجمهور في ترتيب حروف المعجم، ألا ترى أن حروف المعجم قد اختلف في ترتيبها المشارقة والمغاربة ولم يعق ذلك أحد الفريقين عن الانتفاع بكتب الفريق الآخر، فيما رتب على حروف المعجم كما لم يعقهما عن الانتفاع بالكتب التي رتبت على نسق «أبجد». وإنَّما أتى الإشكال فيه من جهة أخرى وهي أنَّه يذكر الكلمة وما ينشأ عنها بالقلب في موضع واحد فيذكر «الضرم» في حرف الضاد ويتبعها بذكر «الضمر» ثم «الرضم» ثم «المضر» ثم «الرمض» ثم «المرض» فإن أهمل شيء من أنواع القلب أشار إلى إهماله وزاد على ذلك أنه ذكر كل نوع من الصحيح والمضاعف والمهموز والمعتل على حدة، ليمتاز كل نوع عن غيره وقد جرى على طريقته بعض اللغويين ومنهم «الأزهري» «وابن سيدة» ولصعوبة هذه الطريقة على الجمهور الذين ليس لهم مأرب في غير معرفة أبنية الكلم ومعانيها.

وقال ابن منظور في كتابه «لسان العرب»: ولم أجد في كتب اللغة أجل من تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ولا أكمل من المحكم لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيدة الأندلسي -رحمهم الله-

فإنهما من أمهات كتب اللغة على التحقيق، وماعداهما بالنسبة إليهما ثنيات للطريق، غير أنَّ كلا منهما مطلب عسر المدرك ومنهل وعر المسلك، وكأن واضعه شرع للناس مورداً عذباً وجلاهم عنه، وارتاد لهم مرعى مريعاً ومنعهم منه، قد أخر وقدم، وقصد أن يعرب فأعجم، فرق الذهن بين الثنائي المضاعف والمقلوب، وبدد الفكر باللفيف والمعتل والرباعي والخماسي فضاع المطلوب، فأهمل الناس أمرهما وانصرف عنهما وكادت البلاد لعدم الإقبال عليهما أن تخلو منهما، وليس لذلك سبب إلا سوء الترتيب وتخليط التفصيل والتبويب .

-الطريقة الثانية: طريقة الجوهري صاحب كتاب «الصحاح» قلت: قال طاهر الجزائري: «..فإنه رتب كتابه على حروف المعجم على النسق المعروف في المشرق، غير أنه جعل الآخر للباب والأول للفصل فكل كلمة يكون آخرها ألفا مثل:» بدأ «يذكرها في الباب الأول وهو باب الألف ويسميها بالألف المهموزة احترازاً على الألف اللينة التي هي أحد حروف المد، وكل كلمة يكون آخرها باء مثل: «أب» يذكرها في الباب الثاني وهو باب الباء ولم يزل يجري على هذا الترتيب حتى وصل إلى الحرف الأخير وهو حرف الياء». وقد جعل كل باب ثمانية وعشرين فصلا، جعل الفصل الأوّل منها لما يكون أوله همزة، والفصل الثاني لما يكون أوله باء إلى أن وصل

إلى الآخر، غير أن بعض الأبواب قد تكون فصولها أقل من ثمانية وعشرين وهو الأكثر كباب الراء فإنه لا يوجد فيه فصل اللام لعدم وجود كلمة في العربية أولها لام وآخرها راء. وأقل الأبواب فصولا باب الظاء فإنَّ فصوله ستة عشر. إذا عرفت هذا تعرف أن مثل: «برى» و«بغى» يذكرها في فصل الباء من باب الياء وذلك آخر الكتاب، وأن مثل «برء» و«بطء» يذكر في فصل الباء من باب الألف وذلك في أول الكتاب، وقد جرت عادته في الفصل أن يراعي ما بعد الأول في الترتيب فيقدم «سأر» على «سبر»، وهي على «ستر» ويقدم «خردل» على «خزعل» و«عبقر» على «عبهر»، وقد قال هذا الإمام الجوهري في مقدمة كتابه «الصحاح»: «الحمد لله شكراً على نواله، والصلاة على محمد وآله، أما بعد: فإني قد أودعت هذا الكتاب ما صح عندي من هذه اللغة التي شرف الله تعالى منزلتها، وجعل علم الدين والدنيا منوطا بمعرفتها، على ترتيب لم أسبق إليه، وتهذيب لم أغلب عليه، في ثمانية وعشرين باباً وكل باب منها ثمانية وعشرون فصلاً على عدد حروف المعجم وترتيبها، إلا أن يهمل من الأبواب جنس من الفصول، بعد تحصيلها بالعراق رواية، وإتقانها دراية، ومشافهتي بها العرب العاربة في ديارهم بالبادية، ولم آل في ذلك نصحا، ولا ادخرت وسعا، نفعنا الله وإياكم به».

-الطريقة الثالثة: طريقة الجمهور: قال طاهر الجزائري في كتابه «الكافي في اللغة»: «وقد رتب السالكون عليها كتبهم على حروف المعجم معتبرين فيها أوائل الكلم فيذكرون في الباب الأول وهو باب الألف ويراد بها هنا الهمزة كل كلمة في أولها ألف مثل «أب» و«ألو» و«أبي»، وفي الباب الثاني وهو باب الباء كل كلمة في أولها باء مثل: «بر» و«بري» ولا يزالون على هذا النهج إلى أن يصلوا إلى النهاية وهي باب الياء». وقد جعلوا كأصحاب الطريقة الجوهرية في كل باب فصولا ناظرين فيها إلى ثواني الكلم فيذكرون في الفصل الأول ما يكون ثانيه همزة وفي الثاني ما يكون ثانيه باء وفي الفصل الثالث ما يكون ثانيه تاء ولا يزالون على ذلك إلى أن يصلوا إلى النهاية. فالحرف الأوّل عند هؤلاء كالحرف الأخير عند الجوهري والحرف الثاني عندهم كالحرف الأوّل عنده، فمثل: «أبي» تذكر عندهم في أوّل الكتاب في فصل الباء من كتاب الألف، وتذكر عند الجوهري في آخر الكتاب في فصل الألف من كتاب الياء، ويقدمون بعض كلمات الفصل على بعض بالنظر إلى ما بعد الحرف الثاني فيذكرون «برج» مثلا قبل «برنج» قبل «برزخ» و«عندل» قبل «عندم» و«سنبك» قبل سندس، وعلى هذه الطريقة جرى ابن فارس في «المجمل» والهروي في «الغريبين» والراغب الأصفهاني في «المفردات» والزمخشري في «أساس البلاغة» وابن الأثير في «النهاية»، قال ابن فارس صاحب كتاب «المجمل في اللغة»: «وذلك أني خرَّجته على حروف المعجم وجعلت كل كلمة أولها باء في كتاب الباء حتى أتيت على الحروف كلها، فإذا احتجت إلى الكلمة نظرت إلى أوّل حروفها فالتمستها في الكتاب الموسوم بذلك الحرف فإنك تجدها مصورة في الحاشية ومفسرة من بعد».

المراجع

١- بوشتي العطار، المعاجم العربية: رؤية تاريخية وتقويمية، منشورات جامعة شعيب الدكالي، الجديدة - المغرب.
٢- قاسم رياض زكي، معجم علم اللغة النظري، دار المعرفة، ط١، بيروت.
٣- عباس الصوري، الممارسة المعجمية، مجلة: اللسان العربي، عدد ٤٥.
٤- إبراهيم بن مراد، المعجمية وعلم المعجم، مجلة: المعجمية، عدد ٨ .
٥- جورج ماطوري، منهج المعجمية، ترجمة: عبد العالي الودغيري، منشورات كلية الآداب، الرباط.
٦- عزالدين البوشيخي، خصائص الصناعة المعجمية الحديثة، مجلة: اللسان العربي، عدد ٤٦.
٧- إقبال أحمد الشرقاوي، معجم المعاجم- تعريف بنحو ألف ونصف ألف من المعاجم العربية التراثية، دار الغرب الإسلامي.

المصطلحات السنسكريتية- الهندوسية

فايز مقدسي*

تُعتبر كتب (الفيدا) أقدم آثار الفكر الهندية البراهماتية من الناحية الأدبية ومن الناحية الدينية أو الروحية. وهي تعود إلى وصول الهندو-أوروبيين الآريين إلى الهند ما بين الألف الثاني والألف الأول ق.م. وتعني كلمة (فيدا-VEDA) باللغة السنسكريتية الهندية القديمة والتي هي لغة نصوص الفيدا العلم المقدس أو المعرفة العليا. وتتألف مجموعة كتب الفيدا من أربعة كتب تبدأ بكتاب (الريج -فيدا- Rig- veda) أو كتاب الأحكام الذي يتألف من الآلاف من الأناشيد الشعرية التي تمجّد القوى السماوية العليا في الديانة الهندوسية القديمة. ثم

هناك كتاب (يجور-فيدا-Yajur-veda) وهو يحتوي على الصلوات التي ترافق تقديم الذبائح في الطقوس الدينية.

وهناك أيضاً كتاب يدعى (ساما- فيدا -Sama-veda) وهو يضم الأناشيد الطقوسية.

ونضيف- على هذه الكتب التي ذكرناها والتي تشكل ما يطلق عليه باللغة السنسكريتية اسم (تراي- فيدا - trayi vidya) أي العلم الثلاثي. كتاب (اتارافا- فيدا -Atharva-veda). وهو كتاب متأخر زمنياً عن الكتب الأولى. وفيه المعرفة الخاصة التي يصل إليها الكهنة (أتارافا) بالسنسكريتية الذين يتعمقون في دراسة كتب

* كاتب وباحث وإعلامي سوري مقيم في باريس.

الفيدا السالفة الذكر. ثم لا ننسى أن نذكر كتباً عالية الأهمية مثل (ماها بهارتا) وكتاب (رامايانا). وكتاب (بهاجافاد - جيتا).

أمَّا لغة تلك الكتب فهي اللغة الهندية المقدسة السنسكريتية القديمة جداً، والتي عثر العلماء في مفرداتها على جذور لغوية قريبة أو مشتركة مع المجموعة اللغوية التي يُطلق عليها اسم المجموعة الهندو-أوروبية. وهو ما درسه وأثبته العالم الألماني (ف بوب- F-Bopp) منذ مطلع القرن التاسع عشر. ورأى أنَّ كُتُبَ (الفيدا) الأوائل تعود في أصلها القديم إلى منتصف الألف الثاني ق.م. ولكن نصوصها بقيت تتناقل شفهياً وعن طريق الحفظ.

ولم تُدون كتابياً سوى في القرن الرابع عشر الميلادي. مما جعل بعض الأقوال أو الروايات أو الشروح التي كُتبت تختلف وتتنوع إلى ثلاثة فروع يُطلق عليها بالسنسكريتية اسم (شاكها-Cakha) والذي يعني (فرع) أو مدرسة فقهية في فهم النصوص والمفردات وشرحها وتأويلها. وهو أمر أدى إلى تعدد شروح وفهم العقيدة الأساسية، وبالتالي إلى تعدد المدارس الفقهية -الدينية فيما يخص الكتب المقدسة الهندوسية: الفيدا.

في الكتب المذكورة وشروحها حاول الفكر الهندي، وعلى نحو خاص الهندوسي، أن يدرس على نحو دائم ما أُطلق عليه اسم (الحقيقة) أيّ حقيقة نظام العالم أو القانون أو الناموس: (دهارما- Dharma بالسنسكريتية) ومنذ وجد هذا العالم أو الكون. وهي الفكرة الأساسية التي يُطلق عليها اسم (ساناتانا-Sanatana). والتي يقوم عليها الإيمان الهندوسي. وهذه (الحقيقة) المنشودة ليس لها بداية وهي قائمة في (الكلام) الذي كشفه للبشر (الخالق) المطلق للكون (براهمان). وهو كلام موجود منذ الأزل ولم يخلق في زمن محدد بل تم كشفه كما ذكرنا عن طريق الوحي الإلهي لمن تُطلق عليه النصوص الفيدية اسم (الرائي) (ريشي-Rishi). أو رؤوس القوم (كما نلاحظ من كلمة ريشي) أو المتأهلين للأمر أو الأنبياء الذين يُوحى إليهم (وحي بالسنسكريتية: شروتي- Shruti). ويتجدد الكشف في كل دورة كونية زمنية لهذا الكلام الإلهي الأصول، أو، كما يسمى بالسنسكريتية (أبا-أورو-شيا - Apaurusheya) الذي في ثناياه يعثر من يتبحر فيه على معنى الحقيقة في كتب الفيدا الخالدة القائمة على الذاكرة (سمريتي-Smriti في السنسكريتية) وبالتالي على الحفظ غيباً للكلام الذي كُشف عنه لبعض المختارين أو الأصفياء كما سبق ونوهنا.

شروح كتب الفيدا ومحاولة كشف معناها

المستور أدت مع الزمن إلى نشوء كتب أخرى من أهمها كتاب (قوانين مانو) وملحمة (بوراناس) وفيهما تأملات فلسفية عميقة.

إضافة، طبعاً، إلى كتب أخرى ذات أهمية رفيعة المستوى ومتأخرة زمنياً (حوالى القرن السادس ق.م.) مثل سلسلة الكتب الشهيرة باسم (أوبانيشاد-Upanishad). وهذه الكتب تعتبر بمثابة نهاية كتب الفيدا. (فيدانتا-vedanta). وكل هذه النصوص تشير، وهي تحاول فهم نشوء الكون ونظامه، إلى عنصر أو مبدأ مذكر وغامض وهو واحد (إيكا -Eka) ليس له شريك. يطلق عليه الحكماء أسماء مختلفة ولكنهم دائماً يشيرون إليه بصفة (هو أو هذا) تاد - tad) وهو أصل الوجود وسبب الوجود.

وهو كما تذكر النصوص الهندوسية لم يولد (اجا -Aja). وبقوته مرت الخليقة من حالة اللاوجود إلى حالة الوجود في تتابع منسق. أو من حالة اللاوجود المطلق إلى حالة عالم الظواهر الطبيعية وذلك حين لم يكن اللاوجود موجوداً ولا الوجود أيضاً.

وكان اللاوجود يتنفس بقوته الذاتية. وهذا النفس (الروح) وحده كان موجوداً. ولما شاء أن يكون، كانت لذة الوجود البدئية هي سبب تحول اللاوجود المطلق إلى وجود كما تذكر كتب (الريج- فيدا). وخلق الكون والعالم والمخلوقات هنا بمثابة رغبة وليس إرادة.

أيّ إنّ الواحد المطلق ضحى بنفسه ليخلق كل ما هو موجود (دهارمان-Dharman) وليكون فيه كواقع الواقع أو الواقع الأوّل (ساتياسايا-ساتيا -Satyasya-satya). الكينونة والكلمة تشيران أيضاً إلى التبادل الهارموني القائم بين الأشياء والذي عليه تقوم قوانين الوجود. أو (براهمان-Brahman) من جذر سنسكريتي قديم هو (بريه-Brih) الذي يشير في معناه القديم إلى الخصب والتكاثر والاستمرار. ويلخص اسم (أتمان-Atman) هذا التناسق والانسجام الكوني باعتباره يشير إلى الذات التي لا تموت وإلى المعرفة الخالدة (جنانا-Jnana) التي يبحث الإنسان الحكيم للتوصل إليها لأنها تحرره من مصيره الإنساني المحتم حين يرى بعينه الداخلية (التأمل الروحي): الذات الخالدة (أتمان) كما هي في الحقيقة والواقع.

وفي الحقيقة فليس هناك تعدد أرباب في الهندوسية، بل تعدد أسماء لإله واحد كما نعلم من نص من كتاب (تنترا -Tantra) المقدس حيث يقول النص مخاطباً الخالق: «أنت (براهما) في الحق. وأنت (فيشتو). أنت (رودرا) وأنت (براجاباتي). أنت (أجني). وأنت (فارونا) وأنت (فايا) وأنت (إندرا)».

وفي نص آخر نقرأ كلاماً مشابهاً:

«السلام عليك يا سيد الكون يا روح الكون. يا خالق الكون.

السلام عليك أيُّها الروح المطمئنة.

السلام عليك أنت الحيّ الذي لا يموت، والذي لا يُدرك.

أنت يا من لا بدء له ولا منتهى».

هكذا نجد أنَّ الأسماء الإلهية متعددة ولكن المقصود هو العلة الأولى والخالق الأول والواحد:

(براهمان).

وقبل أن ننتقل إلى أهم المصطلحات والكلمات الهندوسية فإننا نقدم إلى القارئ نبذة مختصرة عن اللغة السنسكريتية التي دُونت بها تلك النصوص الهندوسية المقدسة.

وهذه اللغة كانت تُدعى في أصلها القديم (سامسكرتا-Samskrta) وتعني: البناء اللغوي والقواعد أو هندسة الكلام. والاسم مركب أصلاً من جذر قديم هو (كر-KR) ومن لاحقة هي (تا-TA).

أمَّا صيغة (سام-SAM) فهي تعني: اللغة الفصحى الكاملة أو السامية العالية لأنها تُعتبر كلاماً أبدياً أزلياً: (سيددها-SIDDHA). وتدل الكلمة الأخيرة على ما هو منجز من قبل، وعلى إرث الأسلاف. ولذلك فهي صعبة ومعقدة على القراءة و نصوصها، كما أسلفنا، تُحفظ غيباً ثم تُقرأ كما حُفظت. وهي تعود في أقدم آثارها إلى الألف الثالث ق.م.

•••

المصطلحات

كلمة (أبهافا-Abhava) تعني: اللاوجود، أو(الأنا) في حالة العدم.

كلمة (أبهاسا-Abhasa). تعني: النور أو التأمل (الإشراق الداخلي).

كلمة (أبهايا-Abhaya). تدل على حالة الطمأنينة أو السلام الداخلي أو الروحي.

كلمة (أبهيشرا-فرا-يوجا- Abhishra prayoga) تعني: السحر الأسود.

كلمة (ابهي-مانا-Abhi-mana) تدل على الزهو والكبرياء والخيلاء. ويمكن أن تعني: التمرد والعصيان. كما أنَّها تدل، وحسب تركيب العبارة، على الأنانية وحب الذات.

كلمة (أبهي- أسا -Abha-asa) تعني: التدرب الروحي والبحث والتأمل.

كلمة (أشارا-A-shara). تعني: العبادات والطقوس الدينية. وفي الوقت نفسه تدل على التأمل. كما أنَّها تستعمل للدلالة على نقاء الروح والجسد. أي، حالة الإنسان الخالص من الانفعال.

كلمة (أدبهوتا-Adbhuta). تعني: الرائع والجميل والمذهل. النفس.

كلمة (أ-بهافا-A-bhava)- تدل على النور وعلى التأمل.

كلمة (أ-بهايا-A-bhaya) تعني: الطمأنينة.

كلمة (أديشا-Adesha). تعني: القضاء أو الإرادة الإلهية.

كلمة (أدهي-بهوتا-Adhi-bhuta) تدل على كل ما ليس له صفة ألوهية.

وعكسها كلمة (أدهي- ديفا- Adhi-daiva). صفة ما هو إلهي.

كلمة (أدهي-كارين- Adhi-karin). تعني: القوي- القادر. وكانت في الأصل تدل على الثور (ذي القرنين) رمز الفحولة والقوة.

كلمة (أدي-Adi). تعني: البدء أو أصل كل شيء.

كلمة (أدي- جورو -Adi-juru). تعني حرفياً: المعلم الأوّل. أيّ، الخالق.

كلمة (أدراشتا - Adrashta). وهي تعني حرفياً: الذي لا يبصر. أيّ، القدر الذي نصفه دائماً بأنّه أعمى.

ونرى تشابهاً بين كلمة (أدر) وكلمة (قدر) إذا أخذنا بعين الاعتبار تبادل الألف والقاف. وهي في صيغة (أدري - Adri تعني الجبل. دلالة على قوة القدر التي لاتقاوم وكأنّها الجبل.

كلمة (أديا - شاكتي--Adya-shakti). هذه لفظة هامة وأساسية في الفكر الهندوسي لأنها تعني: الطاقة الكونية المبدئية. أو الباعث المحرك لكل شيء في الكون ومنذ البدء أو الخواء الأوّل.

وكلمة (شاكتي) منفردة تدل على القوة الحيوية الصانعة أو الخالقة. أو الفكر أو العقل الكوني الأوّل.

كلمة (أن-An-). تدل على النقاء البدئي. وهي في ذلك تشابه الكلمة السومرية (أن) التي تدل على ما هو سماوي. أيّ خالص النقاء. ويأتي عكسها في صيغة (أجها-Agha) أيّ غير النقي والملوث والمختلط. كما أنّ الكلمة تدل على الخطيئة التي تلوث نقاء النفس. كما أنّها تدل على الدنس.

كلمة (أفتا-Apta.): أي معلم أو شيخ روحي أو أستاذ أو مرشد له صفة القداسة. ونلاحظ أنّها تتشابه مع فعل (أفتى) بالعربية، ومع اسم (المفتي) الذي يدل على المعنى نفسه تقريبا.

كلمة (أبهي-مانا-Abhi-mana). لها دلالات عدّة منها: الخيلاء. الأبهة. الأنانية والتمرد أو العصيان. وقريب منها صوتياً

كلمة (أبهي-أسا-Abhi-Asa) وتعني: الجهاد الروحي والتأمل.

كلمة (أهام- Aham) ضمير المتكلم المفرد (أنا) أو (الأنا).كما في عبارة (أهام-برهمانAham- Brahman) التي تعني: أنا براهمان.

كلمة (مانو-شا-Manu-sha): أي كائن غير إنساني. أمَّا صيغة الكائن الخالد الذي لا يموت فهي (أ-مار -A-mar) من جذر قديم هو (Mri) الذي يدل على الخلود. أمَّا عبارة سنسكريتية-هندوسية مثل: (أنادياناتوم-Anadyanakom) فتدل على ما ليس له بداية ولا نهاية.فهو أزلي.

كلمة (براهمان-Brahman). كلمة أساسية في الديانة الهندوسية تعني الروح الكونية أو الخالق وأصل الكينونة والكائنات. وأيضاً التحرر من الرغبة ومن اللذة. وعدم الاكتراث بالفرح أو بالألم.

كلمة (بهاكتي-يوجا-Bhakti-yoga). تدل على أعلى مراتب المعرفة الكاملة.

كلمة (راما-Rama) تدل على المحارب- البطل الجليل الذي لا يُقهر. ومنها اسم الإله المحارب (كريشنا) والتركيب (راما كريشنا) يعني: كريشنا الذي لا يُقهر والذي يحرّر. وهو الشخصية الأساسية في كتاب (بهاجافاد-جيتا-Bhagavad- Gita) أحد الكتب المقدسة. وهو يأتي في صيغة حوارية بين الإله كريشنا والأمير (أرجونا. Arguna.) ويعني عنوانه (أنشودة الغبطة).

كلمة (أجني-Agni.) تعني: النار. وهي قريبة من كلمة (جهنم) العربية.

كلمة (أ-جا-A-ja). صفة ما هو غير مولود.

كلمة (مانو-شا-Manu-sha): تدل في الأصل على ما هو غير إنساني.

كلمة (أتمان-Atman): الروح الأولى. النفس البدئي. الأنا الأولى. أو العلة الأولى.

كلمة (أنتارا-Antara): الداخل. ما هو داخلي.أعماق النفس.

كلمة (أنو-Anu): التجربة الروحية. الإشراق الداخلي.

كلمة (أبانا-Apana) تعني: الروح الملهم.

كلمة (أباتا -Apata): المعلم الروحي - المرشد أو الشيخ.

كلمة (أستي -Asti): فعل الكون أو الوجود. وهو يأتي في صيغة (سات-Sat) ليدل على ما هو واقع وموجود. ثم في صيغة (أس-As) ليدل على فعل الوجود والكون. ويأتي أيضاً في صيغة(ستايا-Staya) بمعنى الوجود الحقيقي.

كلمة (أسو-Asu): القوة الفاعلة. ومن الجذر نفسه كلمة (أسورا-Asura) وتعني القدرة الإلهية.

كلمة (سوريا-Surya) تعني الشمس. أمّا الظلام أو عدم إشراق الشمس فتعبر عنه كلمة (أ-سوريا -A-Surya). وحرف A في أول الاسم يدل على النفي أو عدم الوجود. ومن الملفت للنظر أنَّ أهل الساحل في سورية يستعملون الحرف نفسه للنفي فيقولون مثلاً (أي خبز) بمعنى لا يوجد خبز.

كلمة (أزد-Azad) تعني الحرية. وهي تشترك في ذلك مع دلالة كلمة حرية في لغات أخرى.

كلمة (بالا- Bala): تدل على القوة. وهي قريبة من العربية (بلاء) في قولنا: أبلى بلاء حسناً. أيّ أظهر القوة.

كلمة (باهيس- Bahis) تعني الخارج.

كلمة (بهجا- Bahga) تدل على الغبطة والبهجة والسعادة. وهي تشابه في لفظها ودلالتها لفظة (بهجة) العربية.

كلمة (دا -Da) تدل على فعل (أعطى) يعطي. وهي قريبة من العربية (أدى) التي تؤدي المعنى نفسه.

كلمة (داهارا-كاشا Kasha Dahara) وتعني الأثير السماوي.

كلمة (دايا- Daya) تعني: الرأفة والرحمة.

كلمة (كام- أو جام -Gam) فعل بمعنى (قام أو رحل). وهي قريبة من العربية (قام) أو نهض ليذهب.

كلمة (إيش- Ish). تعني الإله المتجسد - المرئي. وهي قريبة من فعل (يعيش) بالعربية.

وهو أقدم اسم أطلق على الإنسان (عش) ومنه اسم المرأة (عيشت) في لغات المشرق القديمة.

كما أنَّ اسم الجلالة الإلهية في السنسكريتية-الهندوسية يأتي في صيغة (إيشا -Isha). أيّ، الحيّ.

كلمة (كار-كري- Kar-Kri). تدل على الصنعة أو الحرفة. والملفت للانتباه أنَّ الكلمة السومرية القديمة (كار) والتي كانت تدل على المرفأ أو ضفة النهر أصبحت اليوم في المحكية السورية تدل على معنى الصنعة فنقول (صاحب كار) أي يعرف صنعة ما.

التركيب الصوتي (أ.و.م- A. U. M أو O. M) هو رمز صوتي للمطلق. أو الصوت الكوني الأوّل الذي كان أصل الكون والخليقة في البدء. ويأتي تعبير الصوت الأولي أيضاً في صيغة مركبة من (شابدا-Shabda) ومن (براهمان-Brahman).

كلمة (نادا - Nada) لها معنى العاصفة أو الصخب الأعظم أو الصوت الداخلي. وإذا أضفنا إليها كلمة (شابيدا - Shabida.) دلت على الصوت البدئي. أو الكلمة الخالقة الأولى.فهي هنا تأتي بمعنى (كنْ) العربي في صيغة فعل الأمر. ومن المفيد الإشارة هنا إلى أنَّ كلمة (نادا) تأتي في اللغة الحثية السورية القديمة بمعنى: أعلن أو كشف. أو (منادا) أيّ التكلم بصوت مرتفع. وعكسها في الحثية (مو-نادا) أي ما هو سري وغير معلن.

كلمة (نيتيا- Nitya): تدل على صفة الديمومة وما هو دائم.

كلمة (ناستي - Nasti) تدل على العدم أو اللاوجود. أو صفة ما ليس له كينونة.

وتقابلها كلمة (نارا - Nara) التي تدل على الوجود الإنساني. ثم كلمة (نارا-ليلا-Nara-Lila) التي تدل على التجسد أو الحلول الإلهي في الإنساني.

كلمة (كالا-Kala) تعني: القدر أو المصير. وتدل في الوقت نفسه على الأمان والطمأنينة.

كلمة (كالبا-Kalpa): تدل على الدورة الكونية الدائمة.

كلمة (كافي- Kavi) تعني: الشاعر، وفي الوقت نفسه تدل على الرائي الذي يرى رؤى.

التركيب (كو- هام -Ko-Ham) تركيب هام جداً لأنَّه يطرح السؤال الفلسفي الشهير:

من أنا، ومن أكون؟ ومنه أيضاً تعبير: (نا- هام -Na-ham) أيّ: أنا لستُ هذا.

أو بالعكس: (سو-هام -So-ham) أيّ: أنا هو.

وأيضاً:(ناما-Nama) التي تدل على الاسم أو الفعل - الكلمة. وأيضاً كلمة (ناندا-Nanda) التي تعني (الفرح أو الغبطة.) وهذا يقودنا إلى مفردة أساسية في الديانة البوذية وهي كلمة(نيرفانا- Nirvana) الشهيرة. والتي تعني حرفياً: حبس الأنفاس، أو دخول الأنا في الوجود اللامتناهي، أيّ إدراك الحقيقة وعدم تكرار الولادة.

التركيب (كريتا - كريتيا - Krita- Kritya). تركيب آخر فلسفي وديني يدل على أصل الخليقة ومن خلق الكون. والتركيب السنسكريتي يعني: من خلق ما وجب أن يخلق؟

التركيب (ماها-كارانا --Maha Karana) هو الاسم الذي يُطلق في المفردات السنسكريتية-الهندوسية على (العلة الأولى). وقريب منه تركيب (ماها-

بوروشا- Maha- Purusha) وهو يعني (الكائن الأعلى) أو الخالق.

كلمة (مترا -Matra). وهي تدل على المقياس. ونجدها قد بقيت في كلمة (متر) في أكثر اللغات للدلالة على القياس.

كلمة هامة جداً هي كلمة (لوكا Loka). أو (لوقا). وهي تدل على العالم أو المظهر الخارجي للبشر والأشياء. ونجدها قد بقيت في فعل (لقى أو التقى) أيّ رأى المنظر الخارجي للشخص أو للشيء فعرفه. والجذر بقي في الإنجليزية في صيغة (Look) التي تدل على المظهر الخارجي بدورها. ولا تفوتنا الإشارة إلى أنَّ اللفظة اسم شهير في تاريخ المسيحية. وهي اسم مؤلف الإنجيل المعروف باسم (إنجيل لوقا).

كلمة (مها -Maha) تعني: الجلالة أو العظمة أو المتعالي. وعلى سبيل المثال فعبارة مثل: (مها- بهافا-Maha-Bhava) تعني الحب الأكبر. أو أقصى حدّ أو أعلى حالة من الحب يمكن للمرء أن يصل إليها. وكذلك تعبير مثل (مها-ديفا-Maha-deva) يعني الله جلّ جلاله أو تعالى. وهي تأتي أحياناً في بعض النصوص في صيغة (مها-كارانا- Maha- karana) فتأخذ معنى (العلة الأولى). وقد يأتي المعنى نفسه في صيغة (مهات-Mahat). أمَّا تركيب مثل (مها- ديفي- Maha-devi) فهو يحمل المعنى نفسه في صيغة المؤنث.

أمَّا الخواء الكوني البدئي أو الفراغ الكوني فيطلق عليه اسم (مها-شونيا- Maha-shunya).

كلمة أساسية في الهندوسية هي (شاكتي- Shakti) وهي تعني الطاقة الأولى التي صنعت الخليقة بما فيها.

كلمة (مندلا -Mandala) وهي من أشهر الكلمات السنسكريتية-الهندوسية. وتعني الدائرة الكونية. وفيها كل الأشكال الهندسية. وقريب منها كلمة (مانديرا- Mandira) التي تطلق على المعبد.

كلمة أخرى أساسية في الفكر الهندوسي هي: (باراماناندا- Paramananda) أي الغبطة التي يتوصل إليها من يصل إلى الحقيقة العظمى، أو يدرك (الروح الكونية التي تدعى-Paramatman) أو (أتمان- Atman) التي تعني الوجود الخالص النقي- الروح. أو (الكلمة العليا --Para Vach) وأيضاً، (بارا- فيديا- Para- vidya). وثمة تعبير آخر له الدلالة نفسها هو (برا-جنانا -Pra-). وهو تعبير قريب من اسم (الجنة). وهي الحالة الروحية التي يحصل عليها المتأمل -الناسك- المعلم. وهي ضرب من الحالة الصوفية أو النعمة الإلهية. (براسادا-Prasada) يدركها من

يعيش حالة (الحبّ المجنون) (بريمونمادا- Premonmada). والذي يصل إلى حالة ما هو كلي وكامل فهو (ساماجرا- Samagra). كلمة شهيرة كاسم علم هي (رافي-Ravi) وهي من الأسماء التي تُطلق على الشمس.

كلمة (ريتا-Rita) صفة النظام الكوني أو (الدهارما-Dharma.) القانون الكوني. وهو الاسم الذي يُطلق على الديانة الهندوسية.

كلمة هامة جداً هي (أدفايتا- Advaita) وهي تركيب لغوي سنسكريتي يدل على الواقع الأعلى (البراهما) كإله وحيد ليس له مثيل ولا شريك.

كلمة (أكشا -Aksha) تدل على النوع الجنسي أو العنصري وعلى الأثير البدئي.

كلمة (أفيديا -Avidya) وتعني الجهل وعدم المعرفة الروحية.

كلمة (أفاتار -Avatar) وتعني الأسلاف. وأعلاهم شأناً هما القوى العليا: (راما) و(كريشنا) أسلاف (فيشنو).

كلمة شهيرة كعنوان واحد من أهم الكتب الدينية الهندوسية: (بهاجافاد- جيتا-Bhagavad-Gita). وتعني قصيدة مدح الله. أو (نشيد الغبطة). وفيها يتجلى الإله (كريشنا) في صورة الإله (فيشنو) ليعلم (اليوجا-الحكمة) للأمير (أرجونا).

(براهمان -Brahman): الوجود المطلق وأصل الوجود.

كلمة (شاكرا-Shakra) وتعني: الدولاب أو الدائرة.

المصادر والمراجع الأساسية بالفرنسية

1- Les grandes religions de l'Asie — أديان آسيا الكبرى، تأليف: L.Dumateet

2- Sept Upanishad — كتب الأوبانيشاد السبعة، الترجمة الفرنسية: J-Karnne.

3- Sagesse hindouiste — الحكمة الهندوسية، تأليف: G.Rachet

4- Le Sanskrit — اللغة السنسكريتية، تأليف: P.S.Filliozat.

5- La philosphie indienne — الفلسفة الهندية، تأليف: F.Chent.

6- L'Ande clssique — الهند في العهد الكلاسيكي، تأليف: M.Angot.

لماذا غفلا عن ثوابت التلاقي

د. أحمد عمران الزاوي *

المسيحية والإسلام

لماذا عاشا ويعيشان منذ قرون حالة التباعد الفكري؟

كانا منذ القديم، وحتى الآن يعملان لتحقيق غاية واحدة، وهي بناء الشخصية الإنسانية والمجتمع الإنساني على قواعد ثابتة في التربية العبادية والأخلاقية.

وكلاهما: حينما تحدثا مع الإنسان عن الصيرورة والمصير. توجّها إلى ملكة العقل لديه وغرسا فيه قناعتين.

الأولى: إنّ مدهشات الوجود بتنوع موجوداته وتوزعها. واستمرارها. هي من صنع صانع، كلي الإدراك، وكلي التخطيط، وكلي القدرة.

الثانية: إنّ تلك البدائع لم توجد عبثاً، ولن تنتهي عبثاً. بل هي تابعة لمشيئة المبدع. ابتداء وانتهاء.

كيف؟ ولماذا؟ تساؤلان اندلعت نيرانهما في أحشاء فكره، منذ أن صار لديه فكر.

ولكنها حتى الآن لم تحطّ بغير القشور.

فآمن بما لم يعلم. وآمن بما لم يرَ. أي: آمن بعجزه عن العلم والرؤية لقد طيبت خاطره «طوبى المسيح»[1] فخمدت نيرانه بعض الوقت لكي تعود إلى التوقد بعد قرون.

عادت باحثة لاهثة عن «أسرار الكون

* أديب ومحام وباحث سوري.

والتكوين والمكون» ولكن القرآن أخبر الإنسان بقول صاعق صادق.

﴿ولله غيبُ السماوات والأرض وإليه يُرجَعُ الأمرُ كلُّهُ﴾ (اقتباس من الآية ١٢٣ – من سورة هود رقم ١١)

« **فلا يظهرُ على غيبهِ أحداً...** (اقتباس من الآية ٢٦ – من سورة الجن رقم ٧٢).

إذ ذاك:

وقف – رضاءً أم قضاءً – عند حدود جوارحه لا يتجاوزها قيد أنملة .

وقف عند النقاط التي لم يسمح باجتيازها.

فلا يقول « سمعت ولم يسمع» «ورأيت ما لم ير» و «علمت بما لم يعلم».

فالبصر مسؤول عمًّا رأى. والسمع مسؤول عمًّا سمع. والقلب مسؤول عما عزم عليه.

هي حواس مخلوقة مأمورة بمهمات لايشترك معها فيها غيرها إذ بنى الخالق عليها جميع الدلائل المادية.

﴿إنَّ السَّمعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئك كان عنه مسئولا﴾ (الإسراء – ١٧/ ٣٦)

﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ (الملك – ٦٧/ ٢٣)

وهي – أي الحواس – وإن كانت مكلفة بالمهمات الوجودية المادية فقد منحت القدرة على الاختيار، أنجبت تنوع الأفكار. فنتجت عن هذا التنوع شراسة التصرفات وتوتر العلاقات.

تعددت قراءة النصوص. وتعدد الفهم بتعدد الناس وحيازة كل منهم على اختيار ما يراه مناسباً.

العقلاء. فقط. هم الذين أدركوا أن الرسالات خاطبت في الإنسان ملكة العقل والحكمة. وأكدت له. أن بهما يستطيع استبدال ثوبه الاجتماعي القديم بثوب جديد يفصح عن مقاس تطوره.

قالوا لنا: ألم تقرؤوا قول المسيح؟ «تعرفوا إلى جميع السبل واختاروا الأفضل»

ألم تقرؤوا في القرآن **﴿لا إكراه في الدين﴾** **﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾** ؟ (البقرة ٢/ ٢٥٦ – ٢٨٦)

ولكن مع الأسف الشديد لا يزال التشنج رابضاً على أبواب النفوس.

فهذا العلماني الذي يكاد لا يؤمن بالله والكتب والرسالات ورث الانتماء الديني وراثة « بصمية» عن الأسرة يتحول على الفور ثائراً حتى الاستشهاد حينما تطرح بعض موروثاته على مائدة الحوار.

هنا وانطلاقاً من هذه الزاوية الحادة تبدو حاجتنا في أقصى حالاتها إلى العقل المحلل الحيادي. فالحياة العربية ألقت على عاتق العقلاء العرب – في هذا الزمن الصعب – أن يرفعوا « الإنجيل والقرآن» فوق الرؤوس وأن يشيروا بالأصابع العشر إلى نصوص التلاقي بين الكتابين على الصعيد

الاجتماعي من تشريع وأخلاق تحت سقف الوطن الواحد.

ففي رسالته إلى غلاطية قال الرسول بولس:

«ليس يهودي ولا يوناني، ليس حر ولا عبد، ليس ذكر ولا أنثى، لأنكم جميعاً في المسيح يسوع» (٣/٢٧)

وفي سورة يونس قال القرآن:

﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كُلُّهُمْ جميعاً أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ (١٠/٩٩)

وفي سورة الحج قال:

﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إنّ الله يفصل بينهم يوم القيامة إنّ الله على كل شيء شهيد﴾ (٢٢/١٧)

هذه النصوص وإلى جانبها في الكتابين الكثير الكثير تدحض ادّعاء من أقام نفسه وصياً قيماً على العباد، يوزع على من يشاء وكيفما يشاء صكوك الغفران وشهادات الإيمان. وأوصاف الكفران لأنّه مدع مغرور.

سطا بذلك على ما انفردت به الذات الإلهية وأحلّ نفسه محلّها[٢]

فالله الذي خلق الموت والحياة[٣] هو وحده الذي يفصل في الإيمان والكفر. لأنّه القائل ﴿إن الحكم إلا لله يقصُّ الحقَّ وهو خيرُ الفاصلين﴾ (الأنعام ٦/٥٧).

كنت في عام ٢٠٠٣م أصدرت كتاباً استبعدت فيه دعوات العداء والتقسيم وبينت بالأدلة القاطعة - في حدود معرفتي - أن الاختلافات لم تتعدَّ الأشكال والطقوس - سيراً مع اختلاف الأزمنة ولكن عدم الفهم الصحيح لها. أوصل إلى نفي حالات التلاقي وبالتالي أوصل هذا الخطأ إلى تدمير البلاد والعباد.

- اختلاف الأزمنة والأمكنة، هو الذي أدّى إلى الاختلافات التي لم تكن في يوم من الأيام، على الصيرورة والمصير والتكليف والحساب.

فالقرآن يقول:

﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم..﴾ (إبراهيم ١٤/٤).

واللسان: لا يعني لغة الكلام فقط، بل يشمل جميع الظروف الموضوعية السائدة فكانت الرسالة تتحدث مع الناس بلغتهم، وتتعمق في الظروف الموضوعية السائدة متجاوزة بكل احترام. ما سبق منها، غير معتمدة إلا على ما لا بد من اعتماده في الظروف الجديدة، مضيفة ما لا بدّ من إضافته لكي يغدو ما تقدمت به من تعاليم ونصائح عل مقاس العقل والتطور وكلاهما: السيدان المسيح (عليه السلام) ومحمد (صلى الله عليه وسلم). كانا حريصين على إبلاغ هذه الحقيقة للناس كافة.

فالمسيح (عليه السلام) قال: «لا تظنوا

أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل» (متى ٥/١٧).

ومحمد (صلى الله عليه وسلم) قال: **«انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»**

البسطاء فقط هم الذين يقصرون المعنى الإسلامي على دعوة سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم).

أمَّا في الحقيقة:

فإن معنى الإسلام هو التسليم لله والإيمان بأن منه الصيرورة وإليه المصير وأولئك الذين قرؤوا الآية /١٩/ من آل عمران **﴿إنَّ الدين عند الله الإسلام﴾**.. **﴿ومن يبتغ غيرَ الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾** وفهموا منها أن كلمة الإسلام لا تعني غير ما جاء في بداية القرن السابع الميلادي أولئك البسطاء خالفوا - عن قصد أو من دون قصد - آيات القرآن نفسه:

- ففي الصافات تحدث القرآن الكريم عن سيدنا إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل بقوله: **﴿فلما أسلما وتلّه للجبين..﴾** (٣٧/١٠٣).

- وفي البقرة قال: **﴿ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنيَّ إنَّ الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾** (٢/١٣٢).

- وكانت الآية السابقة قالت: **﴿إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لربّ العالمين﴾** (٢/١٣١)

قال علي (كرم الله وجهه):

«لأنسبنَّ الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي. الإسلام هو التسليم. والتسليم هو اليقين. واليقين هو التصديق. والتصديق هو الإقرار. والإقرار هو الأداء. والأداء هو العمل.

المؤمن أخذ دينه من ربه، ولم يأخذه عن رأيه.

المؤمن يعرف إيمانه في عمله والكافر يعرف كفرانه بإنكاره.»

- ثم جاءت الآية (١٣٣) من سورة البقرة لكي تؤكد بأن الإسلام هو التسليم لله. وأنه بهذا المعنى سوف يبقى إلى ماشاء الله.

﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً - ونحن له مسلمون﴾ (٢/١٣٣)

بهذه الآيات وأمثالها .

وبقول الإمام.

يتبين لكل مؤمن عاقل حيادي.

أنَّ الإسلام هو التسليم لأمر الله. وذلك يوجب على المسلم أن يكون صادقاً مع الله ومع الآخرين، وخاصة إن كان الآخر قسيم الوطن إلى الأبد.

إنَّ كوني مسلماً منتمياً إلى عائلة إسلامية حملني علـى الاستقصاء. حيث انتهيت إلى أن الإسلام أوجبه الله بمعناه الحقيقي على جميع مـن في السماوات والأرض منذ أن خلق الله في السماوات والأرض.

﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون﴾ (آل عمران ٣/٨٣)

حتى السحرة قالوا لفرعون عندما نقم عليهم إيمانهم:

﴿وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا. ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾ (الأعراف ٧/١٢٦)

وأمَّا ما جاء في الآية (٧٨) من سورة الحج.**﴿وجاهدوا في الله حق جهاده. هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج. ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا...﴾**

إنَّما كان يعيد قارئ هذه الآية إلى ما سبق ومن سبق.

﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾.. **﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾** (البقرة ١٢٧/١٢٨)

وإلى سيدنا نوح إذ قال لقومه:

﴿فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ (يونس ١٠/٧٢)

ثم تابعت استقصائي. فاتجهت إلى اللغة تنقيباً وحفراً عن الأساس اللغوي لكلمة الإسلام فوجدت: أن جميع الصيغ اللغوية التي تنجم عن «أحرف: س – ل – م» تعني السلامة من فساد القول والعمل وإذ يطلقون «سليم وسلمان وسالم على الأبناء فذلك تيمناً بالسلامة أن تحل بهم.

والسلامة بحجمها الكبير تعني مصلحة الجميع وذلك يعني الدين.

حتى لقد عبَّر الفقيه الحنبلي الدمشقي «ابن قيم الجوزية» في القرن الرابع عشر عن هذا المعنى بقوله: «أينما وجدت المصلحة العامة فثم شرع الله ودينه»[4]

لذلك: وبعد التمحيص والاستقصاء:

– استبعدت من حظيرة الفهم الصحيح للإسلام جميع الدارسين والقارئين والمفسرين الذي ينطلقون من منطلقات التعصب والتحيز والانفعال فيما يكتبون ويخطبون. فمن حق الحقيقة أن تنتشر خالية من الأصباغ والهوى. لأنَّها تمثل الصالح العام.

– والخلافات التي ارتدت كسوة الدين ولا تزال تطحن الأمم ليست من الدين.

فالدين الحقيقي بوجهه الاجتماعي هو «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتطبيق المساواة في الحقوق والواجبات وأن على رد الفعل ألا يجاوز الفعل.

وعلى الجزاء ألا يتجاوز الاعتداء.

فالتجاوز اعتداء ﴿والله لايحب المعتدين﴾ (البقرة ٢/١٩٠)

وبعد:

فالهم الرابض على صدورنا، هو أننا العرب - مسيحيين ومسلمين- هدف للطامعين في سياستنا واقتصادنا وثقافتنا.

فلأمر ما، قضى الله أن تنبثق ينابيع الحضارة والأديان من ربوعنا فلم يكن يتضاءل أي ضوء حضاري حتى يترك وراءه ثمالة من الأقوال والأفعال، مما جعل من بلادنا على مرور الزمن، موزاييك الأفكار والعقائد والشعائر.

ولكن - مع الزمن أيضاً - قامت الحاجة بين هذا الموزاييك إلى وحدة الكلمة لأنَّ الحياة فرضت وحدة المصير. وشيئاً فشيئاً نما شعور المواطنين وما زال حتى احتل المرتبة الأولى في المشاعر.

الفرد يلد في الوطن ويعمل ويبني فيه يتناسل ويموت ويدفن فيه إلى جانب قبور أسلافه.

وقد مرت على الوطن حروب وظروف فما كان الانتماء إلى منتميات المعتدي عاصماً له مما وقع على جاره.

لذلك تغيّرت المشاعر مع الزمن.

سوف أكتفي هنا بتقديم أمثلة من الذاكرة القريبة.

حينما قدمت جيوش الفرنجة غازية بلادنا باسم «الصليب» لسنا جميعاً (مسيحيين ومسلمين) أن ذلك كان دعوى باطلة.

فالصليب يجمع ولا يفرق، ويرفض العنف، ويدعو إلى المحبة والرحمة وسيد الصليب عليه السلام انتهى بطرس حينما قطع بسيفه أذن عبد رئيس الكهنة وقال له «ردّ سيفك إلى مكانه لأنَّ كل الذين يأخذون بالسيف يهلكون...» (متى ٢٦/٥١ ويوحنا ١٨/١٠)

فتآخت القلوب والسواعد.

قامت بعملية التآخي بينهما وحدة الأمل ووحدة المصير[٥] والضرورة التي فرضتها مجابهة حملات العدو الأوروبي التي كانت تتالى واحدة بعد الأخرى.

وحينما تعرضت اللغة العربية لغة القرآن والفكر والشعر إلى هجوم عملاء الاستشراق كانت بيوت العلم المسيحية أول من صوّب سهام الدفاع عن اللغة « بالكتب والكتابات والمعاجم والمراجع».

بيت اليازجي، بيت كرم، بيت البستاني، بيت الشرتوني وسواهم فكان ذلك دعماً لأبديَّة اللغة العربية وعبقريتها.

وحينما طالب الأستاذ سعيد عقل وتلامذته بوجوب إقصاء اللغة العربية من حياتنا اليومية والفكرية وإحلال الحرف اللاتيني أو اللغة العامية المتداولة في الشوارع العربية.

ردّ الجميع من مسيحيين ومسلمين قائلين:

لماذا لم تطالبوا بإجراء هذه العملية الجراحية على اللغة العبرانية التي لا تزال منذ ثلاثة آلاف سنة تعتمد الخط الآشوري المربع.؟

قالت مدرسة سعيد عقل: أوروبة كافة هجرت اللاتينية واتبعت كل خارطة جغرافية لغة التداول مقتدية بأول المؤلفين بالعامية «دانته» الإيطالي؟

فكان الجواب نعم دانته كان أول السالكين هذا الطريق وكان أول من كتب بلغة التداول هو كتاب «الكوميديا الإلهية»:

ولكن العاميات التي انتشرت في أوروبة كافة وضعت أبجديات وقواعد التزمت بها في حين أنّ العامية العربية المطالب بها لاتملك أية قواعد ولا أبجديات.

لقد أكد النبي (ص) على اللغة العربية فاعتبرها النسب الحقيقي أي الرابط الحقيقي الذي يربط العربي أينما كان بالعربي أينما كان فقال :

« ليست العربية بأب وأم - العربية باللسان فمن تكلم العربية هو عربي».

وأخيراً:

تكشفت نوايا دعاة التخلّع من اللغة وبات معلوماً لدى الجميع أن هدفها هو الإلقاء بنا في العولمة حيث تجري صياغتها الفكرية والسياسية كما يريد الصائغ الغربي.

قالوا: كلا بل نريد انتشالكم من صحراء الفكر والعادات والقيم.

قلنا: أية صحراء في « بذل المحبة للأعداء» و« الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحريم القتل والسرقة والزنا وقول الزور واعتبار كلمة الحق تجابه بها الظالم تعادل العبادة و التأكيد على أن حبر العالم يرجح يوم القيامة على دماء الشهيد و اعتبار وجود الله دوماً حيثما توجد المصلحة العامة؟!.

قال بعض المستمعين إلى ما سبق: والآن أن تعدد - ولو بإيجاز - محطات الالتقاء العقائدي والفكري التي التقت فيها المسيحية بالإسلام.

قلت: ها أنا ذا أعدد منها ولا أعددها ولكن لا بد من كلمة توضيحية تفصح عن سبب التلاقي وهي: إن المتكلم واحد هو الله وغايته من كلامه واحدة هي تربية الإنسان عبادياً واجتماعياً .

وذلك لن يكون إلا إذا جاءت كلمة الله في مستوى التطور من دون تخلف أو تجاوز. وحينما قرأنا قوله تعالى: « **إنا كل شيء خلقناه بقدر....**»(٦)

دققنا في الموجودات - بحدود معارفنا - فوجدنا أن الموجودات من الذرة حتى المجرة ومن القطرة حتى البحار مخلوقة بحكمة ومكلفة بغاية لا تستطيع أن تنأى عنها أو أن تحيد إلى سواها.

وحينما قرأنا : **﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون...﴾** (الذاريات ٥١/٢١)

تطلعنا في أنفسنا فوجدنا أن كل جارحة وكل عضو وكل وريد وكل شريان مخلوق بحكمة وتدبير ومكلف بغاية لا يحيد عنها.

فالعين للنظر والأذن للسمع واللسان للكلام واليد للتناول والرجل للإيصال والأمير الداخلي (الفكر) للتخطيط والتوجيه.

هذه الحقائق المرئية والملموسة أدركتها الديانتان فجاءت معددة في الكتابين على أن ثمة جوامع جمعت بين المسيحية والإسلام على الصعيد الاجتماعي غير ما ذكرناه من الحقائق التي تتفق فيها جميع الخلائق.

ومنها أي من الجوامع مايلي:

١- الدين بمفهوم الديانتين يدعو إلى: « المساواة بين الناس» و« الرأفة بالضعفاء» و « ممارسة أفعال الخير » و« الابتعاد عن ممارسة الشر».

٢- الدين الجديد يأخذ الملائم من القديم ويضيف إليه ما يفرضه الحاضر.

أي ليس من خصام بين ما غبرَ من الديانات والكتب وما حضر فالمسيح (عليه السلام) قال: ما جئت لأنقص الناموس أو الأنبياء بل جئت لأكمّل. والنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) قال: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.

٣- التوحيد: هو مناط الديانتين وإن اختلفت الصيغ.

ففي الصلاة يجب على كل مسيحي أن يقول في صلاته باسم الآب و الابن والروح القدس إله واحد.

وفي العشاء السري قال المسيح لتلاميذه: عمدوا جميع الأمم باسم الآب والابن والروح القدس (متى ٢٨/٢٩ - ٣٠)

ولم يقل « بأسماء»

وتكررت وحدانية الله في الأناجيل. يوحنا ٥/٤٤ و متى ١٩/١٧ و مرقس ١٢/٢٩ - ٣٢ و غلاطية ٣/٢٠ و يعقوب ٢/١٩ و أفسس ٤/٥ و رومية ٣/٣.

أمَّا في الإسلام فقد بلغت جهارة التوحيد أقصاها في سورة الإخلاص **﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾** فالأحد لا يتجزأ ولا يتكثر بخلاف الواحد الذي يتجزأ و يتكثر إلى ما لا نهاية والصمد هو الذي ليس له جوف لأن الأجواف تستعبد المخلوقات.

٤- الصلاة:

تعني في المسيحية والإسلام «الدعاء» و «الاستغفار» والعبودية لله وهي وإن اختلفت الديانتان في الأسلوب المادي لأدائها فإنها واحدة في الغاية لدى كلتيهما.

٥- الأخلاق الاجتماعية:

قال المسيح:

«من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً ومن خاصمك ليأخذ ثوبك فاترك له الرداء ومن سخرك ميلا فاذهب معه اثنين» (متى ٥/ ٣٩ -٤٠) .

والقرآن قال:

﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ (فصلت ٤١/٣٤)

٦- النظرة إلى الثراء:

قال المسيح (عليه السلام): ما أعسر دخول ذوي الأموال إلى ملكوت الله وما أعسر دخول المتكلين على الأموال إلى ملكوت الله مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني ملكوت الله. (مرقس ١٠/٢٣ - ٢٤ - ٢٥).

وفي القرآن:

﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم(٣٤) يوم يحمى عليها في نار جهنم[٧] فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ (التوبة ٩/ ٣٤ - ٣٥)

٧- أهمية الدعوة:

قال المسيح (عليه السلام) لتلاميذه في العشاء السري:

«فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس وعلموهم أن يحفظوا جميع ما وصيتكم به وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر». (متى ٢٨/ ١٩ - ٢٠).

وفي القرآن أمر صريح إلى محمد (صلى الله عليه وسلم):

﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً...﴾ (الأعراف ٧/ ١٥٨).

﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً..﴾ (سبأ ٣٤/٢٨).

٨- يوم الحساب:

في المسيحية اسمه « يوم الدينونة» أي اليوم الذي يدين الله فيه العالم « أعمال ٣١/١٧ وبطرس ١٧/١ (متى ٥/٢)

وفي القرآن الكريم: يوم الدين

﴿مالك يوم الدين﴾ (الفاتحة ٤/١)

٩- الخمر:

سميت بهذا الاسم لأنها تخامر العقل وتغطيه عند السكر.

قال الملاك لزكريا عندما بشره بيحيى.

«لأنه يكون عظيماً أمام الرب وخمراً ومسكراً لا يشرب» (لوقا ١٥/١)

وفي رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس.

« فالسكيرون محرومون من وراثة ملكوت السماوات». (كورنثوس الأولى ١ من ٦-١٠)

وفي القرآن الكريم:

﴿يا أيها الذين آمنوا إنَّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ (المائدة ٥/٩٠).

١٠- حرية الاختيار:

هي حرية التصرف بين الخير والشر قولاً وعملاً.

فعليها في الديانتين يتم الحساب.

في رؤيا يوحنا اللاهوتي قال الملاك

«مـن يظلم فليظلم بعد ومن هو بخس فليتبخس بعد ومن هو بارٌ فليتبرر بعد ومن هو مقدس فليتقدس بعد وها أنا آتي سريعاً وأجرتي معي لأجازي كل واحد كما يكون عمله». (٢٢/١١ - ١٢٩)

وفي القرآن الكريم:

﴿إنَّا هديناه السبيل إمَّا شاكراً وإمَّا كفورا﴾ (الإنسان ٧٦/٣)

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره (٧) ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ (الزلزلة ٩٩/٧-٨)

١١- الإيمان بالله:

كلتاهما تؤمنان بقوة الله الأزلية، وأنه مناط الالتجاء.

استغاث به المسيح وهو على الصليب قائلاً: «إيلي إيلي لماذا شبقتني وترجمتها في متى: إلهي إلهي لما تركتني» (متى ٢٧/٤٥).

وفي القرآن الكريم:

﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربَّنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنَّا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار﴾ (آل عمران ٣/ ١٩٣).

والإيمان يعني الالتزام بتنفيذ أوامر الله.

والالتزام بالابتعاد عن نواهيه..

١٢- الإنفاق دون منّ ولا أذى

قال المسيح (عليه السلام):

«احذروا أن تصنعوا صدقاتكم قدّام الناس لكي ينظروكم. فمتى صنعت صدقة فلا تصوّت بالبوق كما يفعل المراؤون في المجامع والأزقة لكي يمجدوا من الناس. وأما أنت فَمَتَى صنعت صدقتك فلا تعرف شمالك ما صنعت يمينك لكي تكون صدقتك في الخفاء» (متى ١/٦ - ٢ - ٣ - ٤ - ٥).

وقال القرآن الكريم:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه ترابٌ فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ (البقرة ٢/ ٢٦٤)

١٣- الزنى و الاتصال المثلي:

قال المسيح (عليه السلام): «قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن.

وأمَّا أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه» (متى ٥/٢٧ - ٢٨)

وقال الرسول بولس: «لا زناة ولا عبدة أوثان ولا فاسقون ولا سكيرون ولا مضاجعون ذكور ولا سارقون ولا طماعون ولا شتّامون ولا خاطفون يرثون ملكوت السماء». (كورنثوس الأولى ٦/٩-١٠).

وفي القرآن الكريم: ﴿ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا﴾ (الإسراء ١٧/٣٢).

﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون﴾ (الأعراف ٧/ ٨١)

كلمة في الختام:

إنَّ قارئ النصوص المسيحية والإسلامية يجد الكثير من تلاقي النهج العبادي والاجتماعي في تلك النصوص. وإنَّ الاختلاف – إن وجد – فهو إمَّا اختلاف في صيغة الإيصال لاختلاف اللغة والزمن. وإمَّا إكمال قامت به الدعوة الإسلامية استجابة للتطور.

عسى أن أكون بهذا المختصر قد ساهمت بعض الشيء في الجهود المبذولة من أجل التلاقي والتقريب.

الهوامش

١- قال المسيح: « طوبى للذين آمنوا ولم يروا ..»(يوحنا - ٢٠/٢٩)

٢- منذ أيام وفي أوائل حزيران من عام ٢٠١٣ - صدر عن أحدهم فتوى بتكفير ملايين من الناس واستباحة نفوسهم وأعراضهم وأموالهم . وهم يقولون ويؤمنون بـ : لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله».

٣- اقتباس من الآية الثانية من سورة الملك - رقم ٦٧ -

٤- ابن قيم الجوزية فقيه حنبلي دمشقي عاش بين (١٢٩١ - ١٣٥٠م) المقابل لـ (٦٩١ - ٧٥١ هـ) هو تلميذ ابن تيمية إذ لازمه ست عشرة سنة وحبس معه في قلعة دمشق ولم يفرج عنه إلا بعد وفاة ابن تيمية في السجن.

٥- مما يجب ألا ينسى أنّ تلك الحملات « بالحروف الصليبية» كانت تسمية أوروبية قام بها ودعا إليها البابا أوبانوس الذي ظل تسعة أشهر يخطب ويتنقل في المدن الأوروبية. وآخر خطاب له، كان في مدينة « كليرمونت» حيث أمر الذين يتبرعون بالحرب أن يضعوا إشارة الصليب على صدورهم وظهورهم وسروج خيولهم . أمَّا عندنا فقد اتفقت جميع المراجع على تسمية تلك الحروب بـ « حروب الفرنجة»

٦- القمر ٥٤/٤٩ - ٥٠

٧- يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم.

آلية الرؤية

*
المهندس فايز فوق العادة

إذا نظر أحدنا حوله فماذا يرى؟

ربما غرفة بجدران ملونة وصور وأبواب ونوافذ. مهما اختلف موضوع الرؤية فهناك حقيقة واحدة واضحة مفادها أنَّ مجموعة من الخلايا في العين والدماغ قامت بتحويل الضوء القادم من المحيط إلى صورة متكاملة متسقة. إنَّ عملية الرؤية هي مزيج من أفعال فيزيائية وفيزيولوجية ونفسية. توصف العين البشرية بكونها بسيطة. تتوضع في العين اللطخة الصفراء حيث تبلغ حدة الرؤية ذروتها والنقطة العمياء التي تخرج الألياف البصرية عبرها صوب الدماغ. تتجمع حول اللطخة الصفراء خلايا مخروطية بينما



تتوزع في محيط الشبكية خلايا في هيئة عصيات. تختص المخاريط بالرؤية في الضوء الساطع وهي تستشعر باتجاه اللون الأحمر، وأجود ما تتحسسه اللون الأصفر. على العكس، تنشط العصيات في الضوء الخافت وهي تستشعر باتجاه اللون الأزرق

* رئيس الجمعية الكونية السورية.

والأكثر جودة ما تتحسسه اللون الأخضر.

ترتبط رؤية الألوان بالضوء الساطع، لذا يتبادل اللونان الأزرق والأحمر دوريهما في الظلمة كما أننا لا نرى السماء ليلاً إلّا بالأبيض والأسود بسبب خفوت الضوء القادم من الأجسام الكونية بينما السدم والحشود الكونية ملونة في واقعها. إنّ القرنية ليست كروية تماماً بما يوفر إمكانية لتحاشي العيب البصري المعروف باسم الزيغان الكروي. تكسر القرنية الضوء وتسدده لذا يظهر المشهد تحت الماء مشتتاً وغير مركّز ذلك أن تساوي قرينتي الانكسار للماء وللقرنية يحول من دون انكسار الضوء وتسديده.

يحاول العلماء صياغة نموذج مفصل للأحداث التي تجري أثناء الرؤية وتنتهي بفهم وإدراك صورة المحيط. تبدأ الأحداث المذكورة عندما تدخل الموجات الضوئية العين حيث يجري تركيزها على الشبكية التي تحتل الجزء الخلفي من كرة العين. تتحول طاقة هذه الموجات هناك إلى نبضات عصبية بوساطة العصيات والمخاريط. يُختزل السؤال المركزي الذي تتوجب الإجابة عنه على النحو التالي: كيف تتحول النبضات العصبية الأولية في الشبكية إلى صورة بيّنة؟

تُعتبر الشبكية كجزء من الدماغ وفيها يجري الطور الأوّل من الحسابات الضرورية لتمييز المشهد المرئي. كيف يفسر الدماغ الأشعة الضوئية على أنّها أشياء وأشخاص.

وما الذي يكوّن الإحساس بلون معين وفي أيّة ظروف نحصل على الحس اللوني المطلوب.

إنَّ الحديث عن لون معين هو ضرب من الاتفاق إذ لا يستطيع أحدنا تحسس أو تذوق الشعور اللوني لدى الآخر.

عرف العلماء منذ مطلع القرن العشرين أنّ العصبونات هي اللبنات الأساسية للمنظومة العصبية. يتكون كل عصبون مهما كان نوعه من جسم خلوي مركزي ومجموعة من النتوءات تُدعى الزوائد المتشجرة: إنّها تفرعات العصبونات التي تحمل النبضات العصبية إذ تتلقاها من مجموعة من العصبونات. يرتبط بالعصبون محور عصبي هو ليف طويل تستخدمه النبضات العصبية كي تتحرك متجهة إلى مجموعة أخرى من العصبونات. إنّ العصبون هو عنصر محوري واحد تُختزل بنيته المنطقية بكل شيء أو لا شيء. عندما تصل العصبون نبضات محددة عبر زوائده المتشجرة فإنّه يُطلق على الفور نبضة عبر محوره.

إنَّ المشكلة المطروحة أمام علماء الدماغ هي: كيف تستطيع مجموعة من الخلايا كهذه والتي تمتلك الخصائص المذكورة أن تشكل صوراً للعالم الخارجي؟ تجري المراحل الأولى من معالجة المعلومات المتضمنة في الموجات الضوئية في طبقتين من خلايا الشبكية تتوضع

أمام العصيات والمخاريط حاجبة الضوء عنها. تنتظم هذه الخلايا على نحو يحقق آلية العمل التالية. تُطلق إحدى طبقتي الخلايا نبضة عصبية قوية صوب الدماغ إن تحسست خلايا الطبقة بقعة ساطعة ذات محيط مظلم.

في الحالة المعاكسة تكتفي الطبقة بإطلاق نبضة ضعيفة. تبادر الطبقة الأخرى من الخلايا إلى إرسال نبضة عصبية قوية نحو الدماغ إن تحسست بقعة مظلمة ذات محيط ساطعة. تكون النبضة المرسلة من خلايا هذه الطبقة ضعيفة إن كانت البقعة ساطعة والمحيط مظلماً.

باختصار تتكون المعلومات الذاهبة إلى الدماغ من نبضات تجري على امتداد المحاور العصبية وتؤدي بالنتيجة إلى فرز حقل الرؤية إلى شبكة من بقع مضيئة وأخرى مظلمة. تصل النبضات العصبية اللحاء البصري الابتدائي خلف الدماغ حيث يترتب على المنظومة بعد ذلك أن تعيد تشكيل البقع المظلمة والمضيئة على هيئة صورة متسقة متكاملة. تُغذي النبضات المذكورة مجموعة من خلايا طبقة معينة من اللحاء البصري خلف الدماغ. تُطلق كل خلية من خلايا هذه المجموعة نبضات قوية إن تلقت بدورها نبضات قوية قادمة من مجموعة جزئية محددة من الخلايا في الشبكية.نضرب مثالاً على ذلك إحدى خلايا اللحاء التي تُطلق إن تلقت نبضات مقابلة لمجموعة مظلمة من البقع تميل بزاوية مقدارها ٤٥ درجة.

بكلمات أخرى، تشاهد هذه الخلية حافة مظلمة مائلة ضمن حقل الرؤية، تُطلق خلايا مختلفة في حالة الحواف المضيئة التي تميل بزوايا متباينة ينتقل ما يصدر عن هذه الخلايا بدوره إلى خلايا أخرى ربما في مواقع أبعد من الدماغ بهدف تحقيق تكامل أكبر للصورة المشاهدة.

إنَّ عملية الرؤية ليست سهلة على الإطلاق. تُطلق العصبونات وتُمرر المعلومات صوب الأعلى عبر سلسلة من الخلايا. في الوقت نفسه تنطلق نبضات التغذية الراجعة على طول المنحى المعاكس من السلسلة تاركة آثارها في الخلايا الأدنى.

إنَّ الوقوع على التفاصيل الدقيقة لهذه العمليات المعقدة هو الهدف الرئيسي للأبحاث المعاصرة. تتميز حركة النبضات نحو الأعلى عبر التشكيل الهرمي للعصبونات ببلوغ عصبونات أكثر تخصصاً وأعمق تفرداً في بنيويتها.

هناك مثلاً عصبونات في الفصين الصدغيين على جانبي الدماغ والتي لا تطلق إلاَّ إذا تلقت نبضات مناظرة لأنماط معرّفة بدقة.

مثلاً تطلق مجموعة من الخلايا بقوة استجابة لوجود دائرة عاتمة يقطعها خط أفقي، بينما تطلق مجموعة أخرى إن استشعرت وجود محيط مربع وهكذا. توكل

إلى الخلايا الواقعة في المناسيب الأعلى من هـرم الرؤية مهمة المكاملـة الأدق للمشهد المرئي.

إذن، هكذا تجري العملية: تتكامل عناصر الصـورة أثناء الصعـود إلى الأعلى في هرم خلايا الرؤية. لكن أين تنتهي العملية وكيف؟ يتحدث بعض علماء فيزيولوجيا الأعصاب عن وجود خلية جدّة. إنّها الخلية الوحيدة في الدمـاغ التي تطلق إن كانت كل المنبهات من الدقة بما يمكّن من تشكيل صورة للجدّة في الدماغ. يرفض علماء آخرون هذا النموذج بينما يبحثون عن نموذج مغاير انطلاقاً من العصبيات والمخاريط في الشبكية.

إنّهم يحاولون تتبع النبضات إلى الدماغ للوصـول إلى الحيز حيث تتكـون الصورة النهائيـة. يذهـب بعـض العلمـاء إلى أنّ الخلايـا المنشودة تتوضع في الفص الجبهي مـن الدماغ. مـن المعلـوم أنّ خلايا الفص الجبهي تطلق عند تفعيل الذاكرة القصيرة. إنّ لهذه الذاكرة علاقة وثيقة بتمييز الجسم الذي شُكلت صورة دماغية له للتو. نشير هنا إلى أنّ الخطة العصبية العامة للرؤية والتي تستنـد إلى هرمية تحسين الصورة المشكّلة، تنطبق على كل النشاطات الحسية والإدراكية الأخـرى إذ تنتقل النبضـات العصبية من منسـوب إلى منسوب أعلى بهـدف تطوير المقابل الدماغي للمصدر المعلوماتي بما في ذلك التركيز على التفاصيل وتنعيمها.

تطورت العين بأكثر من أربعين شكلاً عبر تاريخ الحياة. نجد في قائمة العيون: العيون البسيطة والعيون المركبة والبقع والمخاريط العينية والكؤوس وسواها.

إنّ معظم الثديات مصابة بعمى الألوان بينما تـرى الفراشات والطيـور والأفاعي الألوان يعلل تلون الذكور في بعض الأجناس الحية بالمقدرة الفائقة لدى إناثها على تمييز الألوان. لم تطور اللافقاريات عيوناً أو عيوناً مركبـة، أمّا الفقاريات فتمتلك عيوناً مثلنا، لعل المفارقة الكبرى هي أن الأخطبوط وهو أعلـى الكائنـات اللافقارية يمتلـك عيوناً ودماغاً أشبـه بالإنسان. إنّ للحبّار العملاق أكبر عين عرفها العلماء إذا تمتد حوالى ٤٠ سنتمتراً.

تختلف أعين النحـل، فعين النحلة هي عين مركبة وهـي تتكون من تراصف خلايا عصبية حيث تعبر الأشعة الضوئية كل خلية وتلتقـي الإشعاعـات داخل العـين لتكوين الصورة.

لـو أجرينا بعض الحسابـات الرياضية لتحديـد العرض الأمثل للخليـة في هذه الحالـة لاكتشفنا عرضاً معينـاً يحول دون انتثار الضوء من جهة وانعراجه وحيوده من جهة أخرى.

بكلمات أخرى، يجب أن يكون العرض أكبر من حد معين بحيث يمتنع الانعراج والحيود، وأصغر من حد آخر بما لا يسمح بحدوث الانتثار.

إنّه العرض الفعلي في عين النحلة. إذ لا ترى النحلة الأحمر، بل تتحسس الأشعة فوق البنفسجية. على الرغم من ذلك تزور الورود الحمراء التي تعكس الأزرق وفوق البنفسجي. لا تقترب النحلة من الورود التي لا تعكس هذين اللونين. تتحسس النحلة استقطاب الضوء بذا تحدد موقع الشمس دون أن تراها، بينما لا تتحسس عين الإنسان الاستقطاب إلاّ بنسب محدودة.

يسعى علماء النفس إلى الإحاطة بالمعنى الكلي لمفهوم الأنا حيث يجري تفسير كل النماذج التي يكوّنها الدماغ. يتحرك علماء الفيزيولوجيا العصبية من أصغر المقاييس لفهم ما يحدث على المستوى الجزيئي، بينما يُعنى علماء النفس بالمقاييس الكبيرة. إنّ حل مختلف المشاكل العالقة والخاصة بفيزيولوجيا النشاط العصبي والرؤية إنّما يرتبط بالتقاء علماء النفس وعلماء الفيزيولوجيا في نهايات أبحاثهم.

المراجع

١- عالمنا الرائع في مغامرة الحياة: فرنسيس برونه، ترجمة: مهاة فرح الخوري، وزارة الثقافة، ١٩٨١م.
٢- الكائنات الحية: دانييل بريقولت، ترجمة: وائل الأتاسي وسهيل الحكيم، وزارة الثقافة، ١٩٨٤م.
3- The Feynman lectures on physics: Richard p.feynman: Addison- wesley: 1966.
4- The Cognitive Neurosciences: Michael S.Gazzaniga: MIT Press: 2009.

احتدام الحرب السيبرانية العالمية الصامتة

د. خير الدين عبد الرحمن ❁



بينما يزداد واقعنا الراهن تعقيداً وتشابكاً على كل صعيد، تبدو أبرز ملامح الغد إيغالاً في دمج الإنسان بالكمبيوتر سريعاً، وتكريس تحول العلم إلى ثقافة، وتحول الثقافة إلى علم، ونشر أكبر لعبادة التكنولوجيا متداخلة مع عبادة عجل ذهبي معاصر، ومع عبادة القوة وعبادة الشهوات، تلح الحاجة إلى استشراف مستقبل الحروب والصراعات المسلحة التي تنتقل أدواتها الرئيسة من أسلحة نارية وكيماوية ونووية وبيولوجية إلى ذبذبات وإشعاعات والكترونات.

❁ باحث وأديب ودبلوماسي سابق.

في مثل هذه الأوضاع تتشابك احتمالات وعوامل متناقضة. فمع تأكيد أنَّ العلم والتقانة سبيل مؤكد للإنجاز والانتصار، نجد أنَّ النتائج تنتهي على نحو مختلف.

فالولايات المتحدة صاحبة أكبر ميزانية عسكرية في التاريخ، وصاحبة أضخم مؤسسات تقانية ومجمع صناعات حربية - وإلكترونية بشكل خاص- وأكبر أسطول جوي وأسطول بحري وقدرات فضائية وشبكات اتصالات في العالم تخسر الحرب العسكرية عملياً في العراق وأفغانستان كما خسرتها من قبل في فيتنام، بل وخرج من قادتها من يقر بأنَّها تخسر الحرب السيبرانية التي كانت تشكل أكبر مكامن قوتها وقدراتها على الإطلاق!

كتب مايك ماكونيل مثلاً، مدير وكالة الأمن القومي في إدارة الرئيس كلينتون ثم مدير وكالة الاستخبارات القومية في إدارة جورج بوش الابن الثانية، مقالة[1] عنوانها (كيف نربح الحرب السيبرانية؟) بدأها بالقول حرفياً: «تخوض الولايات المتحدة اليوم حرباً سيبرانية، ولكننا بكل تأكيد بصدد خسارتها، والواقع أننا نخسرها حقاً.

الأمر بمنتهى البساطة هو أنَّ أمريكا أكثر الدول اعتماداً على الشبكات، وبالتالي فهي الأكثر عرضة للهجمات. ومع ذلك فإنَّ دفاعاتها السيبرانية يعتريها شلل واضح؛ فالمشكلة لا تتعلق بالموارد، على الرغم من الضائقة المالية الحالية، ذلك أنه بإمكاننا احتمال رفع كلفة مستوى دفاعاتنا، ولكن المشكلة الحقيقية هي أننا نفتقر إلى إستراتيجية متماسكة لمواجهة هذا التحدي».

توقع تقرير المعهد الدولي للدراسات الإستراتيجية في لندن الصادر في مطلع شباط ٢٠١٠م أن يشكّل الفضاء الإلكتروني الساحة الرئيسة للصراعات الدولية في الغد القريب. استشهد التقرير بنشاط روسيا الإلكتروني - وخاصة عبر الإنترنت - في حربها ضد جورجيا التي اعتبرها كثير من الخبراء[2] حرباً مفصلية أخذ التحدي الروسي للهيمنة الأمريكية فيها بعداً إستراتيجياً كبير الأثر، واستشهد كذلك بنشاط الصين الإلكتروني المتزايد، وأيضاً بأنشطة دول أخرى عدّة ومنظمات مسلحة وأخرى سياسية.

أبرز التقرير تفاقم آثار الهجمات التي يجري شنها عبر الإنترنت لاختراق شبكات حساسة سواء للحصول على معلومات سرية منها، أو لتخريبها أو لشل الاتصالات الإلكترونية، مما يشكل خطراً متعدد الوجوه يزداد تهديده للدول والمؤسسات المختلفة، وخاصة القوات المسلحة والمؤسسات الأمنية والمالية والصناعية.

كان تقرير أصدرته شركة (مكافي) البريطانية لأمن الشبكات الإلكترونية والإنترنت صدر يوم ٢٩/١١/٢٠٠٧م، قد توقع أنَّ الحرب الباردة الإلكترونية التي تشن على أجهزة الكومبيوتر في العالم، تُنذر بالتحول إلى أكبر تهديد أمني في العقد المقبل.

قال التقرير: «إنَّ نحو ١٢٠ دولة تُطور أساليب استخدام الإنترنت كسلاح لاستهداف أسواق المال ونظم الكومبيوتر والخدمات الحكومية إضافة إلى الشبكات الإلكترونية لتوزيع الكهرباء والغاز والماء». وإذ تختبر أجهزة الاستخبارات شبكات الدول الأخرى بصورة روتينية بحثاً عن ثغرات في أساليبها وتقنياتها التي تتطور سنة بعد أخرى للنفاذ منها، رأى نائب رئيس مختبرات (مكافي أفيرت) جيف غرين أن «الجريمة الإلكترونية الآن مشكلة عالمية، لقد تطورت تطوراً هائلاً ولم تعد تهدد الصناعة والأفراد فحسب.. بل تهدد الأمن القومي تهديداً متزايداً».[٣]

وقد شاركت قوات من بريطانيا وفرنسا وبلجيكا والولايات المتحدة في مناورة تمت فيما بين يومي ٣ و٥/١٠/٢٠٠٧م، أطلق عليها اسم (وايكومب وارييور)، واستهدفت إحباط هجوم عنكبوتي على أوروبة و(العالم الحر) و«تنسيق الدفاع في منطقة معادية تتعرض للإطباق الإلكتروني وتمنع الأسلحة المختلفة من الاتصال في ما بينها وتنفيذ مهامها».

شاركت في المناورة نحو ١٥٠ طائرة مقاتلة وهليكوبتر متطورة إضافة إلى قواعد إسناد أرضية. وتتزعم الولايات المتحدة جهود الدول الغربية في الحرب الإلكترونية ومكافحة أي هجمات معادية مستهدفة الحفاظ على تفوقها العسكري والسيطرة على الفضاء الخارجي والتدخل في أي بقعة من العالم من دون عوائق أو عراقيل. وتخصص الولايات المتحدة ٥٪ من موازنتها العسكرية للإنفاق على تطوير شبكات الأمان الإلكترونية في الداخل والخارج.

ذكر تقرير(مكافي) أنَّ الصين تتصدر الحرب الإلكترونية وأن اللوم ألقي عليها في هجمات عدة أخيرة على الولايات المتحدة والهند وألمانيا.

وقال مدير الأبحاث والاستخبارات في واشنطن جيمس وولفينون «إنَّ الصينيين كانوا أوَّل من استخدم الحرب الإلكترونية لأهداف سياسية»، لكن الصين تنفي هذه التهم وتصفها بأنَّها مزاعم لا أساس لها.

وحذر التقرير الذي جُمعت المعلومات الواردة فيه بمشاركة أكاديميين ومسؤولين من وكالة مكافحة الجريمة المنظمة في بريطانيا ومكتب التحقيقات الفيدرالي الأميركي

وحلف شمال الأطلسي، من أنَّ الهجمات على مواقع إلكترونية خاصة وحكومية في أستونيا في نيسان وأيار عام ٢٠٠٧م لم تكن سوى «قمة جبل الجليد». وقالت حكومة أستونيا إنَّ آلاف المواقع تأثرت في الهجمات التي استهدفت شل البنية التحتية في البلد الذي يعتمد بشدة على الإنترنت. وبدا أن هذه الهجمات مصدرها روسيا لكن الكرملين نفى أي دور له فيها.

وذكر التقرير أن «الهجمات الإلكترونية تطورت، من مجرد عمليات بحث بدافع الفضول في البدء، إلى عمليات جيدة التمويل والتنظيم من التجسس السياسي والعسكري والاقتصادي والتقني». ويقول حلف شمال الأطلسي من ناحيته أنه، حتى الآن، لا تزال دول عدة غير مستعدة للوقاية من الحرب الإلكترونية أو الرد عليها، وهي تتعرض لهجمات قراصنة الكومبيوتر والجريمة المنظمة.

وكان البريطاني غاري ماكينن قد نجح، بصورة فردية العام ٢٠٠٢م، في الدخول إلى الشبكة الإلكترونية لوزارة الدفاع الأمريكية وحتى في اقتحام إلكترونيات القاعدة البحرية في نيو جرسي وبعد تحقيقات طويلة تمكنت الاستخبارات الأمريكية والبريطانية من ملاحقته وسعت السلطات الأمريكية إلى استرداده لمحاكمته.

وعندما تأكدت الولايات المتحدة من أنَّ الصين قد وجهت في سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٦م إشعاعات لايزرية من الأرض نحو قمر صناعي أمريكي فدمرته، استقرت تقديرات وزارة الدفاع الأمريكية على أن تدمير الصين لأقمار المراقبة الأمريكية، مرحلة أولى في هجوم صيني يضمن موقعاً أفضل إذ يواجه أسطولاً أمريكياً أعمى، فالصين سوف تستخدم وفق هذه التقديرات فريقاً معلوماتياً لاختراق شبكات كومبيوترات الدفاع الأمريكية وشلها، ونشر كمية كبيرة من صواريخ أرض- بحر، لمنع حاملات الطائرات الأمريكية من الاقتراب من السواحل الصينية.

آنذاك، حذرت إليزابيث إيكونومي، الخبيرة الأمريكية في الشؤون الآسيوية في مجلس العلاقات الأمريكية الخارجية، من أنَّ «صعود القوة الصينية سوف يصبح أكثر صعوبة وإثارة للاضطراب، أكثر من أي قوى دولية أخرى».(٤)

كانت الولايات المتحدة سباقة إلى ابتكار وإنتاج واستخدام أسلحة ليزر لتدمير الأقمار الصناعية والصواريخ. ولم يكن الاستخدام الحربي لليزر عند توقيع معاهدة الحد من انتشار أسلحة الدمار الشامل بين الاتحاد السوفييتي السابق والولايات المتحدة متاحاً

على نحو ما هو الآن، ولذلك لم تنص المعاهدة على تحريمه.

لكن احترام روح المعاهدة لابد أن يراعي خطر استخدام الليزر سلاحاً حربياً لا يقل عن أخطار أسلحة الدمار الشامل المدرجة في المعاهدة، بل قد يفوقها. لكن وزارة الدفاع الأمريكية أصرت على أن الاختبارات التي قامت بها في الفضاء الخارجي لإثبات فعالية الليزر في تدمير الصواريخ البالستية لا تشكل انتهاكاً لتلك المعاهدة مشددة على أن الليزر ليس سلاح تدمير شامل.

تكرر هذا الموقف الأمريكي الرسمي مراراً، كما في إعلان وزارة الدفاع الأمريكية يوم ٢٠٠١/٧/١٩م عن استئناف برنامج لإطلاق ليزر مضاد للصواريخ في الفضاء تحفظت إدارة الرئيس السابق بيل كلينتون عليه سابقاً تفادياً لسباق تسلح ليزري في الفضاء، إذ ألغى الرئيس الأمريكي السابق بوش التحفظ واعتمد المشروع في موازنة العام ٢٠٠٢م.

جوهر هذا المشروع هو ليزر يعمل بمادة فلورور الهيدروجين تتم السيطرة على حزمته الضوئية وتوجيهها نحو هدف يبعد نحو ١٨٥ كيلومتراً. وقد قال الكولونيل الجوي وليام ماكاسلاند، مدير هذا المشروع، في مؤتمر صحافي في هانتسفيل (ألاباما) إن المشروع لا ينتهك اتفاقية الحد من انتشار الصواريخ المبرمة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي السابق سنة ١٩٧٢م والتي تحظر نشر أسلحة دفاعية مضادة للصواريخ في الفضاء الخارجي (ألغت إدارة الرئيس السابق بوش هذه المعاهدة لاحقاً على أي حال) بدعوى أن الليزر المضاد للصواريخ ليس سلاحاً وإنما هو تقنية![5]

كان قد تبين للقيادات العسكرية والاستخباراتية الأمريكية أن الصين قد نجحت سنة ٢٠٠٧م في اختراق حواسيب وزارة الدفاع الأمريكية، فجرى تطوير برنامج الحماية (آينشتاين -١) ليصبح (آينشتاين-٢) بحيث تستطيع النسخة الجديدة من هذا البرنامج بحسب ما ذكرت قناة CNN التلفزيونية الفضائية الأمريكية كشف أي محاولة لاختراق أجهزة الكمبيوتر التابعة للمؤسسات العسكرية والاستخباراتية الأمريكية أثناء حدوث هذا الاختراق. وفي الوقت نفسه، طورت الاستخبارات الأمريكية نسخة (آينشتاين -٣)، وهو البرنامج الهجومي المكمل لتوءمه برنامج الحماية. وقد شبه وزير الأمن الوطني الأمريكي (مايكل تشيرتوف) برنامج (آينشتاين -٣) بسلاح مضاد للطائرات يستطيع إسقاطها قبل أن تشن هجماتها، وقال في هذا الصدد:

«لنستثمر في هذا الغرض الآن عوضاً عن انتظار وقوع كارثة كبرى».

عاد وزير الدفاع الأمريكي السابق دونالد رامسفيلد إلى الأضواء مخاطباً مؤتمر (الحرب والإنترنت) في واشنطن، فطالب بشن حرب فضائية أمريكية لدحر الأفكار التي تقف عقبة أمام نجاح القيادة الأمريكية للعالم، وفي طليعتها الأفكار الإسلامية. وهنا يتضح أكثر مغزى الأمر الرئاسي الغامض الذي أصدره شريك رامسفيلد في غزو أفغانستان والعراق، الرئيس السابق جورج بوش الابن في مطلع كانون الثاني ٢٠٠٨م، والذي عرف باسم (مبادرة الأمن الإلكتروني). فقد تسرب عن خفايا محركات هذا الأمر الرئاسي لوسائل الإعلام الأمريكية ما يؤكد أن الولايات المتحدة توغلت في مرحلة جديدة متقدمة أكثر تطوراً وإحكاماً من تقنين المراقبة الفضائية واختراق العقول الإلكترونية وتجميع وترجمة وتحليل كل المعلومات المتبادلة والكامنة في أجهزة الكمبيوتر حول العالم، بأكثر مما كانت برامجها السابقة تفعل.

تتذكر هنا ما كتبه خبير الاستخبارات البريطاني توماس جوردون في كتابه (جواسيس جدعون) عن برنامج (الوعد Promise) الأمريكي فائق السرية. وسرعان ما يوصلنا تحليل المعلومات المتناثرة المتوافرة إلى قناعة بأن الولايات المتحدة حققت هيمنة محكمة على الفضاء الإلكتروني.

من هذه المعلومات تلك العلاقة السرية المؤكدة لوزارة الدفاع الأمريكية مع شركة مايكروسوفت العالمية التي تتيح للوزارة اختراق كل قواعد بيانات الحكومات والشركات الأجنبية فيما وراء المحيطات، نتيجة تسلمها رمزاً خاصاً بكل جهاز تبيعه الشركة الأكبر حول العالم تتم من خلاله مراقبة كل ما يصدر عنه أو يرد إليه أو يخزن فيه من رسائل وشيفرات واتصالات ومعلومات.

لا يقتصر الأمر على الولايات المتحدة في الإعداد لتطوير وسائل حرب الفضاء المعلوماتي الصامتة، وإنما تعمل دول عدة في هذا الاتجاه. وإذا كان من المؤكد أن روسيا تبذل الكثير في هذا السبيل، وقد أضافت إلى ما ورثته من الاتحاد السوفييتي السابق إنجازات كثيرة، فإن إعلان بريطانيا بدورها البدء في تنفيذ برنامج تطوير مماثل خاص بها كلفته نحو ١٢ مليار جنيه إسترليني، وهو مبلغ هائل بالنسبة لبريطانيا في ظل الأزمة المالية العالمية الراهنة، يشكل مؤشراً بالغ الدلالة. إنَّ أهمية إعداد قاعدة بيانات لمراقبة وتخزين أساليب التعامل مع شبكة الإنترنت والبريد الإلكتروني والمكالمات

الهاتفية داخل بريطانيا وخارجها، انسجاماً مع زيادة بريطانيا في إعطاء أولوية كبرى لنشاط أجهزة الاستخبارات التابعة لها حول العالم، قد جعل اعتماد مثل هذا المبلغ يتم بسهولة.

ولئن اقتنعت الولايات المتحدة منذ أمد بعيد بأنّ التقنية هي ينبوع كل أشكال القوة، وأنّها «قادرة على كل شيء»، فقد أدركت مؤخراً كذلك أن التفوق التقني يجب أن يؤدي إلى - ويعتمد على- حرب مزدوجة لاحتلال العقول الإلكترونية والعقول البشرية على حد سواء، وهكذا بات تطوير نظم الأسلحة والتجهيزات القتالية يعكس هذا الإدراك أكثر فأكثر.

كان الحشد القتالي للعنصر البشري في حروب العصور القديمة يضم مئة ألف مقاتل في الميل المربع من ساحة الاشتباك، وتقلص العدد بحكم زيادة فعالية الأسلحة والتجهيزات القتالية إلى أربعة آلاف مقاتل فقط في حروب نابليون بونابرت، وتقلص العدد مجدداً إلى أربعمئة وأربعة مقاتلين في الميل المربع أثناء الحرب العالمية الأولى، وهبط العدد إلى ستة وثلاثين مقاتلاً فقط في الميل المربع أثناء الحرب العالمية الثانية، ثم تقلص مجدداً إلى مابين مقاتلين اثنين وأربعة مقاتلين في حروب العقدين الأخيرين، بدءاً من حرب الخليج الثانية التي شنتها الولايات المتحدة وحلفاؤها ضد العراق سنة ١٩٩١م. فقد لعب التركيز على التفوق التكنولوجي والمعلوماتي الأمريكي دوراً بارزاً يمكن ملاحظته بسهولة بمقارنة الحجم الضخم للقوات الأمريكية التي تم حشدها لخوض الحرب ضد العراق في العام ١٩٩١م، إلى جانب قوات من نحو ثلاثين دولة أخرى، عندما كان الهدف محدداً ظاهرياً بإخراج القوات العراقية من الكويت، مع حجم القوات الأمريكية التي غزت العراق واحتلته في العام ٢٠٠٣م ودمرت قدراته العسكرية وقاعدته العلمية والصناعية وبنيته التحتية، موسعة ميدان عملياتها بعشرات أضعاف ما كانت عليه في حرب العام ١٩٩١م لاختلاف الهدف وتضخمه.

فقد بلغت القوات البرية الأمريكية المستخدمة في غزو العراق واحتلاله سنة ٢٠٠٣م أقل من نصف القوات البرية الأمريكية التي شاركت في حرب العام ١٩٩١م، كما بلغت القوات الجوية الأمريكية في حرب العام ٢٠٠٣ ثلثي القوة الجوية الأمريكية التي استخدمت في حرب العام ١٩٩١م.(٦)

وينتظر أن يتقلص عدد المقاتلين مجدداً في الحروب المقبلة التي سوف تخاض من

غرف العمليات بالضغط على أزرار تحرك صواريخ وأشعة وأسلحة جوية وبرية وبحرية غير مأهولة في معظمها.

لقد باتت الحرب الإلكترونية الأداة الرئيسة في الصراعات العسكرية والاستخباراتية الراهنة والمقبلة، كما باتت الهيمنة المعلوماتية السبيل المضمون لتحقيق الهيمنة الشاملة، فالهيمنة على الفضاء المعلوماتي هي العنصر الرئيس في كسب أي حرب اليوم.

لقد حقق الاختراق الهائل الذي أحدثته تكنولوجيا الإلكترونيات فائقة التطور - في سائر مجالات الحياة - زيادة هائلة في القدرات القتالية للقوات المسلحة، لكن توحيد الوسائط القتالية التي تستخدم هذه التكنولوجيا في نظام واحد مركب لا يحجب حقيقة تمايز بعض هذه الوسائط في إمكانياتها وأدوارها.

من أبرز الوسائط التي يتكامل أداؤها في نظام واحد مركّب هي أنظمة المراقبة الفضائية وشبكات الكمبيوتر وأنظمة الاتصال عبر الأقمار الصناعية والأسلحة الذكية عالية الدقة والمركبات الجوية والطائرات بلا طيارين.. فمتابعة تطور حجم وتأثير دور كل منها على انفراد توضح بجلاء ارتباط سرعة تعاظم دور الطائرات بلا طيارين، وشقيقاتها المركبات الجوية غير المأهولة، بتطور قدراتها القتالية وتنوعها ورفع مستوى أدائها.

لكن التكنولوجيا لا تعوض عن عوامل القوة الأخرى، كما أنَّ التفوق التكنولوجي قد يغذي أوهاماً تفقده فعاليته، حتى عندما يتم تركيز هذا التفوق لإنتاج أسلحة دمار شامل بالغة التطور، تبيد الملايين من البشر بصمت. على نحو ما مضى تنفيذه من برامج الاستفادة من ابتكارات تقنيات النانو والتوسع في الاستخدام العسكري لتطبيقات الهندسة الوراثية وتطوير أسلحة ووسائط جديدة للحرب البيولوجية.

نشير مثلاً إلى جانب حربي وتدميري مما كتبته باعتزاز أوليفيا جادسون، أستاذة البيولوجيا التطورية في كلية إمبريال في لندن[٧] عن تقنية ثورية مازالت في مرحلتها النظرية، سميت هندسة الفناء Engineering of Extinction في سياق تعزيز البناء العسكري الأمريكي.

الفكرة الأساسية في هندسة الفناء بسيطة، كما تقول أوليفيا جادسون، تتمثل في قتل الأجناس Specicide، أي الإفناء المتعمد لأجناس بكاملها، والتحكم هندسياً بعملية الإفناء هذه من خلال استغلال «بيولوجيا العناصر الجينية الطفيلية»، أي استنباط جينات طفيلية إفنائية مصممة لتحل محل الجينات الأساسية الطبيعية

عبر التسلل إلى الأجسام المستهدفة.هنا يعود رأي وزير خارجية إسبانيا أنخل مايكل موراتينوس إلى الذاكرة إذ قال: «إنَّ مشكلة الأمريكيين هي أنهم لا يستطيعون التفريق بين سياسة القوة وقوة السياسة.. إنهم يملكون التكنولوجيا التي لا تفهم العالم»!...

لقد تعززت قناعة عالمية بأنَّ الاختراقات والهجمات الإلكترونية المبرمجة قد باتت حرباً عالمية صامتة، وأصبحت تمثل أكبر تهديد أمني لاستقرار العالم وأسواقه المالية، وحتى لبناء التحتية المدنية، إضافة إلى جهود اكتشاف مجالاته الفضائية وموارده الأساسية. فتوقع تقرير شركة مكافي لأمن الشبكات الإلكترونية والإنترنت الذي أشرنا إليه سابقاً، أنَّ الحرب الباردة الإلكترونية التي تشن على أجهزة الكومبيوتر في العالم، تُنذر بالتحول إلى أكبر تهديد أمني في العقد المقبل.

عموماً، تشترك حوالى ١٢٠ دولة في العمليات الهجومية الإلكترونية، ولذلك يتوقع الخبراء أنه في غضون عشرة إلى عشرين عاماً ستتسابق دول العالم إلى زعامة الحرب الإلكترونية.(٨)

وهكذا لم تكن معركة محرك البحث الأمريكي (غوغل) الأخيرة مع السلطات الصينية، حادثة عابرة أو مجرد تنافس تجاري في سوق المعلومات الإلكترونية أو الإنترنت وحسب، وإنما هي مؤشر ملموس على اشتداد الحرب الإلكترونية بين واشنطن وبكين، حيث جاءت هذه المعركة إثر قيام الصين بتعطيل محرك البحث الأمريكي العملاق (غوغل)، واستخدام محرك البحث الصيني (بايدو) بدلاً منه، والجدير بالذكر في هذا الجانب أنَّ الصين والتي هي أكثر دول العالم سكاناً، تملك أكبر عدد من مستخدمي الإنترنت في العالم، وهي في هذا الجانب تتفوق على أمريكا نفسها، كما أنها عملت في السنوات الأخيرة على تطوير قدراتها القتالية الإلكترونية وتحسينها. ووفقاً لتقرير أصدرته وزارة الدفاع الأمريكية عن القدرات العسكرية للصين، فإنَّ الجيش الصيني يحاول أن يضمن توافر المعدات والخبرات المدنية في الكمبيوتر لتساعده في تدريباته وعملياته، وهو لهذا يستعين بالأكاديميين ومعاهد وشركات تكنولوجيا المعلومات لدمجهم في وحدات دعم للجيش في العمليات العسكرية.

والشيء الذي يُحسب للصين، هو أنها تحسبت وتنبهت جيداً لأهمية الحرب الإلكترونية منذ حرب الخليج الثانية، عندما شل سلاح الجو الأمريكي في تلك الحرب، قدرات الأنظمة الدفاعية العراقية، بعدما دمر البنية الاتصالية التحتية للقيادة، مما أثار قلقاً واسعاً لدى بكين في ذلك الحين،

الأمر الذي دفعها للبحث عن طرائق مبتكرة لمقاومة التفوق التكنولوجي الأمريكي في آسيا، وقد وجدت الصين ضالتها في اعتماد أمريكا تكنولوجيا المعلومات والأقمار الصناعية، فإذا تم تدمير أنظمتها الإلكترونية، فسوف تتمكن من الفوز بالحرب التكنولوجية في المستقبل.

ومن الواضح أنَّ الصين قامت بتشكيل وحدات خاصة بحرب المعلومات أو الحرب الإلكترونية، وصل عددها إلى ٣٣ وحدة في العام ٢٠٠٨م تتوزّع على الجامعات ومراكز البحوث الحكومية وشركات المعلوماتية، وتتكون من عناصر شابة لا تتعدى الخامسة والأربعين من العمر، لديها خبرات كبيرة في المعلوماتية اكتسبتها عبر عملها في شركات مدنية تعمل في التكنولوجيا الرقمية، وكذلك فإنها تعرف لغة أجنبية أو أكثر كي يسهل عليها جمع المعلومات، إضافة إلى العناصر التي تأتي من المجال الأكاديمي.

وإذا كان الجانبان السياسي والعسكري من أهم جوانب الحرب الإلكترونية بصورة عامة، فإنَّ هناك جوانب أخرى، تسهم في دينامية اشتعالها واتساعها، وهذه الجوانب تتعلق بالبنية التحتية لأسواق مالية ومعلومات عن الطيران وغيرها. أدت هذه الدوافع المختلفة للحروب الإلكترونية إلى تزايد الهجمات الإلكترونية لتعترف وزارة الدفاع الأمريكية بخطورتها رسمياً، فقال متحدث باسمها، (شهدنا محاولات من جانب دول ومنظمات خارجة عن حكم دولها للوصول إلى أنظمة معلومات وزارة الدفاع).

وعلى كل حال، يخطئ من يظن أنَّ الخلاف الإلكتروني الذي نشأ مؤخراً بين واشنطن وبكين، هو أول معركة بين الطرفين، من واقع أن واشنطن سبق لها أن أعلنت في السنوات الأخيرة، عن حدوث اختراقات صينية في مواقعها الإلكترونية المهمة والإستراتيجية، بيد أنَّ المعركة الأخيرة أجبرت الطرفين الأمريكي والصيني، على الاعتراف بحقيقة الحرب الإلكترونية القائمة بينهما منذ سنوات. وتأكيداً لهذه الحرب، فإن أمريكا في الأعوام الأخيرة وجهت إلى الصين اتهامات مباشرة أو غير مباشرة، بشأن عمليات الخرق التي تعرضت لها مواقع أمريكية مهمة مثل: إغلاق الشبكة الإلكترونية لكلية الحرب البحرية تماماً بفعل هجوم صيني، وقد حدد هدف الهجوم في مجموعة الدراسات الإستراتيجية التي كانت وقتها تطور مفاهيم الحرب الإلكترونية.

يحتم تعاظم الدفق المعلوماتي على الدول والقوى والمؤسسات المعنية إجراء مراجعات متلاحقة ومستمرة لأساليب الدراسات الأمنية وتطبيقاتها ومجالاتها وأولوياتها. كما يزيد من الحاجة إلى هذه المراجعات

تلاحق مستجدات الابتكارات التقنية والطفرات العلمية والإدارية والتنظيمية وثورات الإلكترونيات والهندسة الحيوية والوراثية.

شرحت خبيرة مكافحة جرائم الإنترنت ليندا فولونينو، رئيسة إدارة علوم الاتصالات في جامعة كانسيوس الأمريكية، بعض مخاطر سلاح المعلومات الذي توقعت أن يصبح أشد الأسلحة فتكاً في المستقبل القريب، فقالت إنَّ حرب المعلومات كفيلة بتدمير البنية الأساسية للعدو في الجو والبحر والبر، وتقويض بنيته الاقتصادية، بعدما تجاوزت الهجمات على الشبكات التقنية ومراكز تكنولوجيا المعلومات أكثر من ألف هجوم في الثانية الواحدة.

لقد أصبحت شبكة الإنترنت قناة لأسلحة فضائية يتم عبرها استنباط وسائل ذات طبيعة عسكرية وأمنية شديدة الإيذاء، أو لدخول أنظمة حيوية على نحو يؤدي إلى تأثيرات مدمرة على البنى الأساسية العسكرية والأمنية.

لقد تفاقم قلق القيادات العسكرية والأمنية والسياسية الأمريكية في السنوات الأخيرة إزاء الإخفاقات الأمنية الهائلة التي عانت منها الولايات المتحدة في داخلها، وكذلك في أفغانستان والعراق وأماكن أخرى. ولعلَّ الإفراط في الركون إلى أداء التجهيزات والأنظمة الإلكترونية والمؤتمتة والاعتماد عليها، إضافة إلى غزارة تدفق المعلومات التي تغرق المتعاملين بها فيضطرون إلى إهمال كم كبير منها.

إذا كان هذا هو حال الولايات المتحدة التي أنفقت على تكنولوجيا المعلومات ما فاق مجموع إنفاق كل الدول الرأسمالية الأخرى عليها، وفق ما ذكرت آن برانسكومب في كتابها (من يملك المعلومات؟)، والتي تبذل جهوداً استثنائية لاستقطاب أكبر عدد ممكن من علماء وخبراء المعلوماتية والإلكترونيات من شتى أنحاء العالم، فلنا أن نتخيل حجم المشكلة بالنسبة لدول أقل حيازة لقدرات وتقنيات التعامل مع الحروب الإلكترونية والاختراقات المعلوماتية، سواء أقامت بها دول أو مؤسسات أو تنظيمات، أو حتى أفراد، باستخدام الذكاء البشري والمصنع والتقنيات الالكترونية. لقد صارت هذه الاختراقات أكثر حسماً للصراعات اليوم، بعدما تطورت أسلحة الحروب وتكتيكاتها وأساليبها، وتقلص الاعتماد على حشد القوات والتورط في التحام بشري مباشر مع العدو، تحاشياً لخسائر في الأفراد، واستثماراً للتقنيات التي تتيح التعامل مع الأهداف المعادية عن بعد، سواء أكان بعداً أفقياً أو عمودياً.

كتبت مسؤولة الاستخبارات الأمريكية

السابقة في الشرق الأوسط فرانسيس ستونور ساوندرز في كتابها (الاستخبارات في سوق الثقافة من يدفع للمزمرين؟) مؤكدة بالتفصيل على دور أجهزة الاستخبارات في تأسيس منظمات أهلية وتوجيهها في المنطقة العربية، بحيث أصبحت -كما قالت- المصدر الرئيسي للمعلومات لدى الاستخبارات الأمريكية في المنطقة.

لكن التأكيد على دور هذا النشاط المباشر على الأرض لاستقطاب أفراد ومجموعات بشرية كمصادر معلومات وأدوات نشر شائعات في سياق حرب نفسية أو حرب احتلال عقول، لايغطي على الدور الهائل للنشاط الإلكتروني في هذا الصدد.

نشير مثلاً إلى محطة إيشلون الأمريكية، أضخم قاعدة للتنصت الإلكتروني في العالم على الإطلاق، ترصد وتسجل وتحلل كل الاتصالات الهاتفية واللاسلكية ورسائل الفاكس والرسائل الإلكترونية الصادرة من أي مكان في العالم إلى أي مكان من خلال محطات تنصت تنتشر على امتداد العالم وأجهزة إلكترونية فائقة التطور وكمبيوترات عملاقة.

إنَّ الآفاق غير المحدودة التي فتحتها ابتكارات تقانة الاتصالات والإلكترونيات عموماً للتجسس واختراق أشد المواقع المعلوماتية تحصيناً، هي آفاق متجددة تزداد اتساعاً وخطورة وفاعلية كلما تقدمت عمليات التطوير التقني.

إن السباق مستمر بين ابتكارات وسائل الاختراق الإلكتروني والتسلل الكمبيوتري من ناحية، وبين ابتكار وتحسين وسائل وإجراءات الحماية والتحصين لصد عمليات القرصنة والاختراق والتسلل من ناحية أخرى. لعلَّ الاطلاع على كتاب كيفين ميتنيك، أشهر قرصان كمبيوتر في العالم ومرتكب أذكى جرائم الحاسب وأضخمها، الذي ألفه بالاشتراك مع ويليام سايمون، تحت عنوان «فن الخداع: السيطرة على العنصر البشري في الأمن»(٩) يعطي فكرة واضحة عن تشعبات هذا السباق، بل الصراع الساخن، وتعقيداته.

فبعد ما كشف مكتب التحقيقات الاتحادي في الولايات المتحدة FBI بعض جرائم ميتنيك التي جعلته على رأس قائمة المطلوبين لهذا المكتب، أوقع به فحكم بالسجن لاثنين وعشرين شهراً، خرج بعدها وقد قرر تغيير مسار نشاطه الإلكتروني، واستخدام براعته وعبقريته وخبرته في برمجة الحاسب على نحو يختلف مئة وثمانين درجة عن مساره قبل سجنه. وهكذا ركز على تصميم وابتكار وتعزيز أنظمة

أمن الحواسيب وحمايتها من الاختراق، فصمم عدة برامج فذة مثل جدران النار وبروتوكولات التشفير فائق التعقيد ومناهج الحماية والإرشادات الأمنية لاستخدام الحواسيب والشبكات وإحكام تحصينها بما يساعد على منع هجمات القراصنة، أو الحد منها إلى أقصى حد على الأقل

لقد اهتمت الإدارات الأمريكية المتعاقبة في السنوات العشر الماضية بمخاطر هذه القرصنة اهتماماً إضافياً، فأصدر الرئيس السابق بيل كلينتون يوم ٢٠٠٠/١٢/٢٨م قراراً رئاسياً توجيهياً بعنوان (مكافحة التجسس الفعال للقرن الواحد والعشرين) ويرمز له اختصاراً CI-21، وقد شرع خلفه الرئيس السابق جورج بوش الابن بتنفيذه فور توليه الرئاسة[١٠]. لاحظ هذا القرار الرئاسي الأمريكي التقنيات فائقة التطور التي ينتظر أن يستخدمها خصوم الولايات المتحدة في التجسس عليها، بعدما أحدثت التطورات في الإلكترونيات الدقيقة والاتصالات وتقنيات المعلومات تغييراً جذرياً في سائر مجالات الحياة. تقلصت أحجام الأوعية التي تضم المعلومات، عملية التجسس، سواء أكانت مكتوبة أو مصورة أو تسجيلات صوتية، فصار بإمكان الشخص أن يضع في جيب بنطاله كماً هائلاً من المعلومات والبيانات كان يحتاج إلى شاحنات لنقل الأوراق والملفات والخرائط والمخططات والصور التي تشكل تلك المعلومات، ناهيك عن سهولة إرسالها عبر البريد الإلكتروني إلى أي مكان في العالم بشكل آمن وواضح خلال لحظات أو دقائق. وهكذا بات على أجهزة مكافحة التجسس بشتى أشكاله التفكير حتى بما لا يمكن التفكير به، كما جاء في تقرير للكونغرس الأمريكي.

لقد اعتمدت الغزوة الصهيونية لفلسطين اعتماداً رئيساً على الدعم والتبني الأمريكيين الكبيرين مالياً وتقنياً لإنشاء وتطوير الصناعات الإلكترونية والكمبيوترية وتسويق منتجاتها، في سياق الدعم والتبني الشاملين لمجتمع وكيان العدو الصهيوني وتمكينه من فرض سيطرته على فلسطين والهيمنة على ما وراءها. انعكس هذا على مجالات الحياة العسكرية والاقتصادية والاجتماعية لذلك المجتمع كافة. لكن المفارقة هنا هي أنَّ نسبة هامة من أخطر وأضخم عمليات الاختراق والقرصنة الكمبيوترية الناجحة وعمليات التجسس الصناعي والتجاري عبر الحواسب التي تعرضت الولايات المتحدة الأمريكية لها تتم من قبل شبكات إسرائيلية أو أفراد إسرائيليين.

شكَّل فيروس الكمبيوتر الإسرائيلي Friday -13 مثلاً أحد أخطر البرامج الخبيثة ذات التنقل الذاتي والتدمير الشرس

في أوساط تخزين المعلومات والبيانات وأجهزة الحاسب. فهي تكمن على نحو يصعب كشف موقعها أو عزلها، وفقاً لوصف المركز القومي الأمريكي لتأمين الحاسبات. وقد تم العديد من عمليات الاختراق الناجحة لشبكات وأجهزة المعلوماتية والكمبيوتر في وزارة الدفاع الأمريكية وقيادة القوات البحرية وقيادة القوات الجوية ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية والعديد من مؤسسات الصناعة الحربية والمؤسسات التجارية والمالية الكبرى الأمريكية على أيدي قراصنة إسرائيليين.

من أخطر ما خرج إلى العلن من فضائح التجسس الإسرائيلي على الولايات المتحدة حالة أنكرت وكالة التحقيقات الاتحادية F.B.I. أمرها عقب نشر تفاصيل عن نشاطها الذي أدى إلى اعتقال أفرادها، وفق ما بثه موقع «إنتلجنس أون لاين» الإلكتروني يوم ٢٠٠٢/٣/٤م. إذ نشر الموقع تأكيد تقرير اللجنة الخاصة التي شكلتها وزارة العدل الأمريكية قيام السلطات الأمنية الأمريكية باعتقال وإبعاد مئة وعشرين إسرائيلياً تتراوح أعمارهم بين ٢٢سنة و٣٠ سنة، في إطار قضية تلك الشبكة التي ضمت نحو عشرين خلية، كان نحو عشرة من المعتقلين خبراء معلوماتية، بمن فيهم مسؤول التنصت، يقيمون في هوليود. أكد مدير تحرير مجلة إنتلجنس أون لاين، غيوم داسكييه، لوكالة الصحافة الفرنسية سلامة وثائقه ومعلوماته، وقال إنَّ تحقيق السلطات الأمريكية مع تلك الشبكة بدأ في نيسان ٢٠٠١م، وثبت أن الشبكة استهدفت الدخول إلى أنظمة وزارة الدفاع ووزارة العدل الأمريكيتين، وأنها كانت تركز على مواقع شديدة الحساسية مثل قاعدة تينكر الجوية الحربية بالقرب من مدينة «أوكلاهوما» في جنوب وسط الولايات المتحدة، الأمر الذي كشفته قيادة سلاح الجو التي طلبت مساعدة وزارة العدل في التحقيق معها في أيار ٢٠٠١م. اعترف قائد الوحدة المشتركة لعمليات شبكة الكمبيوتر في وزارة الدفاع الأمريكية Joint Task force Computer Network Operations بعشرات آلاف محاولات الاختراق التي تعرضت لها شبكات الوزارة وأنظمتها الإلكترونية، نجح كثير منها في سرقة معلومات سرية، وبفشل أكثر إجراءات كثيفة لتعزيز أمن تكنولوجيا المعلومات وتحصينها. وقد تبين أنَّ كثيراً من محاولات الاختراق الناجحة تمَّ من قبل قراصنة إسرائيليين.

لفتت النظر في هذا الصدد مقالة عنوانها «جواسيس ليمتد: شركات وصناعات متطورة يديرها أسياد المخابرات الإسرائيلية»، كتبتها الباحثة ستايسي مان،

ونشرتها صحيفة (كول هعير) الناطقة بلسان الجيش الإسرائيلي، متزامنة مع إفراج مصر عن الجاسوس الإسرائيلي عزام عزام. فقد ألقت تلك الباحثة أضواء على أسرار عدّة عن أساليب شبكة التجسس الإسرائيلي العنكبوتية التي غطت العالم بأسره. وتخطت كل وازع أو اعتبار أخلاقي، محولة التجسس إلى صناعة رابحة وتجارة و(بزنس). قالت الباحثة [١١] إنَّ الوحدة الاستخباراتية (٨٢٠٠) التي تأسست قبل أكثر من نصف قرن معتمدة على الموهوبين جداً وأصحاب الأدمغة المتفوقة في ميادين الرياضيات والهندسة وعلوم أخرى قد ابتكرت وطوعت تقنيات متقدمة لمعالجة كم هائل من المعلومات المتراكمة نتيجة التنصت على المحادثات الهاتفية واتصالات التلكس والفاكس ووسائر الاتصالات الإلكترونية، ليس فقط في شتى قيادات المجتمع الإسرائيلي ومؤسساته وشركاته وأفراده، ولا في البلدان العربية فحسب، وإنما في عشرات من الدول والمنظمات الدولية والمؤسسات والشركات متعددة الجنسية، وعلى مختلف المستويات. لقد افتضحت حالات تجسس إسرائيلي على وزارة الدفاع الأمريكية والبيت الأبيض ومؤسسات رسمية أخرى، بينما تمت التغطية على حالات أخرى كثيرة، وهناك أضعاف تلك الحالات مما لم يتم اكتشافه بعد.

لذلك قال الزعيم الصهيوني الأمريكي البارز جاكوب ستيف بصراحة: «لا يمكن لليهودي أن يكون أمريكياً صحيحاً مثلاً بينما يظل في الوقت نفسه أميناً على المبادئ الصهيونية».

أبسط وصف لهذا السلوك هو أنّه سلوك غادر يعض أصحابُه اليد التي ترعاهم وتحسن إليهم.

الهوامش

1- The Washington Post, 28.2.2010.

٢- كتب السيد يسين مثلاً يقول: «سيسجل التاريخ أنَّ الحملة العسكرية الروسية ضد جورجيا كانت هي الضربة القاصمة التي أدت إلى انهيار النظام أحادي القطبية! ولم تعد الولايات المتحدة الأمريكية هي القطب الأوحد والأعظم الذي يهيمن على مصير العالم... لقد كانت العقيدة الأمريكية والتي تتمثل في أن تحكم الولايات المتحدة العالم بصورة مطلقة لامعقب عليها وإلى الأبد ضد منطق التاريخ... بين معركة جورجيا وانهيار وول ستريت سقطت الهيمنة الأمريكية إلى الأبد ...» (صعود وسقوط الهيمنة العالمية، الاتحاد، أبو ظبي، ٢٠٠٨/١١/٦م)

٣- صحيفة الحياة، لندن - ٢٠٠٧/١١/٣٠م.

٤- واشنطن بوست في ٢٥ /١/٢٠٠٧م.

٥- التصريح في: البنتاجون: الليزر المضاد للصواريخ ليس سلاحاً.. هذه تكنولوجيا!، الاتحاد، أبو ظبي، ٢٠/٧/٢٠٠١م، ص ٣٢.

٦- انظر: محمد حسنين هيكل، الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق، الشركة المصرية للنشر العربي والدولي، ٢٠٠٣م، القاهرة. وكذلك: د هيثم الكيلاني، إعادة توزيع القوات الأمريكية في العالم، الفكر العسكري، دمشق، كانون الثاني/ شباط - يناير/ فبراير، ٢٠٠٥م، ص٣١.

٧- نيويورك تايمز، ٣٠ /٩/ ٢٠٠٣م.

٨- عبد الزهرة الركابي، الحرب الإلكترونية بين أمريكا والصين، الخليج، الشارقة، ٢/٤/٢٠١٠م

9- Kevin Mitnick & William Simon, The Art of caption

10- Controlling the Human Element of Security, Wiley,John & SonsIncorporated, 2003.

١١- أسرار أمريكا مشاع للجواسيس، المحرر العربي، بيروت، ٢٠/٩/٢٠٠١م.

المراجع

- من المنصات الفضائية إلى الحرب الإلكترونية، لوماند دبلوماتيك، باريس، شباط (فبراير) ١٩٩٨م.
- د. خير الدين عبد الرحمن، الحرب المعلوماتية بين الإنسان والتكنولوجيا، درع الوطن، أبو ظبي، نوفمبر ٢٠٠٢م.

أجمل تحديات العلم

موسى ديب الخوري *

لماذا يذهب العلم دائماً في نظرياته وتجاربه إلى الحالات القصوى؟ ربما ببساطة لكي يوسع حدوده وآفاقه ويعرف المزيد.. ذلك أن شروطاً حدية تسمح له بدراسة ظاهرات جديدة، أو دراسة الظاهرات المعروفة من زاوية ومنظور جديدين. ذلك على سبيل المثال السبب في إرسال أقمار صنعية مثل بلانك وهرشل وغيرهما لإنجاز أرصاد في الفيزياء الفلكية تسمح لنا بفهم أفضل للكون البدئي أو لولادة النجوم. غير أننا عندما نوسع الحدود التجريبية إلى ما وراء حدودها المعتادة فإننا نستطيع أيضاً توسعة الحدود النظرية. هذا ما حدث مثلاً مع التجربة الشهيرة لمايكلسون ومورلي التي أثبتت ثبات سرعة الضوء في الفراغ، مما خلخل أسس الفيزياء في ذلك الوقت وأدى إلى طرح نظرية النسبية الخاصة لآينشتين. وبالمثل، فإن البنية الرياضية لنظرية ما تؤدي أحياناً إلى اكتشافات جديدة. فقد وضع بول ديراك معادلة تنبأت بوجود «إلكترون موجب» لم يتم رصده إلا بعد أربع سنوات. فللعلم ما يبرر سعيه الدائم إلى الحالات الحدية والجديدة، حيث لا تتوافق الحدود النظرية والتجريبية بالضرورة دائماً.

عندما تذهب العلوم إلى ما وراء مجالها المعتاد فإنها تضع نفسها في حالة خطر، حيث تنتقد قواعدها وتجددها. ولكي نفهم العلم الحي والديناميكي فلا بد من

* باحث ومترجم ونائب رئيس الجمعية السورية للعلوم.

دراسته في حالاته الحديثة، أي في الحيز الذي يتطور فيه ويتقدم، لأنه في هذا الحيز بالذات لا تنبثق معارف هامشية بل على العكس معارف هي الأكثر جوهرية، معارف تعيد النظر فيما كنا قد أقمناه على مجال من اليقين والصحة أكثر محدودية وأقل دقة، معارف توسع أفق معرفتنا..

يدرس كل علم مواضيعه ضمن «أفق واقعية» معينة. وتشير هذه العبارة للإبستمولوجي السويسري فرديناند غونسيث Ferdinand Gonseth إلى بعض السمات الأساسية في كل معرفة علمية. وأولها أن الحقيقة العلمية لا يكون لها أبداً قيمة مطلقة، بل هي دائماً نسبية تتعلق بحالة من العلاقات بين النظرية والتجربة على مستوى معين من تطورهما. لكن ذلك لا يتضمن أي امتياز لـ«النسبوية»، لأنه من الممكن دائما تعميق هذه الحقيقة، وهذه هي السمة الثانية لـ«أفق الواقعية». وأفق الواقعية لا يُعرَّف فقط تبعاً لتوسع مجال صحته، بل ويعرف من خلال وضوحه ودرجة دقته. فالقيام بقياسات أكثر فأكثر دقة تضع النماذج والنظريات الثابتة على المحك، وتحرّض على تجاوزها.

إنَّ التعميق في الفهم يستجرّ انقطاعاً مع النموذج القديم وإعادة تأسيس العلم على أسس جديدة(١).

إنَّ التحديات العلمية المعاصرة تشمل العلوم كافة، ولا تقف عند حدود الفيزياء أو الكونيات. ففي العلوم العصبية أو الوراثية أو في الرياضيات البحتة أو حتى في التاريخ والعلوم الإنسانية، ناهيك عن الطب والبيئة وغيرها، يمضي العلم قدما في فتح نوافذ على المجهول.

ويحتاج العلم اليوم أكثر فأكثر إلى أدوات وتجهيزات أضخم وأكثر تقنية كما يقول بشلار لكي يتجاوز نفسه بشكل مستدام، وعلينا أن نأخذ بعين الاعتبار أسسه التكنولوجية إذا كنا نريد فهمه وفق قيمته الفعلية.

مع ذلك فإن هذا التفوق التكنولوجي ليس هو المطلوب تحديداً في مجالات أخرى مثل العلوم الإنسانية، وإن كانت تتطلب بالمقابل نوعا آخر من التقدم التقني الذي يتصف أيضا وأيضا بالاتساع والمقدرة الفائقة.

بالمقابل، يظل هناك مساحة واسعة جدا للتجارب التي تتم في مختبرات صغيرة نسبياً، لا تقارن مع التلسكوبات العملاقة أو الفضائية أو مع المسرعات الهائلة. هذا ناهيك عن التجارب التي ترتكز أساسا على البناء العقلي والتي تعود في أساسها إلى تجارب عقلية. وليس آخرها بالتأكيد التجارب التي تمت على التشابك decoherence وغيرها(٢).

ومع نجاح عدة تجارب في هذا المجال، فإن سؤالاً ملحاً لا يزال يطرح على العلماء:

إلى أي حد سيكون بالإمكان، مع عزل منظومة ما قدر الإمكان عن محيطها، رصد ظاهرات كمومية ناتجة عن حالات فيزيائية متراكبة؟

فيما يتعلق بالأجسام الفيزيائية التي نسميها «طبيعية» فقد أمكن رصد آثار تراكب لحالات فيزيائية من جزيئات كبيرة، ومنها حالة الجزيء الأكبر بـ١٦٣٢ مرة من ذرة الهيدروجين وهو عبارة عن جزيء من ٦٠ ذرة من الكربون و٤٨ ذرة من الفلور.

هل سيمكن مثلا أن يرصد العلماء يوما آثار تراكب مع أجسام أكبر مثل البكتريا، وخاصة مع كائنات حية؟ لا أحد يستطيع الإجابة بعد حول هذا التساؤل. مع ذلك فقد أمكن تحقيق تقدم مذهل في هذا المجال بالنسبة للأجسام الصنعية[٣].

أين سيتوقف هذا التقدم؟ من الصعب تقديم إجابة. يتعلق الأمر بالتأكيد بقدرة العلماء والباحثين على الاستمرار وعلى طرح المزيد من التحديات.

كيف تنمو النباتات في تربة حمضية؟

تعد تربة كاليدونيا الجديدة حالة خاصة في العالم. فنحو ثلث أراضيها (٥٥٠٠ كلم٢) تشتمل على نسب من الحديد تتجاوز القيم المعتادة عشر مرات أحياناً.

ومن سماتها الأخرى أيضا أنها فقيرة بالعناصر الغذائية بالنسبة للنباتات وغنية بالمعادن مثل النيكل والكروم والمنغنيز والكوبالت. مع ذلك تنمو على هذه المنحدرات الجبلية غابات واسعة رغم الخصائص التعدينية للتربة. وكان أحد التحديات الكبيرة أمام العلم معرفة كيفية نمو الغابات في هذه التربة، وهو أمر تمت معرفة جانب منه مؤخراً إذ تبين أن فطراً ينمو بشكل خاص على جذور بعض النباتات هو المسؤول عن هذا النمو. فهذا الفطر يأخذ النيكل ويسمح للنبات بالنمو والحصول على حاجته من الغذاء[٤].

أما الفطر فإنه يستفيد من المنتجات الفحمية الناتجة عن التركيب الضوئي للنبات. فالمتعضيتان لا تعيشان إلا معاً. إنها حالة خاصة من التطور يسَّرها الاستقرار المناخي منذ تشكل هذه الجزر منذ نحو ٣٢ مليون سنة وانعزالها عن التأثيرات البيئية المختلفة. يبقى أن يفهم البيولوجيون طبيعة عمل هذه الفطور وكيفية تعاملها مع المعادن واستقلابها.

جراحات بلا أثر ظاهر

في عام ٢٠٠٩ استطاع فريق من الجراحين الفرنسيين القيام بعملية استئصال سرطان منتشر في الحنجرة بوساطة إدخال روبوت جراحي في الفم. الروبوت كان يحمل في أطرافه أدوات جراحية دقيقة لا يتجاوز قطرها خمس مليمترات مثل المقصات واللواقط والشفرات وغيرها إضافة إلى كاميرا. وهو قادر على القيام بتحركات

جراحيــة أدق بكثير من حركات الجراحين، إضافــة إلى الاستدارة بزاويــة ٣٦٠ درجة. ويستفيد الجــراح البشري من التكبير الذي توفره الكاميرا والحاسوب في القيام بعملية فائقــة الدقــة بحيــث لا تترك أثــراً على الإطلاق.

ولا تحد الفوائد بذلك فقط بل بإمكانية القيــام بعمليات في مواضــع حساسة قد لا يمكن القيام بها بطرق أخرى. لا تزال بعض الموانع الأساسية تحول دون تعميم استخدام هــذا الروبــوت. ومنها كلفتــه الغالية التي تتجــاوز ٢ مليون يــورو، إضافة إلى ضرورة استبــدال تجهيزاته بعد كل ٢٠ عملية الأمر الذي يكلف ٥٠٠٠ يورو لكل جهاز.[٥]

الكتابة بوساطة الفكر مباشرة

أحــد الأحــلام الكــبرى لــدى علمــاء الأعصاب والدماغ والمعلوماتية هو التوصل إلى برامــج حاسوبيــة قادرة علــى معرفة الحروف التــي يفكر بها الدمــاغ بوساطة إلكترودات موضوعة على الجمجمة.

هذا ما حققــه العلماء اليــوم بوساطة منظومــة كتابة بوساطة الفكر مباشرة. وهو جهــاز لا يحتــاج إلى زرع الإلكــترودات في الدمــاغ مباشرة بل يحتــاج الشخص فقط إلى وضع قبعــة ذات إلكترودات تكشف عن الموجات الدماغية لديه.

ويوفــر هــذا الجهــاز الــذي يطور في المختــبرات ولا يزال في بداياتــه على شكل حاسوبــي اسمــه speller P٣٠٠ الفرصة للمصابين دماغيــاً بشلل يمنعهم من النطق والحركــة كي يكتبوا ويعــبروا عن أفكارهم ومشاعرهم وحاجاتهم.

وكما هو واضح مــن تسمية الجهاز فإنَّه يرتكز على الكشف عن موجة معروفة جيداً لدى علماء الأعصــاب اسمها P٣٠٠. وهي تظهر في الدماغ إنَّما بطريقة عشوائية عندما يكشف الشخص عن إشــارة ما مثل الإشارة الضوئية مثلاً. وتظهر الموجة بعد ٣٠٠ ميلي ثانية من تحفيزها، ومن هنا اسمها.

وفي حالــة هذا الجهاز speller P٣٠٠ يتــم عرض أرقام وحروف على شاشة. ويتم عرضهــا مصفوفــة. ويتم إضــاءة السطور والأعمدة علــى التوالي وبشــكل عشوائي. يثبت الشخص انتباهه على الحرف الذي يرغب بكتابتــه، وعندما يضــاء السطر أو العمود الــذي يحتوي على هذا الحرف يتم تحفيــز موجــة P٣٠٠ في دماغه، فتكشف عنها الإلكــترودات في القبعة التي يحملها. وبمقاطعة الصفوف والأعمدة يحدد النظام الحرف المقصود ويظهره أعلى الشاشة.

وهكذا يستطيع الجهاز كتابة ما يفكر به الشخص، وقد توصلت التجارب إلى إمكانية أن يكتب الشخــص السليم كلمة من خمسة حــروف كل دقيقــة. مع ذلــك لا يزال هذا الجهاز بعيداً عن تحقيق المطلوب خاصة مع الأشخاص المرضى الذين يحتاجون إليه. إنَّه

تحدٍّ جديد قد يكون باباً لإمكانية تواصل فكرية مباشرة مع تجهيزاتنا وحواسيبنا في المستقبل[٦].

أطول هجرة حيوانية

يحمل خطاف البحر القطبي sterna paradisaea الذي لا يتجاوز ١٢٥ غراما، الرقم القياسي في أطول هجرة يقوم بها حيوان على الإطلاق: حيث يقطع هذا الطائر مسافة ٨٠٠٠٠ كلم ذهاباً وإياباً بين القطبين الشمالي والجنوبي. وهي مسافة تتجاوز ضعف ما كان يتخيله علماء الطيور. إنَّه إنجاز تمّ تسجيله والكشف عنه بوساطة فريق دولي من العلماء في شباط ٢٠١٠م بفضل أجهزة دقيقة تم وضعها في حلقات تحيط بقوائم هذه الطيور.

وهذه الأجهزة تعد ثورة علمية بذاتها إذ هي أدوات خاصة بتحديد المواقع لايزيد وزنها عن ١،٤غ وقادرة على تسجيل معلومات طيلة عدة سنوات. ويقيس الجهاز شدة الإضاءة كل عشر دقائق مما يسمح بتحديد الساعات من مشرق الشمس إلى مغربها، وبالتالي يتم تحديد طول اليوم وساعاته. ويتم بوساطتها بالتالي تحديد خطوط الطول والعرض وموضع الطير بتقدير نحو ١٥٠ كلم. الشرط الأساسي الوحيد للحصول على هذه المعلومات هو استعادة الجهاز بعد تركيبه على الطير[٧].

وهكذا فقد سمح هذا الجهاز إضافة إلى تحديد طول مسافة هجرة خطاف البحر بتحديد مساره أيضا الذي كان حتى الآن غير معروف. وقد تبين أنه لا يسافر وفق خط مباشر نحو القطب الجنوبي عند الهجرة في الخريف. بل يبقى شهراً وهو يصيد وسط المحيط الأطلسي الشمالي قبل أن ينطلق نحو الجنوب معتمداً على المرور بسواحل القارة الأفريقية أو القارة الأمريكية الجنوبية. وهي فترة استراحة ضرورية لكي يستبدل بها ريشه بعد فترة التكاثر.

أمَّا خط هجرة العودة في الربيع فتختلف تماما عن الخط السابق. فخطاف البحر يطير مباشرة فوق مياه الأطلسي العميقة (من الجنوب نحو الشمال) من دون أن يستريح أبداً على السواحل القارية. وهو خط سير يسمح بالاستفادة من التيارات الهوائية المناسبة للطيران كما ومن المصادر الغذائية في هذا الفصل.[٨]

يبقى على العلماء التحدي الكبير، وهو فهم طبيعة وقدرة هذا الطير وطيور أخرى على اتباع مسارات هجرة معينة، وحتى لو كان الاكتشاف المتعلق بالأثر النفقي الكمومي في تعيين خطوط الحقل المغنطيسي صحيحاً، لكن ما الذي يجعل الطير يستبدل مساره؟

العدد الذي يضم الأعداد كافة

ما هو احتمال أن يتوقف برنامج ما؟ إنَّه سؤال بسيط في ظاهره، لكنه يحمل في ثناياه مجهولا كبيراً! ليكن Ω هو الجواب.

نعرّف العدد Ω، بأنه عدد محدد بشكل تام، وعدد سـام (أي ليس حـلا لمعادلة متعددة الحدود) وغير قابـل للحساب، أي إنه ليس لدينا إمكانية لكتابته.

إضافـة إلى ذلك فإن الأرقام التي تؤلف هذا العـدد هي أرقام عشوائيـة. وبما أنه مـن الممكن نظريا ترجمة المسائل الرياضية كافة بمصطلحات أو رموز برنامج معلوماتي يتوقف أو لا يتوقـف، فإن معرفة العدد Ω ستسمح، مـن حيث المبـدأ، بالبرهان على العديد من المبرهنـات التي لا يزال بعضها غير محلول حتى اليوم.

نقول إنّ العدد Ω هو عدد كون، أي أننا نجد فيه أي متتالية من الأرقام ذات الطول المنتهي.

هـل توجد أرقام كون أخـرى؟ إذا بنينا متتالية الأرقـام العشرية على النحو التالي: ٠،١ وتليه الأرقـام الطبيعية ٢ و٣ و٤ فإننا نحصل على عدد حقيقي تكون بدايته على الشكل ٠،١٢٣٤٥٦٧٨٩١٠١١١٢١٣١٤١٥١ ٦١٧١٨١٩٢٠٢١ إلـخ. وهو ما يسمى بثابتة شامبرنـون CHAMPERNOWNE، وهو عدد كون أيضاً. فإذا ما اخترنا ترميزاً للحروف بوساطة الأرقام مثل أن تكون مثلاً أ =١ وب =٢ إلـخ، فإننـا سوف نجد كافة الكتب التي كتبت والتي سوف تكتب في هذا الرقـم. لكن هذا لا يعني أننـا نستطيع أن نستمد مـن هذا الرقم أيـة معلومة كانت، لأننا نجهل مسبقاً أين توجد متتالية معطاة من الأرقام!

لا يـزال الرياضيون يعملـون أمام تحدّ كبير وهو البرهان أنَّ أعداداً شائعة جدّاً مثل جذر العدد ٢ أو العدد النيبري (E) أو العدد Π هي أيضا أعداد كـون، مع أن الكثير من التجارب الرقمية تشير إلى ذلك.

وهكذا يمكن لنا أن نمضي بعض الوقت في التسليـة في أعشار العـدد Π بحثا عن ظهور تاريخ ميلادنـا أو كلمة معينة أو رقم هاتفنـا[٩] إلخ. ويبـدو أن الوصول إلى هذه البراهـين لا يـزال صعباً بـل وأصعب من الوصـول إلى البرهـان علـى تسامي عدد كسـري. ولم يتم إثبـات تسامي العدد Π إلا في عـام ١٨٨٢م، وتسامي جذر العدد ٢ إلا في عـام ١٩٣٤م وتسامي ثابتة شامبرنون إلا في عام ١٩٦١م، وما زلنا نجهل فيما إذا كان جداء العدديـن Π وE أو جمعهما هو عدد سام أم لا.[١٠]

أضخم تلسكوب راديوي حتى الآن

من أهم تحديات العلم، وخاصة اكتشاف الكـون، كان بنـاء التلسكـوب الراديوي ألما ALMA الـذي بدأ يعمـل في عام ٢٠١٢م علـى هضبة ترتفع ٥٠٠٠ مـتر فوق سطح البحـر في تشيلي، في منطقـة تعتبر الأكثر جفافا في العالم. وسوف تعمل لواقطه الـ٦٦ على اكتشـاف وسبر كل مـا يشع في الكون بين ٠،٣ و٩،٦ ملم، بدقـة لا سابق لها، من

المنظومات الكوكبية قيد التشكل والولادة إلى أولى المجرات الكونية، إلى الجزيئات المتشكلة في قلب السحب ما بين النجمية.

وكان اختيار هذه الهضبة الجافة والمرتفعة من أجل تجنب امتصاص الإشارات الضوئية كافة من قبل بخار الماء في الغلاف الجوي. وتعمل لواقطه مثل جوقة وفق مبدأ التداخل بشكل متزامن حيث توزع وتنقل خلال السنة على ١٩٢ دكة من الإسمنت.

ويمكن القول إنَّ هذا المرصد العملاق يقوم على مساحة تصل إلى ٧٠٠٠ متر مربع وهو أكثر دقة بعشر مرات على الأقل من المرصد الراديوي الأضخم السابق له في فرنسا واسمه بور BURE. وتصل المسافة بين بعض لواقطه إلى ١٦ كلم، وستصل دقة الصور النهائية إلى ٠،٠١ ثانية قوسية (مقابل ٠،٠٣ في تلسكوب بور). ويتطلب ذلك تحقيق تزامن ضمن حدود الفيمتوثانية (أي ١٠-١٥ثا) للإشارات الملتقطة في كل لاقط. وهي عملية تتم بوساطة حاسوب ضخم يقوم بـ ١،٦×١٠=١٦ عملية في الثانية.

يبلغ قطر المرآة المقعرة في كل لاقط ١٢ م ويتألف من ١٢٠ لوحاً من النيكل، ويتم رصفها بدقة تصل إلى ٢٥ مكرومتر. أمَّا حامل المرآة فيتألف من ألياف من الكربون بحيث يكون غير قابل للتشوه بسبب التأثيرات الخارجية. وكذلك تم طلاء القاعدة والذراعين الفولاذيين بعازل حراري بحيث يتم تجنب أي تشوه محتمل. أمَّا التجهيزات داخل حجيرة اللاقط فيتم تبريدها إلى ٤ درجات كالفن من أجل تحويل الإشارة الراديوية الملتقطة بوساطة التلسكوب إلى إشارة إلكترونية.

بقي أن نقول إنَّ كل لاقط يزن ١٠٠ طن، وهو بذلك يعد تحديا تكنولوجياً بحد ذاته بحيث يتم تحريكه بدقة فائقة. وعلى الرغم من التغيرات الحرارية التي تصل إلى نحو ٤٠ درجة مئوية بين الليل والنهار، ورياح تصل سرعتها إلى ٩كلم/ سا، فإن اللاقط يسدد إلى هدفه بدقة تصل إلى ٠،٦ ثانية قوسية (أي زاوية رؤيتنا لكرة غولف صغيرة على بعد ٢٥٠ م)، وذلك على مدار الساعة والسنة.

أضف إلى ذلك أن المنطقة هي منطقة زلزالية ولهذا جهز اللاقط لكي يقاوم اهتزازاً أرضياً تصل شدته إلى ٨ درجات! ويسمح محور اللاقط له بالدوران حول نفسه بسرعة عشر درجات في الثانية، وهي سرعة تصل إليها خلال نصف ثانية.(١١)

مقاومة للإشعاع خارج كل المعايير

في عام ١٩٥٦م اكتشف البيولوجي آرثر أندرسون بكتريا في محفوظات من اللحوم التي كان يفترض أنَّه تمَّ تعقيمها. فقد تمَّ قصف هذه اللحوم بأشعة غاما بنسب مميتة لكافة أنواع البكتريا التي كانت معروفة في تلك الآونة. وهذه البكتريا

التي باتت تعرف اليوم باسم دينوكوكوس راديودورانس DEINOCOCCUS RADIODURANS قادرة في الواقع على البقاء حية في جرعات أعلى بخمسين إلى مئة مرة من الجرعات التي يمكن أن تتحملها أي بكتريا أخرى، وأعلى بألف مرة من الجرعة المميتة بالنسبة للإنسان. بل إنَّ هذه البكتريا تقاوم علاجات أو تدخلات أخرى تصيب الحمض الريبي النووي DNA وتعطبه، مثل التجفاف الشديد والمديد أو الأشعة الشمسية فوق البنفسجية.

تعد اليوم هذه البكتريا أكثر كائن معروف مقاوم لأشعة غاما وللأشعة السينية. وقد بينت الدراسات عليها أنها تستطيع خلال ساعات قليلة إعادة بناء بنيتها الوراثية بفضل منظومة من إصلاح أصيلة للتكسرات في الحمض الريبي النووي.

أمَّا البروتينات التي تقوم بالإصلاح فهي محمية ضد الأكسدة التي يسببها الإشعاع. إنَّها منظومة شبه عصية على المخاطر الخارجية الشديدة، فكيف يمكن تفسير هذه البنية التي طورت مثل هذه الإمكانيات؟ تأتي بعض البحوث الحديثة اليوم لتكشف عن جزء من هذا الغموض الذي لا يزال يشكل تحديا أمام العلماء.

وإذا كنّا نستطيع بفضل هذه الدراسات معرفة الإستراتيجية لحماية البروتينات في خلايانا ضد الأكسدة مثل هذه البكتريا، فسيكون بإمكاننا إصلاح الصلات المخلخلة بسبب الأشعة فوق البنفسجية في حمضنا الريبي النووي، أو بسبب الشيخوخة أو بعض الأمراض.

إنَّه أمل جديد بالنسبة لطب التجدد. مع ذلك فإن حماية البروتينات لا يفسر وحده قدرة البكتريا هذه على البقاء ومقاومة معظم الظروف. لقد اكتسبت هذه البكتريا خلال تطورها قدرة فعلية على البقاء والاستمرار من ضمنها إمكانية حماية البروتينات وآلية لإصلاح الحمض الريبي النووي إضافة إلى بنية وراثية متماسكة ومتكافلة كما وبعض الإستراتيجيات الأخرى التي لا يزال العلماء يحاولون اكتشافها وفهمها.[١٢]

اللحظة الأعلى حرارة في الكون

أربعة مليارات درجة، إنَّها الحرارة القصوى التي استطاع العلماء قياسها في عام ٢٠١٠م في مصادم الأيونات RHIC في مختبر بروكهافن في الولايات المتحدة. وهكذا فقد استطاعوا التأكيد بأنهم توصلوا إلى شروط تشكل حالة خاصة من المادة، أو بالأحرى لمركباتها الأدق، أي الكواركات والغليونات، حيث تتحرك من دون قيود![١٣]

تتألف نوى الذرات من بروتونات ونوترونات. وتتألف هذه الجسيمات بدورها من كواركات، مرتبطة فيما بينها بوساطة غليونات، وهي جسيمات حاملة للتفاعل النووي الشديد (هي جسيمات

مماثلة للفوتونات التي تحمل التفاعل الكهرمغنطيسي). وهذه الجسيمات من القوة بحيث أننا لا يمكن أبداً أن نرصد كواركاً معزولاً، وبالطبع لن يمكن رؤية غليون معزول. ولكن خلال أجزاء من المليون من الثانية تلت الانفجار الكبير، كان الكون حاراً إلى درجة أن الكواركات والغليونات كانت ترتحل بشكل حر مشكلة ما يسمى بالبلازما البدئية للكون.

تتنبأ النظريات الفيزيائية بأن مثل هذه البلازما من الكواركات والغليونات توجد في أكثر الأجزاء كثافة من بعض النجوم التي تسمى النجوم النيوترونية. وأنه يمكن تشكيل مثل هذه البلازما لوقت قصير جداً خلال تصادم عنيف جداً بين نوى ذرية ثقيلة بما يكفي. وهذه الطريق الثانية هي التي عمل عليها الفيزيائيون منذ نحو عشر سنوات، بداية في معجل البروتونات الفائق قرب جنيف، والثاني مع المصادم العملاق RHIC في الولايات المتحدة. حيث تمت مصادمة نوى ذرات الذهب والرصاص بسرعات عالية من رتبة سرعة الضوء. وقام العلماء بتعداد الجسيمات الناشئة عن هذه التصادمات. وقد حصلوا بذلك على براهين مقنعة لتشكل البلازما من الكواركات والغليونات، بلازما بدايات الكون!

مع ذلك لاحظ العلماء عام ٢٠٠٥م استمرار وجود تفاعلات في هذه البلازما، وأن السائل المتشكل على هذا النحو كان ينتمي إلى سائل غير لزج أكثر منه إلى غاز. ولهذا ظهر نوع من الشك في النتيجة التي تم الوصول إليها. فهل كان قد تم الوصول فعلا إلى درجات حرارة كافية لإنتاج بلازما من الكواركات والغليونات.

كان لا بد بالتالي من وضع مقياس حرارة يستطيع قياس درجة حرارة في أسخن درجات التصادمات. واشتملت التجربة على إعادة تشكيل طيف الضوء الصادر عن المادة الساخنة التي يخلقها التصادم، مع استبعاد ضجيج الخلفية الناشئ عن جسيمات أخرى.

وهكذا فقد توصل هؤلاء الفيزيائيون إلى أن الجسيمات كانت تصل لحظة لقائها إلى درجة حرارة تتجاوز على الأقل ٢٠ ٪ من درجة الحرارة النظرية لتشكل بلازما من الكواركات والغليونات. وهذا يعني أنهم استطاعوا للمرة الأولى رؤية حالة البلازما هذه فعلا[١٤].

قريباً دم صناعي

يتم في كل عام نقل نحو ٨١ مليون عبوة دم في العالم. ويحلم الباحثون منذ عقود بصناعة الدم لتأمينه بشكل مستمر عند الحاجة. ولا يوجد نسخة كاملة مطابقة تحتوي على البروتينات والخلايا كافة الموجودة في السائل الأصلي. وبالتالي فالمسألة تتعلق صناعيا بإنتاج الكريات الحمر التي تؤمن تزويد المتعضية بالأكسجين.

وإحدى الطرق التي اعتمدت ترتكز على الخلايا الجذعية المكونة للدم. وتتمايز هذه الخلايا في نقي العظام إلى كريات حمراء أو بيضاء أو صفائح، وفقاً للجزيئات التي تخضع لها. وقد استطاع العلماء في عام ٢٠٠٠م، بفضل مزيج جيد من الجزيئات، التوصل إلى زيادة عدد الخلايا الجذعية المكونة للدم الناتجة عن الدم في الحبل السري من أجل استخدامها في التطعيم. وبعد خمس سنوات توصل الفريق نفسه إلى أوّل إنتاج في العالم للخلايا الجذعية نفسها للكريات الحمر في المختبر.

مع ذلك كان يبدو أن تطبيق هذه التقنية على مستوى الإنتاج الصناعي أمراً صعباً. فمصادر الخلايا الجذعية المكونة للدم محدودٌ جداً حيث تعتمد على التجميع. ولكن في عام ٢٠٠٦م ظهر حل من نمط جديد. فقد بين فريق ياباني أن خلايا بالغة يمكن أن تحول إلى حالة خلايا جذعية جنينية، غير متمايزة، وذلك بأن نحقن فيها مورثات معينة بوساطة فيروس. وتستطيع هذه الخلايا المسماة iPS التضاعف إلى ما لا نهاية، ويمكنها فيما بعد التحول إلى أي نوع كان من الخلايا الخاصة بالمتعضية إذا زرعت في وسط مناسب.

وبعد خمس سنوات أخرى تقريبا استطاعت فرق عدّة الحصول على كريات حمر بوساطة هذه التقنية.

ويتوقع العلماء إنه يلزم عشر سنوات أخرى منذ الآن لإنتاج الدم صناعياً. مع ذلك هناك تحديات عدّة لا تزال تواجه العلماء. فبداية يجب التوصل إلى إنتاج الكريات الحمر ابتداء من خلايا IPS من دون استخدام فيروس من أجل حقن المورثات. ويجب على الكريات الحمر التي يتم الحصول عليها أن تشتمل على هيموغلوبين بالغة! أمّا الصعوبة الأخيرة فهي تقنية. إذ يجب توافر ٥٠٠ليتر من الوسط الزراعي لإنتاج عبوة دم واحدة. فلا بد من اختراع محركات بيولوجية من أجل تقليص هذه الكمية وجعل تكاليف الإنتاج مقبولة.[١٥]

دفن ثاني أكسيد الكربون

أحد التحديات المطروحة على العلم هو كيفية التخلص من غاز ثاني أكسيد الكربون من دون أن يؤذي الطبيعة. وقد أجريت تجارب عدّة على حقن غاز ثاني أكسيد الكربون في مناجم غازية فارغة أو في طبقات عميقة من المياه المالحة، لكن هذه التجارب أظهرت وجود عوائق كثيرة أمام هذه الطرق. طرحت مؤخراً طريقة جديدة سميت بتعدين غاز الفحم. وهي تشتمل على حقن غاز ثاني أكسيد الفحم في الصخور البازلتية من أجل تأمين تخزين دائم على شكل صلب له.

وتكمن الفكرة في محاولة تقليد ما يجري في الطبيعة. ولذلك يجب توافر خزانات

مؤلفة من صخور سيليكاتية مثل البازلت كما في إيسلندا. ويسهل حقن غاز ثاني أكسيد الكربون المنحل في ماء الخزان، عبر تحويل المعادن السيليكاتية، تحرير الأيونات التي سوف تتفاعل مع الأنواع المحلولة لتشكل معادن فحمية مستقرة، قابلة لحجز غاز ثاني أكسيد الفحم على مدى عصور جيولوجية.

وأفضل الصخور المناسبة لذلك هي السيليكات الغنية بالكالسيوم لأن تفاعلات الانحلال والتعدين فيها سريعة. لكنها ليست الأكثر انتشاراً. لهذا يدرس العلماء إمكانية تسريع التفاعلات بالنسبة للسيليكات الأخرى الأكثر شيوعاً، والغنية بالمغنيزيوم أو الحديد أو الألمنيوم، وبإضافة جزيئات عضوية وبكتريا موجودة في الأوساط الطبيعية[16]. مع ذلك يبقى سؤال هام جداً، حول انعكاسات مثل هذه العمليات على الصيرورات الطبيعية الطويلة المدى في الطبيعة..

تعديل سلوك العصبونات بوساطة الضوء

لقد أصبح من الممكن ضبط العصبونات الدماغية بوساطة حزمة ضوئية. وكان العلماء قد توصلوا إلى تحفيز عصبونات بوساطة إلكترودات. لكن هذه التقنية الأكثر دقة بكثير تسمح بتحفيز أو كبح نشاط العصبونات وهي في حالة الحياة الطبيعية. يمكن بذلك التحكم بحركة ونشاط الدماغ، مثل التجربة التي اختبرت فيها هذه الطريقة على فأر حيث يتم إيقاظه أو يتم التحكم بتعرفه على رائحة ما أو بعدم تعرفه على رائحة ما، إلخ.[17]

محرك على مستوى الذرة

سعى العلماء باستمرار إلى بلوغ الحد الأقصى فيما يتعلق بالمحركات الدقيقة التي يمكن أو قد يمكن استخدامها في التقنيات الطبية أو غيرها. وتعتمد الدراسات الأحدث في هذا المجال على بناء محرك من ذرتين فقط وضوء. الأفكار النظرية لهذا المحرك أصبحت متماسكة ويبقى إمكان تحقيقه فعلياً!

أصغر المحركات الكهربائية المعروفة اليوم لا تتجاوز في حجمها جزءاً من الألف من المليمتر. لكنها تفقد نحو ٢٠ ٪ من طاقتها على شكل حرارة. فكيف يمكن التخلص من قوى الاحتكاك المسؤولة عن هذا الفقدان وجعل المحركات أكثر فعالية؟

يمكن أن يكون الحل كما هي العادة في العلم بالذهاب إلى حدود قصوى أبعد، أي إلى محرك أصغر من ذلك بألف مرة! ولكن على هذا المستوى لا تعود قوانين الفيزياء الكلاسيكية هي السائدة بل قوانين الميكانيك الكمومي.

وقد استفاد النظريون الألمان وعلى رأسهم بيتر هانغي Peter Hanggi من

جامعة Augsbourg ليصمموا نموذجاً غير مسبوق يرتكز على حركة الذرات، المعزولة تماماً عن محيطها الخارجي، وبالتالي غير المعرضة نهائيا لأية قوى احتكاك.[18]

إنَّ المحرك الكهربائي ينقل الطاقة الكهربائية بوساطة الحركة. وحتى الآن كانت المحركات المصغرة أو الدقيقة جدّاً تعمل بفضل تيار متناوب يعكس قطبية الإلكترودين أو المسريين، مما يحرك بهذه الطريقة مغنطيسا.

أمَّا مبدأ المحرك الذري فمختلف تماما. وهو عبارة عن حقل كهربائي يجعل ذرات مشحونة تدور، وتتم مقاربتها وحصرها بوساطة أشعة ليزر لتقع في فخ على شكل سوار، سوار لا يتجاوز قطره عشرة أجزاء من الألف من المليمتر.

ولكن على المستوى الكمومي، لا تتصرف هذه الذرات كما لو كانت جسيمات مادية كلاسيكية أشبه بالكريات نستطيع وصف مسارها بسهولة. بل يجب النظر إليها على أنَّها موجة تحدد في كل نقطة احتمالية أن توجد فيها.

وبما أنَّ الموجة متناظرة، فإنَّ الذرة تنتقل نحو اليسار كما نحو اليمين من الحلقة، وتكون الحركة الكلية بالتالي معدومة. ولتلافي ذلك، يدخل العلماء من جامعة أوغسبورغ نوعاً ثانياً من الذرات، الحيادية، وبالتالي غير الحساسة للحقل الكهربائي.

وهذه الذرات الحيادية بتفاعلها مع الذرات المشحونة تسمح بكسر التناظر وتفعيل المحرك في اتجاه واحد. وهي تلعب بكلمة أخرى دور المحرض. ووفقا للحسابات فإنَّ هذا النوع من المحرك ما أن يبدأ حركته حتى تستمر الحركة ويتابع دورانه حتى بوجود قوة خارجية مما يثبت أنه محرك على مستوى صغير جدّاً.

أمَّا بالنسبة لبناء مثل هذا المحرك الكمومي، فإنَّه قابل للتحقيق وفق فروسيو رانزوني Ferruccio Renzoni من جامعة كوليج اللندنية، فالتجهيزات التقنية كافة موجودة. وهو يتوقع إمكانية إنجازه خلال سنوات قليلة قادمة. وتكمن إحدى الصعوبات في المدة الزمنية للتجربة. إذ يجب في الواقع التوصل إلى التحكم بغازات ذرية فائقة البرودة في الفراغ وهي فوق ذلك في حالة مكثفة، والتوصل أيضا إلى جعل حزم الليزر تستقر خلال دقيقة، وهي المدة اللازمة لإقلاع المحرك. ودقيقة في مختبر للذرات الباردة هي فترة طويلة جدّاً.

حيوانات لا تتنفس

ألا يشكل هذا السؤال تحدياً جدياً وهاماً أمام العلم، أن نعرف كيف تعيش كائنات وحيوانات مجهرية من دون أكسجين في أعماق بحرية مالحة جداً؟ كان يبدو أنه من المستحيل وجود كائنات تعيش كامل حياتها بلا أكسجين في المملكة الحيوانية.

لهذا نستطيع أن نتخيل دهشة علماء البيولوجيا في جامعة بوليتكنيك مارش في أنكون Ancone في إيطاليا عندما اكتشفوا في نيسان من عام ٢٠١٠ ثلاثة أنواع حيوانية تستوطن أعماق البحر المتوسط المالحة جداً بحيث تكون محرومة طيلة حياتها من الأكسجين.(١٩)

فهذه الحيوانات مع درعها المخروطي الشائك ذي الأعضاء التي يكاد لا يتجاوز طولها ربع المليمتر، تنتمي إلى مجموعة من اللوريسيفيرات loricifère، وهي حيوانات دقيقة تعيش على بقايا الكائنات في أعماق المياه. وهي إضافة إلى ذلك تتصف بلغز آخر بالنسبة للباحثين. فهؤلاء كانوا ينتظرون العثور في خلاياها على ميتوكوندريات، هذه العضويات المخصصة للتنفس والتي تسمح بالاستفادة من الأكسجين لإنتاج الطاقة. غير أنّهم لم يجدوا شيئاً من ذلك. فكيف تعيش هذه المتعضيات في هذا الوسط البيئي المتطرف؟

لقد عثر البيولوجيون في خلايا هذه الحيوانات على بنى أخرى. وهي عبارة عن بنى هيدروجينية لا نجدها عادة سوى عند بعض وحيدات الخلية التي تعيش محرومة تماما من الأكسجين. وهي كائنات متخصصة في التخمر الذي يمثل طريقة أخرى لتركيب الطاقة من دون اللجوء للأكسجين.

هذا يعني أنّ حياة حيوانية بلا أكسجين ممكنة. ولكن ربما ليس من دون الاستعانة بمتعضية أخرى. ذلك أنّ العلماء لاحظوا داخل اللوسيفيرات ما يشبه البكتريا المنتجة للميتان. ومن الممكن أن تكون بالنسبة لهذه الكائنات مصدراً آخر للطاقة. مع ذلك تظل هذه المسألة مفتوحة على البحث المعمق.

كوكب لامركزي جدّاً

بيّنت الأرصاد أن الكوكب HD٨٠٦٠٦b يكون قريباً من نجمه قربَ عطارد من الشمس، وأحياناً بعيداً عنه بعد الأرض عن الشمس.

كان العلماء يعتقدون قبل اكتشاف كواكب خارج المجموعة الشمسية بأن خاصية الكوكب تتعلق بمساره شبه الدائري حول النجم. وقد تغير هذا الفهم مع أولى الاكتشافات لكواكب تدور حول نجوم أخرى. وتضاعفت الأمثلة على مسارات ناقصية متطاولة حتى اكتشاف الكوكب HD٨٠٦٠٦b في عام ٢٠٠١م، حيث تبين أن مساره متطاول إلى أقصى حد حول نجمه.(٢٠)

يقع HD٨٠٦٠٦b على بعد ١٩٠ سنة ضوئية عن الأرض في برج الدب الأكبر. إنّه كوكب عملاق غازي مثل المشتري، ويقاربه بالحجم، إنما مع كتلة تصل إلى أربعة أضعاف كتلة المشتري. أمّا مدة دورانه حول النجم فهي ١١١ يوما. ونتحدث هنا عن مشتري أكثر حرارة إن صح التعبير لأنه يقترب من نجمه أكثر بكثير مما يفعل المشتري.

يقترب هذا الكوكب من نجمه إلى ٠،٠٣ وحدة فلكية ثم يبتعد عنه كثيراً إلى مسافة ٠،٨٧ وحدة فلكية، وبسبب ذلك فإنه يتعرض لتغيرات في الإضاءة وفي الحرارة كبيرة جداً.

وترتفع حرارته خلال بضعة ساعات عندما يكون قريباً من نجمه من ٥٠٠ درجة إلى ١٢٠٠ درجة مئوية.

تمَّ التوصل إلى هذه المعلومات عندما مرَّ الكوكب بداية في أقرب نقطة من نجمه في اللحظة نفسها التي كان النجم يخفيه فيها، ثم مرَّ أمام نجمه ضمن محور الرصد من الأرض. وسمح كسوف الكوكب بوساطة نجمه بقياس الضوء الصادر عن الكوكب، ثم سمح مرور الكوكب أمام نجمه بحساب قطره وميلان مساره، الأمر الذي يعد سابقة بالنسبة لكوكب على مسار لامركزي[٣١]. يفتح ذلك الباب أيضا على عالم اكتشاف منظومات كوكبية مختلفة.

مليار مليارات العمليات في الثانية

إنَّ الحاجة المتنامية للنمذجة الرقمية تتطلب زيادة في قدرات الحواسيب الكبرى. وأكبر الحواسيب الحالية تنجز نحو مليون مليار عملية في الثانية، إنَّما مع استهلاك للطاقة الكهربائية لا يستهان به. إنَّ التحدي المقبل أمام العلماء هو مضاعفة هذه القدرة بـ ١٠٠٠ مرة على الأقل بحيث تصبح إمكانية الحواسيب تصل إلى حد القيام بمليار مليار عملية في الثانية، إنَّما مع مضاعفة استهلاك الطاقة الكهربائية بنسبة لا تتجاوز ١٠٠ ضعف فقط الاستهلاك الحالي.

ويبدو أنَّ الحل للوصول إلى ذلك يمر باللجوء إلى زيادة الحساب على التوازي، بحيث تعمل عدة مئات من الملايين من المعالجات بشكل متزامن. إنَّ أكبر حاسوب في العالم اليوم يسمى جاغوار في مخبر أواك ريدج في تينيسي في مركز الأبحاث الخاص بالطاقة في الولايات المتحدة.

وقد اعتمد في عام ٢٠٠٩م كأضخم حاسوب في العالم حيث يقوم بـ ١،٧٦ مليون مليار عملية في الثانية، أي ١،٧٦ بيتافلوب. ويقدر العلماء أنَّه سيتم الوصول إلى مستوى الإكسافلوب، أي الذي سيتجاوز مليار مليار عملية في الثانية، بين عامي ٢٠١٨ و٢٠٢٠، وهو حاسوب يسعى العلم له لأنه سيكون قادراً على نمذجات من مستوى نمذجات المناخ المقبولة علمياً..[٣٢]

فوتونات قادمة من البعيد جداً

لو كنا نستطيع رؤية أشعة غاما بعيوننا لرأينا لمرتين أو ثلاث في اليوم ضوءاً شبيهاً بالألعاب النارية يدوم نحو ثلاثين ثانية ويضيء السماء كلها. سميت هذه الانقذافات من الإشعاع التي تفوق بطاقتها كثيراً الضوء بـ«انقذافات غاما». وقد اكتشفت في الستينيات من القرن الماضي.

وكان يعتقد قبل ذلك أن أكثر الظاهرات

طاقة في الكون هي انفجارات السوبرنوفا أو النجوم الكبيرة الكتلة. لكن اكتشاف انقذافات غاما جاء صدفة عندما كان الأمريكيون يتوقعون ويراقبون التجارب الروسية النووية في الفضاء. وعندها سجلوا هذه الانقذافات العنيفة جداً والتي تأتي من مناطق غير مميزة أبداً في الفضاء. ولم يتم فهم وتفسير هذه الظاهرة حتى أصبح هناك أكثر من ١٠٠ تفسير في عام ١٩٩٥م. لكن التفسير الأصح لم يثبت إلا منذ سنوات قليلة حيث تنهار بعض النجوم الفائقة الكتلة لتشكل ثقباً أسود. ويصدر هذا الأخير حزمة من المادة بسرعة قريبة من سرعة الضوء. وتحدث تصادمات عنيفة جداً للمادة داخل هذه الحزمة تترجم بانقذافات غاما. كما يمكن أن تنشأ الانقذافات القصيرة جداً، التي لا تتجاوز بضعة ميلي ثانية، عن تشكل ثقب أسود إنّما يكون هذا الأخير ناتجاً عن انصهار نجمين نيوترونيين.

إنّ انقذافات غاما هي الظاهرات الأعنف في الكون. وهي أيضاً الظاهرات الفلكية الأبعد التي تمّ الكشف عنها على الإطلاق. لكن البعد في الفضاء يعني البعد في الزمن. في عام ٢٠٠٩م بينت دراسة على انقذافات غاما أنها كانت قد نتجت عندما لم يكن عمر الكون سوى ٦٠٠ مليون سنة، ونعلم أن عمره الآن نحو ١٣،٧ مليار سنة[٢٣] الأمر الذي يعني أنه كانت توجد نجوم في نهاية حياتها في تلك الآونة المبكرة وهو ما لم يكن مقبولاً حتى الآن.

وانقذافات غاما المفاجئة، ومع ما تحمله لنا من معلومات ثمينة حول ماضي الكون وبداياته وبناءه، لكنها مخيفة أيضاً. فهي تطلق من الطاقة خلال بضع ثوان أكثر مما تطلقه الشمس في حياتها كلها. ولو حدثت مثل هذه الظاهرة في مجرتنا وكانت الحزمة من أشعة غاما متجهة نحو الأرض فإنها تمحو أنواع الحياة كافة على الكوكب.

وهذا أمر غير بعيد الاحتمال إذ توجد نجوم مشابهة في مجرتنا. غير أنه لا يحصل في المجرة أكثر من انقذاف واحد كل ١٠ إلى ٢٠ مليون سنة، وليس احتمال توجه الحزمة من أشعة غاما باتجاهنا بأقل من ١ على ١٠٠. لهذا قد يمكننا النوم بأمان حتى وقت بعيد[٢٤]..

هل يمكن بناء خلايا من جميع مكوناتها صنعياً؟

إنّ الصنع الكامل للخارطة الوراثية لبكتريا يشير إلى تخطي العلماء مرحلة حاسمة في خلق الإنسان لمتعضيات وكائنات جديدة تماماً.

ففي ٢٠ أيار من عام ٢٠١٠م أعلن عالم المورثات كريغ فانتر عن ولادة بكتريا جديدة في مختبره اسمها Mycoplasma JCVI-syn1 :o.mycoides وقال: «إننا نعلن اليوم عن توصلنا إلى أول خلية

يتم صنعهـا أو تركيبها، وأول نوع قادر على التكاثر والده أو أمه هـو الكومبيوتر»! إنّها أول خليـة صنعية! فهل سيصل الإنسان إلى تصنيـع البنى أو الوحـدة الأساسية للكائن الحي؟

إنَّ هذه البكتريا ليست صنعية مئة بالمئة. فقد تم تصنيع مورثاتها بوساطة الكومبيوتر وتمَّ تركيـب جزيء الـ DNA مخبريا بعد ذلك. لكن متواليتها ليست من اختراع الذهن البشري، بل هي عبارة عن الخارطة المورثية لبكتريـا معروفة باسـم Mycoplasma mycoides مع بعض التعديلات المجراة عليها. ولكـي تعمل هذه المورثـات المعدلة كان لا بـد مـن وضعها في وسـط ملائم. وقد تمـت زراعته في جسـم بكتريا أخرى Mycoplasma capricolum مما أدى إلى إنتاج البكتريا الجديدة المصنعة.

فليس ثمـة هنا خلق للحيـاة. بالمقابل، فقد فتح ذلك الباب أمـام التدخل في بنية الكائن الحي. لأنَّ الخارطة المورثية للبكتريا الجديدة هـي الأطول التـي تمَّ تركيبها أو العمل عليها حتى الآن. فهي تتألف من نحو مليون زوج من الأسس، مما يعني أن العلماء باتـوا قاب قوسين أو أدنـى من العمل على بنى مورثيـة لكائنات تتألف من مليوني زوج مـن الأسس. وهو العدد الكافي من المورثات الضرورية لعمل الخلية ولعمل مورثات أخرى يختارها الإنسان بعناية لكي يحقق للمخلوق الذي يصنعه صفات محددة وغير مسبوقة.

ومن هذه المهمـات مهمة إنتاج جزيئات يفترض أنها هامة ومفيدة مثل الأدوية. لكن ليـس هذا كل شيء، فالتحـدي هنا يشتمل علـى إمكانيـة تصميم خلايـا تنجز هذه العمليـة أو تلك أو هـذه المهمة أو تلك تبعا لبيئتهـا. ونحـن هنا لا نتحـدث عن خيال علمي. ففي أيار من عام ٢٠١٠م أيضاً أعلن فريق سويسري أنه توصل إلى منظومة قادرة على الكشف عـن نسبة حمض الأوريك في دم فأر، وعلى تخفيضه إذا كان يجب ذلك. وتتألـف هـذه المنظومة من خلايـا بشرية معدلـة بوساطـة مورثات بكتريـا وفطور. تسمـح الأولى بالكشف عن حمض الأوريك وتسمح الثانية بإنقاص تركيز هذا الحمض. إنَّها بداية عالم جديد يحمل تحديات جديدة وآفاقا جديدة للعلم.(٢٥)

متى الذهاب إلى المريخ؟

شـارك سيريل فورنييـه بتجربة انعزال تحضيرية للسفر في الفضاء بين نيسان وتموز ٢٠٠٩م مع خمسة أشخاص آخرين. وكان هدف هـذه التجربة يندرج في إطار مشروع «المريـخ ٥٠٠»، مشـروع الوكالـة الأوروبية للفضـاء بالمشاركة مع معهد المسائل الطبية الحيوية في موسكو. وكان الهدف هو دراسة التساكن بين عدد من الأشخاص خلال مدة الرحلة والعودة من المريخ.

يقـول سيريل: «سمحت لنـا مدة العزلة

باختبار فعالية النموذج المطروح وتصحيح الأخطاء فيه مع نمذجة للطيران إلى المريخ مدتها ٥٢٠ يوماً يقوم بها فريق آخر بدأ انعزاله في ٣ حزيران ٢٠١٠م. وقد تمت مراقبة الفريق خلال انعزاله نفسياً وطبياً ومناعياً. كما صححت أخطاء التغذية والحمام.

وقد بينت التحاليل والفحوصات التي أجريت على المنعزلين أنهم كانوا يعانون من توتر لم يلحظوه خلال التجربة. وتعد هذه التجارب المطابقة فعلياً لرحلات المريخ المقبلة إيذاناً باقتراب رحلة مأهولة إلى المريخ بات يتسابق فيها عدد كبير من الدول والجهات العلمية».(٣٦)

تسارع ذوبان الجليد في القطب الشمالي

سيظل عام ٢٠١٠م ماثلاً لفترة طويلة في تاريخ القطب الشمالي. فقد بدأت درجات الحرارة ترتفع فيه منذ كانون الثاني واستمرت كذلك حتى فصل الصيف ولم تصل مساحة الجليديات البحرية في منتصف أيلول من هذا العام إلى أكثر من ٤،٧٦ مليون كلم٢، مقارنة مع نحو ٧،٥ مليون كلم٢ في الثمانينيات من القرن الماضي، باستثناء عام ٢٠٠٧م الذي شهد رقماً أعلى في مساحة الجليديات البحرية.

وقد تقلصت هذه المساحة بشكل كبير منذ بداية أرصاد الأقمار الصنعية عام ١٩٧٩م. كما أن سماكتها تراجعت مما يشير إلى أن مقاومتها للذوبان قد خفت. والنتيجة أن الجليد بدأ يتكسر مما يسهل في النهاية تفككه وابتعاده.

ولا شك أن الارتفاع الحراري للمنطقة هو ما يفسر هذه الكارثة. فقد ارتفعت درجة حرارة الأرض نحو ٠،٧٥ درجة منذ بداية العصر الصناعي في عام ١٨٨٠م، بينما زادت درجة القطب الشمالي ضعف ذلك. أما بين عامي ١٩٧٠ و٢٠٠٨م فقد زادت درجة حرارة القطب ثلاثة أضعاف درجة حرارة الأرض.

يقرن العلماء هذا الارتفاع في درجة الحرارة بسيناريو كامل من التراجعات على مستوى البيئة الأرضية. فكلما نقص الجليد والثلج، كلما نقص عكس الإشعاع الشمسي نحو الفضاء، ويزداد بالمقابل الغطاء من الغيوم الذي يزداد تلبداً خلال السنوات الأخيرة فوق القطب مما يزيد بالتالي من أثر الدفيئة المحلي.

مع ذلك لا يبدو أن التسخين الحالي هو المسؤول الوحيد عن تراجع الجليديات. إذ يهتم العلماء بظاهرة أخرى. ففي عام ٢٠١٠م كما في عام ٢٠٠٧م زادت الرياح التي تسود فوق القطب من التيار العابر للقطب الذي يدفع المياه. وبالتالي الجليديات- من ساحل سيبريا نحو مضيق فرام، بين سبايتزبرغ وغرينلنده. ويعد ذلك معاملا هاما لم يتم إدراجه بعد في المعادلات التي تدرس المناخ والتغيرات في القطب الشمالي. وهو بالضبط التحدي المطروح على الدراسات الحالية، أي

الوصف الأفضل للجليد القطبي وتفاعلاته مع المحيط والغلاف الجوي ضمن النماذج الحاسوبية. الأمر الوحيد الذي يتفق عليه العلماء اليوم هو أن هذا النقص في الكتلة الجليدية سيستمر مع اختلافهم حول السرعة التي سيستمر بها..(٢٧)

التحكم بأحلامنا

من منا لم يرغب بالتدخل والتأثير خلال أحلامنا؟ إنه أحد التحديات الكبرى التي بدأ العلم يطرحها كموضوع للدراسة. فوفقاً للذين جربوا الحلم الذي يسمى «صافيا»، بعكس الحلم العادي، فإن الحلم الصافي والجلي والواضح يتم بوعي كامل له. فالحالم يستطيع التدخل على مجريات الحلم، فيقرر مثلا الطيران أو ترك موضع معين إلخ. وعند الاستيقاظ، فإنه يتذكر تفاصيل ما عاشه في الحلم بشكل واضح. تتم هذه الظاهرة عموما في الساعات الأخيرة من الليل، في مرحلة النوم الظاهري، عندما تكون الحركات الوحيدة في الجسم هي حركات العينين. ووفق المختصين فإن أي شخص يستطيع أن يعيش مثل هذه التجربة إذا قام بتمرين يرتكز على الإيحاء الذاتي.

ولكن على الرغم من أن الأحلام الصافية ذكرت في آداب العصور القديمة، فإن إثبات حصولها لم يتم علمياً إلا في نهاية القرن العشرين بفضل أعمال ستيفن لابيرج Stephen Laberge، من جامعة ستانفورد.

فقد برهن أنه يمكن الطلب من أشخاص غارقين في هذه الحالة القيام بسلسلة محددة مسبقاً من الحركات العينية مما يشير إلى أنهم كانوا واعين.

وفي عام ٢٠٠٩م، واعتماداً على هذه الطريقة، ذهبت أورسولا فوس Ursula Voss وفريقها من جامعة فرانكفورت إلى أبعد من ذلك من أجل دراسة النشاط الدماغي المرتبط بالحلم الصافي. وقد طلبت من مجموعة من الطلاب أن يقوموا بتجربة مثل هذه الأحلام. وبعد أن تحققت بوساطة طريقة لابيرج أنهم كانوا واعين، سجلت نشاطهم الدماغي بوساطة التصوير الكهربائي للقشرة الدماغية. وكانت النتيجة من خلال المقارنة مع دماغ الأشخاص النائمين أو المستيقظين ظهور اختلاف دماغي. فقد ارتفع تواتر الأمواج الدماغية إلى ٤٠ هرتز عند الحالم حلماً صافياً في حين كانت أبطأ بكثير عند الحالم النائم.

هذا إضافة إلى التزامن بين نشاط المناطق الجبهية والجانبية الذي يكون أعلى وقت النوم منه وقت اليقظة. وهكذا يكون الحالم حلماً صافياً في حالة مختلفة تماما، متوسطة بين النوم واليقظة(٢٨). ودماغه هو الذي يقول ذلك. يبقى أن هذا المجال يفتح الباب واسعاً لتحدي معرفة طبيعة الأحلام الدماغية وعلاقتها بعلم النفس.

الهوامش

1- V. Bontems et G. Cohen-Tannoudji, La Recherche, n° 446, p. 38, 2010.
2- S. Deléglisse et al., Nature, 455, 510, 2008.
3- Etienne Klein, La Recherche, n° 446, p. 45, nov. 2010.
Etienne Klein, Petit voyage au pays des quanta, Champs Flammarion, 2004.
4- P. Jourand et al., Tree Physiology doi:10.1093/ treephys/tpq070, 2010.
P. Jourand et al., FEMS Microbiology Ecology, 72, 238, 2010.
5- Florence Heimburger, La Recherche, n° 446, p. 47, nov. 2010.
6- Marie-Laure Théodule, La Recherche, n° 446, p. 48, nov. 2010.
7- C. Egevang et al., PNAS, vol 107, 5, 2078, 2010.
8- Lisa Garnier, La Recherche, n° 446, p. 49, 2010.
9- http://pi.nersc.gov
10- Philippe Pajot, La Recherche, n° 446, p. 49, nov. 2010.
11- La Recherche, n° 446, p. 50, 2010.
12- K. Zahradka et al., Nature, 443, 569, 2006.
D. Slade et al., Cell, 136, 1044, 2009.
E. Bentchikou et al., PloS Genetics, 6, e 1000774, 2010.
M. Tanaka et al., Genetics, 168, 21, 2004.
A. Krisko et M. Radman, PNAS, 107, 14373, 2010.
M. J. Daly et al., PLoS One, 5, e12570, 2010.
M. Blasius et al., Critical Reviews in Biochemistry and Molecular Biology, 43, 238, 2008.
http://bit.ly/genomeradodurans
13- A. Adare et al., (Phenix collaboration), Phys. Rev. Lett., 104, 132301, 2010.
14- Vahé Ter Minassian, La Recherche, n° 446, p. 57, nov. 2010.
15- Caroline Guignot, La Recherche, n° 446, p. 57, nov. 2010.
16- D. Delbecq, La Recherche, n° 446, p. 57, nov. 2010.
17- M. E. Carter et al., The Journal of Neuroscience, sep 2, 10939, 2009.
18- A. Ponomarev et al., Phys., Rev. Lett., 102, 230, 601, 2009.
19- R. Danovaro et al., BMC Biology, 8, 30, 2010.
20- D. Naef et al., A&A, 375, L21, 2001.
21- C. Moutou et al., A&A, 498, L5, 2009.
22- P. Vandeginste, La Recherche, 446, p. 62, 2010.
23- N. Tanvir et al., Nature, 461, 1254, 2009.
24- Mathieu Nowak, La Recherche, 446, p. 66, 2010.
25- Cécile Klingler, La Recherche, n° 446, p. 66, 2010.
26- La Recherche, n° 446, nov 2010.
27- F. Lemarchand, La Recherche, 446, 2010.
28- U. Voss et al., Sleep, 32, 1191, 2010.

إِنَّهُ الأقصى أيُّها التَّوبادُ

✿
محمود حامد



.... وأقولُ: ذاكَ المُستهامُ الصَّبُّ،
كَمْ مِنْ مُسْتَهامٍ صاحَبَ التَّوبادُ!!؟
وَطنُ الأيائلِ، والخُزامى، واليَمام،
وَمَا مضى، أوْ مَا يجيءُ، وَمَا هُنا:
قَدْ خَلَّفَ الأجدادُ!!!

هُوَ ذلكَ الأبَدُ العَجوزُ،
وَقَدْ تَدَثَّرَ بالعَبَاءَةِ، والأسى، والشَّيْبِ،
والحُزْنِ الدَّفينِ، وما يُخلِّفُهُ الصِّغارُ،
العابرونَ هُنا... كأسْرابِ القَطا،
والمولعون بما يُحدِّثهم بِهِ... الأكبادُ
وخيولُهم: سَعَفُ النَّخيلِ،
وذلكَ القَصَبُ الطَّرِيُّ، وتلكُمُ الأعوادُ!!!

✿ ✿ ✿

هُوَ... منذُ فجرِ الدَّهْرِ، يَجْلُسُ هاهُنا

✿ أديب وشاعر من فلسطين.

بفنائه الصَّيفيّ...،

في الرُّكْنِ القَصيِّ،

أمامَ خَيْمَتِه العَتيقة موغلاً بأساه،

يَسْرُدُ للعذارى ما تبقّى...

مِنْ رَمادِ الذّكرياتْ

والأرضُ.. تَسْحَبُ ظلَّها

خَلْفَ الّذينَ تُحِبُّهُمْ...،

دَمُهُمْ أغانيهم...،

وضحكُهُمْ... فُراتْ!!!..

• • •

هُوَ مُنْذُ فَجْرِ الدَّهْرِ يجلسُ هكذا،

ويُعيدُ، ما حفظتْه ذاكرةٌ عَنِ التَّوْبادِ... حَتّى:

كانَتِ الأطيارُ، والأقمارُ، والأشجارُ، والأحجارُ...

تُسْلِمُ نَفْسها للنَّوم،

حينَ يَهِلُّ أمْسُ الذِّكْرياتِ،

على أنينِ الموقدِ اللّيْليِّ، والماضي:

بأطيافٍ مَضَيْنَ.. يُعادُ!!!

برتابَةٍ... كَشَهيقِ آخرِ جَمْرَةٍ،

توحي بأنَّ الفجْرَ... أوْشَكَ؛ رُبَّما،

وَيَكادُ!!!؟..

• • •

لي فيكَ ماتَرَكَ المُغَنّي للّذينَ يُحِبُّهُمْ،

فالنّأيُ يُرجعني إليك،

وَوَحْشَةُ الطُّرُقاتِ في عَيْنَيْنِ مُطْفأتَيْنِ حُزْناً:

بانتظارِ الغائبينَ،

ومقعدانِ يُثَرْثِرانِ...،

وعابرانِ يُلوِّحانِ مِنَ البَعيدِ:

فعابرٌ يمضي، وآخَرُ لا يَجيءُ،

وبينَ مَنْ يمضي، ولا يأتي... مَرايا

كُلّها أضْدادُ

تُرِكَتْ... على عَجَلٍ... مُهَشَّمَةً:

لأجملِ ما مَضى، وَيَجيءُ،

راحَ، على أنينِ الرَّمْلِ،

يَرْسُمُهُ، بِرَوْعَةِ ما تَجَلّى

في خَيالِ البُرْعُمِ الأولادُ!!!

• • •

وعلى ثَراهُ: تَناوَبَتْ أحْلامَها

تلك الخيامُ الموجَعاتُ،

وثرثراتُ الرّيحِ عَنْ قَيْسٍ وليلى،

والّذي تركَتْهُ للذكرى،

على أنّاتِ رَمْلٍ مُتْعَبٍ بهمومِه،

الأوتادُ!!!

• • •

كَمْ مِنْ حَديثٍ موجعٍ، في الدَّهْرِ،

أشعلَ صَبْوَةَ الأحجارِ عَنْ قيسٍ وليلى،

رَدَّدَتْهُ الرّيحُ حَتّى...

مَلَّهُ التَّردادُ.

لِلْعُمْرِ أرصفةُ انتظارٍ،

للقطاراتِ التي تمضي:
بأحلامِ المحطّاتِ الحزينةِ، كلّما
مَرّتْ ظِلالُ العابرينَ، وَغادَرتْ.

● ● ●

وَلَنا مَساءَاتُ المواقد:
حينَ يكتملُ الهلالُ،
وَحَيْثُ جَمْرُ الآهِ قَدْ أغفى
على أرقِ القصائدِ، والخيامُ تَبَدَّلَتْ
بِتَبَدُّلِ العُشّاقِ لحظةَ غادروها مُتعبينَ،
وَآخرونَ على الطُّلولِ... سُهادُ.
لَمْ يَبْقَ يا قَمَري سِوايَ،
وحفنةٌ، مِنْ جَمْرِنا، تَهْذي،
وَظِلٌّ قابعٌ بَيْني وَبَيْنَكَ مُتْعَبٌ،
وَرَمادُ!!!

● ● ●

مِنْ أيِّ حُلْمٍ عابرٍ: شالٌ يَرِفُّ،
وضحكةٌ خضراءُ!!؟
مَرَّتْ بنا هِنْدٌ، فقُلْنا:
إنّها الأيّامُ تُرْجِعُ مَنْ نُحِبُّ،
وَمَرَّ خالدُ، فانتفضنا كالرِّماحِ، وَلَمْ نَزَلْ
يا بْنَ الوليدِ كما عَهِدْتَ،
وَمَرّتِ الخَنْساءُ
طافَتْ على الرّاياتِ، قُلْنا:

إنّهُ الأقصى...،
وَإنَّ الموعدَ الإسْراءُ
وَلَنا، على الصَّهَواتِ، أَحْلامٌ تُراوِدُنا،
كأنّا غيرُنا... في السّاحِ... نحنُ، وإنّنا...
فوقَ الوسادِ... أَرَقٌ ما يَصْبو إليهِ وِسادُ!!!

● ● ●

وَلَنا بخولةَ نظرةٌ شَدَّتْ خُطانا
للأعالي صاعدينَ، وهكذا...
يَرِثُ النَّخيلُ دَمَ النَّخيلِ،
ونظرةٌ أُخرى أَحَدُّ مِنَ العتابِ،
تَكادُ تَذْبَحُ كُلّما مَرَّتْ على أَحْبابِها
في الشّاهداتِ سُعادُ
تُلقي تحيَّتَها، فتنهضُ شاهداتُ قُبورِنا،
والحُزْنُ، والأشلاءُ
والعابرونَ مِنَ الوريدِ إلى الوَريدِ،
إلى البلادِ، وتنهضُ الأسْماءُ
والموجعونَ على السِّياجِ، وَخافِقٌ
ألقى بهِ الشُّهداءُ
للقادمينَ مِنَ الأحِبَّةِ،
وارتعاشاتُ المناديلِ التي
سَتَظَلُّ تخفقُ مِثْلَ نَبْضاتِ القُلوبِ،
وَبَسْمَةٌ.. ميعادُ!!!

دمشق ٣/٥/٢٠٠٩م

يحدث في السهل البعيد

● بديع صقور

بين صوتي وظلّ أبي تقف الحكاية

«إلى والدي (عليّ) في عامه الخامس والثّمانين..»



نشيد الحضور

في السّهل البعيد..
كان يحدث أنّي أهبط السّهل
أقصد كرم التّين
أفتّش عن أبي
أطلق صوتي
كمهرٍ في المدى المقفر:
أبي!

● أديب وشاعر سوري.

العمل الفني: الفنان حميدان الجاسم.

أبي! يا عليُّ!
يرتدُّ صدى صوتي أبي لايردُّ
يداهمني خوف الطّفولة والغياب
وتنهال عليّ الأسئلة:
هل أغرى النّهر
أبي فعجّل يستحمّ؟!
أبي يغسل قلبه الأبيض
أبي يتطهّر بماء النّهر
ويمضي إلى الصّلاة
شاكراً ربّه على كلّ حال
ربّما هاجم أبي ذئبٌ شارد؟!
أبي يقتل الذّئب
أبي لايخاف الذئاب
وإن هاجمته قطعانها..
أبي وحيداً
كيف يصرع قطيعاً من ذئاب؟!

* * *

يحدث الآن أنّي أسترجع قول أمي
وأقوال نساء قريتنا:
أبوك صلبٌ كالسنديان
يجيد السّباحة والصّمت
والصّبر المرير.
أبي يقدر أن يلملم جراحه
أبي لايكسر إقدامه عواء الذئاب
أبي في جفنة التين
يقطف الثّمر النّاضج
في جفنة السّهل يقطع القصب
يجمعه..
ينسجه سلالاً
ويصنع شبّابة لموسيقا الغد.
أبي ينسج السّلال
لمن كل هذي السّلال؟!
أبي يدرك أنّ كلّ مؤونتنا
يمكن جمعها في سلّة
إذن، لمن كل هذي السّلال؟!
كي يبيعها؟
أبي لايحبُّ البيع...
إذن.. ماذا نصنع بالسّلال التي ينسجها
ونحن بلا مؤونة
بلا قمح
بلا..؟
وأطلق صوتي في المدى المقفر:
أبي!
يا أبي! يا عليّ!
لقد بتنا لقمة سائغة
ويردد الصّدى:
لقد بتنا لقمة سائغة
لقد بتنا لقمة سائغة.

* * *

يحدث الآن أنّ صوتي يرتدّ
يضيع في متاهات حنجرتي
أبي لايردّ
ألا يذكر صوتي؟!
أهو منشغل ببيع السّلال

على قارعة الرّيح؟!
بعد أن حرث السّهل
بعد أن زرع القمح
بعد أن سقى الشّجر
بعد أن قلّم روحه كي تجود المواسم
بعد أن عزق العشب
بعد أن حصد الزّرع
بعد أن درس القمح
بعد أن جمع المحاصيل
وبعد أن جنى المواسم
دفع «الأتاوات»
وحمل الغلال «للأغاوات»
وبعد..
وبعد..
وبعد؟؟!!
ماتزال يا أبي مكبّاً على الجذوع
لتطمئنّ على سلامتها
أنت الذي لايفارق السّهل إلى أن
يستأذن النّهار في المغيب
وأنت الذي عند كل مغيب
تجمع حوائجك العتيقة
فاسك
منجلك
مزودتك
عصاك
«كفيّتك»
مواويلك الحزينة
عن وحشة الأيّام
وغدر الزمان والخلان
عن الأهل والأتراب والأحباب
والصّحب الطّيبين
عمّن غادروا السّهل
عن الظّاعنين والغائبين
والمبعدين خلف بساتين الحياة.

❁ ❁ ❁

يحدث الآن.. بين صوتي وظلّ أبي
تقف الحكاية..
حكاية جدّتي عن أبيها
عن جدّها
عن سُلالتنا العتيدة
عن تشابه الأرواح
وعن تشابه الأيّام
عن.. وعن..
كيف كانوا يقطعون الحطب
ويجمعون القصب
وينسجون السّلال
يحرثون
يبذرون
يعزقون
يحصدون
يدرسون
يجمعون القمح ويحملونه
إلى عنابر «الأغاوات»
يقلّمون جوعهم ناسين رائحة الرغيف.

١-(نبوءة أبي الهول)
٢- الحــــريق

تغريبتان/محسن يوسف ❁



«سيدي أبو الهول.

أحببتك منـذ التقيتك أول مرة، وقد مضـى أكثر من نصف قرن من الزمـان، علـى ذلك اللقـاء. وقفت أمامك، كأني في معبد أو محراب »

قال الراوي :

– اسـتيقظت مـن نومـي، وأنا أسـتعيد ما كنت أقوله، لنصـب أبي الهول، واستغربت، حضور هذا الهرم، في أحلامـي، وتفصلني عنه مئات الأميال، ولم أذهب إلى صحراء سيتي، منذ ما يزيد عن خمسـين عاماً، وبالتحديد غادرت مصر والإسـكندرية والقاهرة، قبل انهيـار أوّل وحدة لبلاد العـرب، بأيام. أي عام ١٩٦١ ميلادي..

مضت سـاعات، ولم أعثر على إجابة، لما يدور في رأسـي. هجرني النـوم، ووجه أبي الهول يستوطن عيني، أنّى اتجهت ونظرت.

❁ أديب وقاص سوري.

ارتسم على جدران غرفة نومي. دفنت رأسي بالغطاء، فشاركني سريري. غادرت السرير والغرفة، وخرجت إلى الليل، ومن قلب الظلام، بزغ الوجه الكبير، مصحوباً بصوت حنون :

- لماذا تهرب مني ...يا صديقي ؟..

على مساحة المدى الأسود، تراكمت الأهرامات : خوفو وخفرع ومنقرع، وهياكل لا حصر لها. يا إلهي ماذا يحدث ؟..

فجأة.... تغير كل شيء. ثعالب وأرانب وأفاع وضفادع وضباع، أحاطت بي من كل الجهات. أهو غضب الله على فرعون؟..

-١-

سمعت صوت أبي الهول :

- لا تخف أيُّها الصديق. لعلك نسيت أنَّ أحد أجدادك قتل أخاه، وربما لم تسمع بالطوفان، وحكاية عاد وثمود، وما حدث في عصركم من موبقات، تفوق مصائب التاريخ وغرائبه، في سبيل العروش والذهب، فالابن يعزل أباه، والأخ يحرق جثة أخيه .

ابتعد الصوت وتلاشى، وأنا أعود إلى غرفتي، وعندما استسلمت للنوم، داهمتني الهواجس، والأحلام المرعبة. رأيت جزيرة العرب تحترق، ومياه النيل والرافدين تنضب، والسواحل جميعها تغوص في البحار، ورأيت أبا الهول، يتأمل ما يجري، وسمعته يقول :

- لا تخف يا صديقي، فما حولنا، امتلأ بالشر والأشرار، وما تراه، هو بداية لحياة أجمل، وأفضل، وأسعد .. وستقف أمامي مرة أخرى، وسنظل إلى آخر الزمن، كما نحب ونهوى، رغم الضباع والذئاب والأفاعي الغادرة..

تغريبة

الحريق

في الليل، رأيت ما لا يرى. الفضاء يشتعل وكذلك الأرض، وكتل النيران تتدافع وتتزاحم، لتضيء الجهات، ووهجها يعمي الأبصار.

القمم والجبال والسفوح والسهول. الأودية والتلال. القصور والخيام والزرائب. الأسطحة والنوافذ والأفاريز. كل شيء يحترق. امتد الحريق إلى لحيتي. أفقت مذعوراً، أتلمس وجهي ورأسي. جسدي. ثيابي. فراشي، وعيناي تتفحصان الجدران والباب المغلق، وما تحتويه غرفة نومي .

تعوذت من الشيطان، وخطوت باتجاه النافذة الوحيدة. فتحتها، وصوت جارتي يمطرني بسؤال :

-٢-

- ألم تنم بعد ؟..

جميل أن يكون إلى جوارك، من يهتم بك، في ظروف غير مألوفة، مثل حالتي :

- نمت، وأرعبني حلم مزعج.

ضحكت وقالت :

- أنت كما أعلم، لا تعرف الخوف. تعال، واقصصه عليّ .

عندما انتهيت، هالني أن أراها تضحك، وتضحك، حتى غمرت وجهها الدموع، ولم يكن في حديثي ما يضحك. قلت :

- ماذا هناك ..يا عزيزتي ؟...

تأملتني لحظات، قبل أن تقول :

- لم أرك منذ أيام، وحسبتك في إحدى رحلاتك، ويبدو لي أنك لم تكن في حالتك الطبيعية، في الفترة التي افتقدتك خلالها .

قاطعتها مستاءً :

- ما علاقة ما تقولين بالضحك ؟...

بسرعة تحركت شفتاها :

- ألم تسمع بالمثل القائل (شر البلية ما يضحك)؟..

فأنت ترى في المنام، ما يراه الآخرون كل يوم، في بلاد العرب، وهل هناك (بلية) أكثر إضحاكاً، مما يفعله أمراؤكم وحكامكم وسلاطينكم ؟...

رحت أفكر بما قالت. هل يحرق الملوك والحكام قصورهم ؟

هل هم من أحفاد نيرون الذي أحرق روما ؟...هل ...هل ..عاد صوتها هادئاً :

-٣-

- بماذا تفكر ؟..

حائراً، تساءلت :

- ما علاقة الحريق الذي امتد إلى لحيتي، بكل هذا الكلام الذي أكرمتني به ؟...

هزت رأسها مبتسمة :

- أنت تحتاج إلى منجمة، عرافة. وربما (قارئة فنجان)، وأدرك أنك تفهم ما أقول، وتعرف أكثر مما أعرف .

صمتنا معاً. بدأت أشك بما حلمت. لعلي رأيت ما رأيت، وأنا في حالة مناسبة، لما أتمنى. لعل ما رأيت حقيقة لا نود الاعتراف بها، ولعله الحل المرتقب لما نعاني، وعلى طريقة شمشوم الجبار (عليّ وعلى أعدائي يا رب)، لكن المرأة تحدثت عن عرافة، وقارئة فنجان. ألها معرفة بعالم الغيب، أو تفسير الأحلام ؟..

ابتسمت لها :

- هل بين جاراتك منجمة أو ..

قاطعتني ضاحكة :

- كثيرات .

رحبت بنا إحدى العرافات :

- كنت أنتظر حضوركما .

كيـف عرفـت ؟.سـؤال وجهتـه لها جارتي:

- أنـا أعـرف كل شـيء، وأعرف ما لا تعرفان عن الحريق .

تبادلنا النظرات. هل ما يحدث حدث في أقـدم الأزمنة ؟..عرافة تعرف ما لا نعرف، ولديها ما جئنا من أجله. تابعت العرافة :

-٤-

- كل مـا هو مطلـوب منكمـا، التزام الصمت.

غادرتنا ضاحكـة، لتختفي خلف ستارة سوداء، وطال الصمـت. وصل إلينا ضجيج الحي، وأصـوات الصبـاح الأولى، وأغفت جارتي، وقد غلبها الكرى.

تحرشت بهـا بلمسة خفيفـة، ففتحت عينيها متسائلة :

- لقد نمت. أين نحن ؟...

ضحكت وأجبتها ساخراً :

- نحن في البرية، يا عزيزتي.

تعالى صوت المرأة الأخرى، زاجراً :

- الصمت ....الصمت .

همست لجارتي :

- هيا ... هيا . صاحبتك مجنونة .

صوت الصاحبة، التحم بصوتي :

- هدوء يا رجل .

سكنّـا كطفلين خائفـين (كيف سمعت همسـي ؟) لامست شفتا جارتـي، أطراف أذني :

- انتظر قليلاً، فأنا أثق بها .

سمعنا ضحكة الصامتة :

- شكـراً يـا صديقتي .لقـد انتهيت.

انحسرت الستارة، وظهرت المرأة، بثوب آخر، وملامح جديـدة، تزينهـا ابتسامة جميلة.

قالت :

- لقد أطلت انتظاركما .

-٥-

جلست وعيناها تتجهان نحوي :

- أنت تحلـم بأشياء كثيرة، لأنك وحيد. رفيقـات دربك رحلـن. أولادك وأحفادك، تطايروا كالعصافير، إلى مختلف الاتجاهات، وحولـك تتغير الدنيـا ، وتظل أنـت وكأنك الوحيد في العالم، وكرد فعل طبيعي، يتمظهر في أحلامـك، مـا يريـح رجلـك الوحيد، والحريـق الذي عانق لحيتـك، هو حصتك مما أنتجت، أو عملت له .

نهضت غاضباً وصرخت :

- ما هذا الهراء يـا امرأة ؟...ما حولي وحولك يتغـير إلى الأسوأ، ولعلك لا تدركين نتائج ما يحدث، وربما تسكنين جرماً آخر.

هناك من يدمر بيوت الذكريات، ويقطع أثداء النساء، ويفقـأ عيون الأطفال، ويزرع الرعب في القلوب والأعماق، ويحرق أشجار السفوح، ومحاصيل الحقول..

* * *

يتابع الراوي :

اختفت المـرأة وصديقتها، ووجدتني في غرفتـي، وعـبر نافذتي، انقـذف عصفور صغير، هدأ إلى جواري، وهو يرتجف، وكان المطر يتساقط في الخـارج، والحزن يتسلل من جسـد العصفور البـارد، إلى جسدي، وقلبي..

«ميرســـي (١)»

ترجمة: محمد إبراهيم العبدالله*

عطلة وشاطئ مكسيكي ومشروبات بين أيدينـا، يرن جهـاز الخلوي، تصـرخ جارتنا ميرســي في الشـارع. هناك بَيت.. تتردد في إزعاجنـا بعطلتنـا، لكن ثمة شـيء يزعجها تريـد أن تخبرنا عنه. كانت تنظـر إلى بيتنا بالمنظـار. قد لا تجـد سـبباً لذعرنا، لكن نحن من يقرر الشـيء الـذي يمكن أن نقلق عليه حينمـا يتعلق الأمر ببيتنا. تقول، هناك إنارة مشـتعلة، الإنارة التـي لا تتذكر أنَّها اشـتعلت منـذ أن تركنا البيـت قبل يومين. وهي تشـاهدها مشـتعلة طـوال الليل. تلك هي عادة ميرســي ترقب كل شـخص وكل شيء، تبقى جانب النافذة وترقب السيارات المارة، تفتح السـتائر على كل صوت لترى كل التحـركات القريبة منها. تقول إنَّها تتمنى لو أن منظارها يسـتطيع الوصول إلى الزوايا، لأنها مـن موقعها لا يمكن أن تخبرني الكثير عما يجري في بيتنا. وهي لا تريد النزول إلى الشـارع لتحقق في نوافذنا، وتقول إنَّ أحداً قد يستدعي الشرطة ويمكن وقتها أن يودعها السجن.

تسـألني، أتركتَ الأضواءمشـتعلة؟ أقول لها، لا. لا أتذكر أنني تركتها مشتعلة. وأسأل زوجتي كذلك، ويأتيني الجواب ذاته. أتريدين أن أدخل وأدفع الحساب ونغادر؟ أتحدث مع زوجتي، وقد وضعتُ يدي على سماعة الهاتف ولا أدري إن كانت ميرســي تسـمعنا. تجوب أعيننا المكان بوجهـين متقابلين. لا نريدها

* كاتب ومترجم سوري.

في البيت، فهي شخصية متعبة، قد تأخذ آلة تصويرها وتلتقط الصور لكل الغرف وتضعها على حاسوبها وتحدق بها ساعات طوال، كما اللصوص الذين نشاهدهم في الأفلام. تأخذ زوجتي رشفة ساخنة من شرابها وهي تنظر إلى الأمواج التي تتدحرج باتجاهنا، وأقرّر بأن الأمر يخصني. ولا بد من التصرف، أشكر ميرسي وأخبرها عن مكان المفتاح وأعطيها رمز جرس الإنذار.

يمرضني تخيّل حماسها، وإحساسها بالمهمة.

تقول: سأتصل وأخبرك بما يجري. أقول لها: بالسرعة الممكنة.

تقول زوجتي: لا أحب أن أجدها في بيتنا. لكنني لم أردّ عليها.

جلستُ وأغمضتُ عينيّ. لم استطع الكف عن تخيّل ما ستفعله ميرسي بالمعلومات التي ستصبح في متناول يدها من أرقام حساب وكلمات سر إن فكرت بها جيداً.. قد تسرقنا، وكل ما يُفقد يمكن أن تتهم به اللصوص.

تقول زوجتي، لنخبرها بأننا سنستدعي الشرطة ونطلب منهم أن يبحثوا في المكان. أقول لها أنا متأكد أنها هناك ولن يمضي وقت طويل حتى تتصل بنا ثانية. أفكر بتغيير الموضوع، لكن ندرك كلانا بأن الموضوع لن يتغيّر أيا كان الحديث الذي سنتناوله. سنتحدث عنه في وجبة الغداء، وإن حاولنا نسيانه. فأنا أشاهد ميرسي كيف تتنقل بين الخزانات تشم رائحة ملابسنا، تنظر في الثلاجة وفي غرفة المؤونة، تجلس إلى طاولتي. هل تركتُ الحاسوب مشتغلاً، وهل جاءت بأجهزة تنصت لتلصقها بأسفل مصابيحنا أو أثاثنا؟ وماذا نعرف عنها، وماذا نعرف عن الأشياء التي تعرفها؟

الشاحنة تتوقف في المرآب خلف المنزل، أشخاص يحملون أشياءنا وتشرف ميرسي على عملية النقل وتخبر زبانيتها عن القطع التي سيسرقونها. الألم يعتصر معدتي، وأعتقد بضرورة العودة تبعاً للأخبار التي أبلغنا بها. رن جرس الهاتف وكانت ميرسي. تقول: نار جهنم، لا أدري ما الذي ضرب المكان. أنا أمزح. أطفأتُ الأضواء، نظرت في المكان ولم أجد شيئاً قد تحطم، فليس هناك نوافذ محطمة، والأبواب كلها مغلقة وكذلك الأدراج. فهل من شيء تريد أن أتفحصه؟ أشكرها، فقط أعيدي الرمز (الكود) حينما تخرجين. تقول: حسناً، لا تقلق، حتى البصمات لن تجدها على الباب، وتضيف قائلة، ثمة رائحة في غرفة النوم. أسألها: ما هذه الرائحة؟ تقول شيء يشبه العرق، شيء يصدر من الجسم، قد يكون من المفرش، شيء لعلك استخدمته دون أن تدري.

قلت لك هذا كي تنتبه إليه حينما تعود.

تقول: الرائحة موجودة قبل أن أدخل البيت،

لكن لا تفكر بها كثيراً، سنقلق على أشياء أكبر من هذه، فما يخيفنا هو أن تحلّ علينا أشياء سيئة نستحقها. أقول لها: سنشمه سوية حينما نرجع، وتلتفت زوجتي نحوي التفاتة سريعة. تقول ميرسي: تمتع بعطلتك. وتسأل زوجتي بعد أن أغلقتُ الهاتف: ماذا سنشم؟ تقول ميرسي ثمة رائحة بشرية في غرفة نومنا. وتقول سنقلق على ما هو أسوأ، سيحدث لأننا نعتقد أننا نستحقه. وتسأل زوجتي: أقالت هذا حينما كانت في بيتنا؟ هززت لها رأسي وأخذت رشفة من شرابي، وحدقتُ في الأفق ومعدتي تقرقر. وتسألني: أفعلنا شيئاً معها؟ قلت لها: لم نفعل شيئاً. أتعتقدين بأن الأضواء كانت مشتعلة؟

لا أدري ماذا أقول لها. تسألني: لماذا تقول إنها مشتعلة لو لم تكن كذلك؟ أفكر بأسئلتها وأسأل نفسي إن كانت ميرسي لا تزال في بيتنا، بعينيها ويديها وأنفها، وما الشيء الذي تعتقد بأننا نستحقه، لكن ليس لدي أجوبة، والأسئلة تأتي بمزيد من الأسئلة.

(١) للكاتب غلين بورشايو: كاتب إنكليزي معاصر.

الأمن الثقافي العربي

د. محمود السيد ✿



طالما تردد في أدبياتنا مصطلح الأمن الغذائي العربي الرامي إلى اعتماد الأمة العربية على ذاتها في توفير الثروة الزراعية لأبنائها في منأى عن الاعتماد على الآخرين والارتهان لهم في تأمين حاجات أبناء الأمة من الغذاء، بحيث يبقى القرار في يد الأمة لا في يد غيرها. وهذا الإجراء يجعل الأمة واقفة على أرض صلبة لا تخضع للابتزاز والرضوخ، ويصون سيادتها واستقلالها، وهذا ما انتهجته سورية في العقود الأخيرة من القرن الماضي.

وإذا كان تحقيق الأمن الغذائي العربي

✿ أديب وناقد ورئيس لجنة تمكين اللغة العربية، وأستاذ جامعي ووزير سابق.

من الأهمية بمكان فإن تحقيق الأمن الثقافي العربي لا يقل أهمية عن الأمن الغذائي العربي بل يعلو عليه، ذلك لأن الثقافة هي هوية الأمة، وهي تراثها المادي والروحي، وسلوكها الحياتي، وطموحها المستقبلي.

ومن المؤلم حقاً أن تتعرض ثقافتنا العربية لمحاولات التشويه والتعتيم والاستبعاد والتهميش، ونفر كبير من أبناء الأمة عن تلك المحاولات غافلون، وعن التصدي لها مقصّرون. وإذا أردنا أن نحدّد أهم العوامل التي تحول دون توفير الأمن الثقافي العربي فإننا نلاحظ أن هناك عوامل خارجية وأخرى داخلية.

ومن التحديات التي تواجه الثقافة العربية التحدي الصهيوني، وهو تحد عالمي يجيء في مقدمة التحديات كافة. ذلك لأن الصهيونية غزو استعماري استيطاني غير قابل للامتصاص بسبب جبلته العنصرية وطبيعته العدوانية، وما اعتداءات إسرائيل المتكررة على المنطقة العربية في فلسطين ولبنان وسورية، وممارساتها الإجرامية، هدماً للبيوت، وتهجيراً لساكنيها، وسجناً، واضطهاداً، وتضييقاً على المواطنين، واستبعاداً للتسميات العربية، ووضع الكلمات العبرية مكانها، وتشويهاً للتاريخ العربي الإسلامي، إلا أمارات جليّة وواضحة على طبيعة هذا التحدي العدواني الذي يعد أخطر عامل هدّام في صرح الأمن الثقافي العربي.

ومما يتعرض له الأمن الثقافي العربي في حياتنا المعاصرة إرهاب الفكر التكفيري الذي لا يعترف بالآخر، وانتفاء القيم الإنسانية من قلوب ذويه، وتقديم أبشع الصور عن الإسلام، دين المحبة والرحمة والتعاضد والتكاتف والتوادّ والتعاطف الإنسانية والإيثار، وإذا هو في منهجية هؤلاء تعصب وحقد وغل وكراهية وبغضاء وتمثيل بالجثث، وأكل للأكباد، وانضواء ذلك تحت الجهاد.

وواقع الأمر يدل على أن ثمة علاقة وشائجية بين التحدي الصهيوني وإرهاب الفكر التكفيري، فكلاهما يروم وأد الحياة بنشره الخراب والدمار وإشاعة الرعب في النفوس، والحؤول دون أي إحساس بالأمن والأمان، والسكينة والاطمئنان.

ومن التحديات التي تواجهها الثقافة العربية في عالمنا المعاصر ثورة التقانة (التكنولوجيا)، والمعلوماتية، والتفجر المعرفي المتسارع، وثورة الاتصالات في ظلال العولمة والتبعية الإعلامية، والغزو الثقافي، وهذا كله يحول دون توفير الأمن الثقافي العربي لأبناء الأمة، إذا لم تكن ثمة مواكبة لروح العصر من جهة، ومواجهة للآثار السلبية للعولمة من جهة أخرى.

وإذا كانت هذه التحديات خارجية في معظمها فإن ثمة تحديات داخلية تزيد الطين بلة، ومن هذه التحديات الداخلية الأمية، فثمة ملايين من جحافل الأميين تتوضع في أحزمة الفقر والمناطق العشوائية والنائية والمحرومة والمعزولة وبين النساء والفتيات بصورة خاصة.

وكان للاضطرابات وموجات الإرهاب التكفيري وزج الأطفال في حمل السلاح وتدريبهم على ممارسة العدوان، وتسربهم من مقاعد الدراسة، دور كبير في زيادة حجم الأمية.

ومن يلقِ نظرة على خريطة الوطن العربي بغية رصد المشهد الثقافي فيها يجد أن ثمة سيادة للإعلام الترفيهي السطحي من جانب والإعلام المضلل من جانب آخر، وأن ثمة جزئية في منظومة الثقافة العربية، وقصوراً عن التطبيق الشامل، وضعفاً في الصناعات الثقافية.

والسؤال الذي يمثل أمامنا: كيف يمكننا في هذه الظروف العصيبة أن نعمل على تحقيق الأمن الثقافي العربي، وواقعنا العربي على هذه الحال من الفوضى والتخبط والعشوائية والتشرذم؟

والواقع أن المنظومة الثقافية لا تعمل في جزيرة منفصلة، وإذا أريد للنظام الثقافي أن يحقق مراميه وأهدافه كان لابد من تحقيق التكامل بين هذا النظام الثقافي وبقية الأنظمة، لأن ثمة علاقة عضوية بين ما هو ثقافي، وما هو اجتماعي، واقتصادي، وسياسي، وهذه العلاقة العضوية على مستوى الوطن وعلى مستوى الأمة، ذلك لأن العمل الثقافي مؤثر في الأداء الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ومتأثر في الوقت نفسه بمستوى هذا الأداء ووجهته في الميادين كافة.

وإذا كانت الثقافة لا تقوم على معد فارغة فليس بالمعد الممتلئة وحدها يحيا الإنسان.

فالتكامل بين أنظمة المجتمع أمر مهم وضروري في التوجه نحو توفير الأمن الثقافي، مع الأخذ بالحسبان أن هذا الأمن الثقافي لا يمكن أن يحافظ على بقائه واستمراريته إلا في حال توفر أمور أخرى، منها سيرورة الثقافة العلمية، وتزويد المواطنين بأساليب التفكير العلمي، والعناية بالبحث العلمي في مواجهة مشكلات حياتنا البيئية والاجتماعية والاقتصادية...إلخ.

ذلك لأن التثقيف العلمي عملية أساسية في بناء المواطن بناء سليماً وإيجابياً وفعالاً، والركيزة الأساسية للتثقيف العلمي هي تربية الجيل بتعويده على التفكير العلمي والمنهج العقلاني في تناول شؤون حياته.

وإذا كانت ثمة عناية بإكساب الجيل

منذ نعومة أظفاره مهارات التفكير العلمي فإن مهمتنا تنجح في تحرير الفكر العربي المعاصر من إرهاب الفكر التكفيري والفكر الخرافي والتزمت والتعصب وضيق الأفق والأثرة، وبذلك نعمل على تأصيل احترام العقل، والنقد الذاتي، واحترام الآخر، والإيمان بالتعددية.

كما أن العناية بالبحث العلمي أمارة على التقدم الفكري وارتقاء المجتمع، إذ لا يمكن أن تعالج قضايا الثقافة والمشكلات المتعلقة بها إلا بطريق البحوث العلمية الجادة والأصلية تشخيصاً وتخطيطاً وتنفيذاً ورسماً للحلول، وذلك هو السبيل إلى تنمية الثقافة العربية بصورة متجانسة توفيراً للوقت والجهد، وتحقيقاً للوحدة الثقافية لهذه الأمة.

والتنمية الثقافية العلمية لا تكون بالعناية بالنخبة فقط، ولكن يجب أن تتجه إلى القاعدة الشعبية الواسعة، ففي هذه القاعدة عملها، وفيها تتحدد حاجاتها، وتلك هي مسؤولية المجتمع بكامله أسرة ومدرسة ومنظمات واتحادات ونقابات ومنتديات وجمعيات..إلخ.

يشترك فيها عمل المدرسة في التربية والتعليم، وعمل الأسرة في القيم والتقاليد، وعمل المجتمع في الممارسة والسلوك الحياتي، وعمل الفكر العلمي ومضامينه وأنماط الإنتاج وشروطه، وعمل الإعلام وأهل الفنون والآداب...الخ.

وإذا كانت التنمية الثقافية تشمل جميع المناطق الجغرافية، وجميع أبناء المجتمع، وتوفير الإمكانات والوسائل، وإعداد الكفايات اللازمة للعمل في مختلف حقول التثقيف فإن العناية ينبغي لها أن تركز على الأطفال والشباب والنساء وذوي الحاجات الخاصة أيضاً، لأن الأطفال والشباب هم مستقبل الأمة، كما أن النساء الراقيات، والأمهات الواعيات، أمارة على أمة راقية.

ولا يمكن للثقافة العربية أن تثبت وجودها إلا بإحياء التراث، ونشر روائعه، وإزالة التعتيم عنه، والجمع بين الأصالة والمعاصرة، على أن الأصالة تعني اختيار ما في التراث من نماذج وأصول ومواقف اختياراً قائماً على الفهم والتمييز، وعلى ما تنطوي عليه من الإبداع والابتكار، وعلى ما تدل عليه من ذاتية ثقافة الأمة وذاتية العبقريات التي أسهمت في تطوير هذا التراث في مجالات الفكر والثقافة، وجوهرها تأكيد خصائص الإبداع والابتكار، وذاتية الثقافة وتميزها واتصالها بعراقة الأمة في ماضيها الحي واستمرارها في التعبير عن شخصيتها في مستقبلها.

كما أن المعاصرة لا تعني احتذاء الثقافة الأجنبية، والإقبال عليها، والاقتباس منها،

وإنما حسن الاختيار والمفاضلة بين عناصرها، والتمييز بين الحسن والسيئ، وعدم الوقوف عندها، بل جعلها منطلقاً إلى الإبداع والابتكار. وبذلك تكون المحافظة على هوية الأمة.

إلا أن المحافظة على هوية الأمة لا تنفي أهمية الانفتاح الرحب على الثقافات الأخرى في جو من العقلنة، وذلك لأن الحفاظ على الهوية لا يعني الجمود، بل هو عملية تتيح للمجتمع أن يتغير ويتطور من دون أن يفقد هويته الأصلية، وأن يتقبل التغيير من دون أن يغترب فيه، إنه التفاعل بين الأصالة والمعاصرة، بين الإيجابي البناء في تراثنا، والإيجابي البناء في الثقافات الأخرى.

وما دمنا في صدد البحث في الأصالة حفاظاً على هوية الأمة فإن العناية باللغة العربية ودعم مسيرة التعريب من أولى الأولويات أيضاً، ذلك لأن اللغة العربية تعدّ من العناصر الأساسية في استمرار الثقافة العربية، لأنها مستودع تراث الأمة بما تحمله في طياتها من خبرات وفكر ومضامين.

وسيرورة اللغة العربية في جميع مناحي الحياة واجب قومي، والحؤول دون استخدام العاميات في البرامج الثقافية كافة مطلب قومي، ولا يتم فكر من غير لغة ذاتية له، ولا علم دون لغة تعبير ذاتية له، ويبقى الفكر العربي ناقصاً وغريباً إذا لم يقرأ، ويكتب، ويفكر فيه بالعربية. ومن هنا كانت ضرورة التعريب وسيادة اللغة العربية تنبع من مستويات متعددة.

فالتعريب من الجانب القومي ضرورة قومية، لأن اللغة مقوم أساسي من مقومات الوحدة.

والتعريب من الجانب التربوي ضرورة حياتية وعلمية، لأن المرء يفهم بلغته الأم أكثر مما يفهم بأي لغة أخرى.

والتعريب من زاوية الأمن الثقافي ضرورة لإيقاظ الوعي بالغزو الفكري والتبعية الأجنبية المتزايدة.

والتعريب من ناحية الإبداع والابتكار ضرورة للانتقال من استهلاك الأشياء إلى صنعها، وإسباغ الطابع العربي عليها.

ويستلزم توفر الأمن الثقافي العربي الحؤول دون نزف العقول، وتوظيف الكفايات المتميزة في عملية التنمية الثقافية، وتوفير متطلبات الأطر الكفية، وسيرورة التعامل النفسي (السيكولوجي) في التعامل معها حفاظاً عليها وتعزيزاً لأدائها.

ويستلزم تحقيق الأمن الثقافي العربي إضافة إلى توفير الأطر الكفية والحؤول دون نزف العقول التي تحتاج إليها الأمة في مضمار التنمية الشاملة، الالتفات إلى توظيف الأموال في مجال الصناعات الثقافية، إذ من الملاحظ أن صناعة الأفلام

والاتصـال والثقافـة من أكـثر الصناعات تخلفـاً في الوطن العربي، وهـي مستوردة من الخارج في معظمهـا، وأن امتلاك هذه الصناعات أضحى مـن مستلزمات التحرر والاستقـلال السياسي والاقتصادي تحقيقاً للأمن الثقافي العربي.

إن الاستثمار في الصناعة الثقافية على أسـاس قومي يسهم أيمـا إسهام في رخص تكاليفهـا، ومن ثم في نشـر الثقافة والأمن الثقـافي، ورفض عملـي للتبعية ودعم كبير لتنمية الثقافـة العربية، ذلـك لأن الأمن الثقافي لا يمكن ضمانه إلا بامتلاك الأدوات والأجهزة المتحكمة في إنتاج الثقافة ونشرها، وإذا كانـت الصناعات الثقافيـة كافة من الأهمية بمكان فإن التركيز على الإلكتروني المتطـور منها يبـدو أكثر شأنـاً وخطراً في مستقبل الأمة، ولا يمكننـا أن ننسى النقلة النوعيـة التي خطتهـا الهنـد في مضمار البرمجيات المعلوماتية، والمستوى الذي وصلت إليه في عالمنا المعاصر؛ في الوقت الذي نرى فيه أن الأمـة لا تنقصها الإمكانات المادية، ولا تنقصهـا العقول المبدعـة، ولكن الذي ينقصها سـوء التخطيط وضيـاع البوصلة حتى باتت لا تفرق بين عدو وصديق، ورحم الله شاعرنا العربي إذ يقول:

كـم معشرٍ خلنـاهُـمُ أنصـارنـا
فـإذا هُـمُ لـعـداتـنـا أنـصـار

والواقع أن سوء التخطيط على الصعيد العربـي، وانحسـار المد القومـي فسح في المجـال لبروز الإقليميات الضيقة، وبث فتن الطائفيات البغيضـة، والإرهاب التكفيري المدمّر، وارتمـاء بعض الـدول العربية في أحضان الغرب وأمريكا والوقوف في خندق واحد مع أعداء الأمة والعدو الصهيوني بعد أن فقدت الأمة البوصلة ويا للأسف!.

التحدّيات إزاء لغة الحداثة الشعرية

د. خليل الموسى ✲

من المتّفق عليه في الدراسات الأدبية أنّ اللغة كائن عضويّ حيّ، وهي جسد ولود يتمتّع بحضور في التواصل الشفهي وعلى الورق في الكتابة، وهي تتعرّض لما تتعرّض له الأجساد العضوية الأخرى من مواجهات وأزمات وأمراض وتحدّيات.. وبما أنّها شكل عضويّ فإن تشبيهها بالأشجار المختلفة أمر منطقي ومقبول، فمنها ما يُعمِّر طويلاً لتجذّره في التربة، كأشجار الزيتون والسنديان والنخيل. وكلما ازداد الاعتناء بها والمحافظة عليها ازدادت عطاءً، ومنها ما تُعطي سريعاً وتموت سريعاً، وتشبيه العربية بالأشجار المعمّرة أمر لا يختلف عليه اثنان. فهي أمّ اللغات، وجذورها موغلةٌ في التاريخ القديم، ثمّ إنّ فؤوسَ الحاقدين عليها من الطامعين وبعض أبنائها المتعاونين معهم لم تنفع في العصر الحديث باجتثاثها، ولم تزدها إلاّ صلابةً وعنفواناً وعطاءً لمقومات حياتية كثيرة في طبيعتها. فهي أولاً لغة القرآن الكريم الذي حفظها ويحفظها من الأمراض والاندثار. ويزيدها مناعةً على خلاف ما يجري مع اللغات الأخرى الهرمة التي دبّت أمراض الشيخوخة في أوصالها، وأصبحت في ذمّة التاريخ، وهي ثانياً ذات خصائص

✲ أديب وشاعر وأستاذ جامعي.

شبابية تمدّها بأسباب الحياة، ومنها المرونةُ في التغيير الدلالي، ففيها عناصر مطاوعة تمنحها الامتداد والاتساع من دون اللغات الأخرى، كالإعراب، وهو الإبانةُ والإيضاح وتغيير حركة آخر الكلمة حسب السياق، واتساع المعجم اللغوي، فالعربية من أثرى لغات العالم بالمفردات، والاشتقاق بالزيادة في الشكل والدلالة، والاشتقاق الكبير أو القلب والنحت، وهي ثالثاً أساسُ الفكر القومي، فلا حياةَ للغة إلاَّ ضمن هذا الفكر، وهي رابعاً لغة الشاعرية بامتياز، فالعربُ قدّموا الشاعرَ على الفارس، واحتفلوا بولادة الأول في قبائلهم، لأنّه المدافعُ عن أعراضهم بلسانه، والشعر ديوان العرب، وفيه تاريخُهم وحضارتهم وقيمُهم، ولذلك ذهب الفراهيدي إلى أنّ الشعراء أمراء الكلام قبل أن يتوصّل جان كوهين بمئات السنين في دراسته إلى نتيجة مفادُها أنّ الشعر جنس أعلى، وقال: (الشعر ذو طبيعة سلطانية. يظلّ سيّداً وحده أو يتنحّى) [1]، ولذلك فإنّ ما ذهب إليه فردينان دوسوسور في ثنائيته الجدلية بين النظام اللغوي والكلام ينسحب على لغة الشعر العربي المعاصرة، خاصةً إذا وضعنا في الحسبان أنّ حركة الإحياء في عصر النهضة كانت ذات شخصية قومية، وهدفها الأول تخليص اللغة العربية ممّا لحق بها من أمراض وشوائب كثيرة، ومنها العجمى والعاميات وركود حركة الشعر نتيجة لأسباب كثيرة، ولذلك فإنّ الآداب المعاصرة كانت تمدّ النظام اللغويّ بأساليب الحيوية والاستمرار والإبداع، وسيقتصر كلامنا هنا على لغة الشعر المعاصرة والتحدّيات التي واجهتها ضمن محورين:

- المحور الأوّل: المواجهة بين أصحاب التصنّع وأصحاب الطبع:

سارت لغة الشعر العربي منذ العصر الجاهلي في اتجاهين مختلفين، اتجاه الطبع والحياة، وكان الشعراء العرب يقولونه عن طبع وسجيّة، (فإنّما هو بديهة وارتجال وكأنّه إلهام، وليس هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة) [2]، ومن هؤلاء المهلهل وامرؤ القيس، واتجاه الصنعة والجهد والمراجعة الطويلة، و(من شعراء العرب من كان يدعُ القصيدة تمكثُ عنده حَوْلاً تاماً وزمناً طويلاً يردّد فيها نظره ويُجيلُ فيها عقله، ويُقلّب فيها رأيَهُ، اتهاماً لعقله وتتبّعاً على نفسه، فيجعل عقله زماماً على رأيه، ورأيَهُ عياراً على شعره، إشفاقاً على أدبه، وإحرازاً لما خوّله الله من نعمته. وكانوا يسمّون تلك القصائد: الحوليّات والمقلّدات والمنقّحات والمُحْكمات ليصيرَ قائلُها فحلاً خِنْذيذاً وشاعراً مُفلقاً) [3]، ومن هؤلاء الأسرة الأوسية، وفي مقدمتها

زهير والشعراء الصعاليك، واستمر الشعر قوياً في هذين الاتجاهين في عصور ازدهار الحضارة العربية، ولكنَّ بلاغةَ العرب شعراً ونثراً نحتْ نحو التصنيع بدءاً من أواخر القرن الرابع الهجري، وربما كان ديوان (لزوم ما لا يلزم) أقرب الأمثلة إلى هذا الاتجاه، فصارت القصيدة في أواخر عصور الانحدار ألعوبة لفظية جافة باردة ومملّة، كأن تكون حروف القصيدة أو المقطوعة معجمة أو غير معجمة، أو يُقرأ البيت من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين، وابتعدت موضوعات الشعر عمّا كانت عليه في زمن ازدهار الحضارة العربية، ووصلت لغته إلى حائط مسدود، ووصف ذلك شوقي ضيف بقوله: (ولا نستطيع أن نقول إنَّ الشعر انعدم في العصر العثماني، فقد كان موجوداً، ولكنَّه وجودٌ خيرٌ منه العدم، إذ اقتصر الأمر على جماعة يقرؤون بعض القصائد الموروثة وخاصةً التي كانت قريبة من عصورهم، ثمَّ يعارضونها أو يخمِّسونها أو يربِّعونها، فيأتون بنماذج لا روح فيها ولا جمال، وإنّما هي تقليد ركيك ضعيف) (٤).

بدأت في هذه الفترة جهود التنويريين العرب في مصر (الطهطاوي) وبلاد الشام (اليازجيين- البساتنة- المراش...إلخ) تؤتي ثمارها بعد الالتفات إلى الغرب والاهتداء بما لديه من فنون، كالمسرح، وآداب، كالقصة والرواية، فضلاً عن الصحافة والشعر، فإذا نحن إزاء لغة الطبع والتعبير عن التجارب بلغة فصيحة لكنَّها مبسّطة، والابتعاد عن التصنيع والألاعيب اللفظية، فكانت انتفاضة البارودي على أساليب الشعر في عصره لتأسيس حركة الإحياء التي تُفهم في دراساتنا خطأً نتيجة للإلحاح على استعادة الشعر لدوره الريادي في عصور الازدهار العربي، وليس معظم شعر الإحياء- كما يتوهّم كثيرون- تقليداً حرفيّاً في الموضوعات والأساليب للقدماء، خاصة شعر البارودي وشوقي، حتى إنَّ المرء يجد ملامح التجديد والشخصية والعصر في المعارضات نفسها التي انتشرت في ديواني الشاعرين، ونسي هؤلاء أنَّ البارودي التفت إلى وضع الشعر في عصره، فوجده على الحال التي وصفناها، ولم يجد شاعراً واحداً من شعراء عصره جديراً بأن ينافسه في فنون القول، فأخذ يبحث في روائع الشعر القديم عن نماذجَ شعرية رفيعة بقصد المنافسة، وإن كان ذلك لا يُلغي الإعجاب، فعملية اختيار هذه النماذج صادرة عن الإعجاب بها، فردٌّ على عنترة الذي أغلق باب التجديد في الشطر الأول من مطلع المعلقة: (هل غادرَ الشعراءُ من متردَّم ؟) (٥)، وفي رواية أخرى (مترنَّم)، وهو يريد أنَّ الشعراء لم يتركوا شيئاً للاحقين إلاّ ترنّموا به، فقال:

كم غـادرَ الشعـراءُ مـن مـتردَّمِ
وَلَــرُبَّ تـالٍ بَـزَّ شـأوَ مُـقَـدَّمِ [٦]

وهو في هـذه القصيدة يعارض قصيدة عنترة، وينافسه في الوقت ذاته، وقصيدته في الافتخار بشاعريته، وكأنّه انتصر على عنترة وأثبت له أنّ الشعراء الفحول- وهو واحد منهم – قادرون على ابتداع الجديد، وإن جاؤوا متأخرين في الزمن، وهذا واضح أيضاً من قصيدته الرائية التي عارض بها رائية أبي نواس في مديح الخصيب أمير مصر، وهو يستحضر الزمن الماضي، ويستحضر فحول الشعر وأعلامه، ويتأسّف لعدم وجوده في ذلك الزمن ليجاريهم ويتنافس معهم، ويبيّن لنا أنّه لو وجد في ذلك الزمن لهيمن على شعرائه وطمس ذكرهم، وانتهت قصيدته بهذه الأبيات الخمسة التي تبيّن هدفه الأوّل من المعارضة:

ملكتُ مقاليدَ الكلامِ وحكمةً
لها كوكبٌ فَخْمُ الضّياءِ مُنيرُ
فلو كنتُ في عصرِ الكلامِ الذي انقضى
لَباءَ بفَضْلي (جَرْوَلٌ) و(جريرُ)
ولو كنتُ أدركتُ النُّواسيَّ لم يَقُلْ:
(أجارةَ بَيْتَيْنا أبوكِ غَيُورُ)،
وما ضرَّني أنّي تأخّرتُ عَنْهُمُ
وفضلي بينَ العالمينَ شَهيرُ
فيا رُبَّما أخلَى من السَّبْقِ أوَّلٌ
وَبَزَّ الجيادَ السّابقاتِ أخيرُ [٧]

لم تكن المواجهةُ بين أصحاب التصنّع وأصحاب الطبع في مرحلة الإحياء في لغة الشعر بسيطة، أو هي عودة لمحاكاة فحول الشعر العربي في زمن الازدهار لكتابة قصائد تستوحي تجارب الأوّلين وصورهم وإيقاعاتهم، وإنّما كانت مواجهة مركّبة وحرباً لتحرير بنية القصيدة العربية من الموضوعات السقيمة والتصنّع المقيت من جهة، وحرباً على أن تكون لغة الشعر مكبّلة بالقيود الثقيلة وأن يكون للعاميات والعجمى، خاصة المفردات التركية التي انتشرت فيها، أيّ مكان أو دور في بنيتها من جهة أخرى، وهذا ما تحقق فعلاً بسرعة ذاهلة في قصيدة عصر الإحياء، ولا سيما قصائد البارودي وشوقي وحافظ ومطران...

- المحور الثاني: المواجهة بين المحافظين والمجدّدين:

سارت بنية القصيدة العربية منذ أواخر القرن التاسع عشر باتجاه الفنون والآداب الأخرى والتداخل معها والاستفادة من تقنياتها من بعث الحياة في أوصال الشعر العربي الغنائي، وكان معظم المجدّدين من الشعراء الشاميين الذين حلّوا في مصر بعد مذابح عام ١٨٧٠ في بلاد الشام، ورحّبت بهم مصر للاستفادة من تجاربهم وثقافتهم، وهم غالباً من أصحاب الثقافتين

العربيــة والفرنسية، واضطــرّوا لأن يعملوا في عــدد مــن الفنــون والآداب، فاشتغلوا بالمســرح والترجمــة والروايــة والصحافة، فضلاً عــن الشعر، ومنهــم نجيب الحداد وطانيوس عبده وخليــل مطران..إلخ، فإذا القصيــدة الغنائية تنهل مــن ينابيع التاريخ والأسطورة والسرد والملحمة والدراما، وكان على لغة الشعــر أن تواجه تحدّيــات جمّةً مــن بعض شعراء مصــر المحافظين بحجّة الخروج عــن أساليب العربيــة، وهي حجّة واهية فعلاً، خاصــةً إذا عدنا إلى الأعمال الشعرية الرفيعة التي قدّمها هؤلاء في هذه الفــترة، وكانت هذه الحجّــة التي تذرّع بها المحافظــون قشرةً خارجيــةً لتغطية العجز الشاعــري في أعمالهم، وعدم قدرتهم على مجــاراة الوافدين الذين قدّموا روائع الشعر العربي فيما بين نهايــة القرن التاسع عشر وبدايــات القرن العشرين، ومن ذلك ترجمة (الإلياذة) شعراً لسليمان البستاني، و(مصرع بزرجمهر) و(الجنــين الشهيــد) و(المساء) و(حكايــة عاشقــين) لمطران ..إلــخ، ولكنَّ المحافظــين تصــدّوا للأخــير ولموضوعاته العصرية وأسلوبه الجديد، وهاجموه، فأشار إلى ذلــك في مقدمة الجزء الأول من ديوانه الصادر في عام ١٩٠٨، وقال يتحدّاهم: (قال بعضُ المتعنّتين الجامدين، مــن المتطّسين الناقديــن: إنَّ هذا (شعر عصــريّ) وهمّوا بالابتســام. توهّم أنَّ من بــوارق أسرّتهم ما يكــون أشدّ من وقــع السهام. فيــا هؤلاء. نعم، هذا شعر عصريّ، وفخره أنّه عصريّ، ولــه سابــق الشعرمزيّة زمانــه على سالف الدهر)[٨].

ولكــنَّ الخليل المسلّــح بثقافــة واسعة وشاعريــة متوهجة كان ذا شخصية مجاملة إلى حدّ بعيــد، وتنازل في المرحلة الثانية في شعره عن التجديد بألوانه، وعمل بنصيحة المحافظــين، ولبّى لهم مــا أرادوه منه، فإذا ديوانه يعجّ بقصائــد المناسبات بعد أن كان يعــجّ بالفرائد الشعريــة في المرحلة الأول، وهــذا ما عبَّر عنه في وقــت متأخر، فقال: (أردتُ التجديــد في الشعــر وبذلت فيه ما بذلت من جهد، عن عقيدة راسخة في نفسي، وهــي أنه في الشعر- كمــا في النثر- شرط لبقاء اللغة حيّة نامية. على أنّني اضطُررتُ، مراعــاةً للأحوال التي حفَّت بها نشأتي، ألاّ أفاجئَ الناس بكلّ ما كان يجيش بخاطري، خصوصــاً ألاّ أفاجئَهــم بالصورة التي كنتُ أوثرهــا للتعبير لــو كنتُ طليقــاً، فجاريتُ العتيــق في الصورة بقدر مــا وسعه جهدي وتضلّعي في الأصول واطلاعي على مخلّفات الفصحــاء، وتحرّرتُ منه – وأنا في الظاهر أتابعه- بنوع خاص في الوصف والتصوير ومتابعة العرض)[٩].

لكنَّ الحال كانــت في المهاجر الأمريكية

أكثر حرية وأوسع ثقافة واختياراً ممّا هي عليه في مصر، وإن كانت سهام المحافظين حاولت الوصول إلى تلك الأصقاع البعيدة بقذائفها، ولكنَّ جبران خليل جبران ردّ عليهم بهجوم صاعق في مقالته (لكم لغتكم ولي لغتي)، وهو يبيّن فيها طبيعة الاختلاف بين أسلوبه وأساليبهم، ومما جاء فيها: (لكم لغتكم ولي لغتي (...) لكم منها القواميس والمعجمات والمطوّلات، ولي منها ما غربلتْهُ الأذن وحفظته الذاكرة من كلام مألوف مأنوس تتداولُهُ ألسنة الناس في أفراحهم وأحزانهم (...) لكم منها الرثاء والمديح والفخر والتهنئة، ولي منها ما يتكبَّر عن رثاء من مات وهو في الرحم، ويأبى مديح من يستوجب الاستهزاء، ويأنف من تهنئة من يستدعي الشفقة، ويترفع عن هجو من يستطيع الإعراض عنه، ويستكف من الفخر إذ ليس في الإنسان ما يفاخر سوى به إقراره بضعفه وجهله...)[١٠].

إنَّ كتاب (بلاغة العرب في القرن العشرين) الذي جمعه محيي الدين رضا من شعر ونثر لأدباء المهجر الأمريكي قرّض أساليبه العقاد والمازني وخليل ثابت وأحمد شاكر الكرمي وميّ زيادة، وبيّنوا في كلماتهم الفروق بين أدب الحياة في المهجر وأدب القحط في الوطن، وتنبّأ جامع المختارات في مقدمة الطبعة الأولى بانتشار هذه الأساليب في المستقبل القريب في البلاد، فقال: (هذه الأساليب سيكون لها المستقبل الزاهر، وسينبلج بشيوعها عصر ذهبيّ مشرق، حافل بأنواع الجمال والكمال)[١١]، وسرعان ما لبَّى الشعراء العرب المجدّدون هذه الدعوة، فإذا هم يتنصرون بمعرفة عميقة للأساليب الجديدة، ومن هؤلاء نزار قباني الذي بيّن الفوارق بين أسلوبين في الشعر: أسلوب الحياة والبساطة من جهة، وأسلوب القحط والموات من جهة أخرى، فقال: (لم يعد الشعر كأسَ ذهب في يد أمير بل أصبح قطعةَ خبز في فم كلِّ جائع للخبز والحرية (...) إنَّ لغة المثقفين في جميع البلاد العربية هي القاسم المشترك الصحيح والمادة الأولية التي يجب أن نستعملها في كلّ ما نكتب من شعر أو قصة أو نقد أو مقالة.

قد لا تكون هذه اللغة أكاديمية مئة بالمئة.. وقد لا تكون معجمية مئة بالمئة.. ولكنَّها على كلّ حال تشبهنا. إنَّها جزء من شفاهنا.. من حناجرنا.. من كتبنا.. من جرائدنا.. من رسائلنا.. إنَّها اللغة التي نحبّ بها.. ونضحك بها.. ونبكي بها.. ونمشّط شعر حبيباتنا بها..)[١٢].

ولنزار قباني تجربة مرَّة مع المحافظين ربما كانت أقسى من تجربتي مطران وجبران معهم لاختلاف البيئة الحاضنة حينذاك، فلما أصدر مجموعته الشعرية الأولى

لي السمراء) ١٩٤٤م في دمشق واجه ما واجهه أبو خليل القباني من قبل، وكان أعنف هجوم تلقّاه من الشيخ علي الطنطاوي الذي تحصّن بالأخلاق والعادات والتقاليد، وشنّ هجوماً كاسحاً على مجموعته، وسخر منه ومنها، فقال: (وفي الكتاب مع ذلك تجديد في بحور العروض يختلط فيه البحر البسيط والبحرُ الأبيض المتوسط وتجديدٌ في قواعد النحو لأنّ الناس قد ملّوا رفع الفاعل ونصب المفعول، ومضى عليهم ثلاثة آلاف سنة وهم يقيمون عليه فلم يكن بدّ من هذا التجديد)[١٣]، ويفسّر محيي الدين صبحي ما وراء هذا الهجوم الكاسح على أسلوب نزار، فهو لا يعبّر عن تجربة فردية، وإنّما يعبّر عن تطلّعات جيل جديد يحلم بالتغيير والحرية والانطلاق في الحياة والشعر، ويخرج عن العادات التي رسمها القدماء، لأنّ ظروف الحياة تغيّرت من حولنا، وقال: (أمّا نزار قباني فقد كان يعبّر بشكل عفويّ عن حاجة الجيل الطالع للحبّ والانطلاق والحرية الاجتماعية، ولذلك واجه ثورة من المحافظين على الأسلوب القديم لأنّه استخدم بعض الكلمات العامية بأسلوب بسيط تقتضيه الحياة والبوح، كما أنّ الشاعر لاقى ثورة من الجامدين الذي يقاومون تطور الحياة) [١٤].

استطاع بعض الشعراء في العصر الحديث أن يبنوا عمارات شعرية باذخةً نتيجة للتداخل بين الشعر الغنائي والسرد الملحمي والدراما والفنون الأخرى، وهي غالباً عمارات طويلة، ومنها (الجنين الشهيد) و(نيرون) لمطران، و (المواكب) لجبران، و(أفاعي الفردوس) لأبي شبكة، و(آلام) لنديم محمد، و(حفّار القبور) و(المومس العمياء) للسياب، و(أغاني مهيار الدمشقي) لأدونيس ..إلخ، ممّا استدعى منهم أن يواجهوا مشكلتين إيقاعيتين: القافية الموحّدة في قصيدة تبلغ المئات من الأبيات، ووحدة الإيقاع ورتوبه في البيت الشعري القديم، وقد عبّر مطران عن المشكلة الأولى في الكلمة الطويلة التي ألقاها في حفلة جمعية تنشيط اللغة العربية بالجامعة الأميركية ببيروت، وهي كلمة سبقت إلقاء قصيدته الملحمية الطويلة (نيرون) ٣٢٧ بيتاً على وزن واحد ورويّ واحد)، وممّا قاله فيها: (تعلمون أنّ الشعر العربي، إلى هذا اليوم، لم تنظم فيه القصائدُ المطوّلات الكُبر في الموضوع الواحد، ذلك لأنّ التزام القافية الواحدة كان، ولم يزل، حائلاً دون كلّ محاولة من هذا القبيل. وقد أردتُ بمجهود نهائي ختامي أبذله، أن أتبيّن إلى أيّ حدّ تتمادى قدرة الناظم في قصيدة مطوّلة ذات غرض واحد، يلتزم لها رويّاً واحداً، حتى إذا بلغت ذلك الحدّ بتجربتي بيّنتُ عندئذٍ لإخواني من الناطقين

بالضاد ضرورة نهج مناهجَ أخر لمجاراة الأمم الغربية فيما انتهى إليه رقيُّها شعراً وبياناً)(١٥)، ولذلك اضطرّ لاستخدام كلمات غريبة في القافية، ومنها (الطّثْر- احذأرّ- اثبجرّ- اقمطرّ ..إلخ)، وطلب السماح له من الجمهور بالوقوف عندها وشرحها في أثناء إلقاء القصيدة: (أيُّها السادةُ: ستجدون- فيما أقرأ لكم- كلمات قد تحتاج إلى التفسير. كلمات لم أوثرها بقصد الإغراب، بل قضت عليّ ضرورة الاستيفاء وما كان أرغبني عنها لو أعطتني اللغة المألوفة ما يفي ولو بأدنى حاجتي. لهذا سأستأذنكم من أجل غير المتمكّنين في اللغة- إن كان منهم هنا أحدٌ- في توضيح بعض الألفاظ مروراً، وحيثُ تقضي الضرورة)(١٦).

أما المشكلة الثانية فهي فيما يتصل بالإيقاع الشعري وموسيقا القصيدة المعاصرة، خاصةً أنّها نهجت نهج الدراما والسرد والملحمية، وتأثرت بالفنون الوافدة من الغرب، ولذلك فإنَّ نزار قباني يرى أن لا مندوحة في تغيير الإيقاع الشعري العربي من البناء التراكمي إلى البناء العضوي التداخلي، ونحن ننتقل من القصيدة الغنائية الخالصة بموضوعاتها المألوفة إلى قصيدة معاصرة فقال: (إنَّ ذوقنا الموسيقيَّ تطوّر ونما وتأثّر، إلى حدّ بعيد بالبناء السمفوني المركّب في الموسيقا الأوروبية (...) لقد تجاوزنا مرحلة (ربابة الراعي) بإيقاعها البدائي البسيط إلى مرحلة البناء الموسيقي المتداخل وانتهت في حياتنا مرحلة (القصيدة العصماء) بأبياتها المئة، تجلد أعصابنا بقوافٍ نحاسية مرصوصة كأسنان المشط.. نعرفها قبل أن نعرفها. الشعر العربي الحديث يُسمع بالعين، أي إنّه موسيقا مقروءة، وهذا دليل آخر على دخوله مرحلة التحضّر)(١٧).

هذه بعضُ التحديات التي واجهتها لغةُ الشعر المعاصرة في حركتها نحو الحداثة، وقد استطاعت بوساطة المرونة التي اتصفت بها اللغة العربية أن تبني عمارات شعرية باذخة في شعر السياب وحاوي وأدونيس ودرويش وآخرين، ولا شكَّ أنَّ ثمّة تحدياتٍ كثيرةً أخرى مبثوثةً في الأعمال الشعرية ونقدها لدى أصحاب الحداثة والمحافظين، وربّما وجدها المرء في المعارك الأدبية التي خاضها هؤلاء وأولئك على صفحات الدوريات منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا.

الحواشي

1-structure du langage poetipue , Flammarion, paris, 1966, p.171.

٢- الجاحظ: البيان والتبيين، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ٣/ ٢٨.

٣- المصدر نفسه، ٢/٩.

٤- الفنّ ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف بمصر، ط٩، ١٩٧٦، ص٥٠٩.

٥- ديوان عنترة، تح. محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٧٠، ص١٨٢.

٦- ديوان البارودي، دار العودة، بيروت، ١٩٩٢، ص٥٨٤.

٧- المصدر نفسه، ص٢٠٨.

٨- ديوان الخليل (الجزء الأول)، مطبعة المعارف بمصر، ١٩٠٨، ص هـ.

٩- أريد للشعر العربي، مجلة (الهلال)، م٥٧، جزء ٨ أغسطس ١٩٤٩، ص ٤٥- ٤٦.

١٠- بلاغة العرب في القرن العشرين (جمعها محيي الدين رضا)، المكتبة الأهلية بمصر، ط٢، ١٩٢٤، ص ٥١- ٥٢.

١١- المصدر نفسه، ص٣.

١٢- الشعر قنديل أخضر، منشورات المكتب التجاري، بيروت، ط٢، ١٩٦٤، ص ٤٤- ٤٦.

١٣- مجلة الرسالة (مصر)، العدد ٦٦١، مارس، سنة ١٩٤٦.

١٤- نزار قباني شاعراً وإنساناً، دار الآداب، بيروت، ط١، ١٩٥٨، ص١٥.

١٥- ديوان الخليل، دار مارون عبود، بيروت، ١٩٧٧، ٢/٩٩.

١٦- المصدر نفسه، ٢/١٠٠- ١٠١.

١٧- الشعر قنديل أخضر، ص٤١- ٤٢.

ألفاظ الأمراض في المعجم العربي وزن «فُعال» نموذجاً

د. شوقي المعري *

كان اهتمام العرب باللغة متنوعاً من حيث التأليف فيها. واللغة هنا يقصد بها النحو والصرف والإملاء واللفظ المعجمي لأنَّ القدماء لم يفصلوا بينها في مؤلفاتهم كما مؤلفاتهم ذات الثقافة المنوّعة كـ (الأغاني) و(العقد الفريد) و(عيون الأخبار) و(أدب الكاتب).. إلى غير ذلك من كتب ومؤلّفات كانت الأساس في بناء لغوي عظيم بناه أو شيّده علماء اللغة ومفكروها... ولم يكن المعجم العربي بعيداً عن هذا البناء. لكنه تميّز عن تلك المؤلفات لأنه ذو وظيفة تختلف عن وظيفة تلك المصنفات، وإن كانا يلتقيان في جوانب كثيرة: لأنَّ المعجم العربي ولاسيما القديم لم يكن معجماً مختصاً بالكلمة ومعناها، أو بالجذر ومعناه وما يمكن أن يُشتق منه، بل كان المعجم دائرة معارف لغوية كبيرة تمثلت في المادة التي كان يضمّها كل معجم، ولاسيما المعاجم التي أُلفت في مراحل لاحقة من مراحل التأليف المعجمي أقصد هنا معجمين اثنين (لسان العرب) لابن منظور (ت ٧١١ هـ) و(تاج العروس) للزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ) اللذين يعدّان الأكبر والأشمل.

فإذا كان (لسان العرب) قد جمع بين دفتيه كل المعاجم القديمة السابقة له.

* أديب ولغوي وأستاذ جامعي

ومؤلفـات اللغويـين ورسائلهم، فـإن (تاج العروس) ضـمَّ اللسان مع مـا أضيف إليه في التطور اللغوي والذي جمعه صاحبه من محيطه، فـكان (تاج العروس) بحقّ الأكبر حجماً والأشمل لغة .

إنّ مـن عمـل في المعجـم يكتشـف أنّ فيـه أشياء كثـيرة لم يكـن ليتوقعها ولم يكن ليجدها إلا فيـه، ولاسيما في مرحلة قريبة لّما لم يكن عند العرب كتـب متخصصة في بعض المعـارف والعلوم، فـكان المعجم هو الأساس الذي يعتمد، وكل هذا وغيره تجده في معجم (تـاج العروس) الذي ضمّ معاجم إن شئنا أن نستخلصهـا منه أو أن ننتزعها منـه، فنستطيع أن ننتـزع معجماً للبلدان لم يضم (معجـم البلدان) لياقوت الحموي كلّ ما ورد في تـاج العروس ومعجماً للأعلام لم تقع في غيره، ومعجماً للطعام وآخر للنباتات ومعجماً للثيـاب والملابس ومعاجم أخرى.. فهـذه المعاجم تعكس صـورة المجتمع الذي كان يعيش فيـه الإنسان العربـي، ودراسة المـادة الموجودة في هذا المعجم تعطي صورة حقيقيـة إذا أجدنا قراءتهـا وتحليلها، بل يمكن الاستفادة منها في وقتنا الحاضر.

وقد وجدت جانباً لطيفاً جميلاً يستحق الوقوف عنده من عدة جوانب اكتشفتها في (تاج العروس)، وهو معجم الأمراض والأدوية التي كانت معروفة، ورأيت أنّ هناك ألفاظاً كثـيرة ما زالت تستعمـل حتى الآن، بل إنك تفاجأ في بعض الألفاظ التي أجاد صاحبها كأنـه الطبيب الذي يصف الـدواء أو الذي يتحرّى المرض، أو الذي خلص في استنتاج بعض الأدوية مـن الأعشـاب و النباتات الطبيـة التي كانت منتشـرة في ذاك الزمن ولربّما مازال بعضها حتى الآن.

وسأعرض في هـذه الصفحات لعنوان واحد من أهم العناوين التي يمكن أن تنتظم تحتها تلك الألفاظ وهـذا العنوان هو وزن "فُعال" مـع التعليق على بعضـ الألفاظ، ثم استنتاج عـدد من الأشيـاء استناداً إلى قراءتها

وزن فُعال

المعروف أنّ وزن « فُعال» هو وزن خاصّ بالأمراض، وقـد كـثرت الأمراض التي وردت على هذا الـوزن منها مازال موجوداً ومعروفـاً لدى الناس حتى العامة، ومنها ما لا يعرفـه البعض وقد يكون خاصاًبأمراض الحيوانات، وهذا أشهرها بحسب الحروف الهجائية:

بُطـاح: مرض يأخذ مـن الحمّى، لكنه من غير المشهور.

بُوال: دواء يكثر فيه البول، وهو غير معروف.

الثُّطـاع: الـزكام، لكنه من غـير المستعمل، والمعروف هو الزكام.

الحُجام: داء في العين يصيب الإنسان فترم، وهو أيضاً من غير المشهور.

الجُذام: معروف علة تحدث من انتشار السواد في البدن.

الجُعام: داء للإبل وغيرها، وهو غير معرف.

الجُناب: ذات الجنب.

الحُصاص: الجرب غير معروف.

الحُضار: داء للإبل.

الحُلاق: وجع الحلق.

الحُماق: الجدري أو ما يشبهه.

الحُمام: الحمّى.

الخُباط: داء كالجنون.

الخُراج: ورم يخرج بالبدن من ذاته، وهو المعروف عند العامة بالخُرّاج.

الخُلاع: شبه جنون وخبل، أو هو الضعف والفزع.

الخُمال: داء يصيب مفاصل الإنسان، ويصيب قوائم الحيوان وهو من الجذر خمل، والخمول معروف التعب والوهن.

الخُناق: داء يمتنع معه نفوذ النَّفَس إلى الرئة والقلب.

الدُغام: وجع يأخذ في الحلق.

الدُكاع: داء في صدر الخيل والإبل.

الدُوار: معروف لدى العامة هو شبه دوران يأخذ في الرأس.

الدُوام: هو الدوار نفسه، والمعروف لدى الناس حتى العامة لفظ دوَّم و التدويم.

الذُباب: مرض الطاعون، وهو من الغريب غير المعروف.

الرُماع: وجع يعترض في ظهر الساقي فيمنعه من السقي.

الزُكام: معروف، لكنَّ لغة المعجم تحدده أكثر، يقول المعجم: هو تَحلُّب فصول رطبة من بطني الدماغ المقدمين إلى المنخزين.

السُواد: داء يأخذ الإنسان والإبل والغنم من شرب الماء الملح.

السُحاق: السّل، يعرف بغير معنى.

السُداد: داء في الأنف، غير معروف.

السُعال: معروف إلقاء الدم من الصدر.

السُواد: داء يأخذ في الكبد من أكل التمر، وربّما أخذ من لون التمر.

السُواس: داء في أعناق الخيل يأخذها وييبّسها حتى تموت.

الشُغاف: داء يأخذ تحت الشراسيف، أو وجع البطن.

الصُداع: وجع الرأس وهو معروف لدى العامة.

الطُشاش: داء في قوائم الدابة.

العُضال: الشديد، وهو معروف ويصف الداء غالباً، يقال الدّاء العُضال.

العُطاش: داء يصيب الصبي فلا يُروى.

العُقاف: داء يأخذ في قوائم الشاء تعوجّ منه.

الغُساس: داء في الإبل.

الغُضاب: القذى بالعين، أو داء يخرج بالجلد، أو هو الجدري نفسه.

الغُمام: الزُّكام.

الفُقاس: داء في المفاصل شبيه بالتشنّج.

الفُواق: الذي يأخذ المُحتضر عن النَّزع.

القُحاز: داء في الغنم يصيبها فتجف جلودها فتموت.

القُداد: وجع في البطن.

القُزاح: مرض يصيب الغنم.

القُشاع: داء يوبس الإنسان.

القُعاث: داء يأخذ في أنوف الغنم.

القُعاد: داء يأخذ في أوراك الإبل.

القُعاس: داء يأخذ في الغنم يحدث من كثرة الأكل تموت منه.

القُعاص: داء يأخذ في الغنم يحدث في أنوفها لا يُلبثها أن تموت.

القُعاص: داء يأخذ في الصدر.

القُفاص: داء يأخذ في الدواب، أو الغنم ييبس قوائمها.

القُناع: داء يأخذ في قوائم الشاة يعوّجها.

القُلاب: داء يأخذ الإبل في رؤوسها فينقلها إلى فوق، أو هو داء للقلب.

القُلاح: صفرة في الأسنان، معروف لدى الناس.

القُلاع: داء في الفم معروف لدى الناس.

القُوام: داء يأخذ في قوائم الشاء.

الكُباد: وجع الكبد.

الكُتاف: وجع الكتف.

الكُزاز: داء يأخذ من شدة البرد.

الكُساح: داء للإبل.

اللُّهاد: الفُواق.

المُضاض: وجع يصيب الإنسان في العين ممّا يمض.

المُعاث: أهون أدواء الإبل.

النُّحاز: داء يصيب الإبل في رئتها.

النُّزاء: داء يأخذ الشاء فتنزو حتى تموت.

النُّقاز: داء للماشية شبيه بالطاعون.

النُّكاث: بثر يخرج في أفواه الإبل.

النُّكاف: ورم في نكفتي البعير، أو داء في حلوقها، علماً بأنه يصيب الإنسان.

الهُرار: داء كالورم بين جلد الإبل ولحمها.

الهُقاع: الغفلة التي تصيب الإنسان من هم أو مرض.

الهُكاع: السُّعال.

الهُناع: داء يصيب الإنسان في عنقه.

الهُيام: كالجنون من العشق.

الوُحاب: داء يأخذ بالإبل.

إنَّ قـراءة الألفاظ التي وردت على هذا

الوزن قراءة متأنية تجعلنا نستنتج عدداً من الأشياء أهمها:

١- إنّ عدداً من الألفاظ اشتق من المكان الذي يصاب به الإنسان، أي من أحد أعضائه الجسدية، مثل البُوال والجُناب والحُلاق والشُفاف والكُباد والكُتاف ويلاحظ أنْ لا لفظَ من هذه الألفاظ مستعمل الآن.

٢- إنَّ عدداً من الألفاظ غير معروف وكان يدل على مرض معروف وربّما اختلف اللفظ لطبيعة المرض أو لاختلاف المجتمع، من هذا النُّطاع والطُّشاش والفحام وكلّها تدل أو تعني الزُّكام ومنه الحُمام والبُطاح الذي يعني الحُمّى والهكاع للسُّعال والدُّوام للدُّوار والسُّحاق للسلّ والحصاص للجرب.

٣- إنَّ بعضها صيغ على وزن فعال من جذر يدل عليه، مثل الخُمال الداء الذي يصيب مفاصل الإنسان فيجعله خاملاً أي متعباً والعطاش المعروف، لكنّ المعجم خصّه بالصبي والفواق عند الاحتضار والقُلاع للأسنان والقوائم لقوائم الشاء.

٤- أنَّ معظم مايصيب الحيوانات كان يتصل بالحيوانات التي تحيا مع الإنسان كالشاء والغنم والخراف والإبل لأنّها كانت تعيش معه تعينه ويستفيد منها، ولذلك غابت الألفاظ التي تتصل بالسّمك مثلاً وما يتصل بحيوان البحر لأنّها لم تكن قريبة منها وإن كان هناك بحار لكنه كان يعيش في الصحارى، بل وجدنا أنّ بعض هذه الأمراض يصيب الإنسان والحيوان معاً والسّوّاد الذي يصيب الإنسان والإبل والغنم من شرب الماء الملح، فالاثنان الإنسان والحيوان يشربان من موارد واحدة.. أمّا ما اختصت به الحيوانات فكثيراً ما أصاب قوائمها كالظُّلاع والفُقاس والقُفاع، وكان بعضها الآخر عاماً إذ يقال داء للإبل مثل الحُضار والغُساس والكُساح والمغاث والوُحاب..

وبعد، فإنّ دقائق اللغة تتمثل أحياناً في وزن واحد، أو قاعدة واحدة، وهذا مما يميز لغتنا، ويجعلنا ندقق في الكتابة قبل التعليل والاستنتاج، وإصدار الأحكام اللغوية، لأنّ الكلام العام كثيراً ما ضلل، وأضاع، وجعلنا نعمّم لا نخصص، فالتخصيص ضروري في زوايا وجوانب كثيرة من اللغة، وهذاالوزن «فُعال» الذي وقفنا عليه أعطانا صورة واضحة عمّا نريد الكشف عنه في دقائق جميلة من معجمنا العربي الغني بمفرداته وألفاظه وعباراته فهو ليس معجماً لغوياً فحسب، بل دائرة معارف غنية.

المكتبات.. أهدافها وطرق استخدامها

رحاب محمد ✽



مما لاشك فيه أنَّ تقدم الأمم ورقيها يعتمد بالدرجة الأولى على المعلومات والبحث العلمي، كما يعد الكتاب أهم وسيلة للثقافة والعلم، وهو أعمق أثراً في نشر المعرفة التي هي قوام شخصيتنا في الحياة، ومن ناحية أخرى فإنَّ الكتاب منذ بدء الخليقة له دور في الهداية والإرشاد، فما من رسالة سماوية إلا وجاءت بكتاب مبين يوضح للناس أمور دينهم ودنياهم. وتعد المكتبة أهم أداة يمكن الاستعانة بها في نشر الوعي الثقافي والعلمي والتربوي بين الجماهير، وذلك عن طريق

✽ أديبة وناقدة.

ما تقتنيه من مصادر معلومات تقليدية وغير تقليدية والتي تساعد على كسب العلم والمعرفة وتمكن الباحثين والدارسين من الوصول دوماً إلى مصادر الفكر والثقافة والعلم بأنواعها.

ومع أنَّ المكتبات تختلف أنواعها تبعاً لاختلاف الفئات والمؤسسات التي تخدمها والخدمات التي تقدمها، فإنَّ هذه المكتبات واضحة المعالم والأهداف على اختلاف أنواعها، ولكن الهدف الأسمى للمكتبة هو الارتقاء بالمستوى الفكري والثقافي والعلمي للأفراد من خلال توفير مصادر المعلومات وتيسير استخدامها تبعاً لاتجاهات الأفراد وقدراتهم، ومن هنا كانت أهمية المكتبات التي تنشئها الدول وتحفظ فيها الإنتاج الفكري والثقافي الإنساني لتكون في متناول الجميع لتحقيق أقصى استفادة ممكنة منها ومن دون مقابل.

أهمية المكتبات

أولاً: حلقة الوصل في نقل التراث الثقافي إلى المجتمع الذي توجد فيه، فمع ازدياد وسائل المعرفة أصبح من الصعب على الإنسان أن ينقل ثقافته من جيل إلى جيل فكان لابد من إنشاء مؤسسة تؤدي هذه المهمة.

ثانياً: تؤدي المكتبات العامة دوراً رائداً في نشر الوعي الثقافي بين الأفراد وذلك عن طريق ما تحويه من كتب ومجلات ومراجع تعين على كسب المجتمع العلم والمعرفة والخبرة وتمكن الباحثين والطلاب من الوصول إلى مصادر الفكر والثقافة.

ثالثاً: تقوم المكتبات العامة بتقديم الثقافة للمجتمع وذلك من خلال التصنيف والإعداد والترتيب بشكل متدرج يتناسب مع المستويات والفئات الفكرية.

رابعاً: تتولى التصدي للمشكلات الاجتماعية والثقافية بعرضها وإتاحة الفرصة لفئات المجتمع المختلفة للمساهمة في حلها وذلك من خلال الندوات والمحاضرات.

خامساً: تعمل على أن تعوّد فئات المجتمع المختلفة وخاصة الأطفال منهم على التمتع بأوقات فراغهم والشعور بالسعادة وذلك بتدريبهم على ارتياد المكتبة واستعمال الكتب لإكسابهم خبرات تعينهم بعد تخرجهم من المدارس على البحث والاطلاع.

أهداف المكتبة

١- اقتناء وتهيئة وتنظيم المواد المكتبية المختلفة بحيث تكون في متناول القرّاء.

٢ - تقديم الخدمات المكتبية المختلفة لكل المواطنين من دون استثناء.

٣ - تشجيع الجمهور على القراءة

والاطلاع والاستفادة من المصادر المتنوعة في المكتبة:

٤ - رفع المستوى الوظيفي للأفراد من خلال مطالعتهم لأحدث ما ظهر في مجال عملهم واختصاصاتهم من تطور ورقي.

٥ - دعم العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع.

٦ - جمع وحفظ المطبوعات والوثائق التي تتعلق بالمدينة أو الحي الموجودة به تلك المكتبة.

٧ - مساندة ودعم المكتبات الأخرى القريبة منها وخاصة المكتبات المدرسية.

إتمام النظام الاجتماعي والثقافي

تعتبر المكتبات من مرافق الخدمات الهامة التي توفرها الحكومات لأفراد الشعب كافة، وما من حكومة في العالم إلا وتعمل جاهدة على تصميم هذا النوع من الخدمات في مختلف قطاعاتها، حتى بات انتشار المكتبات في دولة من الدول دلالة حضارية على تقدم هذه الدول أو تخلفها.

فالمكتبة منشأة ثقافية هامة، قصد بها إتمام النظام الاجتماعي والثقافي للأفراد، فهي مدرسة دائمة تهتم بالعمل على إنماء جانب حيوي لدى الفرد، ألا وهو استمرارية التعليم، وهي منشأة تهدف لأن تعلم الفرد كيف يتعلم، وهي تختلف عن المؤسسات التعليمية التقليدية في أنها لا تقدم للقارئ منهجاً يلتزم به، أو تفرض عليه نوعاً محدداً من القراءات، بل هي تقدم له كل فنون وصنوف المعرفة، وعلى القارئ أمام هذا السيل الفائض من المعلومات أن يحدد تماماً ما يرغب فيه، حتى لو كان الأمر يتعلق بموضوعات القراءة الحرة. فالمطابع تدفع إلى سوق النشر يومياً بأعداد ضخمة من الصفحات المطبوعة بدءاً من الخبر الصحفي إلى الدراسات العلمية المتخصصة مروراً بمصادر ومراجع متنوعة في الشكل والاتجاه والمعالجة. والمكتبة بناء يحاول أن يجمع من هذا السيل ما أمكن له أن يجمع، ووظيفة المكتبة هي تنظيم هذا السيل من المعلومات تنظيماً دقيقاً يخضع لعمليات فنية غير مباشرة لا يراها القارئ، ثم تقدم بعد ذلك للقارئ في شكل خدمات مباشرة بأيسر الطرق وأسهلها.

مصادر للمعلومات

ولأنَّ هذا العصر هو عصر التقدم العلمي، عصر التكنولوجيا والمعلومات والعلم والمعرفة أصبح لابد من نشر الكتاب وتوسيع انتشاره والاهتمام بطباعته وإيصاله إلى العامة بأقل الأسعار. ولمراعاة هذا التنوع الثقافي الكبير الذي يزخر به العالم كان لابد من احتوائه والإلمام به حتى يمكننا

مواكبة التطورات المتسارعة التي تمر بنا وإلا أصبحنا منعزلين ومنغلقين ولا ندري ماذا حدث في العالم من حولنا.. إنَّ حتمية هذا العصر توجب علينا الجري وراء التسلح بالعلم والمعرفة ويأتي ذلك بضرورة من خلال إيجاد المكتبات العامة ورفدها بكل مصادر المعلومات التي يزخر بها هذا العالم والسعي أيضاً لإثبات هويتنا وثقافتنا وموروثنا الثقافي العظيم.

إنَّ أهمية المكتبات تأتي من أهمية الكتاب وأهمية الكتاب تأتي من أهمية مادته العلمية أو الثقافية أو غيرها والتي يكون الفرد منا في أمس الحاجة إليها وقد لا تكون لديه الإمكانيات لشراء الكتب واقتنائها، ومن هنا يأتي دور وأهمية وضرورة المكتبات العامة لأنها تكون فاتحة ذراعيها وأبوابها للجميع للتزود بالمعلومات والقراءة والاطلاع والبحث والاستعارة وما إلى ذلك.

ولأهمية العلم سعت الشعوب من قديم الزمان وبمختلف الحضارات لإيجاد وسيلة لحفظه وابتكرت طرقاً لإيصاله للناس وذلك بما كان في إمكانياتهم كحفظة فيما كان يسمى بلفائف البردي والجلود والأخشاب حتى اخترع الورق واخترعت الطباعة وأصبح بالإمكان طباعة الكتب والمواد العلمية بأعداد هائلة وتوزيعها إلى أرجاء العالم بكميات كبيرة وسعوا أيضاً واهتموا بإنشاء المكتبات على مختلف أنواعها كمكتبات المساجد والمكتبات الخاصة ومكتبات الخلفاء والأمراء والمكتبات المدرسية والمكتبات العامة لما لها من أهمية في توعية وتثقيف ونشر الوعي بين الناس.

دور حيوي في ميادين المعرفة

للمكتبات دور عظيم في تثقيف الشعوب وزيادة رصيدها من الوعي والمعرفة في مختلف الميادين، فهي المصادر الأساسية للمعلومات ولاسيما في العصر الحاضر الذي تقدمت فيه التقنيات الحديثة، وأصبح بالإمكان الحصول على المعلومة في أسرع وقت مع اكتمال جوانبها.

وللمكتبات دور حيوي في إثراء قاعدة المعرفة، وهي العنصر الفعال والوعاء المعرفي في تحقيق وإثراء قاعدة المعرفة في الحياة الثقافية والفكرية والإنسانية.

والمكتبات الوطنية في بلادنا مفخرة من مفاخر هذه البلاد، حيث تقوم اليوم بدور رائد في هذا المجال نحو الرقي والنهوض في هذا العصر الذي يشهد فيه العالم باستمرار تطوراً في مختلف مجالات الحياة، يتحفنا به العلم والعلماء، وهي تتويج لمجهودات فئة كبيرة في مختلف ميادين العلوم والآداب والفنون.

وانطلاقاً من ذلك فقد أصبحت الحاجة إلى مصادر ترشد إلى مختلف مجالات

المعرفة البشرية، مما يحتاج إليه الباحث والعالم والأديب والطالب والأستاذ، ضرورية. فوجود المصادر سوف يسهم إلى حد كبير في توفير المعلومات التي ينشدها الباحثون ويبتغيها الدارسون بسهولة وهدوء. كما أنَّ وجود الحاسوب الآلي بالإمكانات الموجودة فيه سيجعل الحصول على المعلومات من قبل الباحثين أمراً ميسوراً لهم، فقد توافرت في المكتبات أجهزة الحاسوب وآلات التصوير الحديثة وشبكات الاتصال بالمراكز العلمية التي تتوافر فيها كافة المعلومات والأفلام العلمية بأنواعها المتعددة، وكذلك الفهارس المنظمة التي توفر وتيسر للباحث الاطلاع على محتويات أي مكتبة، ومعرفة ما تحتويه من مخطوطات أو كتب مطبوعة أو أفلام وثائقية وغيرها من أدوات ووسائل المعرفة. لقد أصبحت المكتبات مراكز إشعاع وأخذت دورها في مساندة الجامعات ومراكز البحوث المختلفة.

خصائص المكتبة العامة

- أن تكون لعامة الجمهور من دون أية تفرقة أو تمييز.
- أن تقدم الخدمات كافة مجاناً ومن دون مقابل.
- أن تقوم الدولة بتأسيسها والإشراف عليها.
- أن توفر الفرصة للأطفال كي يقوموا بنشاطهم أو تعاونهم للنهوض بمستواهم الفكري والثقافي باعتبارهم رجال الغد.

طرق استخدام المكتبة

ولإعداد دراسة معينة أو بحث من البحوث، يلجأ الفرد إلى المكتبة ملتمساً فيها بعض السبل التي توصله إلى المعلومات، كما قد يضطر القارئ إلى طلب المساعدة من مرشد القاعة، أو يلقي بهمومه دفعة واحدة على مكتب الاستعلامات، حتى لا يتردد بين قاعة وأخرى باحثاً ربما عن لافتة ما تدله أو ترشده إلى ما يريد، وفيما يلي أهم سبل الوصول إلى المعلومات في المكتبة:

أولاً: الفهارس:

فهارس المكتبة ما هي إلا تجميع لهويات الكتب التي تضمها المكتبة، فلكل كتاب هوية مثل تلك الهوية التي يحملها الفرد، والتي تشتمل بيانات عنه، كاسمه وعنوانه وتاريخ ميلاده وربما بعض مميزاته أو ملامحه الشخصية كالطول ولون الشعر أو العينين.. وهكذا. والحال لا يختلف عن بطاقات الكتب، فالبطاقة ما هي إلا وصف محدد للكتاب، رتبت بطريقة محددة ومقننة، ولا يختلف الحال في ذلك بين مكتبة وأخرى إلا تفصيلاً وإيجازاً في سرد البيانات.

وتتعدد الفهارس في المكتبة تبعاً لعدد

مداخل البطاقات التي يتم استنساخها للكتاب الواحد، فالبطاقة الموضحة هي بطاقة رئيسية، وهي باسم المؤلف، ويمكن إدخال بيان جديد على هذه البطاقة من بداية مدخلها فتكون بطاقة إضافية للكتاب نفسه، فإذا اختير عنوان الكتاب مثلاً كي يكون مدخلاً كانت البطاقة إضافية بالعنوان، أو قد تكون بالمؤلف المشارك أو بالموضوع، وهذه البطاقات ترتب في أدراج تسمى أدراج الفهارس، وهي دليل سهل يمكن للقارئ أن يستخدمه ويصل عن طريقه للكتاب المطلوب. وعادة ما تكون الفهارس في المكتبات على الأشكال التالية:

- **فهرس المؤلف**: ويضم هذا الفهرس البطاقات التي يكون مدخلها باسم المؤلف، وترتب البطاقات في هذا الفهرس هجائياً بأسماء مؤلفي الكتب، وهي تخدم القارئ الذي يعرف مسبقاً اسم مؤلف الكتاب الذي يرغب في قراءته، أو يريد معرفة أسماء مؤلفات شخص ما وذلك بالبحث تحت اسمه.

- **فهرس العنوان**: ويضم الفهرس مجموعة البطاقات السابقة نفسها لكنها مرتبة وفق ترتيب آخر، ويكون ذلك برفع عنوان الكتاب إلى أعلى مدخل البطاقة، ثم ترتب البطاقات هجائياً بعنوان الكتب، ويفيد هذا الفهرس أولئك الذين يعرفون عناوين الكتب التي يرغبون في قراءتها لكنهم يرغبون في استعارتها مثلاً أو التأكد من وجودها في المكتبة.

- **فهرس الموضوعات**: ويضم هذا الفهرس بطاقات الكتب الموجودة في المكتبة كافة مرتبة هجائياً وفق رؤوس موضوعاتها، وما على القارئ إلا أن يحدد الموضوع الذي يرغب في قراءته أو البحث فيه، ثم يبحث عنه وفق ترتيبه الهجائي، فيجد كافة الكتب أو المطبوعات التي تقع في دائرة هذا الموضوع.

وهناك أنواع أخرى من الفهارس لا يتسع المجال لذكرها، لكن مجمل القول هو أنَّ هذه الفهارس قد أوجدت بالمكتبات لتقديم خدمة مباشرة للقارئ، وهي سهلة الاستخدام نتيجة لإتباعها طريقة الترتيب الهجائي في صف البطاقات، كما أنَّ أدراج الفهارس غالباً ما تكون مزودة من الخارج بلافتات صغيرة للدلالة على ما تحتويه هذه الأدراج من حروف أو أجزاء الحروف، كما تضع بعض المكتبات لافتات توضح كيفية استخدام الفهارس وطريقة البحث داخل الأدراج، وكيفية الوصول إلى المعلومات المطلوبة عن طريق الفهارس.

- ثانياً: الوصول إلى الكتاب على الرف:

مهما يكن من أمر فإنَّ العثور على بطاقة الكتاب في الفهارس لا يكفي وحده للوصول إلى الكتاب نفسه، فهناك رابطة بين وجود البطاقة في أدراج الفهارس وبين مكان وجود الكتاب على الرف، ويطلق على هذه الرابطة «رقم الطلب»، أي رقم طلب الكتاب ويتكون من رقم التصنيف زائد رموز المؤلف، وهذا الرقم يحتل أعلى يمين البطاقة العربية، وأعلى يسار البطاقة الإنكليزية (أو الأجنبية)، فكل كتاب له رقم تصنيف يذكر في البطاقة، أما رمز المؤلف فهو اختصار لاسم المؤلف أو الحرف الأوَّل من اسمه إضافة إلى الحرف الأوَّل من عنوان الكتاب، وعلى ذلك فإنَّ رقم الطلب هذا، ليس أكثر من تحديد دقيق فلا يشترك كتاب آخر في رقم الطلب نفسه أبداً. والقارئ الذي يستخدم الفهارس يقوم بكتابة هذا الرقم على ورقة صغيرة، ثم يتجه إلى الأرفف بعد ذلك حيث ترتب الأرفف تبعاً لأرقام التصنيف ترتيباً تصاعدياً، وإذا اشترك كتاب أو أكثر في رقم التصنيف، يكون رمز المؤلف هو الخطوة التالية للبحث عن الكتاب، فالبحث عن الكتاب إذن يبدأ بالرقم ثم بالحرف بعد ذلك.

- ثالثاً: نظام الأرفف المفتوحة:

ترتب الكتب في المكتبات أولاً بحسب اللغة، فتكون المجموعة العربية في جانب والمجموعة الأجنبية في جانب آخر، ثم ترتب كل مجموعة بعد ذلك تبعاً لموضوعات المعرفة، وترتيب المعرفة لا يختلف من مكتبة لأخرى، بل إنَّ برنامج هذا الترتيب واحد في معظم المكتبات، وهذا البرنامج الخاص بترتيب موضوعات المعرفة يسمى تصنيفاً. وأشهر التصانيف التي تستخدم في المكتبات هو تصنيف «ديوي العشري» نسبة للأمريكي «ملفل ديوي»، وترتب بمقتضاه الكتب في عشرة أقسام موضوعية، وكل قسم يتفرع إلى عشرة فروع، وكل فرع إلى عشرة أخرى.. وهكذا تظل الموضوعات تنقسم بشكل عشري لا ينتهي، وهذا التصنيف سهل وسلس إذا ما أمكن للقارئ أن يتعرف على طريقة استخدامه، ويمكن القول بأنَّ نظام الأرفف المفتوحة تسمح للقارئ بأن يتلمس بنفسه الكتب التي يرغبها كافة من دون الرجوع إلى الفهارس، وذلك بعد أن يكون قد تمكن من التعرف على جداول التصنيف الرئيسية، هذا إضافة إلى أن أرفف المكتبات غالباً ما يتم تزويدها بلافتات تدل على موضوعات الكتب حتى لا يختلط الأمر على القارئ فتكون عوناً له.

- رابعاً: المراجع:

عادة ما تهتم المكتبات بنوع محدد من الكتب، فتوليه عناية خاصة، فتحتفظ به في أحد الأركان، أو تفرد له غرفة خاصة وتطلق عليها قاعة المراجع وذلك نظراً لأهميتها ولطبيعة استخدامها، كما أنها غالباً ما تستعمل داخل المكتبة فلا تعار خارجياً.

والمراجع مصدر هام من مصادر المعلومات، لكنها كتب لا تقرأ من أولها لآخرها، بل تستخدم للاستشارة فقط، فدليل الهاتف يعتبر مرجعاً ولا يقرأ كله، بل يرجع إليه الشخص في حالة رغبته في معرفة رقم هاتف شخص ما أو التعرف على عنوانه، أو يرغب في معرفة فروع لشركة ما وهكذا، والمراجع تقدم معلومات سريعة وموجزة تفيد القارئ والباحث بشكل مركز، وأهم هذه المراجع القواميس وكتب الببليوغرافيا ودوائر المعارف وكتب الحقائق وكتب الطبوغرافيا.

وفي الختام، لقد أوجدت المكتبات من خلال حاجة المجتمع ومن أجله، وهي تقدم صنوفاً مختلفة من الخدمات، وتتنوع هذه الخدمات من مكتبة إلى أخرى وتتعدد أشكالها ومستوياتها، حتى باتت المعلومات تقدم للقارئ اليوم على شكل شرائط فيديو أو أقراص مدمجة، أو على شكل خدمات هاتفية أو تقدم بالكمبيوتر، ومازال هناك الكثير من التطور الذي يتلمسه القارئ على شكل خدمات تقدم له يوماً بعد يوم.

سفيان بن سعيد الثوري .. الفقيه المحدث

د. شريف علي*

نسلط الضوء في هذه الإلمامة المتواضعة على رجل عظيم لقب بـ «إمام الدنيا» و «ركن الدين الركين».. إنه سفيان الثوري.. المجاهد المثابر الذي تعرض في حياته لشتى ضروب المحن والابتلاء، ولكنه مع كل ذلك صبر وتحمل، أسوته وقدوته في ذلك هو الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم). وسفيان الثوري مع هذه المحن لم يلن، ولم يحابِ أحداً، بل كان دائماً يقول كلمة الحق، لا يخاف في الله لومة لائم، كان أبو جعفر المنصور كثيراً ما يطلب الثوري لمقابلته، ويأبى الإمام ملتمساً الأسباب، ويسأله الناس في ذلك فيقول، ما يريد مني أبو جعفر؟ فو الله لئن قمت بين يديه لأقولن له: قم من مقامك فغيرك أولى به منك، ويلتقي سفيان بأبي جعفر بمنى في موسم الحج، فيقول سفيان له: اتق الله فإنما أنزلت هذه المنزلة، وصرت في هذا الموضع بسيوف المهاجرين والأنصار، وأبناؤهم يموتون جوعاً، ثم يقول: حج عمر بن الخطاب فما أنفق إلا خمسة عشر ديناراً، وكان ينزل تحت الشجر، يقول سفيان: فقال لي: أتريد أن أكون مثلك؟ قلت: لا تكن مثلي، ولكن كن دون ما أنت فيه، وفوق ما أنا فيه، فقال لي: اخرج، ويذكر عبد

* باحث وناقد

الرزاق في مصنفه، أخذ أبو جعفر بتلباب الثوري، وحول وجهه إلى الكعبة فقال: برب هذه البنية (أي الكعبة) أي رجل رأيتني؟ قال: برب هذه البنية، بئس الرجل رأيتك. وأطلق يده. هكذا كان الإمام سفيان الثوري لا يحب التقرب إلى الولاة والسلاطين لأنه يعلم مدى الفتنة التي تلحق به. فآثر مرضاة الله على مرضاة غيره من العباد.

مولده ونسبه

هو سفيان بن سعيد الثوري، ولد سنة خمس وتسعين أو سبع وتسعين من الهجرة بالكوفة، من أسرة كريمة فاضلة فأبوه من ثقات المحدثين، قد وهبه والده للعلم، كي يرثه من بعده، فأفضل شيء يورث هو العلم، فقرأ سفيان وتعلم على يد عظماء الشيوخ في عصره، يقول سفيان «طلبت العلم فلم تكن أي نية، ثم رزقني الله النية». أي إنّه طلب العلم أولاً بحكم العادة البحتة، ثم وفقه الله تعالى لأن يقصد به وجه الكريم، ولكن مما يجدر ملاحظته أنّ المحدثين إذ ذاك ما كانوا يأخذون على الحديث أجراً. لقد كانوا يتمثلون قوله تعالى: **﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾** (الأنعام / ٩٠).

ويبدو أنّ والد سفيان لم يكن من ذوي الثراء العريض، ولكنه نشأ في جو علمي فيه النور، والإشراق، والصفاء، وكان جو الأسرة على ما يبدو جواً كريماً، فقد كانت أم سفيان من النساء الحصيفات التقيات، لقد كانت ذات عقل وتقوى، انظر إلى عقلها وتقواها في نصيحتها لسفيان:

عن وكيع بن الجراح أنّ والدة سفيان قالت له: يا بني، اطلب العلم وأنا أعولك بمغزلي، وإذا كتبت عشرة أحرف، فانظر هل ترى في نفسك زيادة في الخير، فإن لم تر ذلك فلا تتعبن نفسك، لم تكن الأم تفكر لابنها – من وراء تعليمه – في الجاه أو الثراء، وإنما كانت تفكر في أن يزداد الخير في نفسه، وبدأ سفيان يتعلم، اتباعاً لأبيه، واستجابة لرغبة أمه، ولكن سفيان بمجرد أن دخل في دور الشباب، بدأ يفكر جدياً في أمر معيشته، فليس من الطبيعي أن يغتبط سفيان – وهو صاحب الفطرة الصافية – بأن تعوله أمه بمغزلها، أو أن تستمر أمه في إعالته بمغزلها، يقول سفيان فيما رواه يحيى بن يمان: لما هممت بطلب الحديث، ورأيت العلم يدرس، قلت: أي رب إنّه لابد لي من معيشة. فاكفني أمر الرزق. وفرغني لطلبه، فتشاغلت بالطلب فلم أر إلا خيراً.. بيد أنّ سفيان تنبه بسرعة إلى أنّ المال ضروري للإنسان على أي وضع كان الإنسان، إنّه ضروري له، لو أراد أن يسير في حياته على أن يكون متعبداً، وضروري له، لو

أراد أن يسير في حياته على أن يكون عالماً، والعابد لا يأخذ على عبادته أجراً، والعالم لا يأخذ على علمه أجراً لابد إذاً من التكسب ومن المال، ولذلك قال كلمته المدوية: عليك بعمل الأبطال (الكسب من الحلال، والإنفاق على العيال)[1].

شغف متميز بالعلم

لقد حبب الله تعالى إليه العلم، قال العجلي في الثقات[2]: كان سفيان لا يسمع شيئاً إلا حفظه حتى كان يخاف عليه، وقال الإمام الذهبي في السير: كان ينوه بذكره من أجل فرط ذكائه وحفظه، وحدّث وهو شاب، لقد كانت شهرة سفيان تزداد كل يوم، ولكن سفيان لم يغتر بشهرته، وإنما زادته هذه الشهرة محاسبة لنفسه في علمه وفي تقواه، ولم يتكبر على العلم ويقول إني بلغت شأوه، والمنتهى فيه، بل على العكس من ذلك فهو يقول «لا نزال نتعلم ما وجدنا من يعلمنا»، ويقول «الرجل إلى العلم أحوج منه إلى الخبز واللحم».

وكان أعطاه الله تعالى ذاكرة قوية، يحفظ كل ما يسمع قال أبو المثنى: سمعتهم بمرو يقولون: قد جاء الثوري، فخرجت أنظر إليه، فإذا هو غلام قد نفل وجهه[3] (أي خرج شعره)، وروى عبد الرزاق عن سفيان قال: ما استودعت قلبي شيئاً قط فخانني، وقال سفيان بن عيينه: كان الثوري كأن العلم ممثل بين عينيه، يأخذ منه ما يريد ويدع ما لايريد.

وروى الخطيب البغدادي عن أبي مسلم صالح بن أحمد قال: حدثني أبي قال: ألقى أبو إسحق فريضة (أي مسألة في المواريث) فلم يصنعوا فيها شيئاً، فقال: لو كان الغلام الثوري فصلها الساعة، إذ أقبل سفيان فقال له: ما تقول في كذا وكذا ؟ قال سفيان: أنت حدثتنا عن علي بكذا وكذا، والأعمش حدثنا عن ابن مسعود بكذا، وفلان حدثنا فيها بكذا، قال أبو إسحق كيف ترون من ساعة فصلها ؟ ألا تكونون مثله ؟[4]. ويرسم الإمام الثوري الخطوات التي تتبع بالنسبة للعلم، يروي مزاحم بن زفر هذه الخطوات عن الثوري يقول: غنماً هو طلبه، ثم حفظه، ثم العمل به، ثم نشره «وقال لتلاميذه وقد اجتمعوا حوله، قال لهم: «اطلبوا العلم ويحكم، فإني أخاف أن يخرج منكم، فيصير في غيركم، اطلبوه ويحكم، فإنه عز وشرف في الدنيا والآخرة».

وأخذت الأيام تسير، والأعوام تمر، ومع ذلك تزداد شهرة سفيان، وإذا به يبلغ حداً من النضج، ومن العلم يعز على من رامه ويطول، فيذيع اسمه في ربوع العالم الإسلامي ويقدره الناس أينما حل، يقدرونه لتقواه، ويقدرونه لعلمه، ويقدرونه لخلقه الطيب،

ويقدرونه لزهده في الدنيا، وبعده عن متع الحياة الفانية ومغرياتها ومفاتنها، بل لقد أخذ الناس يعدون مناقبه، ومن ذلك مثلاً ما رواه شعيب بن حرب إذ قال: ذكروا سفيان عند عاصم بن محمد، فذكروا مناقبه، حتى عدوا خمس عشرة منقبة، فقال: فرغتم؟ إني لأعرف فيه فضيلة أفضل من هذه كلها: سلامة صدره لأصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم)[٥]. ويعدد عبد الله بن المبارك بعض ما تحلى به الإمام الثوري فيقول: «تعجبني مجالسة سفيان الثوري، كنت إذا شئت رأيته في الورع، وإذا شئت رأيته مصلياً، وإذا شئت رأيته غائصاً في الفقه». ويشبه هذا ما ذكره أحمد بن يونس قال: «ما رأيت أحداً أعلم من سفيان ولا أزهد من سفيان» فكان (رضي الله عنه) عالم الأمة وعابدها.

المحدث الفقيه

وسفيان عالم فقيه له مذهبه المعتمد وتلاميذه العظام، وقد ترك في المجتمع الإسلامي لعهده دوياً يجلجل، وصدى يرن، وقد نشأ الثوري في رحاب الكوفة، وقد وهبه أهله للحديث، فكان محدث الأمة ثم وصل إلى الأوج في الفقه، وكان مفتي الكوفة الأكبر، وكان مذهبه يضارع مذهب أبي حنيفة النعمان، ولكن حياة الزهد التي عاشها سفيان الثوري لم تحقق لمذهبه الذيوع والانتشار، بينما لم يكن أبو حنيفة وتلامذته المباشرون زهّاداً، فانتشر المذهب الحنفي، واندثر المذهب الثوري، وقد نشأ الثوري محدثاً، وهبه أهله للعلم، وكان العلم يعني الحديث، والحديث يشمل الفقه. ولقد برع سفيان في الحديث والفقه إلى أكبر حد عرفه العالم الإسلامي إبان ذلك الوقت، ودعي سفيان بأمير المؤمنين في الحديث، وكانت رحلاته الأولى لجمع الحديث وروايته فأخذ ينتقل من بلد إلى بلد .. فينتقل من الكوفة إلى الشام، ومن الشام إلى اليمن، ثم يعود إلى مكة كل ذلك وهو يطلب الحديث على يد عظماء الشيوخ الذين عاصرهم فحدث عن زبيد بن الحارث، وحبيب بن أبي ثابت، والأسود بن قيس، وزياد بن علاقة، ومحارب بن دثار وغيرهم، ويقال عدد شيوخه ستمئة شيخ، وكبارهم الذين حدثوه من أبي هريرة، وجرير بن عبد الله، وابن عباس (رضي الله عنهم) وقد قرأ الختمة عرضاً على حمزة الزيات أربع مرات[٦] وحين اكتملت أداة الحديث عنده وتمكن من حفظه بدأ يفتي المسلمين فكان سفيان (أفقه الناس)، يقول ابن المبارك: ما رأيت أحداً أفضل من سفيان ولا رأى سفيان مثل نفسه. ولقد منح الله تعالى سفيان ذاكرة حافظة، يصفها سفيان بقوله: ما استودعت قلبي شيئاً قط فخانني، كما قلنا آنفاً، ويقول ابن

مهدي عنه: ما رأيت صاحب حديث أحفظ من سفيان، ويصف الأشجعي ذاكرة سفيان فيقول: دخلت مع الثوري على هشام بن عروة، فجعل يسأل وهشام يحدثه، فلما فرغ قال: أعيدها عليك، فأعادها عليه، وقام ثم دخل أصحاب الحديث فطلبوا الإملاء، فقال هشام: احفظوا كما حفظ صاحبكم، قالوا: لا نقدر .. لقد كانت ذاكرة سفيان مهيأة بالفطرة، لأن تجعل من سفيان إماماً من أئمة الحديث والفقه، ومع الذاكرة لابد للمحدث من ذكاء يتوقد.

ولقد كان تقدير العلماء له في الحديث والفقه تقديراً يتناسب حقاً مع مكانته التي بلغها، وإذا كنا نذكر هنا شيئاً من ذلك فإننا نذكر بعضاً من كل، وقطرة من غيث، قال شعبة وابن معين: سفيان أمير المؤمنين في الحديث، وقال يحيى بن يمان: كتبت عن سفيان عشرين ألفاً، وأخبرني الأشجعي أنه كتب عن سفيان ثلاثين ألفاً.

ويتحدث ابن المبارك - فيما يروي عبد الرزاق - عن استفاضة سفيان من العلم، وعن سعة دائرته، في فنونه، ولا سيما الحديث فيقول: أقعد إلى سفيان فيحدث فأقول ما بقي من علمه شيء إلا وقد سمعته، ثم أقعد مجلساً آخر فأقول ما سمعت من علمه شيئاً، ومن أجل هذه الاستفاضة التي شاهدها ابن المبارك كان يقول: لا أعلم على وجه الأرض أعلم من سفيان. ويقول: كتبت عن ألف ومئة شيخ وما فيهم أفضل من سفيان، ويقول: كنت إذا أعياني الشيء أتيت سفيان أسأله، فكأنما اغترف من بحر، وكان سفيان يفتن كل من يتصل به عن مشاهدة، أو عن دراسة لتاريخه وسيرته، كان يبهره بعلمه، يبهره بحفظه للحديث، يبهره بصلاحه وتقواه، ويبهره بأمره بالمعروف، ونهيه عن المنكر، ويبهره بعفة نفسه عن كل ما فيه شبهة، يقول عنه وكيع بن الجراح: كان بحراً، ويتحدث عنه الإمام أحمد بن حنبل فيقول (لم يتقدمه في قلبي أحد) (٧).

زهده في الدنيا

الزهد في الدنيا، والإقبال على الله تعالى كان طريق الإمام الثوري، فهو علم خافق في موكب الأخلاق النبيلة فقد احتقر شهوات النفوس، وارتفع بغرائز البشر إلى مقام وضيء، ترفرف فيه أجنحة الكرامة والعزة، حتى صارت حياته كتاباً في السلوك الإنساني، يقرؤه من يريد لنفسه شرف الحياة وجد الأبد وسعادة الآخرة، روى عبد الله بن خبيق عن يوسف بن أسباط:

قال لي سفيان بعد العشاء: ناولني المطهرة (الإناء الذي يتوضأ به) أتوضأ، فناولته فأخذها بيمينه ووضع يساره على خده، فبقي مفكراً ونمت، ثم قمت وقت

الفجر، فإذا المطهرة في يده كما هي: فقلت: هذا الفجر قد طلع، فقال: لم أزل منذ ناولتني المطهرة أتفكر في الآخرة حتى الساعة. ولم تعرف كلمة الزهد قبل سفيان الثوري - كمصطلح يطلق على ترك الدنيا والاتجاه إلى الآخرة، وها هو يقول: الزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباءة، وكان يردد: ازهد في الدنيا ونم[8].

وكان يرى أنَّ الحكمة ثمرة الزهد، ينبتها الله في قلب المؤمن، يروي بشر بن الحارث أنَّ سفيان الثوري سئل: أيكون الرجل زاهداً، ويكون له المال؟ قال: نعم: إن كان إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر .. ولم تكن العبادة أو الزهد عند سفيان تعني التبطل عن التكسب، بل دعا القراء إلى العمل، والتكسب من ذات أيديهم فيذهب إلى البصرة فيجلس في مجلس العابد البصري يوسف بن عبيد، فإذا فتيان كأن على رؤوسهم الطير، فقال: يا معشر القراء - ارفعوا رؤوسكم، فقد وضح الطريق، واعملوا ولا تكونوا عالة على الناس»[9].

ومن حثه على الكسب والعمل، ما حدث به عن مبارك أبي حماد قال: سمعت سفيان يقول لعلي بن الحسن فيما يوصيه: يا أخي عليك بالكسب الطيب، وهو ما تكسب بيدك، وإياك وأوساخ الناس أن تأكله، أو تلبسه .. فالذي يأكل أوساخ الناس هو يتكلم بهوى، ويتواضع للناس مخافة أن يمسكوا عنه، ويا أخي إن تناولت من الناس شيئاً قطعت لسانك، وأكرمت بعض الناس، وأهنت بعضهم، مع ما ينزل بك يوم القيامة، فإن الذي يعطيك شيئاً من ماله، فإنما هو وسخه، وتفسير وسخه، تطهير عمله من الذنوب، وإن تناولت من الناس إن دعوك إلى منكر أجبتهم .. يا أخي: جوع وقليل من العبادة خير من أن تشبع من أوساخ الناس، فاتق الله يا أخي، فإنه ما نال أحد من الناس شيئاً إلا صار حقيراً ذليلاً عند الناس، والمؤمنون شهود الله في الأرض، وإياك أن تكسب خبيثاً فتنفقه في طاعة الله، فإنَّ تركه فريضة من الله واجبة، وإنَّه طيب لا يقبل إلا طيباً.

وقد التقى سفيان بمجموعة من الزهاد في عصره، وسار في ركابه إبراهيم بن أدهم.. بل اعتبره إبراهيم بن أدهم «إمام الزهاد» فيذكر صاحب الحلية: دخل إبراهيم بن أدهم المسجد ببيت المقدس وسفيان الثوري وجماعة، فلما صلوا في المسجد، وصاروا في الصحن، انحرف سفيان يريد الصخرة، فقال له إبراهيم: يا أبا عبد الله، ارجع فإنك قد ابتليت وصرت لنا إماماً، فلا يراك الناس فيروه حتماً، فانصرف سفيان وقال: صدقت: فخرجا، ولم يمض سفيان إلى

الصخرة[١٠]. وفي مكة قابل سفيان الزاهد الكوفي الفضيل بن عياض [١١]. وكان قد استقر في مكة - وكانا يلتقيان في المسجد الحرام فما يتذكران إلا النعم، حتى يفترقا - يقول فضيل للثوري: يا أبا محمد ألا عمل بنا كذا، ويقف فضيل على رأس سفيان وحوله جماعة، فقال له «قل بفضل الله وبرحمته، فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون»، ويرد سفيان فيقول له «يا أبا علي، والله لا تفرح أبداً حتى تأخذ دواء القرآن، فتضعه على القلب، ويتقابلان مرة ثانية، فتذاكرا وبكيا، ويقول سفيان: إني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا أعظم مجلس جلسناه بركة: فرد الفضيل، ترجو، لكني أخاف أن يكون أعظم مجلس جلسناه عاينا شؤماً، أليس نظرت إلى أحسن ما عندك، فتزينت به لي، فعبدتني وعبدتك، فبكى سفيان، حتى علا نحيبه. ثم قال: أحييتني أحياك الله[١٢].

وقد سئل الفضيل من إمامك ؟ فقال: سفيان الثوري [١٣]. وعن عبد الرحمن بن عبد الله البصري قال: قال رجل لسفيان: أوصني ؟ قال: اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، وللآخرة بقدر بقائك فيها، والسلام.. ومع كل ذلك وتمشياً مع المبدأ الإسلامي، وهو أنّ الزهد معناه: ألا يسيطر حب الدنيا على قلب الشخص، وألا تستعبد الدنيا الإنسان، وأنّ الإنسان يمكن أن يكون من أصحاب الملايين، وهو مع ذلك زاهد، لأنّ المال في يده وليس في قلبه، ولأنه يتحقق بقوله تعالى: **﴿لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾** (سورة الحديد / ٢٣)، إنّ الإمام الثوري لم يكن متزمتا في مأكل أو ملبس أو مشرب. قال وكيع: رؤي سفيان يأكل الطباهج (وهو طعام من بيض وبصل ولحم مشرح) وقال: إني لم أنهكم عن الأكل، ولكن انظر من أين تأكل ؟ وارتحل وانظر على من تدخل، وتكلم، وانظر كيف تتكلم ؟ كيف أنهاكم عن الأكل والله تعالى يقول: **﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا﴾** (سورة الأعراف / ٣١) .

وصايا سفيان لعلي بن الحسن

لقد كان الثوري معنيا عناية خاصة بعلي ابن الحسن، ولذلك كثرت وصاياه له، أذكر القارئ الكريم بعضاً منها لأنّها جمعت فأوعت يقول: يا أخي عليك بتقوى الله، ولسان صادق، ونية خالصة، وأعمال شتى صالحة، ليس فيها غش ولا خدعة، فإنّ الله يراك وإن لم تكن تراه، وهو معك أينما كنت لا يسقط (أي لا يخفى) عليه شيء من أمرك، لا تخدع الله فيخدعك، فإنه من يخادع الله يخدعه ويخلع منه الإيمان ونفسه لا تشعر، ولا تمكرن بأحد من المسلمين المكر السيئ، فإنه لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله

ولا تبغين على أحـد من المسلمين، فإنَّ الله تعالى يقول ﴿يا أيُّها الناس إنَّما بغيكم على أنفسكم﴾ (سـورة يونـس / ٢٣) ولا تغشن أحداً من المؤمنين، فقد بلغنا عن رسول الله (صلى الله عليـه وسلم) أنه قال: (من غش مؤمنـاً فقد برئ مـن المؤمنين) ولا تخدعن أحـداً من المؤمنين فيكـون نفاقاً في قلبك، ولاتحسدن ولاتغتابن فتذهب حسناتك، وقد كان بعضـ الفقهاء يتوضأ مـن الغيبة كما يتوضأ من الحدث، وأحسن سريرتك يحسن الله علانيتـك، وأصلـح فيمـا بينك وبين الله يصلح فيما بينـك وبين الناس، واعمل لآخرتك، يكفـك الله أمر دنياك، بع دنياك بآخرتـك تربحهما جميعـاً، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً، عليك بالصدق في المواطن كلها، وإيـاك والكذب والخيانة ومجالسة أصحابهـا، فإنَّها وزر كلها، وإياك والعجب، فإنَّ العمـل الصالح لا يرفع وفيه عجب، ولا تأخذن دينك إلا ممن هو مشفق على دينه، كمثل طبيب به داء، لا يستطيع أن يعالج داء نفسه، وينصح لنفسه، كيف يعالج داء الناس وينصح لهم ؟ فهذا الذي لا يشفق على دينه، كيف يشفق على دينك ؟ ويا أخي إنَّمـا دينك لحمك ودمك ؟ ابك على نفسك وارحمها، فإن أنت لم ترحمها لم ترحم، وليكن جليسك من يزهدك في الدنيا، ويرغبك في الآخرة، وإيَّاك ومجالسة أهل الدنيا يخوضون في حديث الدنيا، إنَّهم يفسدون عليك دينك وقلبـك، وأكثر ذكر المـوت، وأكثر الاستغفار مما قد سلف من ذنوبك، وسل الله السلامة مما بقي من عمرك، قم عليك يا أخي بأدب حسن، وخلق حسـن، ولا تخالفن الجماعة، فإنَّ الخير فيها .. إلى غير ذلك من الوصايا الثمينة التي تتخلع منها القلوب، وتدمع منها العيون، وتثبـت أنَّ الإمام الثـوري كان من الفصحاء البلغاء، الذين آتاهم الله الحكمة، قال تعالى: ﴿يؤتـي الحكمة من يشاء ومن يـؤت الحكمة فقد أوتي خـيراً كثيراً﴾ (سورة البقرة / ٢٦٩).

طرف من أقواله

• احذر سخـط الله في ثلاث، احذر أن تقصر فيما أمـرك، واحذر أن يراك، وأنت لا ترضـى بمـا قسم لـك، وأن تطلب شيئاً من الدنيا فـلا تجده أن تسخط على ربك

– الزهد زهدان: زهد فريضة وزهد نافلة، فالفرض أن تدع الفخر والكبر والعلو والرياء والسمعة والتزين للناس، وأمَّا زهد النافلة: فأن تدع ما أعطـاك الله من الحلال، فإذا تركت شيئاً من ذلك، صار فريضة عليك ألا تتركه إلا لله.

• لا تغبط أهل الشهوات بشهواتهم، وما يتقلبون فيه من النعمة، فإنَّ أمامهم يوماً تزل فيــه الأقدام، وترعد فيــه الأجسام، وتتغير فيــه الألوان، ويطول فيه القيام، ويشتد فيه الحســاب، وتتطاير فيه القلـوب حتى تبلغ

الحناجر، فيالها من ندامة على ما أصابوا من هذه الشهوات.

• اكسب حلالاً، واجلس مع من كسبه من حلال، وكل طعام من كسبه من حلال، وليكن أهل مشورتك من كسبه من حلال، فإنَّ الورع ملاك الدين.

• أحب أن يكون صاحب العلم في كفاية، فإن الآفات إليه أسرع، والألسنة إليه أسرع .

• البكاء عشرة أجزاء تسعة لغير الله، وواحد لله، فإذا جاء الذي لله في السنة مرة، فهو كثير.

• تعوذوا بالله من فتنة العابد الجاهل، والعالم الفاجر، فإنَّ فتنتهما فتنة لكل مفتون.

وفاته

قال الذهبي : عن عبد الرحمن بن مهدي قال: مرض سفيان بالبطن (داء يصيب البطن) فتوضأ تلك الليلة ستين مرة حتى إذا عاين الأمر، نزل عن فراشه، فوضع خده بالأرض، وقال يا عبد الرحمن ما أشد الموت ولما مات غمضته، وجاء الناس في جوف الليل وعلموا، قال الذهبي: والصحيح أنَّ موته في شعبان سنة إحدى وستين ومئة. مات أمير المؤمنين في الحديث، مات المحدث الفقيه الحجة الثبت، رحمك الله يا سفيان فكثيراً ما كنت تردد هذه الأبيات

نروح ونغدو لحاجاتنا
وحاجة من عاش لا تنقضي
تموت مع المرء حاجاته
وتبقى له حاجة ما بقي

وكثيراً ما كان يقول: لو أنَّ اليقين استقر في القلوب لطارت شوقاً، أو حزناً، إما شوقاً إلى الله عز وجل وإما فَرَقاً من النار . رحم الله سفيان الثوري وأجزل له المثوبة وتقبله الله في الصالحين.

المراجع

(١) سفيان الثوري - د. عبد الحليم محمود ص ١٩ - ٢١، بتصرف.
(٢) تاريخ الثقات للحافظ أحمد بن عبد الله بن صالح العجلي (ص ١٩٠).
(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٩ / ١٦٥).
(٤) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٩/ ١٦٣).
(٥) سفيان الثوري - د. عبد الحليم محمود (ص ٢٩ - ٣٠) بتصرف.

(٦) سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين الذهبي (٧ / ٢٣٤).

(٧) سفيان الثوري (ص ٧٠ - ٧٣) بتصرف.

(٨) أبــو نعيم في حلية الأولياء (٦ / ٣٧٨)، نشأة الفكــر الفلسفي في الإسلام للدكتور علي سامي النشار (٣ / ٢٤٢).

(٩) حلية الأولياء لأبي نعيم (٦ / ٣٨٢).

(١٠) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨ / ٥٠)، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (٣ / ٢٤٣) ط / دار المعارف.

(١١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٧ / ٦٤).

(١٢) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام للدكتور علي سامي النشار (٣ / ٢٤٤) ط / دار المعارف.

إريش فريد..
مفكر وشاعر ألماني أنصف الشعوب المقهورة ..

سامر مسعود ❁



«وعلمتني الحياة ألا أفهم شيئاً، وأنني لا أستطيع أن أتعلم منها شيئاً.. بيد أنه يجب عليّ أن أتعلم كل الأشياء من ذاتي ومن الموت!!». بهذه الكلمات يلخص المؤرخ والأديب والشاعر الألماني الفذ إريش فريد ERICH FRIED نظرته صوب الحياة والموت معترفاً باعتبار أنها ليست جديرة إلا بأولئك الذين وهبوا أعمارهم للمبادئ السامية.

وقد ولد «فريد» في فيينا عام ١٩٢١م. ولم يكد يبلغ السابعة عشرة من عمره حتى أخذ النازيون والده وسجنوه. وبعد أربعة

❁ ناقد ومترجم سوري.

أشهر من التعذيب والتنكيل أعادوه إلى بيته يائساً مدمراً. ولم يكد ذلك الرجل يدخل البيت ويضمّ ابنه وزوجته إلى صدره..حتى فارق الحياة. وبداهة لم تكن تلك اللحظة لحظة خاطفة في حياة «إريش فريد» وإنّما تركت لديه أثراً نفسياً صاحبه حتى وفاته ٢٢/١١/١٩٨٨م، فقد أحسّ بالظلم القاهر الذي زرع في أعماقه حقداً ضد النازيين وأشباههم الصهاينة.

وفي أعماقه استطاع «فريد» أن يصطحب أمه ويهرب إلى لندن ويعيش هناك ليلتحق بعد ذلك بمؤسسة (B.B.C) كمعلق، وفي عام ١٩٤٤م ينشر مجموعة من مؤلفاته التاريخية، وكذلك ديوان شعره «ألمانيا DEUTSCHLAND) وفيه ينادي بأعلى صوته بالثأر من النازيين. ونحن هنا لن نأتي على ذكر كتاباته وأبحاثه المتعلقة بالتاريخ، بل سنسلط الضوء على أشعاره فحسب. فقد نشر «فريد» طوال حياته اثنين وعشرين مجموعة شعرية، ونال الكثير من الجوائز مثل ميدالية OSSTEZKY عام ١٩٨٧م. وفي العام نفسه منح جائزة BUCHNER أيضاً. وقد توالت أعماله مثل «مئة قصيدة بلا وطن» عام ١٩٧٨م و«شعر الحب» عام ١٩٧٩م و«الوقت المناسب وغير المناسب» عام ١٩٨١م و «ظلال الحياة» عام ١٩٨١م و «البحث عن القريب» عام ١٩٨٢م و «التحرر من الهروب» و«القصائد والقصائد المضادة» عام ١٩٨٣م و «الخوف والعزاء» ١٩٨٤م و«هذا ما هو» عام ١٩٨٤م و«اسمعي يا إسرائيل» أواخر عام ١٩٨٤م و«الحيرة» عام ١٩٨٥ و«قصائد ضدّ النسيان» ١٩٨٦م و «نقوش منحوتة على الفكر» عام ١٩٨٦م و «قصائد قديمة» عام ١٩٨٧م وسواها من الدواوين.

وقد نشر في عام ١٩٦٥م روايته التي أسماها «الجندي والفتاة»، كما كان قد نشر في عام ١٩٦٦م، ديوانه الشهير «فيتنام و..» ، ونشر في عام ١٩٦٧م أوبرت «لابد أن يموت أردن» ARDEN MUST STERBEN.

ولم تكن حياة إريش فريد، منذ نشأته في فيينا، ثم في لندن، وأخيراً في ألمانيا، سوى حياة روح متعبة تبحث عن حرية الإنسان وقيمه وكرامته، وصوت معبر عن المضطهدين والمظلومين والمطحونين في كل مكان في العالم. إذ إنّه استطاع، ببراعة متميزة، أن يجعل من حروف قصائده منظومة للمضطهدين وسيلاً هادراً ضد الطغاة، مؤمنا أن العدل هو الأبقى حتى تبقى تلك الحياة مشرقة متألقة. ولذلك عبّر كثيراً عن المظلومين في تشيلي، وفيتنام، وجنوب أفريقيا، بل وعن الفلسطينيين العرب، الأمر الذي أزعج الصهيونية العالمية، مثلما أثار

حقد النازيين. بل إنَّ الصهاينة أعلنوا عن إهدار دمه.

وحتى موته عام ١٩٨٨م ظل فرايد نصيراً للحرية، بيد أنه بسبب إصابته، في سنواته الأخيرة، بمرض السرطان، انسحب ذلك على كل نتاجاته الفكرية والأدبية، خصوصاً قصائده التي امتزجت عباراتها بظلال الموت، حتى راحت تلك القصائد تذكرنا بشعر بدر شاكر السياب الذي كتبه في مستشفيات لندن والكويت، واحتواه ديوان «منزل الأقنان» كما تذكرنا بالشفافية والأحاسيس نفسها التي كان يكتب بها أمل دنقل، ديوانه الأخير «أوراق الغرفة» في حجرته بمستشفى معهد السرطان بالقاهرة.. لأنهم رأوا الموت ظلاً يطارد أرواحهم، يتوارى خلف الأقنعة التي سرعان ما تتمزق قناعاً بعد قناع، ليبدو بوجهه أمامهم حقيقة لا مناص منها .

ولم يكد ينشر ديوانه «اسمعي يا إسرائيل (HOREISRAEL)» عام ١٩٨٤م، منددًا بالوحشية الصهيونية ومجازرها، على نحو ما سنرى في قصائده لاحقاً، حتى اتهمته الحركة الصهيونية، والكيان الإسرائيلي، بالخيانة والعمالة للعرب، لدرجة أنَّه كان - حسب الأوساط السياسية في ألمانيا - على قائمة المطلوب تصفيتهم جسدياً. ولكنه لم يرتعب أو يتراجع، بل صرخ في وجوههم: «اغربوا يا أحفاد هتلر.. وكفاكم ما فعلتموه من قبل بالأنبياء». بل إنَّه في ديوانه «اسمعي يا إسرائيل «يقول في مفتتح مقدمته: «هذا الديوان صوت ضد الظلم الذي يقع على الفلسطينيين». ثم يختتم المقدمة بقوله: «إنَّ وقوفي مع الحق الفلسطيني لن يتبدل أبداً»، مذكراً اليهود، في قصائده وكتاباته، بما جرى لهم في أوروبة، وما يحاولون أن يفعلوه ضد الفلسطينيين ملوّحاً لهم أنَّ التاريخ لن يغفر لهم تلك الوحشية، ويحصي في قصيدته «قليل منكم» أفعالهم في دير ياسين، وكفر قاسم، وبحر البقر، ولبنان، وصبرا وشاتيلا، ثم يسخر منهم في نهاية القصيدة قائلاً: «وبعد ذلك تقولون الفلسطينيون إرهابيون.. أي إرهاب يعادله ما تفعلونه؟؟».

ولعل قصائد «فريد» ضد النازيين والصهاينة وأشباههم هي التي جعلته يحتل مكانة مرموقة في قلوب قرائه.. والمتأمل في قصائده يلمح فيها تمكنه من أدواته الفنية بشكل واضح. كما أنه كان يلجأ إلى تراص الكلمات في نص لغوي منسق كاشفاً في بعض معانيه عكس ما تظهره تلك الألفاظ. ونلاحظ أيضا أن الصورة الشعرية لم تكن من أدواته التي يبحث عن زخرفتها وإنما قد تأتي عَرضاً دون أن يسعى إليها. ومن الغريب أن هذا المفكر والشاعر المرموق لم

يحتل شهرته في العالم الغربي كما ينبغي أن يكون لأنه صوت يخشاه الصهاينة ويقلق مضاجعهم.. أليس هو الذي صرخ في وجه أمريكا وأوروبة: «كفى .. لا تساعدوا هؤلاء القتلة ؟».

وفي هذه العجالة اخترنا بعض قصائد هذا الشاعر الكبير التي تعبر عن مواقفه وقناعاته وعن مناداته بإقامة مملكة العدل على هذه الأرض:

اسمعي يا إسرائيل

أتحدث إليكم لست كغريب ولست كعدو
لكن أتحدث عن الكراهية التي اشتعلت ضدكم
القوى الظالمة لم تختف بعد هتلر
لم تختف من هذه الأرض
ماذا تفعلون ؟
أتسمحون أن يساعدهم الظلمة ؟

• • •

لهذا يجب عليّ أن أدخل المرارة في آذانكم
تلك التي ملئت بالأكاذيب
حتى ولو تأتي الكلمات مني
ذات مرارة ثقيلة
فإنكم لا تستطيعون أن تقولوا
هذا ما يقوله أعداؤنا !!

• • •

أنتم في أوروبة ذقتم الجحيم.. الجحيم
المطاردة والتهجير
موت الجوع البطيء
أنتم راقبتم جلاديكم
والآن تقلدونهم
في الترهيب والأعمال الوحشية القاسية
لكن ظلمكم كان كبيراً
لأنكم اغتصبتم أرضاً لستم ورثتها
هاأنتم أظلم المستعمرين
وما ذنب المستباحين الذين نهبتم أرضهم ؟
اغربوا .. اغربوا ..
من أعطى لكم المال والسلاح
سوف يفنى وينتهي
ولن يواصل حمايتكم دائماً

• • •

لن يكون التقهقر من السهل عليكم
إن غضب المظلومين سيعيش طويلا
والكثير منهم يتمنى لكم ما تمنيتموه لمعذبيكم..
عودوا.. عودوا..
من أعطاكم المال والسلاح
لن يحميكم إلى الأبد
لا يستخدمكم إلا كجنود ومرتزقة
في حرب ضد المستقبل..

أيــــن ؟؟

في أي مكان من العالم يوجد الحب
عند الأسود
عند الحمائم
عند الدلافين..

.. أحياناً عند البشر
يوجد عند بعض الناس في آخر حياتهم
في أماكن العمل،
أو في الرسائل،
أو في التلفزيون..
أين يوجد الحب ؟
عندي.. وعندك
في بكائي عندما أتذكر أحد الأموات
في ليلة أرق عندما أنتظر أن أراك..
وأن أبحث عن حب قريب جداً..
في صوتك
«الحب فيما يقوله الصوت»
في حركة رأسك..
وشفاهك وسيقانك أيضاً ؟؟

رسالتي في الحياة

ألهث خلف الظلم وأعدو
كم يشعر المرء بارتياح عميق
عندما يتناغم مع الحقيقة
وعندما أعرّج خلف الظلم
أستطيع أن أقول: «إنه يهرب مني»
وعندما يستدير الظلم للرجوع
أنادي واثقاً هذا لا يعني إلا الكرّ والفرّ
إلا أنني أعرف بالتأكيد:
أنني لن ألحق بالظلم أبداً..
لأنَّه لا يستطيع - كما آمل -
أن يلحق بي
ولكن لأنني أستطيع أن أشم رائحته
وأن أحتفظ بها في عيني دائماً
ربما أستطيع أن أكون قابعاً
فوق قبعته في الوقت المناسب
إضافة لهذا يأتي صوتي عالياً
ضد الظلم والقهر
وصوتي جدير بكل الأشياء القيمة
وسوف يبقى طويلاً،
وربما أبدياً
لهذا فإني أشكر الظلم قليلاً..
لأنه كيف كنت سأبدأ حياتي دونه
وكيف تكون بقية حياتي ؟..

فتنة التاريخ ومستقبل الماضي

للفيلسوف والباحث الإنكليزي ألدوس هكسلي

إعداد وترجمة: صلاح دهني ❁



في أيامنا هذه تصدر كتب من أصناف عديدة، تثير اهتمام القارئ والإعلامي الحصيف في كل مكان وكل موقع. بين الكتب التي تحظى بنجاح كبير، خصوصاً في أوروبة وأميركا، ما يتعلق منها بالتاريخ وكذلك بعلوم الآثار. هنالك فئات من القرّاء تستمتع بتلك الكتب أكثر من استمتاعها بقراءة رواية من جهة أنّها تعلم وتثقف، ومن منطلق يغالب منطق الأمور. إنّ الروايات ما لم تكن من تأليف كتّاب ماتوا ولم يعودوا من أهل هذا الزمان، فلا تعتبر من الثقافة في شيء، الثقافة الموثقة.

الثقافة كما حددها الفيلسوف إمانويل بيرل، تشبه مجموعة المعارف الخاصة المتكدسة

❁ أديب ومترجم ومخرج سينمائي سوري.

العمل الفني: الفنان حميدات الجاسم.

في ذاكرة أيما عائلة متحدة وبشكل ملكية لكل أفرادها. هذه المعارف والأحداث والذكريات تحفر في ذاكرة كل فرد وتشكل ضرباً من الثقافة من وجهة اجتماعية ومدنية. هناك أيضاً الثقافة المتأتية عن مجموع قراءات المرء ودراساته وبحوثه المختزنة في الذاكرة على مدى السنين. فالوجوه المضيئة في التاريخ كلها آباؤنا وأمهاتنا في الثقافة، فإذا كنت على مقدرة بالتحدث عن معرفة ودراية بأعمالهم وأقوالهم، فتلك إشارة إلى أنك جدير بالثقة كعارف ومثقف.

من قال إنّ قراءة التاريخ تلهي، وإنها قتّالة للوقت، لكن بفضل (الثقافة) التي تزوّد بها المرء، هي قتالة وقت جديرة بالثقة، مؤتمنة، مشروعة. والتفاخر بها مشروع، وإن كان يعتبر سُبّة لدى البعيدين عنها، خصوصاً لدى دهاقنة المال وأصحاب الصناعات الضخمة الذين لا يؤمنون إلا بآلهة الإنتاج وأرباب السوق. هؤلاء في مقدمة كارهي الأدب والفلسفة والعلم النقي والفنون.. كل النشاطات العقلية التي لا تنتمي إلى عالم المال والأعمال.

● ● ●

لنتفق جميعاً على أنّ التاريخ مهم.. مهم لأنه يُزجي الوقت بإمتاع، ولأنه يبرر هذا القتل بصفته ثقافة، ولأنه كذلك. وبالضبط يدور حول أولئك الناس الذين عاشوا قبل الآليات والماكينات، وتبدو تصرفاتهم في نظر عَبَدة الصناعة مضحكة ولا منطقية وتُجانب العقل.

إننا نقرأ قصص الماضي، لأنّ الماضي شديد الاختلاف عن الحاضر، يملؤنا إمتاعاً، مع علمنا أن جانباً لا يستهان به من التاريخ إنما كتب بلا تدقيق، إمّا عن غير تقصّد، أو عن متعة ذاتية.

الماضي والمستقبل يتعلقان بالحاضر. كل جيل يملك تاريخه الحاضر، وما يتوجب عليه من تفكير بالماضي، والمستقبل تقرره مشكلاته الخاصة والآتية. إنّه يلتفت نحو الماضي بحثاً عن درس، أو إئتناس، أو مبررات للتفاخر. وينظر نحو المستقبل ليجد فيه تعويضاً عن الحاضر.. وكذلك عن الماضي. لأنّ الماضي بذاته يمكن أن يمسي خيالا تعويضيا لايمتاز بشيء عن جنّات المستقبل الأرضية.. من عصر إلى عصر يستعاد خلق الماضي.

المستقبل منوّع بقدر تنوع الماضي.. والعالم القادم بقطبه ذات حين، سياسيون.. وفي حين آخر عمال أكفاء وفنانون.. وفي مرحلة أهل مصالح عقلانيون، وفي مرحلة رجال فائقو القدرة، أو بشر ضعفاء، بروليتاريون. كل جيل يدفع ما عليه.. ويقرر ما يختار.

حيثما كان، حيثما كان، المهم أن نهرب من الدنيا. وننجز خروجنا، إلى الأمام أو إلى الوراء، بآلة البحث عن الزمن. هل ترانا نحقق خروجنا بالطريقة ذاتها بما لدينا من آلات استكشاف الزمان؟ وبكلمات أخرى، ما سيكون المستقبل المحتمل للماضي؟ ومستقبل المستقبل؟ لا معدى عن دراسة لما كان عليه الماضي وما آل إليه

لنتمكن من محاولة تقديم إجابة قد تمثل بعض المعقولية.

على مدى خمسة أو ستة قرون سبقت عام ١٨٠٠، كان الماضي هو تخصيصاً روما وأثينا، وفلسطين. الماضي العبري ظل ثابتاً، نسبياً، على مدى تلك الفترة المديدة، باعتباره كان مرتبطاً بالكتب المقدسة لديانة قائمة. كيف كان يمكنه أن يتغير؟

من جهته كان الماضي الإغريقي. الروماني أقل ثباتاً. في آخر حقبة من القرون الوسطى كان الإغريق والرومان أهل علم قبل كل شيء. ومع انبثاق عصر النهضة ظهر ذاك الإعجاب الأخاذ بالفن وبالأدب الكلاسيكي، الذي استمر حتى منتصف القرن التاسع عشر، فعلى مدى ثلاثمئة سنة، كان الإغريق والرومان وحدهم النحاتين والمعماريين، وحدهم الشعراء، مؤلفي الدراما، الفلاسفة والمؤرخين.

كانت اليونان وروما، في عرف أهل القرن الثامن عشر، تمثلان إمبراطوريتي العقل، تختلفان عن دنيا الحقيقة كلياً، حيث كانت للأفكار المسبقة والخرافات المكانة الأرفع. استخدموا النماذج الكلاسيكية كروافع ليهزموا الكهنة والملوك وليقلبوا رأساً على عقب الأخلاقيات السائدة. ولم يكتفوا باليونان وروما وحدهما. ففي ذلك الزمن تم إبراز الصين لأول مرة كمثال للعذوبة والعقل، بغرض إخزاء جنون الغرب الغارق في غياهب الجمال.

آخر سني القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر كانت مرحلة تغيير سريع وعنيف، تمت فيها إعادة تكييف الماضي بالحاضر. فيها بات لليونان وروما موروث بمعان جديدة. فرجال الثورة الفرنسية كان ذاك الموروث يمثل لهم تحقيق الجمهورية وسحق الطغيان والتسلط، ولدى نابليون كانت اليونان الإسكندر، وروما جوستينيان. وخلال ذلك تركز ألمانيا انتباهها بنحو رئيسي على اليونان التي كانت تعني لدى غوته وشيللر، عالم فن ودنيا يحيا فيها الناس حياة إفرادية، ذاتية، كان من الصعوبة بمكان أن يكون المرء مواطناً وإنساناً. فعلى من يريد أن يصبح مواطناً صالحاً في مجتمع حديث، أن يضحي ببعض من أهم قناعاته الإنسانية قيمة وأرفعها مقاماً. معادُ ذلك كله إلى أنه تبادر لكبار مثقفي ألمانيا آنذاك أنهم اكتشفوا بين الإغريق الإنسان الفردي المتطور في تناغم وتكامل.

رغم ذلك ظل العصر الوسيط فائق الحيوية. إذ أوحى بعدة مثاليات سياسية. اقتصادية معاصرة، إحداها الصيغة الفاشية للاشتراكية التشاركية، التي استحالت إلى سياسة عملية تم تطبيقها. هذا الماضي الوسيط تمناه أعداء الرأسمالية، وأعداء الديمقراطية، وأعداء الدولة الصناعية المتضخمة، وجميع الأعداء الفنيين للإنتاج عن طريق السلسلة، والكاثوليك، والاشتراكيون، والملكيون بلا تمييز.

لكن العصر الوسيط ما كان أبداً ذاك الذي

نوليه اهتمامنا كمحقق لرغباتنا. فهكذا أوجد فلاسفة اللاهوت الهنود ماضياً روحانياً رائعاً كتعويض مثالي للحاضر الغربي، البعيد جداً عن الروحانية. وهذه المكتشفات من الروائع الآثارية فتحت منظوراً ظافراً لتصورات جديدة، مستترة في ماض أبعد.

● ● ●

هذا ما يمكن ذكره عن الماضي وعن حاضر الماضي، فما القول في مستقبل الماضي؟

واضح حقاً أنّ القضايا الأساسية أمام جيلنا سوف تستمر كقضايا أساسية لدى الجيلين أو الثلاثة القادمة التي ستلي جيلنا. فالمصاعب الصناعية والسياسية والاجتماعية تقارب بالحتم. بلوغ حل، ولا يمكن حلها في مستقبل قريب، حسب طبيعة الأمور. فالمستقبل الآني للماضي سوف يشبه إذن. وحسب كل الاحتمالات. حاضره. وكلما ازدادت المشاعر اللادينية البروليتارية، ازدادت بالتبعية روحانية الشرق القديم.

إذا ما تابع المجتمع تطوره حسب نهجه الحالي، فسيزداد التخصص بالضرورة. وسوف يعتبر البشر، أكثر فأكثر، لا كأفراد، بل كوظائف اجتماعية محددة الشخصانية. سينجم عند ذلك اهتمام متزايد في اتجاه كل شخصية تاريخية يمكن أن تكون عاشت حياة مليئة ومنسجمة كأفراد لا كدولاب دائر في ماكينة صناعية. حتى هؤلاء لن يفوا بالغرض، ضمن هذا العصر القادم، عصر التخصص المتزايد، والروتين الخالي، أكثر فأكثر، من أي معنى. فمع كل تقدم للحضارة الصناعية، يزداد تقدير الماضي، وقد يتوقع المرء انتشاراً متوسعاً للتشدد في العقائد بين حلقات ممن يبلغون حد العزلة في عباداتهم سيزداد توسعاً مع الأيام.

هناك كلمة شهيرة للقديس (توما) يقول فيها: «لا يتوجب بالحتم توجيه اللعنة لكل الراقصات». وثمة وجهات نظر كثيرة أخرى مما خلّفه الماضي سوف تغيب حتماً بقدر امتداد معلوماتنا. وسوف نرى أن الجنة الأرضية ستتراجع باستمرار بعيداً في عمق العصور المجهولة لما قبل التاريخ.

إنَّ التنبؤ بحال ما قادمة يتبع الحاضر أكثر من الماضي. وأيما رجل يعيش في عصر البنزين يمكنه بسهولة أن يتصور في ذهنه حياة رجل حي في عصر الحصان، لكننا لا يسعنا أن نطلب من إنسان عصر الحصان أن يتخيل شكل حياة رجل من عصر البنزين. قد يمكن للعربات أن تخلي مكانها للطائرات، لكن الإنسان يظل. في مجمله. ما كان. قد يحمل غرائز لا اجتماعية غير أنه مهما كان ما يتوافر له من أدوات، ومهما أمكنه السفر بتمهل أو بسرعة، فلا معدى له عن دولة تديره ونظام يقوده.

مهما كان المرء أريباً بحّاثةً قد لا يقدر على توصيف كامل للماضي التاريخي للمستقبل، يكفيه لهذا المسعى أن يقدم وصفاً موجزاً لصورة مستقبل من عاشوا قبل مئة أو مئتي سنة.

● ● ●

المستقبـل في عرف الأجداد كما هو بالنسبة لنـا لا يحمل أكثر من صفـة تعويضية. كان أبداً يستدعي عوالم جديدة للحكم على نتائج الماضي. كان يصحح مواجع الحاضر بالاحتكام للتنبؤات. في ذلك الزمان لم تكن الديمقراطية إطلاقاً مجرد وسخ قديم مهمل ودمية زانية كما هي الآن. كانت فتية وجذابة. وما تتعلق به من كلمات كان يكفي للإقناع. حين كانت تتكلم عن المساواة في الميلاد وكمـال القدرة لـدى المخلوقـات البشرية، كان الجميع يصدق. الرذيلة والغباء كانا ثمرة الجهل والدولة المستبدة. فلو تمّ التخلي عن الكهنة وعن الملوك. في عرف من سبقونا. لأمست الدنيا جنة، ولصـار كل مخلوق بشري قديسـاً أو عبقرياً، أو على الأقل، فيلسوفاً طوعياً.

إننـا نملك تجربـة الديمقراطيـة وطرائق إدارتها.. رأينا ثمار التعليم العام. وها نحن بلغنا مرحلة الشـك بما كان أجدادنـا يتصورونه من مقدمات يبنون عليها استدلالاتهم التنبوية.

فالسيكولوجيا وعلم الوراثة قدما نتائج تؤكد وتثبت الشكوك التي أوحت بها التجربة العملية. لاحظنـا أننا في سبيـل أن نجعل من أنفسنا ما نحن عليـه، وجدنا أن دور الطبيعة أدنى مما افترضه أوائل الإنسانويّين.

يملك أنبياء هذا الزمان رؤى حول مجتمعات قابلـة تتأسس على فكرة اللامساواة الطبيعية لا على المساواة الطبيعيـة. ويفكرون بإعادة تكوين التراتبيـات القديمـة على أسس جديـدة وأكثر واقعية. يتصورون أريستوقراطية حاكمة وجنساً بشريـاً متحسنـاً ببـطء، لا عن سبيـل قدر من إصلاحات الوسط التربوي، القضائي، الفيزيائي (التـي لا تملك القدرة، مهمـا كانت فاعلة على زيادة السعادة الحالية، وتعديل نوعية العرق)، بل عن تطوير علم تحسين النسل بنحو مقصود.

• • •

ذاك هـو مستقبلنا الحالي. وجديـر بنا أن نفترض أن مستقبل نسلنـا الآني القادم سوف يكون من ذات نوعية ما نحن عليه، مع تعديلات في تفاصيله. يمكننا على سبيل المثال، أن نتصور أبناءنا يواجهون نظاماً جديداً منغلقاً على الذات، يستند على الاختلافـات في الكفاءات الوراثية، مصحوبة بنظام تعليمي مكيافيلي انتهازي مقدّر للحد من تعليم أفراد الأجناس الأدنى، بما يرتد بالفائـدة علـى المجتمع عامة، وعلـى الطبقات الأرفع خاصة. وقد يسع أبناء أبنائهم أن يصبحوا قادريـن على تصـور مستقبل يكـذّب فيه علم تحسين النسل تنبؤاته، عن طريق نسخ الطبقات الدنيا من الوجود بنحو مطلق.

ما الذي سوف يحدث عنـد ذاك؟ الحق أنّ المستقبل الأبعد للمستقبـل جدّ بعيد فلا يسعنا الإفادة من بحثه ومداولته.

الشريعة الإسلامية في القانون المقارن

منيب هائل اليوسفي *

منذ بداية القرن العشرين بدأ علم القانون يتخذ طريقاً جديداً نحو العالمية والشمول، شأنه في ذلك شأن سائر العلوم الأخرى، فبينما نجد أنَّ الطب والهندسة وعلوم الفيزياء والكيمياء وغيرها من العلوم الإنسانية تصطبغ بصبغة عالمية ويجد العلماء من مختلف الدول لغة مشتركة للحديث عندما يلتقون في مؤتمراتهم، فإننا نجد أنَّ علم القانون كان إلى عهد قريب يتسم بالانطواء بسبب إفراط رجال القانون. النظر إلى القانون على أنَّه تعبير عن القومية، وأنَّ امتداد أي قانون أجنبي أو الاعتراف به يعتبر اعتداء على السيادة القومية وانتهاكاً لمبدأ إقليمية القانون، أي مبدأ سيطرة الدولة بقوانينها الخاصة على كافة أقاليمها ومن يعيشون تحت ظلها. ومن ثم افتقد رجال القانون وعلماؤه تلك اللغة المشتركة التي يتحدث بها سائر العلماء في شتى فروع المعرفة الإنسانية.

وقد كان نتيجة تقدم سبل الاتصال بين الدول في مجتمعنا الحديث، أن تعددت العلاقات والروابط الإنسانية والمادية بين الأفراد، وما يستتبع ذلك من

* محام وكاتب وباحث في الشؤون القانونية.

وجود نزاعات بينهم لا بد وأن يفصل فيها القضاء، وهناك العديد من الحالات التي ينبغي فيها على القاضي أن يرجع إلى القوانين الأجنبية التي يجب تطبيقها على المتنازعين الأجانب إضافة إلى نمو التجارة الدولية، وتمتع بعض ثروات الأفراد بالصفة الدولية، حين يتجاوز نطاق استثمارهم لثرواتهم نطاق بلادهم إلى بلاد أجنبية أخرى، وما إلى ذلك من أسباب متنوعة كانت سبباً في نشوء الحاجة إلى معرفة ودراسة القوانين الأجنبية دراسة وافية للتعرف عليها أو للأخذ عنها أو للاستئناس بها.

ويمثل علم القانون المقارن في عصرنا أحد الاتجاهات البارزة في ميدان الدراسات القانونية وقد بدأ هذا العلم يحتل مكاناً هاماً في مناهج كليات الحقوق في الجامعات المختلفة إلى جانب العديد من الجمعيات العلمية التي تخصصت في الدراسات التي تتعلق به والتي تقوم إلى جانب تلك الدراسات بإصدار المجلات والدوريات المتخصصة في القانون المقارن بمختلف اللغات، كما أنَّ هيئة اليونسكو كانت قد أنشأت في عام ١٩٤٩م ما يسمى بـ(اللجنة الدولية للقانون المقارن) لهذا الغرض.

إذن، ما هو المقصود بعلم القانون المقارن؟ وكيف نشأ؟ وفي أي فرع من فروع المعرفة القانونية يكون موقعه..؟ وما هي غاية الحديث عنه ولاسيما في هذه العجالة..؟

يحدثنا التاريخ أنَّ الإنسان في المجتمعات القديمة كثيراً ما لجأ إلى الدراسات المقارنة في مختلف ميادين المعرفة الإنسانية، بما في ذلك ميدان القانون، وإنَّ تلك الدراسات المقارنة التي كانت تهدف إلى التعرف على ما وصلت إليه الجماعات الأخرى من تقدم إنَّما تقوم في الواقع على ما فطر عليه الإنسان من غريزة المحاكاة والتقليد.

وبالنسبة إلى القانون، يروي علماؤه أنَّ العامة في مدينة روما القديمة عندما ثاروا وطالبوا بتدوين القوانين منعاً لتحكم الأشراف، أرسلت بعثة إلى بلاد الإغريق في رأي البعض أو إلى بعض المستعمرات الإغريقية في رأي فريق آخر، لتقوم بدراسة القوانين اليونانية خاصة قانون صولون (SOLON) الذي وضع في أثينا عام ٦٠٠ق.م وعندما عادت هذه البعثة بعد أن أتمت مهمتها شكلت لجنة لوضع القانون المطلوب، ومن ثم وضع القانون الشهير

والمعروف في تاريخ القانون الروماني باسم قانون الألواح الاثنى عشر.

وعلى إثر تفتت الإمبراطورية الرومانية وتعدد الولايات والإمارات والممالك في أوروبة، كان هناك نوع من دراسات القانون المقارن دعت إليها الحاجة للتعرف على أحكام القوانين الأجنبية عند نشوء نزاع يتطلب الفصل فيه الرجوع إلى تلك القوانين، وعلى الرغم من أنَّ العالم الفرنسي مونتسكييه قد نبّه الأذهان في كتابه (روح التشريع) الذي نشر عام ١٧٤٨م إلى أنَّ النظم القانونية المختلفة لا يمكن فهمها أو تفسيرها إلا في ضوء التاريخ الخاص بكل جماعة، ووجوب دراسة الظروف الجغرافية والطبيعية والاقتصادية والاجتماعية التي تؤدي إلى نشوء قواعد قانونية بعينها في بيئة من دون أخرى، إلا أنَّ هذه الأفكار لم تكن من القوة بحيث تدفع الباحثين إلى الاهتمام بهذا النوع من الدراسات وقد تعددت المحاولات الفردية بعد ذلك في ميدان القانون المقارن، إلا أنَّ العامل الحاسم الذي جعل هذه الدراسات تتبوأ مكانها الجدير بها هو إدراك الفقهاء في مختلف البلاد أنَّ المبالغة في العزلة القانونية وسياسة إغلاق الأبواب أمام القوانين الأجنبية تحت تأثير الحساسية القومية ليس أمراً حكيماً، وأنَّ هناك العديد من الفوائد التي يمكن أن تكون ثمرة معرفة القوانين الأجنبية ودراستها والتعرف على الاتجاهات الحديثة فيها، فبدأ اهتمام الدوائر الدولية بهذه الدراسات وعقد في آذار سنة ١٩٠٠م أوَّل مؤتمر للقانون المقارن، ونتيجة للأبحاث القيمة التي طرحت في هذا المؤتمر، ظهر إلى الوجود علم جديد هو علم القانون المقارن، وحسبما هو معروف عن رجال القانون في كل زمان ومكان، مالبث أن دبَّ الخلاف بينهم حول الاسم أو التعريف ثم مالبث أن امتد إلى الخصائص والمميزات أو السمات العامة والخاصة، ففريق من العلماء يرى أنَّ القانون المقارن إنما هو علم مستقل يتميز عن سواه من علوم القانون، وفريق آخر يرى أنَّ القانون المقارن ليس سوى طريقة أو منهج من مناهج البحث يمكن أن نلجأ إليها لتحقيق أهداف شتى، كما تعددت الأسماء التي أطلقت عليه من قانون مقارن إلى مقارنة القوانين، أو التشريع المقارن وما إلى ذلك من مصطلحات وأسماء ما أنزل الله بها من سلطان.

إلا أنَّ اسم القانون المقارن ظل له الغلبة على تلك الأسماء جميعاً، وما زال

هو الاسم الذي يكاد يجمع علماء القانون على استعماله في مؤلفاتهم.

ومن الثابت أنَّ الفقهاء المسلمين قد عرفوا هذا الفرع من الدراسات القانونية في وقت مبكر وفي التراث الفقهي الإسلامي العديد من المؤلفات التي ابتغى واضعوها المقارنة بين المذاهب المختلفة في الشريعة الإسلامية، ومن أقدم الآثار الفقهية في هذا الميدان كتاب (اختلاف الفقهاء) للطبري المتوفى عام ٣١٠ هجرية ويطلق علماء الفقه الإسلامي على هذه الدراسات اسم (علم الخلافيات) إلا أنَّ الدراسة عند فقهاء الشريعة مقصورة على المقارنة بين جزئيات المسائل في المذاهب المختلفة، ولم تمتد الدراسات المقارنة عندهم إلى تناول الأصول أو القواعد الأساسية للمذاهب، ويرجع ذلك إلى ما تتصف به الشريعة الإسلامية من نزعة عملية ولقيامها على صورة فروع وإن كان ذلك لا يحول دون إمكان المقارنة بين أصول الفقه في المذهب الحنفي على سبيل المثال، وأصول الفقه في المذهب الشافعي على الأساس العلمي الحديث.

ولعلَّ أكبر أهداف علم القانون المقارن التي يرمي إلى تحقيقها هدف في غاية الطموح ألا وهو توحيد القوانين، وتوحيد القوانين في العالم أجمع هو حلم تطلع إليه فلاسفة الفكر، وهو أمر تقصر دونه الآمال ولكن علم القانون المقارن يهدف من الوجهة العملية إلى تحقيق غاية أقل تواضعاً، و هي توحيد القانون بين النظم المتقاربة والمتشابهة والتي تجمع بينها العناصر الدافعة إلى تحقيق هذا التوحيد والكفيلة بتحقيقه كوحدة الظروف الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية والتاريخ المشترك والتقاليد الواحدة وغير ذلك من العناصر.

وتوحيد القانون قد يأخذ صورتين: فقد يحدث أن يوجد في الدولة الواحدة عدة قوانين متنافرة تتنازع السيطرة على أقاليم الدولة المختلفة، فنجد أنَّ الجنوب تسوده قوانين وأعراف مختلفة تماماً عمَّا يسود الشمال وقد كان ذلك قائماً بالفعل داخل فرنسا قبل قانون نابليون الذي صدر عام ١٨٠٤م كما كان ذلك سائداً في سويسرا وكان قانون نابليون يقوم في الواقع على أساس تجميع القوانين والأعراف السائدة في مختلف أنحاء الدولة، وفي مثل هذه الصورة تكون الحاجة ماسة إلى توحيد القانون بين أقاليم الدولة الواحدة.

والصورة الثانية لتوحيد القانون، هي العمل على توحيده بين دولتين فأكثر، وقد

يتم التوحيد بسبب الغزو واجتياح أراضي دولة بالقوة وفرض قانون الدولة الغازية على الدولة المحتلة، كما يتم أيضاً في غير حالة الغزو وذلك بنقل قانون دولة أجنبية رضاء للاقتداء به وتطبيقه بعد تحويره أو إدخال تعديلات عليه ليتفق مع ظروف الدولة الناقلة، وعادة يكون ذلك في بعض فروع القانون فلا يمتد النقل أو الاقتباس إلى البناء القانوني كله، وإن كان المثال الفريد لنقل البناء القانوني بأكمله من دولة أجنبية رضاء قد حدث في تركيا حين عمد مصطفى كمال أتاتورك إلى نبذ الشريعة الإسلامية كبناء قانوني في تركيا ونقل القانون المدني السويسري بصورة كاملة ومن دون أدنى تعديل ليتم تطبيقه على البلاد، حيث ما زالت الآثار التي نجمت عن ذلك الاقتباس الكامل لقانون أجنبي موضع دراسات وأبحاث رجال القانون المقارن.

على أنّ توحيد النظم القانونية بين دولتين فأكثر هو اتجاه طبيعي بين الدول المرتبطة بوحدة الأصل والتقاليد والمشاعر والتاريخ المشترك والأهداف الموحدة. ولكن قد تأخذ حركة التوحيد القانوني اتجاهاً عالمياً، وإن كان الغالب والمألوف أن يتم ذلك التوحيد جزئياً في موضوع بعينه أو مسألة بذاتها كما هو مشاهد في موضوعات النقل الجوي والبحري، ولعلَّ ميدان التشريع الجوي بالذات هو أكثر الميادين صلاحية للتوحيد بين مختلف الدول، ذلك لأنَّ الحدود السياسية لا تعتبر عقبات أو حوائل بالنسبة للطائرات، خاصة بعد التطور في صناعتها أو كلما ظهرت إلى الوجود أنواع حديثة تخترق حاجز الصوت وتستخدم في الطيران التجاري، ويتجاوز التوحيد في القانون المسائل الجزئية إلى ميدان أرحب وأوسع هو التوحيد بين النظام القانوني بأكمله بين دولتين كما حدث بين فرنسا وإيطاليا وما تحقق فعلاً من وحدة التشريع بين الدول الإسكندنافية التي امتدت فشملت فنلندا أيضاً، ولستُ بحاجة إلى القول بأن ميدان توحيد القانون يجد ميدانه الرحيب في الدول العربية والتي كانت أصلاً تخضع لقانون واحد.

فقد كانت الشريعة الإسلامية هي القانون السائد بالنسبة للدول العربية كافة التي انتشر فيها الإسلام وكانت تحكم العلاقات القانونية فيما بين الأفراد أو في ما بينهم وبين الدول سواء في عهد الدولتين الأموية والعباسية أو بعد النزعات الاستقلالية أو تعدد

الخلفاء، ففي كل تلك العصور لم تعرف الدول العربية والإسلامية سوى الشريعة الإسلامية قانوناً.

وعندما أخذ الانحلال يدبّ في أوصال الدولة العثمانية، بدأت القوانين الأجنبية تتسرب إلى الدول العربية، وراحت الشريعة الإسلامية تتراجع وينحصر نطاق تطبيقها، ولم يعد لها من سلطان في بعض الدول العربية إلا في شؤون الأحوال الشخصية، وبذلك تقاسمت الشرائع الأجنبية الكبرى الدول العربية، فنجد أنَّ الشريعة اللاتينية تطبق في ميدان المعاملات في مصر وتونس والجزائر والمغرب وسورية ولبنان، بينما أنَّ الشريعة الأنكلوسكسونية هي التي تسود في البلاد التي خضعت للنفوذ البريطاني كالعراق والأردن وفلسطين والسودان وجنوب اليمن، وإن ظلت الشريعة الإسلامية مكانها بطبيعة الحال في ميدان الأحوال الشخصية.

ويثور الجدل بين المفكرين العرب حول الشريعة الإسلامية ومدى إمكان تطبيقها في المجتمعات الحديثة، فمن متحمس إلى تطبيقها فوراً ومن دون إمهال إلى مطالب بالتأني والتريث، إلى ثالث يرى أنَّ الشريعة قد أصابها بتقادم الزمن الجمود وأنَّها لا تصلح أن تساير مقتضيات التطور والتقدم في العصر الحديث، ولا مراء في أنَّ القائلين بهذا الرأي الأخير لم تتح لهم الفرصة لإدراك مقدار الثروة التي يحتويها تراثنا في الفقه الإسلامي والفكر القانوني الإسلامي، ولاشك أنه إذا اتجهت الجهود الجادة إلى دراسة الشريعة الإسلامية دراسة مقارنة بين مذاهبها ومدارسها المختلفة ومقارنتها بالشرائع الأجنبية فإن تلك الدراسة سوف تؤدي إلى نتائج لا تخطر على البال بالنسبة للمؤيدين والمعارضين على حد سواء، ذلك لأنَّ قواعد الشريعة الإسلامية قابلة للنمو والتطور وإنَّ القول بأنَّها قد أصابها الجمود والعقم قول لا تدحضه حقائق التاريخ فحسب بل أيضاً دحضته آراء علماء القانون في الغرب أيضاً وإلى أولئك الذين لايقتنعون إلا بأقوال العلماء الأجانب، نسوق إليهم ما قررته المجامع والمؤتمرات القانونية الدولية في هذا الشأن، فقد جاء في قرار مؤتمر القانون المقارن المنعقد في لاهاي عام ١٩٣٧م أي قبل ستة وسبعين عاماً ما يلي:

أولاً: اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع العام.

ثانياً: إنَّها شريعة قائمة بذاتها ليست مأخوذة عن غيرها.

ثالثاً: إنَّها شريعة حية قابلة للتطور.

كما جـاء أيضاً في تقرير أسبوع الفقه الإسلامي الـذي انعقد في جامعة باريس عـام ١٩٥١م مايلي: ظهر مـن الأبحاث التي عرضـت في أثناء انعقاد المؤتمر وما أثارتـه من مناقشات أنَّ مبـادئ التشريع الإسلامي لها قيمة غير قابلة للجدل وأن اختلاف المذاهب الفقهية في هذا التشريع ينطوي على ثروة مـن الأفكار القانونية، وصياغة تثير الإعجـاب وهي أمور تمكن هذا التشريع من الاستجابة لجميع مطالب الحياة الحديثة.

ثقافة الناقد المعاصر.. المصادر والمساقات

د. إبراهيم الصعبي ٭

لعل أهم شكاة تطول الناقد المعاصر، إمّا أحادية المنظور، وانغلاق البصر عليه، وإمّا انبهار مرذول بصوت وافد، ربما لا أثر له من حيث انطلق، ولكن الناقد – هنا – يصر عليه ويراه «الصوت» و «الصدى»... وإمّا افتتان بمناخ ثقافي عايشه – الناقد – فترة تعلمه، فصار عنده رأياً وعقيدة. وإمّا اقتسار رديء لمتجه فكري معين وتحكيمه تعسفاً على كل عمل أدبي. ومن هنا كان تغيّم الرؤية. وتشتت الاتجاه مادام الناقد مستلباً في إسار سواه، أو مغيَّباً في ذات غيره. وحتى لا يطول سفر الكلام، نكتفي باشارات نبدؤها من جيل النقاد الكبار، ونتبعهم بجيل تال، مازال يمارس حرفته، ولكنه يظل أيضاً مستلباً في المأزق نفسه.

بدءاً من «طه حسين» كان الانبهار بالمناخ الثقافي – في فترة دراسته في فرنسا – ولعلنا نتذكر القرن التاسع عشر، حيث تفترش «النزعة العلمية» مساحة النقد في فرنسا وموجزها أن مختلف مجالات الإبداع الأدبي إنّما هي نتاج العلل الاجتماعية، وأثر من جبرية المؤثرات التاريخية. ففي فرنسا حيث كان «دور كهايم» يرد الفرد على مجتمعه ويراه ظاهرة اجتماعية أساساً. و «أرنست رينان»

٭ أديب وناقد.

يرى التاريخ قصيدة لا يتغير رويها، وحيث كان أبو العلاء المعري «الجبري» ينتظر طه حسين على موعد مع «الجبرية الاجتماعية»، فإذا بطه حسين ينتقل مع الثلاثة، وربما مع آخرين إلى فلسفة الجبر، فرأى أن الاجتماعية لا دخل فيها للأفراد، وإنَّما تعود إلى ما هو خارج إرادتهم، إلى طبيعتها نفسها، وهم بالتالي يعودون متشابهين ومختلفين إلى هذه الطبيعة، ومن ثم يرى «أن الحركة التاريخية جبرية ليس للاختيار فيها مكان»[1]. وتكون العلل والأسباب هي بحث الناظر في الحياة الاجتماعية، التي في رأيه «إنما تأخذ أشكالها وتنزل منزلتها المتباينة بتأثير العلل والأسباب التي لا يملكها الإنسان ولا يستطيع لها دفعاً ولا اكتساباً»[2]. ويصل الأمر إلى أن يصبح «كل أثر مادي أو معنوي ظاهرة اجتماعية أو كونية ينبغي أن ترد إلى أصولها وتعاد على مصادرها، وأن تستقى من ينابيعها، وتستخرج من مناجمها، وهي جماعة العلل التي أشرنا إليها آنفاً»[3].

إنَّ تطابقاً ما بين دور كهايم وطه حسين يبدأ في الظهور القوي، ويندمج صوت طه حسين بصوت أستاذه في قول الأول: «إنَّ الفرد نفسه ظاهرة اجتماعية»، ويفسر ذلك قائلاً: «فهو لم يأت من لا شيء وإنّما جاء من أسرته أولا، ولم يكن يرى النور حتى تلقته الحياة الاجتماعية فصورته في صورتها، وصاغته على مثالها، وأخضعته لمؤثراتها التي لا تحصى»[4]. هذا التحمس الشديد الذي طرأ على رأي طه حسين في علاقة الفرد بمجتمعه وجد متنفسه في دراسته لأبي العلاء المعري، وأبو العلاء شخصية أدبية يتساوق مع فكرها مبدأ «الجبر»، ومن هنا تناغمت قناعة طه حسين، في دراسته، ورؤية الشخصية المدروسة. غير أنَّ الأمر يصبح محلاً للنظر، ذلك أن تعميمه من أبي العلاء على الأدب كله يصبح مستحيلاً، فالأدب في سياقه التاريخي دائب الحركة رقياً وازدهاراً، أو تخلفاً وجموداً.

فيرى طه حسين أنَّ الشاعر أو الكاتب لايستمد أدبه من شخصه وحده، وإنَّما يستمد أكثر فنه أو أكثر شخصيته من أشياء أخرى ليس له فيها حيلة، وليس لطبيعة مزاجه وفرديته فيها كل ما نظن من التأثير. وإذا كانت تلك صورة الأدب، فعلى الأدب - إذاً - أن يكون «مرآة «تصور أو تعكس، فلا يكون الأدب أدباً حتى يصور حياة الناس، وليس في الأرض أدب إلا وهو يصور نوعا من أنواع حياتها ولونا من ألوان شعورها وذوقها وتفكيرها، وانعكاس صورة الحياة في نفوسها[5]. ولا حاجة للإشارة إلى مزالق معروفة - بسبب هذا المنهج - في كتابات أخرى به مشهورة ذائعة. ويشحب - مع الزمن - ذلك الافتتان القديم، ويضعف

أسر أساتذته القدامى، ولنقارن – إضافة إلى ما سبق – بين نصين مختلفين يدلان على التحول والتبديل :

١ – يجب ألا نتقيد بشيء، ولا نذعن لشيء إلا لمناهج البحث العلمي الصحيح[٦].

٢ – فخذ الأدب كما تأخذ الموسيقى، خذه على أنه متعة لروحك وغذاء لقلبك، وليكن جمال الأدب في الألفاظ أو المعاني أو الأسلوب[٧].

«فليس يعنيني من الأدب إلا أن يحدث في نفسي ما يحدثه الأثر الفني من هذا الشعور الرفيع بالجمال». وما أشبه الليلة بالبارحة، فقد انقضى زمن وانقضت معه تلك النزعة العلمية الصادقة لدراسة الأدب، وها هو ذا «مندور» – هذه المرة – في فرنسا أيضا ولكن الثقافة الآن يموج بتيار جديد، فقد أفل نجم المنهج العلمي، واحتشدت الساحة بمنهج آخر يقوم على تفسير النصوص، وبيان جيدها من رديئها. ويتحمس له «مندور» – ولنتذكر تحمس طه حسين السابق للمنهج العلمي – ولنتذكر كذلك أن كتابه «النقد المنهجي عند العرب» يرتكز على الناقدين المعروفين «الآمدي» و«الجرجاني»، وكلاهما – كما نعلم – يعتمد في منهجه على الذوق الشخصي والدربة والخبرة، وثمة تطابق بين الناقدين، وبين ما تعلمه «مندور» وما تحمس له، ولنلحظ الملحق الذي ذيَّل به «مندور» كتابه عن منهج «لانسون» في دراسة الأدب واللغة، مع أنَّ هذا الملحق يكاد يكون مستقلا عن كتابه، ولكنه التأثر بتلك الفترة – أيضا – والتي أنهى بها «لانسون» دراسته عن الأدب الفرنسي، وربطه – في دراسته – بين الأدب والدراسات اللغوية مما يرتبط بوشيجة ما مع منهج «تفسير النصوص».

ومن اللافت للنظر إلحاح «مندور» على ما تقوله «أوروبة» والتماسه صحة ما يقوله «الآمدي» – مثلاً – لتطابقه مع النقد الفرنسي، فيقول – على سبيل المثال – حين يذكر الآمدي : «فطن الآمدي إلى مبدأ خطير في النقد الحديث». ثم يعلق مندور قائلاً : «فهذا رأي معظم نقاد أوروبة اليوم، الذي يرون أن أمر المعاني في الشعر ثانوي بالنسبة إلى الصياغة»[٨]. وفي كتابه «الميزان الجديد» يذكر بوضوح أنَّ القول ما قالت أوروبة، ومن ثم يكون رفضه لما تحمس له طه حسين من قبل. ويقول مندور : «وأصبحت – يقصد أوروبة – تؤمن بأنَّ كل علم منهجه النقد هو فن دراسة النصوص الأدبية، والتمييز بين الأساليب المختلفة»[٩]. ويقول بوضوح مشيراً إلى المنهج العلمي: «الأدب أدق وأعمق وأغنى من أن تخطط له طرقه»[١٠]. والآن ينقلب مندور على نفسه، إنه يحكم – الآن – فكره الأيديولوجي، ويسمي مذهبه النقدي – الآن – بالمنهج

الأيديولوجي. ويقول: «لم يعد من الممكن أن يظل الأدب والفن مجرد صدى للحياة، بل يجب أن يصبحا قائدين لها .. وحان الحين لكي يلتزم الأدباء والفنانون بمعارك شعوبهم»(١١).

وفي سبيل ذلك يقوم الأدب على حسب المعتقد السياسي، فترجح - عنده - كفة صغار الأدباء مادام أدبهم منسجما مع رؤيته، فترجح كفة «نجيب سرور» - مثلا - على كفة «توفيق الحكيم»، وتكون أحكامه النقدية - الآن - تكراراً آلياً، يدور في فلك شروطه الفكرية ومنهجه السياسي. ولعلنا نذكر خطورة هذا المنهج إذا تذكرنا كتاب «في الثقافة المصرية» للعالم وانيس، ففي كتابهما يرتفع من ينضوي تحت لواء «اليسار» وترجح كفته، وتشيل كفة غيره. وتستمر هذه الهرطقة النقدية عند آخرين، يرون - على سبيل المثال - تفضيل «مكسيم غوركي» على «وليم شكسبير»، لأنَّ الأول يرسم في كتاباته صور الكفاح الشعبي بخلاف الثاني.

وقبل أن نتابع موجزين ما نحن فيه، نؤكد أننا لا نعيب النقلة أو التحول في مسار الحياة النقدية لأي ناقد، فذلك يعني التجمد وضيق الأفق، وإنَّما نعيب ما أشرنا إليه ونشير إليه، كما نعرض الآن للعقاد ومساره النقدي، حيث أنه يبحث عن «مرشد» من «أوروبة» ويجد ضالته في ناقد يعترف العقاد نفسه أن هذا الناقد ضئيل القيمة في وطنه، ولكنه يسوق ذلك للدلالة على أن تأثره به مع ضآلة صاحبه دليل على تفرد شخصية العقاد واختياره الحر. ويزهو العقاد أنه وجماعته ليست مقلدة الأدب الإنكليزي، إنما فقط «مهتدية بضيائه»، وأن هذا التأثر كأنه سريان التشابه في المزاج، أو هو سريان جاء من تشابه فهم رسالة الشعر والأدب.

ولعلنا نتذكر طه حسين من قبيل تأثره حول النزعة العلمية المنهجية في دراسته عن أبي العلاء، وأنه صورة صادقة لمجتمعه، والآن نجد العقاد يلح في أن الشعر صورة صادقة لنفس منشئه، واضح من عنوان كتابه: «ابن الرومي، حياته من شعره». ولا تعثر على نقد لشعر ابن الرومي، فقد توقف الشعر إلا أن يكون استلالاً واستشهاداً على أن الشعر سجل لحياة الشاعر، ولننظر إلى النصين التاليين للعقاد في الكتاب نفسه:

١ - .. وقد تجد في الشعراء من تتعرف بعض وقائعه من قراءة شعره، ومن تستطلع خلائقه في ثنايا كلامه، ولكن ابن الرومي لا يحوجك إلى التعرف والاستطلاع، لأنه يعفيك من الملاحظة بما يقوم به هو من ملاحظة نفسية وتقييد شوارد فكره وهمسات فؤاده، فكأنما هو رقيب على بواطنه وظواهره.

٢ - .. فمن الواجب علينا .. أن نبين

كيف أن ديوان شعره قد تجاوز حد الترجمة الباطنية إلى الترجمة التاريخية، لاشتمال وجدان الرجل عليه، وفرط استيعابه لنفسه في شعره، وشدة الامتزاج بين حياته وفنه .

ويكون من الخطر ما يفخر به العقاد وما يكون عليه – على حسبه مقياسا نقديا صحيحا – يكون هذا الخطر في خاتمة حديثه التفصيلي عن ابن الرومي وكيف كان شعره صورة حياته : «فإذا كنا مع استخراج ابن الرومي من شعره، قد وقفنا لإظهار الوحدة العامة بين الشعر والحياة، أو بين الفن والحياة كلها فذاك حسبنا»(١١).

وما تظن – ويعلم القراء – أنَّ هذا الحب «صحيح وأن الفن وحدة من الحياة وتطابق معها». وتنتقل الأشياء بالعقاد فلم يعد الشعر صورة لحياة الشاعر الآن، ولكنه أداة لمعرفة مفتاح شخصيته، ها هو ذا يطبق تلك الانحناءة الجديدة على أبي نواس. ليكون مجرد قرائن ومماحكات واستدلالات، تجاوزت ما كان مقبولا فيما سماه مفتاح الشخصية الذي طبقه في سلسلة العبقريات كما هو معروف. إنَّه – هنا – في كتابه عن أبي نواس، وكأنه قد وضع مصفوفة لمصطلحات «علم النفس» ويحاول تطبيقها – ولا نقول اقتسارها – على صاحبه، ويتبعه أو يماثله الآخرون كالنويهي وغيره كما نعلم. وإن من الأمانة القول بأن ما ذكرناه لا يمثل مختلف إسهامات العقاد النقدية التي لها قيمتها كما هو معروف ومشهور، ولكننا نذكر – هنا فقط – خطورة التحمس لمنهج من غير تدبر لمخاطره، ويكفي أن نشير إلى النص التالي للعقاد وكأنه نفيٌ لما تقدم واضطررنا إلى الإيجاز نذكر منه، مذكرين بنصوص أخرى تتصل به، يقول : «.. إنَّ الأدب تعبير، والتعبير غاية مقصودة وغاية كافية، وغاية لا يعيبها أن تنفصل عن سائر الغايات»(١٢).

وتتوافد على الساحة النقدية – وتحتشد – مناهج واتجاهات : نفسية وأسطورية وبنيوية وشكلانية وتفكيكية إلى آخر ما ورد ويرد وما وفد وما يفد. ولا بأس بذلك كله ولكن البأس أن يهرع كل ناقد لانتقاء «موديل» منها ليلبسه على جسده ويلصقه بذاته وكأن العالم توقف عند «ردائه» أو منهجه، ولا يتسع أمامنا المجال، فنكتفي بالماعات خاطفة.

إنَّ خطورة لا فكاك منها تظل متربصة بأحادية هذا المنهج أو غيره، فنقاد المنهج النفسي يلصقون وقائع، ويفترضون حقائق تتكئ على «التخمين»، والناقد – هنا – يفصل ما لم يفكر فيه صاحب النص على ما فكر فيه، والناقد بذلك يغامر بما هو شاهد، أملا فيما لم يشهد شيئا، وبدلاً من أن يحلل هذا «الوليد»: النص الذي تجسد

أمامه، يتجه ببحثه إلى «متاعب» الحمل وآلام الولادة.

ومن المشكوك به صحة تطبيق مقولات علم النفس على عمل أدبي، وليس هناك كبير فائدة في أن يحشر ناقد ما نظرية من نظريات علم النفس، ويفرضها على شخصية ما، إنَّ حيوية الشخصية في مسارها ووجودها وما تجسده فعلاً وقولاً هو الذي يشدنا إليه، ويظل ما يتصل بعلم النفس «ظلاً» أو «جواً». وبالمثل فإذا كان نقاد المنهج النفسي، تماحكوا في بعض إشارات «فرويد» على الشعر والشعراء، وتحلقوا حول «الغنيمة» الجديدة، ليحشروا الأدب في تزكية الكنز الجديد.

وهل كان الأمر مختلفاً حينما تراكض نقاد المنهج الأسطوري حول دراسة الأساطير، مهتبلين - هذه المرة - ما ارتآه «فريزر» في دراسته المعروفة، من أنَّ الذات الإنسانية في تشكلها العقلي تتجاوز الفردية إلى العالمية، ولكن «الفضة» لاتخلص لفريزر، فالنقاد جائعون وفضوليون، فلم لا يضمون - الآن - «ذهب» فريزر إلى نقدهم، فإذا بالأدب في مجمله - عندهم - هو نتاج ذلك العقل الجمعي، وينفتح منجم ذهبي جديد حينما أطلق «يونغ» مصطلحه «النماذج الأصلية» بحسبانها رموزاً إنسانية تكرارية في تاريخ الإنسانية.

ولعلنا نتذكر رسائل جامعية متعددة تعتمد على المنهج الأسطوري، وقد سألت أحدهم في مناقشة له: ماذا لو لم يكتب «جواد علي» كتابه الضخم عن «تاريخ العرب قبل الإسلام»، فلولا كتابه ما راح الباحث يفتش قسراً واقتساراً عن مثيل أسطوري في الشعر الجاهلي يتطابق مع «جواد علي». ولايتسع المجال.. ونكتفي - وقد طال سفر الكلام - بنقاد المنهج البنيوي وعلى الرغم من انتهائه وإفلاسه وإعلان دعاته موته، فإنه يحيا لدى بعضهم هنا لأنهم فقط لا يملكون سواه، ولا يقدرون على تبديل «الموديل» القديم، فالنص - حسبما يدعي البنيويون - مجرد نظام لغوي يقوم على تنظيم خاص لتركيبات الجمل وعلاقات وكلمات، وما على الناقد البنيوي سوى اكتشاف تلك العلائق الداخلية في نظام النص اللغوي فقط، ولا قيمة - بحسبهم أيضاً - لأية قيمة أخرى للنص من حيث أثرها وتأثيرها وغاياتها، ويصبح النص قطيعة بين الشاعر أو الكاتب وإبداعاته القولية، وما تحمله من خطابات متعددة تتجاوز ما ينزوي على فحصه - في النص - من مواد لغوية فيما يشبه عملا آليا وسهلا ويسيرا.

والأمر ينطبق على مناهج أخرى، نشير - فقط - على ما يعرف بالتناص، وقد تراجعت صاحبته عنه، ولكنه - هنا

– مازال لعبة للتماحك، وحذلقة للتباهي، ولا ننسى في نهاية المطاف المنهج الجمالي أو الشكلاني، فنقاده ينسون أنه لا يمكن عزل النص عن ضروب المعرفة، ولا يجدي ذلك التأمل المحض، ومن ثم يكون من مخاطر الشكلانية تجزئة النص من دون النظر إلى كليته، والإسراف في تحليل تلك الجزئيات من غير تبصر إلى ضرورة تلاحم الجزء بالكل، فمجمل المنظور الشكلاني يدور حول تركيبات النص، ولا يدري – هذا التطور – كيف تشكلت أو من أين انبثقت تلك التركيبات. وتأتي ريبة الشكلانية التي تابعت السبيل نفسه، ونعني «الهيكلانية» التي تدعو – هذه المرة – على ما سموه بالنص المغلق، ومع ذلك من الخطورة القول: إن النص في تشكله المنطوي على ذاته يعتمد – فقط – على جملة العلاقات المتشيئة في كلماته.

الهوامش

(١) تجديد ذكرى أبي العلاء، دار المعارف ن القاهرة، ص ٢٢.
(٢) المصدر السابق، ص ٢٣.
(٣) المصدر السابق، ص ٢٥.
(٤) المصدر السابق، ص ٢٤.
(٥) خصام ونقد، بيروت، ص ٤، ص ١١٦.
(٦) تجديد ذكرى أبي العلاء.
(٧) خصام ونقد، ص ٩٦.
(٨) النقد المنهجي، دار النهضة، مصر، ص ٩٦.
(٩) في الميزان الجديد، نهضة مصر، ط ٤، ص ٨٤.
(١٠) محاضرات في الأدب ومذاهبه، القاهرة، ١٩٥٥م، ص ١٢.
(١١) النقد والنقاد المعاصرون، مكتبة مصر، ص ٣٤.
(١٢) «ابن الرومي»، بيروت، ١٩٨٤م، ص ٧١.
(١٣) «يسألونك»، مطبعة مصر، ١٩٨٤م، ص ١٧٧.

الرقص الشعبي كموروث ثقافي تراثي

لميس أحمد ✿

تعتبر الثقافة لأي أمة بمثابة الوعاء الذى تحفظ فيه الأمم خبراتها المتمثلة في تجاربها ولغتها ودينها وتاريخها وتطورها الحضاري، والمؤثرات الناتجة عن الاتصال مع الثقافات الأخرى. وتتجلى الآثار المادية التي تنتج عن الثقافة في الفنون المختلفة وخاصة الفن الشعبي.



ماهية الفن الشعبي

الفن الشعبي هو ممارسة جماعية يلجأ إليها المجتمع الشعبي في حياته، وإنَّ إنتاجه

✿ باحثة ومترجمة سورية.

الفني يكتسب معظم صفات وخواص المكان وسمات الإنسان. فالفن الشعبي يشكل جزءاً من تراث الإنسانية، فهو يمثل تقاليدها، وذاكرة شعوبها، والمتحف الحي لحضاراتها وقد شمل الفن الشعبي ملامح الثقافة والتقاليد المتوارثة المنقولة على مر الأجيال، والفن الشعبي يكون محملاً بالقيم الثقافية والاجتماعية لبيئته الغنية بمواد الإبداع الشعبي، وهي عملية فنية تساعد على نشر الوعي القومي بثقافة الأمة، وتؤكد مشاعر الانتماء وحب الوطن.

التراث الفني الشعبي العربي

إنَّ التراث الفني الشعبي هو بمثابة استمرارية لجوانب حياة المجتمعات، والمجتمع العربي غني بهذا التراث الفني الشعبي الذي بقي محتفظاً بعناصره الأصيلة، في مختلف مراحل التطور في التاريخ العربي، وناقلاً أميناً لخصائص العرب وتقاليدهم وقيمهم، سواء أكانت في مجالات الحرب أو الحب أو الشهامة أو الكرم أو إغاثة الملهوف أو الشرف أو حفظ الجميل أو صيانة النسب أو وحدة الإرادة والهدف. ويمتاز التراث الفني الشعبي العربي بعمقه التاريخي، على الرغم من كل المتغيرات التي جابهت الإنسان العربي ويبقى التراث الفني الشعبي العربي هو المستمر الدائم الذي تختلف طريقة التعبير عنه بين قطر عربي وآخر إلا أنَّه في أساسه واحد، يعبر عن وحدة الألم والأمل، وعن وحدة الخصائص والقيم، في المجتمع العربي.

ومن هذا التراث الفني نجد أنَّ الرقص الشعبي يحتل مكانة مميزة حيث يعبر هذا الجانب من التراث الفني الشعبي العربي، عن أحاسيس ومعاناة الإنسان باللحن أو بالحركة، وبما يتكامل مع الفنون الشعبية التعبيرية الأخرى. حيث إنَّه وفي إطار الفلكلور تبلورت ثقافة الرقص الشعبي الناتج عن المعتقدات الشعبية والبيئية والنشاط الاقتصادي، وتطور الرقص الشعبي تحت تأثير ظروف حياة الشعب التاريخية والاجتماعية والجغرافية.

فالرقص يتكون من مجموعة جمل فنية حركية وسيلته في التعبير هي الحركة وتحكم الإرادة في الجسم لتعبر عن تكوين فكري. يوجد الرقص الشعبي في البيئة الشعبية لأنه ابن بيئته بثقافاتها المختلفة، والرقصات الشعبية تتوارث من جيل إلى جيل وهي عادة مجهولة المصدر لكن هذا الرقص يَبْقى شعبياً فقط في بيئته الطبيعية، فالرقص الشعبي هو الشكل التقليدي للرقص لدى شعب، أو مجموعة عرقية. فعلى مر التاريخ، تكاد تكون معظم الحضارات قد اتخذت لها

رقصات خاصة بها. وانتقلت هذه الرقصات من جيل إلى جيل.

نشأت أغلب الرقصات الشعبية كشكل من أشكال الاحتفال، أو الشعائر الدينية، واستخدمت الشعوب القديمة رقصات للاحتفال بالمناسبات ومع مرور السنين، فقدت أكثر الرقصات الشعبية مدلولها الأصلي، وأصبحت تؤدى للتسلية.

وممارسة الرقصات الشعبية متاح لكل شخص في الجماعة الشعبية ويمكن أن يقسم طبقاً لعادات وتقاليد الجماعة الشعبية إلى رقص خاص بالرجال فقط أو بالنساء فقط أو رقص مشترك ويمارس الرقص الشعبي عادة احتفالاً بالأحداث الدورية للسنة التي تتعلق بالحياة الاقتصادية كمثال مراحل السنة الزراعية أو صيد الأسماك أو عند تغيّر فصول السنة أو في الأعياد.

الرقص الشعبي في الوطن العربي

يُعدّ الرقص الشعبي في البلاد العربية من الفنون التراثية الثقافية التي تعبر عن كل ما يتعلق بالجماعة ونشاطها وتفاعلها وتأثير بيئتها. ويتضمن الرقص الشعبي الكثير من العناصر الثقافية، والأهم من ذلك أنه جزء من التراث المتراكم والمتناقل الذي يعتز به الكبار والصغار. وهم يتقنون فنونه وأشكاله ويمارسون طقوسه في مختلف نشاطاتهم التعبيرية المشتركة لنوازع الاجتماع والتضامن والتآزر.

إنَّه تعبير عن الأحاسيس التي يصوغها شعب منطقة ما بقالب خاص، وتترجمها في نوع من التعبير الحركي الإيقاعي والإشارات التي تتخذ كل واحدة منها أكثر من معنى، تعبيراً عن الفرح والاحتفالية.

وترتبط الموسيقى والرقص الشعبي، بالمناسبة والظروف المحيطة بالمجتمع، ولها مدلولات اجتماعية كثيرة، فهناك الدبكة في لبنان وسورية وفلسطين والأردن، وهناك الرقص الشعبي في الخليج العربي عامة، وفي مصر والسودان، وفي المغرب العربي، وهي لها علاقات بطبيعة العمل، كالإبحار مثلاً، أو بالقوة، أو بحياة البادية وآثارها.

والرقص الشعبي إبداع مباشر وتلقائي، ومعظم الرقصات الشعبية العربية متشابهة، سواء من حيث الأداء أو وظيفته وغرضه، وهي متنوعة في تفصيلاتها، ذات العلاقة المحلية.

يتزامن قدم الرقص الشعبي عربياً، مع الرقص الشعبي العالمي، لكن الرقص العربي يرتبط بالدرجة الأولى بالغناء المرافق، وما يتضمنه من دلالات، حاله كحال الموسيقى العربية بشكل خاص، لهذا نرى بأنَّ الرقصة الواحدة تكون محددة جمالياً، ليس باللحن والإيقاعات فقط، وإنما أيضاً بمضمون

معاني الأبيات الشعرية، وهذا النوع من المعاني المرتبط عادة بالمناسبات، يعطي الرقصة بعداً جديداً ليميزها عربياً، عن الرقص الشعبي العالمي، لهذا فإنَّ أية رقصة شعبية في العالم لا تكون شعبية طويلة العمر، ما لم تتخذ لحركات أدائها رموزها الحية والمعبرة، فهي جسورها الممتدة ما بينها وبين مصادر الطبيعة الحية من جهة، ومن جهة ثانية، مع المحتفل المتفرج والمشارك، وبإعطائها روحية الفرد، واستيعابه وهضمه لها، يغلب عليها هاجسه الزخرفي المشرقي.

وكذلك يكون فهم الراقص للموسيقى المصاحبة مهماً جداً. فالفعل الصوتي المتناسق والمنبعث من الآلات الموسيقية وضربات الأكف والأقدام والتصويت، ونشيج المؤدي، وفعل أداء تناغم إيقاعات الجسد الحركية، المتوافقة مع النغم المسموع، تقود كلها إلى خلق تناغم عالي الانسجام، فعلى فعل الموسيقى وبترافقها مع تلك الحركات الراقصة والمعبرة، ينشأ رد فعل وجداني تتشكل معه جماليات فن راقٍ، فلولا ارتباطهما لما توصل الإنسان إلى إفراغ تلك الانفعالات التي بداخله.

سنتوقف عند نماذج مؤشرة منها: وادي النيل - اليمن - المغرب العربي - بلاد الشام والعراق.

الرقصات الشعبية في وادي النيل

ابتدعت شعوب وادي النيل فنون الرقص الشعبي بأشكاله وألوانه المختلفة لإعطاء الحياة للفنون الشعبية التي تقدم من خلال هذه الرقصات الشعبية التقليدية.

الرقصات الشعبية المصرية

ومن أشهر الرقصات التراثية المصرية: البمبوطية، التحطيب، التنورة، الحجالة وغيرها:

- رقصة البمبوطية: رقصة فلكلورية تعبيرية عن فنون الصيادين والبحارة وتجار البحر وهي معروفة في المدن الساحلية المصرية و هي رقصة جمعت رقصات عدة تعبر عن الواقع اليومي لأهل البحر و طقوسهم واحتفالاتهم بيوم العمل والرزق الوفير.

- رقصة التحطيب (المبارزة بالعصا): التحطيب المصري جذوره قديمة هذا إلى جانب اعتبارها طقساً ينتمي إلى العادات الاجتماعية التي تفرض التحطيب في المناسبات السعيدة. حيث إنَّ العصا رفيقة الفلاح في عمله ورفاهيته، وفن التحطيب يدعو في جوهره إلى قيم كبيرة ويشجع على نشر الأخلاقيات والقيم. ويجتمع الشباب في جنوب مصر عند غروب الشمس ويقفون في

دوائر ممسكين بالعصي في أيديهم ويقومون بالرقص على أنغام المزمار والربابة.

- **رقصة الحجالة: (رقصة بدوية) هي** رقصة تؤديها إحدى النساء ويشترط أن تكون منقبة وتعتمد في حركات رقصها على قوة تصفيق الرجال المشاركين حيث ينتظم الرجال في صف واحد .

الرقصات الشعبية في السودان

يشتهر السودان بتعدد الرقصات الشعبية حيث يعتبر الرقص نوعاً من التعبير عن المعتقد والسلوك الاجتماعي المرتبط بالحياة اليومية مثل الزراعة وبالنفس الإنسانية وما يعتريها من فرح وحزن وبطولة. وإنَّ بعض الرقصات الشعبية في السودان مرتبط بالغناء وما يصاحبه من تصفيق فقط أي من دون وجود الآلات الموسيقية المصاحبة، وبالتالي يتكامل الغناء والتصفيق مع الرقص. والإيقاع الذي يخلقه الراقصون والراقصات بالضرب على الأرض والتصفيق، يكون جزءاً هاماً من تركيبة إيقاع الأغنية، وبالتالي فهو عنصر من عناصرها يعطيها الحيوية والنشاط. و هناك بعض الرقصات لا يصاحبها غناء بل تعتمد على إيقاعات الطبول، ومن الرقصات الشعبية «رقصة مردوم» و«رقصة كمبالا» و«رقصة زنادي» و«رقصة النوبة» وهي رقصات شعبية سميت باسم الجماعة التي تؤديها وهناك «رقصة السيف» و«رقصة التوينجي».

- **رقصة السيف:** وهي رقصة تشتهر بها قبائل الهدندوة والبني عامر في شرق السودان وتمارس في جميع المناسبات وخاصة الزواج ويمارسها الرجال والنساء معاً.

- **الكمبلا رقصة القوة في جنوب السودان:** وتعد الكمبلا من الرقصات التقليدية في جنوب السودان. تُمارس هذه الرقصة في فصل الخريف وفترات من الشتاء، كما تمارس احتفاءً بموسم زراعي مزدهر وقبيل الأعراس والمناسبات السعيدة. وتتوزع النساء في حلقات يؤدين أغنيات، فيما الرجال يرقصون في الوسط، يقومون بحركات إيقاعية بالرجلين، وينتقلون من مكان إلى آخر، وعليهم أن يستمروا في الرقص لأطول وقت، وأن يتحملوا ثقل الجلود المرمية على ظهورهم، ومن يصمد يتولّ مسؤولية حماية القبيلة.

- **رقصة النقارة:** يطلق لفظ النقارة على الإيقاع والآلات التي يضرب عليها عند قيام الاحتفال، وهي رقصات شعبية عادة تقام في الأفراح، ومضمونها يرتبط بالعيد والفروسية والقوة. وهي منتشرة في غرب السودان.

- الفردة (شرق السودان): تعتمد على نوعين من الإيقاع «الثقيل والخفيف» ونوع الإيقاع يحدد زمن الحركة وشكلها، والأخير هو الغالب في الرقصة. الفردة لا يجيدها على أصولها إلا القليل من النساء.

الرقصات الشعبية اليمنية

على خلفية الموقع الجغرافي لليمن والتنوع المناخي والمناطقي الذي انعكس ملمحه على الفولكلور يقال إنَّ اليمن تختزن أكثر من مئة رقصة، ومع هذا الكم الهائل، إلا إنه يمكن حصرها في ثلاث رقصات عامة:

- الزفين: ويرقصها اثنان على نغمات وإيقاع الآلات الشعبية في حضرة جمع من المتفرجين على شكل دائري أو مستطيل، وقد تؤدى هذه الرقصة بمشاركة رجل وامرأة.

- الشرح: وتؤدى بمصاحبة الإيقاع وسط جمع من المتفرجين على هيئة دائرة كبيرة، ويشارك المتفرجون بالتصفيق والأغاني، وتؤدي هذه الرقصة من قبل اثنين قد يكون أحدهما امرأة في مناطق معينة.

- البرعة أو البراعة: وتؤدى بمصاحبة الطبول حيث يتجمع المتفرجون على هيئة دائرة كبيرة يتوسطها اثنان أو أكثر ممسكين بالجنابي (الخناجر) ومن المعروف عن هذه الرقصة بأنَّها رقصة الحرب. وهي الرقصة الشعبية الأكثر انتشاراً في اليمن فهناك البرعة الهمدانية والتهامية والحارثية واليافعية و المأربية كلها تتميز عن الأخرى بالموسيقى المصاحبة وسرعة الحركة وعلى اختلافتها إلا أنَّ جميعها رقصات حرب و قتال ضاربة في القدم، و مقتصرة على القبليين فقط لما لها من دلالات ومعان. وأهم معاني البرع هو تعليم أبناء القبيلة أن يعملوا كمجموعة مترابطة في ظروف صعبة.

الرقصات الشعبية في المغرب

إنَّ الفلكلور المغربي له خصوصياته في الإبداع. ويعبر عن الشجاعة والبطولة والقوة والعزيمة والشهامة وغيرها من صفات الرجولة. فمن المعلوم أنَّ المغرب غني بالرقصات الفلكلورية الشعبية، ولاسيما الأمازيغية منها. وكان يشارك فيها الرجل إلى جانب المرأة، بطريقة فردية أوثنائية أوجماعية. ويلاحظ أنَّ الرقص غالباً ما كان يتخذ طابعاً جماعياً في أشكال هندسية ولهذا الرقص أنواع عدة، لها خصائصها ومميزاتها الفنية والجمالية والدلالية وأبعادها الوظيفية.

ومن الرقصات الشعبية المغاربية إمديازان والعلاوي و النهاري والنكوشي ورقصة «الركادة» وكلها رقصات ترمز إلى

الاستعداد للقتال... مثل هذه الرقصات ارتبطت بظاهرة «الكوم» أو «القوم» المتسلحين، ولأنها رقصات تتسم بطابع الرجولة والفحولة، تولدت بطبعها من قسوة الطبيعة الجغرافية وجفاف الطبع البشري عامة. ومن أهم وأشهر الرقصات:

- **أحواش:** ويعني مدلول الكلمة أنّ أحواش هو إحاطة الراقصين والراقصات بمكان الرقص. حيث يتوسط فيها القوم صاحب الطبل وتنقسم الفرقة إلى صفين: صف من الذكور وصف من الإناث ويمكن الحديث أيضاً عن أحواش النساء أو أحواش الرجال أو أحواش يختلط فيها الرجال والنساء.

- **أحيدوس:** تعني كلمة «أحيدوس» في الأمازيغية الرقصة الجماعية، وتعتمد على خفة الحركة. تتشكل رقصة أحيدوس من مجموعة من الراقصين والراقصات بشكل متداخل ويشكل أعضاء الفرقة صفين متقابلين يرسمان أشكالاً هندسية عدة. ويستعين الراقصون والراقصات بضربات الأرجل وتحريك الأجساد والأكتاف والإكثار من التصفيقات.

- **الشيخات:** يعد رقص الشيخات من أهم أنواع الرقص الأمازيغي الذي ينتشر كثيراً في الأطلس المتوسط، حيث يتم التركيز غالباً في هذا النوع من الرقص على النساء الراقصات الجميلات، اللواتي يشكلن مجموعة مشاهد راقصة بطريقة فاتنة.

الرقص الشعبي في بلاد الشام

الرقص الشعبي في بلاد الشام تأثر بعوامل كثيرة أهمها الطابع العام للبيئة وطبيعة العمل والعادات الاجتماعية ففي جبال الساحل نجد الرقص يتميز بالإيقاع السريع والمشاركة الجماعية والجماهيرية، وفي مناطق حلب وإدلب نجد الرقص أكثر هدوءاً واعتدالاً وأقل حيوية وفي مناطق الجزيرة السورية نجد الرقص البدوي المستمدة أصوله من تراث عربي قديم وأهمه رقصة الدحة. ومن الرقصات الشهيرة التي تتميز بها منطقة بلاد الشام رقصة الدبكة.

تعريف الدبكة: هي رقصة شرقية فولكلورية شعبية جماعية معروفة ومنتشرة في لبنان، سورية، تركيا، الأردن، فلسطين، والعراق وكذلك شمال السعودية وعند بعض الشعوب الأوروبية. و تمثل التراث الفلكلوري لتلك البلدان. تمارس غالباً في المهرجانات والاحتفالات والأعراس. تختلف الأزياء التي يرتديها راقصو الدبكات حسب المنطقة، وهي عبارة عن أزياء مستوحاة من التراث أو من أزياء الريف. فهي للرجال قد تكون

السروال (الشـروال) الفضفاض والقمصان وغطاء الرأس المصنوع من قماش الكوفية وقد تكون الدشداشة والعباءة وغطاء الرأس المصنوع من قماش الكوفية (في البادية)، وللمرأة الثوب الملون أوالأسود الطويل المطرز بالخيوط الذهبية ويختلف حسب المنطقة ما بين المناطق الجبلية أوالبادية أوالساحل.

وتعتبر رقصة «الدبكة» فناً شعبياً ارتبط بعادات وتقاليد شعوب المنطقة والذي ورثته عن الأجداد والآباء ليصبح محل فخر واعتزاز تشتهر أنواع الدبكة في بعض المناطق وتختلف قليلاً من منطقة إلى أخرى.

تتكون فرقة الدبكة من مجموعة تزيد عادة على عشرة أشخاص وعازف الشبابة والطبل. يصطف الراقصون إمّا على شكل صف أو على شكل قوس أو دائرة. يكون الراقصون من الذكور أو الإناث، وتؤدى الرقصات إمّا مختلطة أو بانفصال الجنسين. يقود الرقصة أوّل الراقصين، وهو يحدد بشكل عام منحى الرقصة، والدبكة تتكون من حركات بالأرجل وتتميز بالضرب على الأرض بصوت عالٍ مترافقة مع الغناء وعزف الموسيقى الفلكلورية. وتكون الدبكة عادة على أنواع عدة وهي جزء مهم من التراث والفلكلور في بلاد الشام، وتمارس في الأعراس والمناسبات.

ومن أهم الحركات المعروفة أثناء الدبكة «الشيلة» وهي حركة في الدبكة تتميز بخروج الرويس أو اللويح بقفز سريع مع من خلفه بحركات متنوعة. تستعمل غالباً عند نهاية مقطع الدلعونا وخروج الدبكة من المشي إلى الدبك.

الرقص الشعبي والدبكة في سورية

عرفت سورية عبر تاريخها الطويل كل أنواع الرقص الشعبي وخاصة رقص السماح باعتباره الرقص السوري العريق المتوارث والذي كانت له شعبية كبيرة في المناطق السورية كافة وكان يدرّس كرقص محتشم رزين له أصوله وقواعده وقدوده وموشحاته ونغماته وإيقاعاته، وأهالي محافظة حلب تعلموا رقص السماح، الذي يعد من ألوان الرقص الجماعي الذي كان الرجال في حلب ومازالوا يؤدونه .

«الدبكة الشامية» تتميز بكثرة حركاتها وخطواتها وهي تختلف طبقاً للموسيقى المؤداة. وبمجموعة من الخطوات والحركات الرشيقة المتسلسلة في ضربات أقدام منظمة يشارك الجسم فيها والتي تعبر عن حيوية الشباب المتدفقة وأنوثة الفتيات في عفوية حلوة وترافق ضربات الأقدام خطا منسقة فتسير على نقرات الإيقاع بوساطة الطبل أو

الدف وعلى نغمات المزمار أوالناي أو المجوز أو أية آلة عزف عربية أخرى من الآلات التي يستعملها أبناء الريف، وسبب اشتهار الدبكة في التراث العربي السوري يعود إلى حيويتها والنشاط والمرح اللذين يرافقانها في الأداء والإيقاع لذلك تعتبر رقصة ريفية تختلف في طابعها من منطقة إلى أخرى ومن أنواعها الدبكة الحورانية - الديرية - الشيخاني - السلمونية - الحموية - الجبلية - الشامية - القلمونية - اللبنانية - الساحلية - وذلك نسبة إلى المدن والمناطق التي نشأت فيها ونخص بالذكر الدبكة الجزراوية المميزة وتتصدرها دبكة الجولاقية وهي من أجمل دبكات منطقة الجزيرة وأحلاها وذلك لجمالية حركاتها.

الدبكة اللبنانية أو الرقص الشعبي في لبنان

يشكل الرقص الشعبي أو ما يعرف في لبنان باسم «الدبكة اللبنانية» فناً حضارياً ارتبط بعادات وتقاليد الشعب اللبناني الذي ورثه منذ القدم عن الأجداد والآباء ليصبح محل اعتزاز وفخر للبنانيين جميعاً كثقافة تصدر إلى الخارج. وتتميز «الدبكة اللبنانية» بكثرة حركاتها وخطواتها وهي تختلف طبقاً للموسيقى المؤداة وتقام في الأعراس والحفلات والأعياد وغيرها سواء أكان ذلك في المدينة أو في الريف إلا أن فحواها الرئيسي هو المحافظة على التراث. وارتبط هذا الرقص الفولكلوري خصوصاً بسكان جبال لبنان والبقاع وبعض قرى الجنوب إذ تعتبر الدبكة التقليدية عندهم تراثاً يتمسكون به فهي تجسد حوار حب بينهم وبين الأرض حيث إن الرقص الشعبي وتحديداً «الدبكة» هو من طباع الشعب اللبناني. والدبكة اللبنانية كلغة الرقص تجسد علاقة حب وثيقة ما بين الإنسان والأرض. وللدبكة أنواع منها «الدلعونا» و«الهوارة» و«الغزيل» و«البداوية» و«السويحلي» و«الحدو» وتختلف طرق تأديتها حسب الأغنية أو اللحن ولا تقام إلا بمجموعة متراصة من النساء والرجال وكلما كان العدد أكبر تصبح الدبكة أجمل. وتعتبر رقصة «الدلعونا والهوارة» الأكثر شيوعاً بين أنواع الدبكة نظراً لحماسيتها وجمال تأديتها.

الدبكة الفلسطينية

الدبكة هي من العادات والتقاليد الفلسطينية ويتمسك بها ويحافظ عليها جيل بعد جيل وبعد نكبة عام ١٩٤٨ م أخذت الدبكة شكلاً من أشكال النضال، والدبكة المعروفة والرائجة بكثرة في منطقة الخليل، شمال فلسطين وحتى جنوب مرج ابن عامر

هي دبكة الدلعونا (مع أنَّ كل أنواع الدبكة المعروفة في شمال فلسطين ولبنان وحوران هي الدبكة نفسها والحركات الأساسية نفسها ولكن بترددات وسرعات مختلفة) دبكة الشعراوية وهي الدبكة التقليدية المعروفة في بلاد الشام، هي ودبكة الدرازي، دبكة الشمالية، دبكة البدويّة، دبكة السبعوية من فصيلة الشمالية، تدبك مع رفع الأيدي على الأكتاف، سميت «سبعوية» لأنّها عبارة عن سبع قرعات، تنتهي السابعة بالرجل اليمين.

الرقص الشعبي في العراق ودبكة الجوبي

إنَّ طريقة الرقص الخاصة بالنساء الريفيات المنتشرة في جنوب العراق اليوم تحتفظ بالكثير من بقايا عناصر وأصول رقص الكاهنات السومريات. والراقصة إضافة إلى هز الوركين والأكتاف، تحل شعرها وتطوح به في الهواء من حولها يميناً ويساراً بشكل عنيف على إيقاع الطبلة الجلدية، ثم تثني ركبتيها لتقترب من الأرض وتسدل شعرها وتمسح الأرض به برفق، ثم تنهض وهي تركل الأرض بقدميها بقوة، وتعيد هذه الحركة أكثر من مرة.

- **دبكة الجوبي**: وهي رقصة شعبية جماعية تنتشر في أنحاء العراق كافة وتسمى أحياناً (بالدبكة العربية) وهي من الرقصات المعبرة عن الرجولة والقوة والشهامة والبطولة، وهذه الحركات جاءت نتيجة المخزون التاريخي بفعل الظروف المختلفة. ولرقصة الجوبي ثلاثة أنواع: النوع الأول: خاص بالرجال ويكثر في وسط وجنوب العراق. أمَّا النوع الثاني: تشترك النساء مع الرجال بصورة مختلطة وينتشر هذا النوع في مناطق الشمال والموصل وكركوك. والنوع الثالث: خاص بالنساء فقط ويكثر هذا النوع في مناطق الفرات الأوسط. وتتشكل رقصة الجوبي من حلقة مفتوحة تسمى حزام الجوبي، وتنعقد الحلقة بتشابك الأيدي، وفي رأس الحلقة يقف شخصان هما (الزادود) أي منشد الأغاني و(الداكوك) أي عازف المطبج (المجوز أو المزوج) ويقف عند رأس الحلقة راقص يسمى (الرويسي) وهو رئيس الدبكة، له خبرة في أداء الرقصة ويقف الراقصون على شكل حلقة و يدبكون الأرض بأرجلهم بحركات متناسقة وبالتوافق مع عزف الآلة الموسيقية المصاحبة، ولرقصة الجوبي أنواع عدة. حيث إن لكل منطقة

رقصة خاصة تميزها عن سواها فهناك الزبيدية، والسامرلية، والحلاوية، والمثلث والدليمية والكردوانية.

خاتمة

رقص وتعبير وفرح وتناغم هي عناوين تختصر روحية الرقصات الشعبية التي انتقلنا معها في هذا السياق حيث ينقل لنا هذا الإرث العربي الرسمي معالم من التراث الشعبي ، فيأنس به ويتحرك بحراكه عله ينقلنا من المشاهدة العابرة إلى ديمومة الحفاظ على كل ما هو تعبيري وجميل وأصيل.

المراجع

- دائرة المعارف الإلكترونيه ميكروسوفت « إنكرتا» قسم الرقص.
- سعد الخادم - الرقص الشعبي في مصر - المكتبة الثقافية - العدد ٢٨٦ - القاهرة .
- د/ حسام محسب - الرقص الشعبي بين سؤال الهوية وضرورة التحديث.
- د/ محمد الجوهري - دراسة الفن الشعبي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر - ١٩٩٧م .
- د/ حسام محسب - ماهية الثقافة ودورها في تعريف الرقص الشعبي.
- د/ جميل حمداوي - مدخل إلى الرقص الأمازيغي المغربي.

تكنولوجيا الاتصالات في الوطن العربي

ترجمة وإعداد: هبة الله الغلاييني *

رواية قصيرة نبدأ بها حديثنا عن تكنولوجيا الاتصالات، ثاني الروافد الفرعية لتكنولوجيا المعلومات. كان ذلك في بداية الثمانينيات من القرن الماضي، عندما كان كاتب ياباني في زيارة لصديقه في مدينة هاماتسو التي تبعد عن طوكيو بنحو ٢٠٠ كيلومتر، من قبيل المجاملة أخذ الصديق يعرّفه بأفراد أسرته، فقاده إلى غرفة ابنه الذي يناهز العاشرة من عمره فوجداه منشغلاً وكأنه في حوار مع مجهول، فأخبره صديقه أنه يتلقّى درسه الخصوصي في مادة الجبر، كان الطفل جالساً وحيداً في غرفته أمام شاشة الكمبيوتر مما اضطره إلى التوجه بالسؤال: أين هذا المدرّس الخصوصي الذي تتحدّث عنه؟ فأخبره أنه في طوكيو، وهو يتحاور مع ابنه ضمن مجموعة أخرى من الطلبة من خلال شبكة لنقل البيانات.

رغم أن هذه الواقعة تسبّب للعرب الكثير من الإحباط، غير أن تكنولوجيا المعلومات يمكن أن تكون أحد الحصون التي يصعب على جحافل مدرسي الدروس الخصوصية في بلادنا اجتيازها، إلا أن هذا الإحساس

* كاتبة ومترجمة سورية.

المحبط لا يستطيع أن يمنع عنا هذا الشعور حول مفهوم (التعلم من بعد) distant learning والذي تعدّه الولايات المتحدة أحد المحاور الرئيسة لتحديث العملية التعليمية.

تخيّلوا شبكة المدارس وقد أصبحت على اتصال مباشر مع مراكز تكنولوجيا التعليم، وحرية التلاميذ في الاتصال بمصادر المادة التعليمية ومواقع النشاط الاجتماعي المختلفة، ما سيؤدي إليه ذلك من تقوية الصلة المفقودة حالياً بين المدرسة وواقع الحياة وخارجها، إنَّها عظمة تكنولوجيا الاتصالات بلا شك.

ومازال العالم يتذكر هذه الإشارات التي أرسلتها إلى الأرض عبر مسافة تبلغ ٥٨٠٠ مليون كيلومتر مركبة الفضاء الأميركية بعد أن كانت حول الكوكب بلوتو Pluto أبعد كواكب المجموعة الشمسية، رسالة وداع تهديها لأهل الأرض قبل أن تغادر تلك هذه المجموعة لتبدأ رحلتها إلى الكون المجهول عسى أن تلقى من تسلمه رسالة تحملها له من كوكبها.

وهاهي أركان المعمورة تقترب – بل تندمج– مع بعضها البعض عبر الكابلات الأرضية والبحرية والألياف الضوئية وأشعة الميكرويف ودوائر الأقمار الصناعية، لقد وصل الأمر إلى الحدّ الذي توقّع معه البعض حدوث (أزمة مرور) للأقمار الصناعية التي تزاحمت في ارتفاعها الثابت بالنسبة للأرض بصورة يخشى معها تداخل موجات إرسالها.

لقد فقد المكان سؤدده القديم وأصبح البعيد وشاسع البعد تماماً في متناول أيدينا نشاهده ونحاوره ونتجسمه، نؤثّر فيه ونتأثّر به وهكذا ألحقت صفة (عن بعد) بالعديد من الأنشطة والأعمال:

- التسوّق عن بعد.
- الاستشعار عن بعد.
- عقد المؤتمرات عن بعد.
- التعامل مع البنوك عن بعد.
- التعلّم عن بعد.
- الإنتاج عن بعد.
- إصلاح الأقمار الصناعية عن بعد.
- تشخيص الأمراض عن بعد.
- إجراء العمليات الجراحية عن بعد.

وآخر ما قذفت به إلينا الأخبار مايمكن أن نسميه (التسامر عن بعد) فقد أعلنت إحدى شركات الاتصال أخيراً عن بدء تقديم خدمات المقهى الإلكتروني (Electroic café) لتجمّع البشر من مواقع شتى ليتسامروا وجهاً لوجه فيما شاء لهم من حوار جاد أو عابث.

إن تكنولوجيا الاتصالات تحرّر الإنسان تدريجياً من قيود المكان، بل وتوسّع دائرة

وجوده ليبدو وكأنه موجود في أكثر من مكان في الوقت نفسه.

وإن كان هذا هو واقعنا اليوم فهل يمكن لنا أن نتخيّل ما يمكن أن يؤدي إليه هذا الاندماج المثير بين تكنولوجيا الكمبيوتر وتكنولوجيا الاتصالات على المدى القريب والبعيد، فعلى سبيل المثال هل يمكن تصوّر ما يؤدي إليه نظام آلي للترجمة الفورية وقد استقرّ به المقام في قلب سنترال (قواسم) الهاتف central exchange ليتم دائرة الحوار بين مشترك في طوكيو يتحدث باليابانية ومشترك آخر في نيويورك يتكلم الإنجليزية، يتجاذب معهما أطراف الحديث آخر في فرانكفورت لا يتكلم إلا الألمانية، وليس هذا خيالاً علمياً بل أحد الأهداف التي تسعى إليها حالياً بحوث نظم الترجمة الآلية متعددة اللغات ونظم فهم الكلام وتوليده آلياً.

وهل لنا أن نتخيّل أسرة بحرانية مثلاً لم تجد ما يروق لها من أفلام في نوادي الفيديو القريبة، فتقرّر الاتصال بمكتبة الأفلام المركزية في لوس أنجلوس مثلاً (لتضخ) لهذه الأسرة واحداً أو أكثر من أحدث أفلامها عبر شبكات نقل البيانات فائقة السرعة لتصل إلى منزل هذه الأسرة في المنامة في ثوانٍ قليلة، وليس هذا خيالاً علمياً، بل بعض التطبيقات المحتملة لشبكات نقل البيانات ذات السعة العالية التي تقدر بالجيجابيت Gigabit أي ألف مليون بيت bit في الثانية الواحدة.

أسباب انتشار شبكات المعلومات:

يمكن إرجاع الدور المهم الذي تلعبه تكنولوجيا الاتصالات في المجتمع الحديث إلى أسباب رئيسية عدة يمكن تلخيصها كالتالي:

١- تحول الاقتصاد إلى العالمية، وهو أمر يصعب الفصل في شأنه، فهل العالمية ناتج لانتشار شبكة المعلومات؟ أو أن انتشار شبكات المعلومات كانت أحد المظاهر التي أدت إليها ظاهرة العالمية؟

٢- مع ازدياد سرعة اتباع حركة الأعمال وتعقدها نمت الحاجة لسرعة تبادل المعلومات بين مواقع العمل المختلفة داخل المؤسسة الواحدة وبين المؤسسات بعضها مع بعض، لقد أصبحت شبكات المعلومات بمثابة ضابط الإيقاع الذي يضمن تزامن أداء شركاء العمل.

٣- الاتجاه لتفتيت الإعلام الجماهيري ليصبح أكثر تصويباً، وذلك من أجل تنويع الخدمة الإعلامية والإعلانية وبثها لفئات الجماهير المستهدفة بها، وذلك بدلاً من أسلوب البث المشاع الذي تلتقطه الجماهير كافة، يتطلّب هذا ربط فئات الجماهير

بمراكز الإعلام من خلال شبكات خاصة.

٤- لم تعد عملية اتخاذ القرارات معتمدة على المعلومات المتوافرة من داخل المنشأة فقط، بل أصبحت تعتمد في كثير من الأحيان على معلومات من خارجها، وذلك بسبب تشابك العالم وترابط أحداثه، فالإدارة الفندقية - على سبيل المثال - تحتاج إلى معلومات عن حركة السياحة والنقل الجوي ونشاط وكلاء السفر والإدارة الصناعية تحتاج إلى معلومات عن حجم السوق وعن موردي المعدات والمواد الخام والوسيطة وما شابه.

٥- الاتجاه المتزايد لمؤسسات الأعمال حالياً نحو تقليل حركة الأفراد والاستعاضة عنها بالاتصالات الهاتفية والتاكسي وعقد المؤتمرات عن بعد، وذلك بهدف توفير الطاقة وتخفيض كلفة الإقامة والوقت الضائع في سفر الأفراد لأغراض العمل.

٦- تحسين الخدمات في مجال النقل والسياحة والفندقة والخدمات المالية والصحية، وهو الأمر الذي تطلب سرعة تجاوب عالية من أجهزة تقديم هذه الخدمات لتلبية طلبات العميل في أقصر وقت ممكن، وتقديم سلسلة من الخدمات من موضع الخدمة نفسه (كدمج خدمات حجز الطائرات مع تلك لحجز الفنادق وتأجير السيارات) وهو ما استوجب إقامة حلقات ربط بين مراكز الخدمة ذات الصلة، وأدى في كثير من الأحيان إلى إقامة شبكات خاصة لتحقيق معدلات أعلى للكفاءة والسرعة لا توفرها الشبكات العامة.

٧- انتشار نظم الأتمتة: وما ترتّب عليها من ضرورة اتصال مواقع الإنتاج المختلفة بعضها مع بعض وربط هذه المواقع بمركز معلومات السيطرة التابع للإدارة المركزية عادة، بل وتسعى بعض مؤسسات الأعمال حالياً نحو مزيد من الأتمتة من خلال ربط مواقع الإنتاج بشبكة توزيعية ضماناً لسرعة تجاوب الإنتاج مع تقلبات السوق وتوجهاته.

إن الاتصالات هي قرن الاستشعار الذي ينقل إلى الشركات نبض السوق وتقلباته، فها هي شركة (بنيتون) لصناعة الملابس تقيم إستراتيجيتها على شبكة اتصالات تغذى يومياً لمخططي الإنتاج لديها لمعرفة توجهات السوق وتغير أذواق المشترين.

٨- التصدّي لكثير من الظواهر الكونية والإقليمية كتغيّر مناخ الكرة الأرضية وتآكل طبقة الأوزون ومراقبة حركة المياه والمحيطات وانتشار مواد التلوث، وهي الأمور التي تطلبت نشر محطات المراقبة على مستوى الكرة الأرضية وربط هذه المحطات ببنوك المعلومات ومراكز البحوث المتخصصة.

٩- الاتجاه المتزايد لكسر احتكار المدينة للخدمات التعليمية والإعلانية والثقافية والصحية، مما تطلّب معه نظم اتصالات لمدّ هذه الخدمات للمناطق الريفية والنائية.

١٠- تحوّل تصميم نظم الحاسبات من المركزية إلى اللامركزية (التوزيعية) فمعظم نظم المعلوماتية الحديثة قد تخلصت من المخطط (الأخطبوطي) للكمبيوتر المركزي الضخم الذي تصبّ فيه جميع بيانات المؤسسة وتنبثق منه جميع مستخرجاتها، لقد استعيض عن ذلك بمجموعة من الحاسبات الصغيرة أو المتوسطة الموزّعة على مواقع العمل المختلفة التي يتم ربطها من خلال شبكات محلية لنقل البيانات أو غير محلية.

١١- الاتجاه المتزايد نحو المشاركة في موارد المعلومات، مثل اشتراك المكتبات الجامعية في كتالوج موحد، يجمع كل المراجع وموارد المعلومات الأخرى التي تضمها شبكة الجامعات المشتركة في النظام الموحد.

١٢- وأخيراً التوسّع في تقديم خدمات المعلومات إلى المنازل كخدمات البنوك والتسوق وبيانات الجو والسفر وأنشطة الندوات ودور المسرح والسينما وما شابه.

اهتمام الدول العربية بتكنولوجيا الاتصالات:

تهتم معظم البلدان العربية بشبكات نقل البيانات، كواحد من أهم مقومات البنية التحتية لتهيئة البلدان العربية لمجتمع المعلومات، وبعد إقامة شبكة بيانات تربط بين الدول العربية أحد الأهداف الرئيسية لتنمية روح المشاركة في موارد المعلومات على مستوى الوطن العربي، لذا يجب أن يتحاشى الإعداد لذلك أخطاء الماضي المتمثلة في غياب التخطيط طويل المدى، وعدم عدالة توزيع خدمة الاتصالات بين العواصم، والمدن والقرى، وبين الفئات المختلفة داخل المجتمع الواحد.

المشكلة هنا أن التخطيط لشبكات البيانات يتطلب رؤية مستقبلية عن أنواع الخدمات وحجم الرسائل المتبادلة عبر شبكات الاتصال، وهي أمور يكتنفها الغموض وتخلق وضعاً تخطيطياً حرجاً، بين زيادة السعة أو نقصانها، مما يؤدي بالمخطط العربي في كثير من الأحيان إلى أن يستسلم في النهاية لتصورات موردي المعدّات.

لهذا وسواه يجب ألا يترك أمر تخطيط شبكات نقل البيانات القومية لهيئات الاتصالات وحدها- والتي رسخت لديها عادة تجاهل جمهور المستخدمين الذين تحولوا بالنسبة لها إلى مجرد إحصائيات، بل يجب أن يتم ذلك بالتنسيق مع الجهات

المستفيدة من المؤسسات والأفراد وموردي المعلومات.

كما يسمح انخفاض كلفة الاتصالات بإتاحة خدماتها للبلدان العربية الفقيرة والمناطق النائية، بحيث تترابط المناطق المختلفة في الوطن العربي في وحدة اتصالية مكتملة ومتكاملة، يمثل ذلك الركيزة المادية لتوحيد الخدمات الإعلامية والتعليمية والثقافية على مستوى الوطن العربي، ويجب أن يصاحب ذلك إسقاط حواجز الاتصالات بين البلدان العربية، فليس من المنطقي أن يكون اتصال القاهرة بواشنطن أيسر من اتصالها بدمشق، ربما تطلب ذلك إعادة النظر في قوانين الرقابة على تبادل الرسائل في بعض البلدان العربية كسوريا والعراق مثلاً.

ويجب التوسع في استخدام الأقمار الصناعية لتوصيل المناطق الصحراوية في المغرب العربي، وشبه الجزيرة العربية، والوادي الجديد في مصر، وفي هذا الصدد لزم التنويه إلى ما أشار إليه البعض من خطورة إطلاق أقمار صناعية عربية على أساس من التقسيمات شبه الإقليمية كقمر صناعي لدول مجلس التعاون، أو دول الاتحاد المغربي، على سبيل المثال.

غير أنه على العالم العربي أن يتهيأ لاحتمال ظهور نوع جديد من الطبقية، وهي ما يمكن أن نطلق عليها «الطبقية الاتصالية»، فقد توقع البعض أن ينقسم العالم من حيث طبيعة خدمات الاتصال والإعلام إلى فئتين: فئة الألياف الضوئية، وفئة الإعلام التجاري التي ستتيح خدمات معلومات أرقى بكثير لطبقة الأغنياء القادرين الذين سينعمون بالسعة الهائلة التي تتميز بها الاتصالات الضوئية.

وهكذا بات من الممكن أن ينزعوا عن أنفسهم الآثار الضارة التي خلفتها عهود التلقي السلبي، ومن مواقعهم في منازلهم أو مكاتبهم سينفذ أصحاب الحظ السعيد إلى مصادر المعلومات والمعرفة، يتفاعلون معها في حوار مثمر ينمّي قدراتهم ويضاعف من فرصهم، أو بقول آخر ستضع شبكات الاتصال (العالم بين أيديهم).

أمّا الفئة الثانية فـ(العالم) (فوق رأسها)، فهي فئة الأقمار الصناعية أو فئة الإعلام السلبي الذي يبث إلى الفقراء مايحلو لأصحابه أن يبثوه ليزداد هؤلاء البؤساء سلبية واغتراباً وقهراً، فلا حكم لهم على ما يتلقونه، أو يلقى عليهم بالأصح.

لكن مشكلتنا نحن العرب كيف نواجه بشر العالم المتقدم وهم مدججون بهذه الوسائل الفعالة لتعريتنا معلوماتياً، فمهما زادت حساسية ما لديهم من أقمار صناعية ونظم استشعار عن بعد لا يمكن أن تنقل

لهم نبض الشارع العربي كما يستطيع فعل ذلك من يزوروننا منهم، وفي صحبتهم ثنائي المعلومات الفعّال، وإذا كنا قد شكونا في الماضي من مراسلي وكالات الأنباء والصحف الأجنبية، فعلينا أن نعد أنفسنا لمواجهة أساليب التجسس الأمنية الذي يصعب اكتشافها ومحاصرتها، ولنستعد للقاء خبراتهم ومفاوضيهم ترافقهم هيئات مكاتبهم وما تحتويه مكتباتهم التي أصبحت متاحة عن بعد.

ومع زيادة قدرة الكمبيوتر وسعة ذاكرته وشدة الحاجة لعبور المعلومات الحواجز الجغرافية، واللغوية بالتالي، ظهرت الحاجة إلى شيفرة متعددة اللغات يمكن أن تستوعب جميع اللغات بدءاً من أبسطها كالإنكليزية إلى أعقدها كاليابانية والصينية، فتركزت جهود التعريب على تلك الخاصة بالحرف العربي بهدف تسهيل إدخاله من لوحات المفاتيح وإظهاره على الشاشات المرئية أو الطابعات.

ومن المتوقع أن يترتب على ظهور الشيفرة متعددة اللغات أن تنتقل مسؤولية التعامل مع الحرف إلى موردي العتاد أو شبكات الاتصال أو مطوري نظم التشغيل، فعلى ما يبدو لقد سقط الحرف تماماً تحت سيطرة تكنولوجيا المعلومات، بعد أن توافرت وسائل طيّعة للغاية تتيح التعامل مع حروف جميع لغات العالم نذكر منها طابعات الليزر والشاشات ذات التحليل العالي.

معنى ذلك أننا يجب أن ننقل موضع اهتمامنا من معالجة الحرف العربي إلى الكلمة والجملة والسياق، أو بمعنى آخر إلى الجوانب ذات البعد اللغوي العميق والذي يصعب على الأجنبي الدخول فيها إما لعدم توافر المعرفة اللغوية اللازمة أو لعدم وجود الدافع التسويقي لاستثمارات ضخمة في هذا المجال نظراً لصغر حجم سوق المعلومات العربية مقارنة بالأسواق العالمية الأخرى.

وتشير جميع الدلائل إلى أن الاحتكاك اللغوي سيزداد، خاصة وأن هناك حالياً ما يمكن أن نسمّيه بظاهرة الانفجار اللغوي المصاحب لحركة إعادة إحياء القوميات على مستوى العالم، ويكفي مثالاً أن هناك ما يقارب من ١٠٠ لغة قد برزت إلى السطح بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، يعني ذلك ضرورة الاهتمام بالأمور المتعلقة بالترجمة الآلية، خاصة وأن خدمات الترجمة وإعادة الصياغة يمكن أن تمثل نوعاً من الخدمات الإضافية، التي تقوم بها شبكات خدمات المعلومات في المستقبل القريب.

ستوفّر هذه الإمكانات لنظم المعلومات متعددة اللغات، أرضية مواتية لحوار الثقافات واحتكاكها، وعلى مثقفينا أن

يستعدوا لهذا النزال الحضاري، ولا يصح أن نحصر هذا الحوار في المفهوم الضيق لما اعتدنا أن نطلق عليه استشراقاً، ونظل نشكو من انحياز المستشرقين ونجمعهم جميعهم في بوتقة واحدة، بما في ذلك من جحود لأصحاب الفضل منهم، لما أسهموا به من دراسات جادة ومفيدة في الجوانب المختلفة لتراثنا.

ولا يمكن لنا مهما علا صراخنا أن نحرم الآخرين من أن يكون لهم وجهة نظرهم في واقعنا وتفسيراتهم الخاصة لشواهد ماضينا وتوقعاتهم عن مستقبلنا. إنَّ علينا أن نتخلص من شعورنا بأننا مجرد أشياء خامدة معدّة لفحصهم المجهري، ونرقى لمستوى حضارتنا وتراثنا، لنتحاور معهم من موقع الندّ الذي لا يرى نفسه من خلال نفسه فقط، بل أيضاً من خلال نظرة الآخرين إليه ونظرته هو إلى الآخرين أيضاً.

إذن، علينا أن نعلم بأنَّ الحوار باللغة الطبيعية مع الكمبيوتر هو أمر حتمي، ويشبهه البعض بالنقلة النوعية بين السينما الناطقة والصامتة، ويحتاج هذا إلى مراحل إعداد وتجريب طويلة، نظراً لأن اللغة العربية تفتقد إلى البحوث الأساسية في مجال اللغة المنطوقة، ناهيك عن معالجة الكلام العربي آلياً وهو الواقع الذي يتطلّب العمل على أساس الفريق البحثي الكامل نظراً للطبيعة الخاصة لهذا المجال عابر التخصصات وبصفة عامة يجب الاهتمام بوحدات الإدخال والإخراج العربية نظراً لأنها خط المواجهة الأول مع المستخدم العربي والتي تحدّد مدى سلاسة وعمق التفاعل بينه وبين آلته الجديدة، ويتطلب ذلك معرفة دقيقة بخصائص هذا المستخدم ومطالبه.

إنَّ التراخي في هذا الواجب ستظهر آثاره مستقبلاً بشكل كبير، حيث تختلف مطالب المستخدم العربي في جوانب أساسية كثيرة مع تلك للمستخدم الإنجليزي أو الياباني.

المراجع

- من كتاب العرب وعصر المعلومات، تأليف: د نبيل علي، طبعة نيسان، ١٩٩٤م.

التقنية الحيوية.. مفهومها وتطبيقاتها

د. أحمد غنام ٭

استخدم الإنسان التقنية الحيوية منذ آلاف السنين في صناعة الخبز والجبن والكحول وسواها من أساليب التخمير، وتشير الأدبيات العلمية على أن عصر التقنية الحيوية الأوّل يعود إلى ستة آلاف سنة قبل الميلاد عندما استخدم السومريون والبابليون الخميرة في صناعة الخبز والكحول. وقد لعبت هذه الأساليب الميكروبيولوجية دوراً هاماً في الاقتصاد المنزلي لفترات طويلة بحيث شكلت جانباً هاماً من عمليات التقنية

الحيوية مستعملة بذلك البكتريا والخمائر والطحالب والخلايا النباتية والحيوانية، ومع بداية القرن العشرين المنصرم حدث تطور مذهل في علم الوراثة والأحياء الدقيقة، وخصوصا بعد اكتشاف بنية مادة الوراثة عام ١٩٥٣م من قبل «واطسون» و«كريك»، وبالتالي تمت معرفة كيفية انتقال الصفات الوراثية عبر الأجيال، وقد أدى ذلك إلى انتشار منتجات ووسائل التقنية الحيوية في مجالات الحياة كافة، ودخلت تطبيقاتها في حقول الصناعة والزراعة والطب والصيدلة والطاقة والتعدين والبيئة.

مفهوم التقنية الحيوية وتعريفها

أولاً- لعلَّ ما يميز التقنية الحيوية أنَّها تجمع بين الوسائل العلمية الحديثة لحل

٭ أديب وناقد.

المشاكل ألا وهي (التقنية) وإنتاج منتجات مفيدة (حيوية).

ومفهوم التقنية الحيوية مستخدم منذ آلاف السنين عندما استخدمت الحيوانات والنباتات لإنتاج الغذاء واللباس والدواء. وبدأ هذا المفهوم بالتغير في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين عندما استخدمت بعض الكائنات الدقيقة لإنتاج المضادات الحيوية والأمصال وكذلك الخمائر.

وتطور مفهوم هذا العلم أخيراً بعد اكتشاف المادة الوراثية (DNA) بتفاصيلها الدقيقة (الصبغيات، المورثات- الجينات، والقواعد الآزوتية). وخلال الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي بدأ الإنسان في استخدام بعض مكونات الخلايا في التطبيقات الحيوية مما طور مفهوم التقنية الحيوية إلى التطبيقات المتخصصة جداً، ومن هنا نشأت تعاريف عدة لهذا العلم، ومنها: هي أي تقنية تستخدم الكائنات الحية أو مواد منها لصنع أو تعديل منتج أو لتحسين النباتات أو الحيوانات أو لتطوير أحياء دقيقة لاستخدامات معينة، وذلك بكفاءة عاليه وسهوله في عمليات التحوير الوراثي للجينات إضافة لذلك تكاثر الكائنات وأن يكون ذلك بطرق تقنية حديثة. كما أنه نشأ تباين شديد في تعريف هذا العلم بين المدارس العلمية وأصبح له عدد من التعاريف. فالتعريف البريطاني: التطبيقات الحيوية والأنظمة ومراحل الإنتاج التصنيعية. والتعريف الياباني: تقنية تستخدم الظواهر الحيوية لنسخ وإنتاج منتجات حيوية مفيدة. والتعريف الأمريكي: استخدام منظم للأحياء مثل الأحياء الدقيقة أو المكونات الحيوية لأغراض مفيدة.

أمَّا التعريف الأوروبي: والذي فصل في مدخلات العلم وأدواته فهو «الاستخدام المتداخل لعلوم الكيمياء الحيوية والأحياء الدقيقة والهندسة للوصول إلى تطبيقات صناعية من الأحياء الدقيقة وزراعة الأنسجة أو أجزاء منها».

التقنية الحيوية في حياتنا المعاصرة

لما كانت العلوم الحياتية تتفرد بخصوصية أساسية في تماسها المباشر بالإنسان وملازمتها لحياته وغذائه، فقد تطورت معارفها بشكل ديناميكي وسريع إلى أن أخذت أشكالاً وآفاقاً متعددة ومتداخلة، وأفرزت منظومة معرفية جديدة ذات علاقة مباشرة وأساسية بالتنمية هي منظومة التكنولوجيا الحيوية أو التقنيات الحيوية (البيوتكنولوجيا). وقد أصبحت هذه المنظومة تمثل قاعدة أساسية واسعة لبرامج التنمية المختلفة، ومؤشراً على مدى التفوق والتقدم العلمي والحضاري،

ولاسيما في مجال توفير وتنمية احتياجات الإنسان الغذائية والدوائية، والصناعات البيئية والاقتصادية وغيرها. فالتقنيات الحيوية هي تسخير معرفة العلوم الحياتية وتطبيقاتها لأغراض تكنولوجية وصناعية لأعمال بناءة في خدمة الإنسان.

إنَّ مفهوم التقانات الحيوية قديم الممارسة إلا أنَّ المصطلح حديث المنشأ، حيث تصاعد البحث والابتكار في هذا المجال إلى أن بلغ معنى الثورة العلمية للتقانات الحيوية مع نهاية القرن العشرين. فالبيوتكنولوجيا هي مجمل التقنيات والمعارف المرتبطة باستخدام ما هو حي في عمليات الإنتاج المنبثقة من أوجه التقدم الحديثة التي حققتها البيولوجيا الجزيئية. وفي عالمنا هذا الذي تتناقص فيه الطاقة والموارد الطبيعية، تقدم البيوتكنولوجيا مصدراً متجدداً للغذاء والطاقة بل حتى الكيماويات الصناعية. ويعد علم التقنية الحيوية أحد ميادين العلوم التطبيقية والتكنولوجية المبنية على الخصائص الفريدة للمادة الحيوية، وللتقنية الحيوية تعريفات عدة تختلف في نطاقها الشكلي ولكنها تتفق في النطاق الجوهري فهي تعرف بمفهومها الواسع على أنَّها «مجمل التقانات التي تستخدم النظم الحيوية والكائنات الحية أو مكوناتها لإنتاج أو تحوير أو تطوير منتجات أو عمليات من أجل استخدامات معينة قد تكون ذات قيمة وفائدة للإنسان».

ولا تتحقق التطبيقات الناجمة عن التكنولوجيا الحيوية إلا بدمج عدد كبير من المجالات العلمية والتكنولوجية، فعلم التقنية الحيوية علم متعدد الجوانب ويعتمد على الكثير من العلوم الأخرى كالفيزياء الأحيائية التطبيقية والكيمياء وعلم الأحياء الدقيقة والكيمياء الحيوية وعلم الوراثة وعلم الفيزيولوجيا وعلم الأحياء الجزيئي وعلم الإنزيمات والكيمياء التحليلية وعلوم الأغذية والهندسة الكيميائية والأحياء المجهرية الصناعية وغيرها.

إنَّ علم التقنية الحيوية علم يتعامل مع الكائنات الحية لإنتاج المواد أو لتقديم بعض الخدمات للإنسان، وقد عكف الإنسان على تطويع بعض الكائنات الحية بطرق بسيطة تطورت مع التقدم العلمي حتى استطاع الإنسان أن يتحكم في العديد من الكائنات، ومع تقدم الثورة الصناعية في القرن الماضي نشط الإنسان في استخدام الآلات المبتكرة في تحسين كفاءة التقنيات الحيوية التقليدية، مما أحدث طفرة كبيرة في مجالات الإنتاج النباتي والحيواني وإنتاج اللقاحات وتشخيص الأمراض.. وغيرها.

ومن بين أهم التقنيات الحديثة ما يسمى بالهندسة الوراثية وتقنية إعادة

تركيب الحمض النووي (DNA)، وكذلك معالجة الشيفرات الوراثية في الحيوانات ونقلها أو ما يسمى بالعلاج الجيني، وكذلك زراعة الأنسجة النباتية والحيوانية وزيادة أعداد الأجنة لحيوانات المزرعة الاقتصادية وعلاج حالات العقم عند الإنسان عن طريق الإخصاب الخارجي (أطفال الأنابيب) واستخدام الخلايا الجذعية في العلاج الخلوي إضافة إلى اكتشاف طرق الاستنساخ والدمج الخلوي وطرق الحفظ الخلوي لفترات زمنية طويلة وغيرها من التقنيات المتعددة والمختلفة.

أساليب التقنيات الحيوية

- **تقنية زراعة الأنسجة:** وهي زراعة وتنمية الخلايا والأنسجة ضمن أوعية في المخابر (الزراعة في الزجاج).

- **الاستنساخ:** الاستنساخ هو إنتاج أعداد متطابقة وراثياً من الجزيئات والخلايا والحيوانات والنباتات. وهناك ثلاثة أنواع من الاستنساخ:

١- الاستنساخ الجزيئي.
٢- الاستنساخ الخلوي.
٣- الاستنساخ الحيواني.

- **التحوير الوراثي:** يحدث التحوير الوراثي بنقل المورثات من نوع إلى آخر أو بتحوير مورثات ذات النوع الواحد.

- **هندسة البروتينات:** تعتمد هذه التقنية على مفهوم التحوير الوراثي من أجل إنتاج بروتينات محددة أو بروتينات جديدة لها تطبيقات مفيدة مثل الإنزيمات والمحفزات الحيوية.

- **تقنية التهجين:** اعتمدت التقنيات السابقة على استخدام الكائن الحي فقط إلا أنَّها فتحت آفاقاً علمية جديدة من خلال استخدام المادة الوراثية وقدرتها على التعرف والالتصاق بالجزء المكمل أو المشابه لها، وذلك بربطها بالعلوم والمعارف الأخرى لتعطي تطبيقات مفيدة.

مجالات التقنية الحيوية

الطب والرعاية الصحية للإنسان:

استفادت هذه المجالات كثيراً من تطبيقات التقنية الحيوية بدءاً من إنتاج المضادات الحيوية والأدوية الأخرى في منتصف القرن الماضي إلى استخدام أساليب الهندسة الوراثية وتقنية إعادة تركيب الحمض النووي (DNA) ومعالجة الشيفرات الوراثية في الحيوانات ونقلها أو ما يسمى بالعلاج الجيني، واستخدام طرق الاستنساخ، والإخصاب الخارجي (أطفال الأنابيب)، والحقن المجهري، وزرع الأنسجة، والدمج الخلوي، والخلايا الجذعية، وتقنية التجميد للخلايا والأعضاء والأجنة وإنشاء

بنوك الأمشـاج، جراحات المناظير، والعلاج بأشعة الليزر والكشف عن إمكانية الإصابة بالأمراض الخطيرة في المستقبل من خلال فحص خريطة الجينوم البشري وغيرها من التقنيات التي تساعد في علاج بعض حالات العقم عند الإنسان أو تحسين الإنتاج الحيواني أو علاج بعض الأمراض الوراثية. وإضافة إلى استحداث مركبات مناعية وتشخيصية ودوائية لم تكن متاحة من قبل من خلال أساليب الهندسة الوراثية، يمكن تكثيف إنتاج المواد المعروفة من خلال التحكم الدقيق في التركيب الوراثي للخلايا وفي العملية الإنتاجية ذاتها. وقد بدأت شركات الصناعات الدوائية بتصميم العقاقير المعتمدة على المعلومات التي توفرها الجينات بدل الاعتماد على الكيمياء الدوائية. وتقدم هذه المنتجات علاجات لأمراض لم تكن متاحة من قبل، فعلى سبيل المثال أصبح الأنسولين علاجاً ممكنا لمرض السكري من خلال تقنية الحمض النووي المعاد تجميعه كما أصبح لقاحاً لمرض الالتهاب الكبدي الوبائي B.

كما سيعمل العلاج الجيني والتقنيات المضادة على تطوير علاج أفضل ولقاحات لمرض نقص المناعة البشرية المكتسب الإيدز، والملاريا، والسرطان، وأمراض القلب، والاضطرابات العصبية. ويمكن النظر إلى هذه التطبيقات في إطار قطاعين أساسيين هما:

أولاً- التشخيص: وتستخدم المواد التشخيصية المستحدثة في تشخيص الأمراض كالأمراض الوراثية والأمراض الخبيثة والأمراض الميكروبية والطفيلية والأمراض الناتجة عن خلل وظيفي لبعض الأعضاء.

ثانياً- العلاج: وذلك من خلال إنتاج مواد علاجية كالمضادات الحيوية والمستحضرات المناعية والهرمونات والأنترفيرون وكذلك من خلال العلاج بتعديل الجينات البشرية (العلاج الجيني). وتقسم أساليب التقنية الحيوية في العلاج إلى قسمين:

أ - التقنية الحيوية التقليدية: تستخدم الأساليب غير الجزيئية وتشمل مجموعة واسعة من العمليات مثل زراعة الخلايا والأنسجة وغيرها.

ب - التقنية الحيوية الحديثة: تستخدم هذه التقنية الأساليب الجزيئية أي أساليب التعامل المباشر مع المادة الوراثية (DNA). وتشمل مجموعة من العمليات مثل التحكم بالجينات وإعادة اتحاد أو تجميع المادة الوراثية. وقد فتحت هذه الأساليب الحديثة الطريق إلى إنتاج سلالات ذات قيمة اقتصادية عن طريق تعديل الصفات الوراثية من خلال تغيير أو نقل الجينات إلى

كائن آخر، وبالتالي إحداث طفرات وراثية وهو ما يعرف بالهندسة الوراثية.

تطوير وزيادة الإنتاج الغذائي

مع أن كمية الإنتاج العالمي من الغذاء كافية لسد حاجة السكان على هذه الكوكب وذلك في حالة توزيعه بالعدل (بحسب تقارير منظمة الأغذية والزراعة العالمية)، فالمشكلة ليست مشكلة إنتاج ولكنها مشكلة توزيع، فالبلدان المتقدمة الغنية تضم فقط ٢٠٪ من مجموع سكان العالم ومع ذلك فإنها تستهلك نحو ٨٦ ٪ من الاستهلاك العالمي.

إنَّ أهداف التحسين أو التعديل الوراثي باستخدام التقنية الحيوية الحديثة هي نفسها تقريبا الأهداف التي كان يسعى العلماء لتحقيقها بطرائق التربية التقليدية، فكلاهما يسعى إلى تحسين إنتاجية الحيوانات وكفاءة تحويل الغذاء وزيادة قدرة الحيوانات على مقاومة الأمراض والتأقلم مع الظروف البيئية. إلا أنَّ التعديل الجيني باستخدام التكنولوجيا الحديثة يتميز بخاصيتين جديدتين لانستطيع تحقيقهما بالطرق القديمة وهي: سرعة الحصول على الصفات المرغوبة - نقل صفات معينة (جينات) بين الأنواع لا يمت بعضها إلى بعض بصلة وهذا ما أدى إلى تكوين الحيوانات المعدلة وراثياً. ويمكن تلخيص أهداف الهندسة الوراثية في الحيوانات فيما يلي:

١- تحسين إنتاجية الحيوانات.

٢- تغيير خصائص المنتجات الحيوانية وإنتاج مركبات حيوية مهمة.

٣- زيادة قدرة الحيوانات على مقاومة المرض.

٤- تحسين قدرة الحيوانات على الاستفادة من العناصر الغذائية.

٥- زيادة قدرة الحيوانات على التأقلم مع الظروف البيئية.

٦- الكشف عن الملوثات البيئية.

ومن الأمثلة عن تطبيقات الوراثة والهندسة الوراثية في النبات: ساعد تطبيق الهندسة الوراثية في تطوير عمليات تحسين المحاصيل وإنتاج أصناف لها صفات إنتاجية عالية، والأمثلة في ذلك عديدة:

- تحسين نوعية البروتينات المختزنة في النباتات.

- إنتاج نباتات لها القدرة على تثبت النيتروجين وخاصة غير البقولية منها.

- إنتاج نباتات مقاومة للمبيدات والجفاف والملوحة والصقيع.

- كما استفاد مربو الحيوانات من تطبيقات الهندسة الوراثية والتقنيات الجديدة المستعملة في هذا الميدان،

مثل التلقيح الاصطناعي، ونقل الأجنة، واستخدام الأنثى كحاضنة.

معالجة النفايات وتوليد الطاقة

وتلعب التقنية الحيوية دوراً هاماً وأساسياً في معالجة الفضلات (النفايات) مثل معالجة مياه الصرف الصحي والتخلص من الفضلات الصناعية والزراعية لاستهلاكها في إنتاج الطاقة، أو تحويلها على مركبات قابلة للتخمر بوساطة الكائنات الحية الدقيقة ثم إلى بروتينات مفيدة، ومن أهم إنجازات التقنية الحيوية التقليدية الغاز الحيوي الذي ينتج من تخمير الفضلات العضوية لإنتاج طاقة نظيفة ويساهم في تخليص البيئة من مشكلة النفايات، وتعتمد كثير من البلدان مثل الصين على هذا الوقود الحيوي في توليد الكهرباء، كما يستخدم الكحول الناتج من تخمر قصب السكر وقوداً في محركات السيارات كما في البرازيل التي يزرع فيها قصب السكر بكثرة لإنتاج الكحول، كما يعمل العلماء حاليا على الاستفادة من زيوت بذور بعض النباتات وثمارها مثل النخيل وعباد الشمس والفستق والزيتون في إنتاج الوقود، ومن هنا فإنَّ إنتاج أشكال عديدة من الوقود الحيوي المتجدد، بما في ذلك الميتان وغاز الهيدروجين والكحول والذي لا يخل بالتوازن البيئي.

في الصناعات الدوائية والكيميائية

كما إنَّ التقنية الحيوية تمكننا من تصنيع العقاقير والكيميائيات الصناعية بطريقة أقل كلفة وبقدر من التلوث أقل بكثير من الطرق التقليدية، كما تمضي إمكاناتها لمدى أبعد من ذلك، فهي تبشرنا أيضا بكوكبة من المنتجات الحيوية الجديدة التي ستكون جزءاً من الألفية الجديدة، وقد تتحول النباتات إلى مصانع صغيرة للحصول على مصادر جديدة للمواد الخام اللازمة لصناعة البلاستيك والدهانات والألياف الصناعية والمواد اللاصقة والمنظفات وغيرها، وتمتاز منتجات التقنية الحيوية بأنَّها صديقة للبيئة، ذلك أنَّها قابلة للتحلل البيولوجي ومصادرها متجددة، وحديثا قام مجموعة من العلماء بتطوير مادة لاصقة من نشا الذرة، ومن المتوقع أن تشكل هذه المادة بديلاً اقتصادياً وبيئيّاً للمواد اللاصقة ذات الأصل البترولي، وفي دراسة أخرى تمَّ إنتاج منظفات ذات أصل نباتي وقد أثبتت هذه المنظفات كفاءة عالية في إزالة الشحوم والتنظيف، كما تمكن العلماء من استخلاص مادة رغوية من البكتين الموجود في لب وقشور الحمضيات حيث يمكن استخدام هذه المادة في صناعة المنظفات بعد إضافة بعض العوامل السطحية إليها.

وفي هذا السياق فإنّه من المعروف أن النشا والسكريات المستمدة من الذرة وغيرها من النباتات تعتبر الأساس لعمليات تطوير البوليميرات الحيوية الجديدة التي تستخدم في صناعات النسيج والأقمشة والأثاث، فمثلا قام العلماء بتطوير سلالات من البكتريا المهندسة وراثيا لهضم الغلوكوز المستمد من الذرة وتحويله إلى مبلمرات تستخدم في العديد من الصناعات، وتجرى حالياً دراسات لإنتاج مواد تدخل في صناعة مواد التجميل والأدوية وغيرها، ومن أهم ما أعلن عنه حديثا قيام فريق من الباحثين بإنتاج مادة بلاستيكية من النباتات قابلة للتحلل البيولوجي يمكن أن تؤدي إلى آفاق مستقبلية تجارية، فقد نجح الباحثون بمعاملة أو مقابلة المورثات في نباتات الجرجير والكولزا، وتوصلوا إلى إنتاج هذا البلاستيك الذي من الممكن أن يستخدم في صناعة التغليف، وهو قابل للتحلل بعد الاستعمال على عكس المواد البلاستيكية المستعملة في الوقت الحاضر التي تسبب مشاكل بيئية مختلفة ومتنوعة.

وخلاصة القول: إنّ إنتاج مواد مثل المذيبات والمنظفات والمواد اللاصقة والبلاستيك وغيرها من النباتات باستخدام التقنية الحيوية يقلل من الاعتماد على المواد الخام ذات الأصل البترولي، الأمر الذي من شأنه أن يخفف من انبعاث الغازات الدفيئة ويساهم في الحفاظ على سلامة البيئة.

أقل استهلاكاً للطاقة

وفي النهاية تمتاز التقنية الحيوية بأنّها أكثر فاعلية وأقل استهلاكا للطاقة وأقل تلوثاً وسمِّيةً وتنتج عنها نفايات أقل، كما أنَّها تعتمد على مواد متجددة، لذا فهي أكثر قابلية للاستمرار في الطبيعة من العديد من التقانات التقليدية، وتشمل الاستعمالات البيئية للتقنية الحيوية تقليص تلوث التربة بالكيمياويات ومعالجة المياه وإزالة التلوث بوساطة الخمائر أو الميكروبات، واستخدام النباتات لمكافحة التلوث بالمعادن الثقيلة ومراقبة البيئة لاكتشاف الملوثات والتخلص من النفايات السامة بطرق مأمونة وفعالة، كما تساهم التقنية الحيوية في التعرض للإشعاعات والكيمياويات والسموم المسببة للسرطان، ومن جهة أخرى فإن التقنية الحيوية مؤهلة لفتح فصل جديد للتراكيب الجديدة للمواد المتلاشية حيوياً ذات المحتوى العالي من النشويات والتي ربما تكون مؤهلة فنتاج مواد بلاستيكية جديدة قابلة للتحلل البيولوجي، وهذه هي نقطة البداية كما أصبح ما يسمى بـ«الكيمياء الخضراء» التي أعلنتها التكنولوجيا الجديدة.

علم السياسة.. المناهج والميادين

محمد علي درويش *

علم السياسة يطرح اليوم على أنَّه المعرفة الوصفية والتحليلية والتبصّرية للدولة وللظواهر المتعلقة بها. وهذه المعرفة تحتاج للدعم بكميات هائلة من المعلومات. لذلك كان التسابق العالمي في مجال المعلوماتية حيث جرى التسابق، ويستمر، على إنتاج المعلومة وعلى تصنيعها وعلى سرعة نقلها وإيصالها للهدف وعلى توليد معلومات جديدة (المستقبليات بشكل خاص). حتى طرحت اليوم فرضيات تقول إنَّ من يملك المعلومات يملك السلطة. وحاجة علم السياسة الماسة إلى المعلومات هي وراء تطور الفروع التي كانت ملحقة به أساساً. فهو قد سمح لها بإنتاج المعلومات وهو لا يزال يجاهد كي يحتكر تصنيع وتوليد هذه المعلومات. في حين ينتج الآخرون معلومات غير مصنعة (أي خام).

علم السلطة

ومن التعريفات الأساسية لعلم السياسة أنَّه علم السلطة. إذ لا تتحقق مفاهيم السياسة والعمل السياسي، بلا سلطة اجتماعية- سياسية، تمارس من خلالها السياسات ومفاهيم علم السياسة.. ويقول المفكر الإنكليزي وليم روبسون: «إنَّ

* كاتب وناقد.

علم السياسة يقوم على دراسة السلطة في المجتمع، وعلى دراسة أسسها وعملية ممارستها وأهدافها ونتائجها».. فهو يحدد بهذا التعريف أنّ علم السياسة، محصور في إطار بنية السلطة وأهدافها، وطريق ممارسة النخب السياسية للسلطة.. وليست السلطة أو الدولة في حقيقتها وجوهرها إلا نوعاً من التنظيم السياسي والقانوني المتكامل للجماعة البشرية.. لذا فإن من الأمور والمكونات النظرية الأولى، التي ينبغي أن يتعرف عليها المحلل السياسي هي السلطة بنيتها- هيكليتها- مؤسساتها- التركيب السياسي لها، والواقع الاجتماعي لها.. بمعنى أنّ السلطة السياسية انبثقت من أي واقع اجتماعي، لأنّه لا شك أنّ واقع السلطة الاجتماعي، سيؤثر بشكل طبيعي على القرارات والسياسات الداخلية والخارجية للسلطة.. وكذلك العلاقة التي تربط النخب السياسية بشرائح وفئات المجتمع المختلفة.. هل هي تخضع لقواعد وقوانين ثابتة، أم هي علاقة يحددها مزاج النخب ومصالحها الشخصية والسياسية؟ وهل هذه السلطة أو الدولة تتمتع بكل قوانين السيادة الداخلية والخارجية، من قبيل: هل هي التي تتولى شؤون حماية أمنها، وأمن المواطنين أم غيرها من الدول والقوى؟ وهل هي تخضع لرقابة خارجية في تسيير شؤونها السياسية والاقتصادية والعسكرية أم لا؟ وهل هي حرة في انتخاب نظام الحكم الذي ترتضيه لنفسها من دون تدخل أي سلطة أو قوة أم لا.. كما أنّه من الضروري معرفة نسبة تدخل النظام والسلطة في الحقل الاقتصادي، وطبيعة القرارات الحكومية أهي إلزامية أو ديمقراطية أو ما أشبه ذلك، والقيم الحاكمة في المجموعات الاجتماعية وبنية النفوذ في النخب السياسية السائدة.. إنّ جميع هذه العناصر والتساؤلات تشكل ما يسمى بـ«علم السلطة» التي لها الدور الأكبر في سن القوانين، وتنفيذ السياسات، وتشكيل الأخلاق، وصنع الدبلوماسيات. وبكلمة: إنّ هذه العناصر بتداخلاتها وعلاقاتها، تشكل مصدر النشاط السياسي بكل صوره وأشكاله.. والمحلل السياسي، لا يتمكن من معرفة حقيقة الأحداث والظواهر السياسية، من دون المعرفة النظرية والاطلاع على بنية السلطة وطبيعتها وأهدافها، وأي واقع اجتماعي تشكله، وأي شكل سياسي ترتضيه وتسعى نحو تنفيذه في المجتمع.. وفي هذا الإطار يبقى علم السلطة هو المكون النظري الأوّل للمحلل السياسي.

التاريخ المعاصر لعلم السياسة

الولادة الحديثة لعلم السياسة بدأت في مطلع خمسينيات القرن الماضي عقب

استشعار الحاجة له بعد الحرب العالمية الثانية. مما دفع المؤسسات الدولية (الناشئة كنتيجة لهذه الحرب)، مثل اليونسكو، على تشجيع نموه وتطوره. حتى إنَّ أوَّل تحقيق لليونسكو في ميدان العلوم الاجتماعية تناول موضوع السياسة ونجم عنه مجلد متعدد المؤلفين تحت عنوان «علم السياسة المعاصر» كما رعت اليونسكو ولادة «الجمعية الدولية لعلم السياسة» التي عقدت مؤتمرها الدولي الأوَّل في زيوريخ عام ١٩٤٩م ثم توالت مؤتمراتها بمعدل مؤتمر كل ثلاث سنوات. وتوالت بعد ذلك الجمعيات والمجلات المحلية والعالمية المتخصصة في مجال السياسة. وترافقت هذه التحركات البحثية مع تطورات أكاديمية فظهرت المعاهد والمؤسسات الجامعية المعنية بتدريس العلوم السياسية لغاية منح درجة الدكتوراه في هذا المجال.

تطور علم السياسة:

- كانت العلوم السياسية تقليدياً تعنى بمجموعة العلوم التي تعالج الجوانب السياسية في العلوم الاجتماعية المختلفة مثل: علم الاجتماع السياسي، والجغرافيا السياسية والاقتصاد السياسي وغيرها. فمثلاً علم الاجتماع السياسي تُعنى بدراسة الجوانب السياسية في علم الاجتماع، والجغرافيا السياسية يعني بدراسة الجوانب السياسية في علم الجغرافيا وهكذا لم تكن لعلم السياسة ذاتية (شخصية) متميزة لقرون عدّة.

- اكتسب علم السياسة شخصية متميزة عن غيره من العلوم الاجتماعية مع ظهور قائمة اليونسكو لعام ١٩٤٨م والتي حدد من خلالها علماء السياسة المجتمعون في باريس أربعة قطاعات لعلم السياسة هي:

١- النظرية السياسية: وتشمل النظرية السياسية وتاريخ الفكر السياسي.

٢- النظم السياسية: وتشمل فروعاً مثل الدستور- الإدارة العامة- النظم السياسية المقارنة.

٣- الحياة السياسية: وتشمل موضوعات عدّة منها: الأحزاب السياسية - جماعات الضغط السياسي- الرأي العام.

٤- العلاقات الدولية: وتشمل العلاقات السياسية الدولية والسياسة الدولية- التنظيم الدولي- القانون الدولي وغيرها.

مناهج البحث في علم السياسة

منهج البحث هو شكل عملية المعرفة، أو أسلوب الباحث في الوصول إلى حقائق الأشياء المحيطة به في الطبيعة والمجتمع من خلال مجموعة من الإجراءات الذهنية والواقعية التي يستخدمها لهذا الغرض.

وهناك مناهج عدّة تستخدم في دراسة علم السياسة منها:

١- **المنهج الفلسفي المثالي**: وهو منهج استنباطي يستهدف الكشف عمَّا يجب أن يكون عليه الواقع السياسي حتى يكون مثالياً فاضلاً، ومن أبرز من استخدموا هذا المنهج أفلاطون اليوناني خصوصاً بصدد فكرته عن المدينة الفاضلة، وأقرب المناهج إليه هو المنهج القانوني المستخدم في دراسة القانون الدولي حيث إنَّ القانون الدولي هو في النهاية مجموعة مبادئ قانونية مثالية تستهدف تحقيق واقع دولي مثالي. مثل مبدأ حل المنازعات بالطرق السلمية ومبدأ المساواة في السيادة بين الدول.. إلخ.

٢- **المنهج التاريخي**: وهو منهج يقوم على تسجيل أحداث ووقائع عالم السياسة من دون تفسير أو تأويل لهذه الأحداث والوقائع، ويقدم التاريخ للمحلل السياسي سجلاً لأحداث عالم السياسة يساعده على فهم وتفسير هذا العالم، لذلك يقال إنَّ علم السياسة بلا تاريخ هو كنبات بلا جذور والتاريخ من دون علم السياسة هو كنبات بلا ثمر. ويستخدم هذا المنهج في دراسة تاريخ العلاقات الدولية.

٣- **المنهج الوصفي (الاختباري الصرف)**: وهو منهج استقرائي يقوم على ملاحظة الواقع السياسي وتسجيل وتبويب البيانات بهدف تقديم صورة وصفية صرفة لهذا الواقع من دون تأويل أو تفسير من جانب الباحث. ويستخدم هذا المنهج في دراسات الحالة، ودراسات المناطق، وقياسات الرأي العام.

٤- **المنهج العلمي التجريبي**: وهو منهج استقرائي استنباطي يقوم على ملاحظة الواقع السياسي والتجريب في شأنه بهدف التفسير والتعميم والتوقع. فهو ملاحظة وتجريب من أجل التفسير والتعميم والتوقع:

- الملاحظة: الإدراك الأولي للواقع.
- التجريب: تكرار الملاحظة.
- التفسير: الوصول إلى الحقيقة.
- التعميم: صياغة قانون عام يستفاد به في تفسير الواقع.
- التوقع: استشراف المستقبل.

حيث يبدأ الباحث بملاحظة الواقع كي يصور فرض عمل (فرض أولي)، ثم يدخل التجريب فإن ثبتت صحة الفرض الأولي يصلح للتفسير ويصير قانوناً علمياً عاماً صالحاً للاستعانة به في فهم الواقع السياسي والتوقع في شأنه.

٥- **المنهج المؤسسي**: وهو منهج دراسة النظم السياسية حيث يركز على المؤسسات السياسية المكوِّنة لهذه النظم (التشريعية والتنفيذية)، والدساتير التي تستند إليها وما تحتوي عليه من قواعد قانونية منظمة.

٦- **المنهج السلوكي:** وهو يقوم على الإفادة من نتائج العلوم السلوكية في مجال الأبحاث السياسية معتبراً أنَّ علم السياسة هو علم ديناميكي يركز على التفاعل بين الظواهر السياسية وبيئتها المحيطة، حيث إنَّها ظواهر غير جامدة، كما يركز هذا المنهج على توجهات ودوافع واستجابات الأفراد والجماعات وتأثير كل ذلك على سلوكهم السياسي.

٧- **المنهج المقارن:** ويقوم على المقارنة بين واقعين أو أكثر بهدف استخلاص نتائج وقواعد علمية عامة لا ترتبط بمكان أو زمان معينين، وكلما زاد عدد الحالات الخاضعة للمقارنة كلما كانت النتائج أكثر دقة وأهمية. وتعتبر المقارنة ركناً أصيلاً في المنهج العلمي التجريبي.

ميادين علم السياسة

يصر الباحثون العاملون في اليونسكو على اعتبار علم السياسة علماً قائماً بذاته، رافضين اعتباره بمنزلة الفن أو المهارة أو الموهبة. وعلى هذا الأساس انطلق هؤلاء الباحثون من الوجود الموضوعي- الواقعي لهذا العلم كي يحددوا ميادينه، متجنبين بذلك الخوض في جدلية الاعتراف به وعدم استكماله لقواعد هذا الاعتراف. ولقد حدد هؤلاء ميادين علم السياسة على النحو التالي:

أ - النظريات السياسية: النظرية السياسية - تاريخ الأفكار.

ب - المؤسسات السياسية: الدستور - الحقوق المركزية- الحقوق الإقليمية والمحلية- الإدارة العامة- الوظائف الاقتصادية والاجتماعية للحكومة- المؤسسات السياسية المقارنة.

ج - الأحزاب والكتل والرأي العام: الأحزاب السياسية- الكتل والتجمعات - مساهمة المواطن في الحكم وفي الإدارة - الرأي العام.

د - العلاقات الدولية: السياسة الدولية - المنظمات الدولية- القانون الدولي.

أمَّا في الجامعات فإنَّ تدريس السياسة يعتمد لائحة تصنيفية قوامها:

١-تاريخ الآراء السياسية.

٢- المؤسسات السياسية.

٣- سوسيولوجيا السياسة.

السياسة وعلم الاجتماع

وفق المفهوم التقليدي لعلم السياسة يكون علم الاجتماع تابعاً للسياسة كفن من فنون تنظيم العائلات وترتيب وتحديد أطر علاقاتها في ما بينها وفق الأنظمة السياسية للحاضرة (المدينة- الدولة). لكن

مبـادئ علم الاجتمـاع- بحسـب أوغست كونت- جـاءت لتهدد هذا التفـوق. بل إنَّ السوسيولوجـي (علم الاجتمـاع) بدا وكأنه يحاول إزاحة السياسة والحلول مكانها كعلم بنيوي قـادر على تحليل الـروح الحقيقية المرتبطـة بالشعور الاجتماعـي العام، فقد دعـا كونـت إلى إزاحة بـؤرة الاهتمام من الحاضرة أو الدولة إلى البشرية التي عرَّفها كونت على أنَّها: مجموعة المخلوقات البشرية السابقـة واللاحقـة والحالية، كمـا يذكّر كونت بالاتصـال عبر الأجيال حيث يرى أنَّ عـدد الأموات (الذين لا يزالـون يمارسون تأثيرهـم وكأنَّهم أحيـاء) في ازدياد مستمر وهنا يصطدم كونت بحاجـز الدين فيحله مكان الدراسة العلمية للبشرية، وكأنه يتكئ علـى الدين ليواجه المفهـوم التقليدي لعلم السياسة.

أمَّـا «دور كهايم» وتلامذته فقد رأوا في السوسيولوجي تجسيداً لعلوم المجتمع ومنها السياسة التي يمكن إلحاقها بالسوسيولوجي. ولقد وصل بعض السوسيولوجيين إلى حدود اعتبـار المجتمع كائنـاً له حياتـه وتاريخه وضميره ومصالحه. بما يحوّل السوسيولوجي باتجاه البحـث في الظواهر الإنسانية. ومن هنا كانت نشأة علم النفس الاجتماعي وعلم نفـس الجماعات وظهور مبـادئ اللاوعي الجماعـي والشخصيـة الأمميـة الممهدة لظهور علم النفس السياسي.

السياسة وعلم النفس

ترتبـط السياسـة بالـ«سيكولوجيا» عبر علاقـة عضوية تعـود إلى البدايات الأولى للفكـر الإنسـاني. أي إلى مـا قبـل تشكل المفاهيـم النظريـة لأي منهمـا. وبالعودة إلى «أرسطـو» نجده يصنـف السيكولوجي والسياسـة والاقتصـاد في إطـار العلـوم التطبيقيـة، معرِّفاً الأخـلاق على أنَّها علم دراسـة السلوك الشخصي، والاقتصاد على أنه علم تدبير معيشة العائلة والسياسة على أنَّها علم تدبير المدينة (الدولة)، لكن الطابع العضوي لهذه العلاقة يعود عملياً إلى حاجة السياسة الماسة لأيـة وسيلة تسهل الاتصال الذي يحتاج بدوره إلى أية معلومة تساهم في إكمال فعاليته وتدعيمها.

وكنا قد أشرنا إلى أنَّ البدايات الحديثة لعلـم السياسة تعـود إلى مطلع خمسينيات القـرن الماضي، وهي قـد اقترنت ببدايات علم النفس السياسي، فقد نشرت منذ مطلع القـرن الماضي العديد من البحوث النفسية السياسيـة، التي بدأهـا «فرويد» بعودة إلى ما قبل الحضـارة البشريـة لينتقل بعدها إلى دراسـة الأساطـير وتحديـداً مناقشة الأساطير اليهودية ومسألة التوحيد في كتابه

«موسى والتوحيد» ليدخل بعدها مباشرة إلى السياسة في مقالته «أفكار لأزمنة الحرب والموت».

ثم كانت دراسات «يونغ» الشهيرة حول الأساطير واللاوعي الجماعي وعلاقتهما باللاوعي الفردي، وبعدها أتت محاولة اتباع «فرويد» والمنشقين عنه للتوفيق بين التحليل النفسي والسياسة والنظرية الماركسية خصوصاً. كما تجدر الإشارة إلى الكتاب الذي نشره «غراهام والاس» في العام ١٩٤١م تحت عنوان «الطبيعة الإنسانية في ميدان السياسة». لكن البحث العلمي الحقيقي في ميدان السيكولوجي السياسية بدأ في الولايات المتحدة أثناء الحرب العالمية الثانية. حين دعمت هذه البحوث بهجرة مكثفة لعلماء النفس الأوروبيين الهاربين إلى أمريكا من الحرب. فبدأت هذه البحوث من منطلقات (عرقية) وسخرت هذه البحوث لدراسة اللاوعي الجماعي والشخصيات الأممية لأصدقاء الولايات المتحدة وأعدائها، في محاولة لتسخير سيكولوجيّة الرأي العام في الاتجاه السياسي المناسب، وهكذا يمكن اعتبار ولادة السياسة والسيكولوجي السياسية في مطلع خمسينيات القرن الماضي ولادة توءم.

السفر عبر الزمن

أسعد طرابيه ❁

هذا النوع من السفر من أكثر ما أربك الإنسان وحيره، وكما نعلم فهو إمَّا سفر للماضي وإمَّا سفر للمستقبل.

وقد وُضعتْ الكثير من النظريات من أجل السفر عبر الزمن ولكن أشدها تأثيراً هي نظرية النسبية لآينشتاين، رغم أنها لاتوضح بدقة السفر عبر الزمن ولكن ربما هناك أشياء لا نفهمها ستساعد في السفر عبر الزمن.

أولا: يجب أن نعرف الزمن، وهناك



الكثير من الأشياء التي تمَّ فهمها بشكل خاطئ عن الزمن ومنها:

١- الوقت هو نفسه أينما كنت، هنا، على القمر أو في الفضاء الخارجي، وهذا

❁ باحث وعضو الجمعية الكونية السورية.

أمر خاطئ والدليل على ذلك هو أن البحرية الأمريكية تقوم بمزامنة ساعات الأقمار الصناعية في الفضاء كل يوم.

٢- الزمن يسير بنسب ثابتة، وهذا خاطئ، لأنَّ الساعات في الفضاء الخارجي تسير أبطأ من الساعات على الأرض.(١)

وقد يبدو السفر عبر الماضي شيئاً مستحيلاً، وذلك لأنَّ الزمن يسير باتجاه واحد، ويطلق الفيزيائيون على هذا المسير اسم (The Arrow Of Time) أو سهم الزمن، وهو إن المسير دائما من الماضي إلى المستقبل، نتذكر الماضي لا نتذكر المستقبل، نعدل الماضي لا نعدل المستقبل، وهو شيء أدركناه من خلال حياتنا اليومية.

السبب في ذلك هو أساس من أساسيات علم الفيزياء والذي يقول إنَّ كل شيء في الوجود ينتقل من الحالة المنظمة إلى الحالة الأقل تنظيما، حيث إنَّ الأشياء التي لايمكن عكسها ترتبط بشكل أساسي بفهم الـ(Entropy) والتي هي مقدار الطاقة المتاحة في نظام مغلق للميكانيكا الحرارية، أي هي درجة عشوائية هذا النظام، وإنَّه من السهل جداً الكشف عن أي تلاعب في الـ(Entropy) وهذا ما نراه في الأفلام عندما يتم عرض الصور بشكل معكوس، فنرى الماء يصعد من الكأس إلى الزجاجة، وبسرعة يدرك الإنسان أنَّ هذا غير منطقي، ومستحيل في الحياة الواقعية.

ويمكن أن نقول إنَّ الأنتروبي هو كيف تتوزع الطاقة بشكل منتظم ضمن نظام الميكانيكا الحرارية وخصوصاً عند التحدث عن انتقال الطاقة من مكان لآخر، وفي الحياة اليومية تتوزع الطاقة بشكل عشوائي، فكلما زاد عمر الكون أصبح أكثر عشوائية، مثال ذلك:

إذا رمينا صحناً على الأرض، سيتحطم إلى أجزاء صغيرة وهو سينشر طاقة و إذا أصلحناه سنبذل عليه طاقة و سيصبح شكله أكثر عشوائية عمَّا كان من قبل نتيجة التشقق والغراء.

نحن نعلم أنَّ لكل جسم جاذبيته حسب نظرية أينشتاين (النسبية) ولكن ما لا نعلمه هو أنَّ الجاذبية لا تجذب لها الأجسام فقط بل تجذب الزمن(٢) وهو الذي يقودنا إلى ثالث هذه الأشياء التي تم فهمها بشكل خاطئ عن الزمن وهي أننا نعيش في عالم ثلاثي الأبعاد، بل نحن نعيش في عالم رباعي الأبعاد حيث إن الفضاء بأبعاده الثلاثة والزمن بكونه وحيد البعد مرتبطين مع بعضهم بنسيج متين ممتد يدعى (Space Time) الزمكان وطبعاً نحن لا ندرك هذا البعد الرابع بهذه السهولة، ومثال ذلك لعبة PACMAN حيث يمكنك التحكم به ليسير إلى الأعلى أو إلى أسفل لليمين

أو لليسار ولكن لا يمكنك أن تجعله يسير للأمام أو للخلف أو حتى تتخيل ذلك. ونحن لا نقدر أن نتخيل البعد الرابع لأنَّه يحتاج إلى منطق كبير، لا يستطيع العقل تحمله.

بالعودة إلى الجاذبية، فإنَّها تطوي الزمكان وبالتالي سينتج لك نقطة تلاق، وهذه النقطة هي التي ستكون بوابة للسفر عبر الزمن، حيث إنك ستقوم بعمل معين قبل هذه النقطة وتسير بالزمن نحو الأمام وعندما تصل إلى النقطة ستعود إلى قبل ما بدأت، ولكن هذا سيعطي تكرارات لا متناهية من الأحداث وبالتالي هذا لن يسمى رسمياً سفر عبر الزمن، إضافة إلى أنه للحصول على مثل هذه الجاذبية سيحتاج إلى ثقب أسود وهو عبارة عن جزء من الزمكان يدور بسرعة تقارب سرعة الضوء، والذي فيه جاذبية تكفي لسحق أي جسم يقترب منه أو يحاول السفر عبره.

يوضح العالم برايان كوكس بأنَّ للجاذبية تأثيراً في الزمكان ككل حيث أنَّه عندما ننظر إلى المجرات من بعيد عبر التلسكوبات نرى أنَّ لها إطارات أو حلقات ضوئية تحيط بها، والضوء ليس له كتلة، بل له طاقة وحركة، والحركة تحتاج لمرور الزمن حتى تتم، والجاذبية تحرف حركته، فهذا دليل على أنَّ الزمكان ينثني وهذا أيضاً يؤكد أنَّ الأرض هي آلة للسفر عبر الزمن بجاذبيتها،

فكما يقول برايان إنه إذا صعدت إلى قمة ناطحات سحاب ووقفت هناك لمدة ١٠٠ سنة ستكون ساعتك أسرع من ساعة على سطح الأرض ب ٩٥ من مليون من الثانية.

فجاذبية الأرض ليست كافية لاستخدامها للسفر عبر الزمن، وكنا قد استبعدنا جاذبية الثقوب السوداء، وجد العلماء أنَّ هناك مايسمى بالخطوط الكونية (Cosmic Strings) وهي خطوط حقل جاذبيتها عالية لدرجة أنَّ متراً واحداً منها بثخن ذرة واحدة ينتج جاذبية تساوي جاذبية الأرض وذلك لأنها بكثافة عالية جداً، لكنها مجرد نظرية ومن الصعب إيجاد خيوط بطول لا متناهٍ حتى يطوى الزمكان.

لكن السفر عبر الزمن وخصوصاً إلى الماضي ليس بالأمر العابر، فإن العبث بالماضي، قد يؤدي إلى تناقضات هائلة ومثال ذلك:

إذا عدت أنت إلى زمن جدك وأقنعته بطريقة أو بأخرى بألا يتزوج من جدتك، بهذه الحالة أنت لن تولد من الأصل، أي إنك لم تكن موجوداً حتى تذهب إلى جدك وتقنعه بأن لا يتزوج جدتك، هذا التناقض يعطي نتائج غير منطقية أبداً، فإنَّ مثل هذا على صعيد المجرات كارثة.

وإذا قلنا إنَّ السفر عبر الزمن ممكن، فإنه لابد للطبيعة أن يكون لها دور في منع

مثل هذه التناقضات لأنها إذا حصلت على صعيد المجرات، سيؤدي ذلك إلى كوارث على صعيد الكون كله، فيمكن أن تقوم الطبيعة بـ:

١- منع السفر عبر الزمن بكل بساطة حتى لا تحصل هذه التناقضات.

٢- وجود فكرة الكون النظير أو الأكوان المتعددة (Parallel Universe or Multi Universes): وهي تقوم على ثلاث نظريات لم يتم إثبات أي منها:

- الأكوان الفقاعية أو الثقوب السوداء الصغيرة: المبدأ الأساسي فيها هو وجود أكوان أخرى لا يمكن أن نصل إليها أبداً فهي إمّا بعيدة جداً أو موجودة داخل الثقوب السوداء، وكل من هذه الأكوان لها قوانينها الفيزيائية المختلفة عن بعضها قليلا، ولكن البشر لا يمكنهم الوجود إلا في الأكوان التي تناسب ظروفها حياتهم والتي تكون نظائر الأرض.

- الأغشية والأبعاد الإضافية (Membaranes & Extra Dimensions) حيث يعتقد العلماء إن الكون الذي يمكننا رؤيته وإدراكه يتكون من ثلاثة أبعاد فضائية وبعد زمني هو موضوع ضمن كون أعظمي مشكل من تسعة أبعاد فهناك حتماً مساحة إضافية في الكون لاحتواء كميات هائلة من الأكوان الأخرى الثلاثية الأبعاد وهي التي تسمى بالأغشية.

- العوالم النظيرة المتفرعة: وهي تقول إنَّ الأكوان النظيرة عددها غير محدود وكل إنسان يعيش في جميعها ولكن طريقة اختياراته وحياته هي التي تلزمه للحفاظ على حياته.

ورغم أنها جميعها غير مثبتة، يمكننا أن نتخيل وجود فكرة الأكوان الفقاعية التي هي ذات تسعة أبعاد وفيها عدد كبير من الأكوان ثلاثية الأبعاد وكلها كجزء واحد لها عدد غير متناهٍ من الأكوان غير المتناظرة.

٣- لن يمكنك تعديل شيء أي شيء في الماضي عندما تتمكن العودة إلى هناك، أي إنَّ الطبيعة ستجد دوماً الحل الأمثل الذي سيحافظ على التناسق ولا يخلق التناقضات.

وأمّا من أجل السفر عبر الزمن للأمام، فإنه أسهل مما نتصور فإن كل ثانية تمضي من حياتنا هي سفر عبر الزمن ثانية للأمام، ولكن الطريقة الأفضل لتسريع هذا هي بالعودة إلى نظرية أينشتاين النسبية، فكلما زادت سرعتك بطئ الزمن لك بالنسبة للذين سرعتهم أقل من سرعتك، كمثال:

عندما تسير في الفضاء، بسرعة الضوء لمدة سبع سنوات ونعود للأرض سيكون قد مرَّ ٥٠٠ عام على الأرض.

وإنَّ أكبر عائق هو إيجاد وقود كافٍ لإعطاء السرعة المناسبة وذلك لأن (حسب قوانين النسبية)

تزداد الكتلة بشكل كبير، عندما تصل السرعة إلى سرعة الضوء.

وبالتالي سنحتاج إلى كميات لا متناهية من الطاقة حتى تحمل كميات لا متناهية من الكتلة.

لكن البقاء في مركبة لمدة سبع سنوات هو سفر بطيء عبر الزمن ولو كان بمقدور الإنسان السير بسرعة الضوء لاستكشف أجزاء كبيرة من الكون لأن أقرب نجم يبعد عنا ٤،٣ سنة ضوئية أي ٢٥ تريليون متر ١٠٠ ألف مرة أبعد من القمر، فإنّ أسرع صاروخ اليوم سيحتاج إلى ٨٠ سنة ليصل إلى هناك.

إنَّ الفيزيائيين قاموا ببحث طويل وعميق عن السفر عبر الزمن في ثمانينيات القرن الماضي عندما ساعدوا الكاتب كارل سغن Carl Sagan في روايته Contact (الاتصال) حيث تخيل المؤلف السفر عبر الزمن بسرعة أسرع من سرعة الضوء بهوةٍ في الفضاء تدعى الثقب الدودي (Worm Hole) وهي قناة تصل بين نقطتين في فضاء رباعي الأبعاد منحني على نفسه بحيث يصل المسافر إلى الطرف الآخر بشكل أسرع من سير الضوء على الانحناء الواصل بين طرفي الثقب، ولإعمال الخيال أكثر، يمكن أن نمتطي إحدى بوابات الثقب الدودي ونسافر بها بسرعة الضوء إلى المستقبل. ولكن صنع ثقب دودي ليس بالأمر السهل رغم وجود القوانين والعلاقات التي تؤكد إمكانية صنعه، ولكن ربما ليس علينا أن نصنع ثقباً دودياً، ربما هو موجود بالأصل في الفضاء وعلينا أن نكتشفه ولربما أيضا يوجد في عالمنا بمعايير ميكروتلسكوبية، حيث يمكن أخذ الثقب الدودي وتكبيره.

كان رون ماليت يحلم منذ صغره ببناء آلة للسفر عبر الزمن، وهو اليوم بروفيسور في جامعة كينيكات، وقد مرَّ عليه نصف قرن وهو في مخبره الخاص يبحث في هذا الأمر، وهو يقول إن السفر عبر الزمن سيصبح حقيقة في القرن ٢١، ويقول إنَّ الضوء يعطي جاذبية، على الرغم من أنّه بلا كتلة لكنه بطاقة حركية، فكانت نظريته تقول:

إنّه إذا تمكن من صنع حلقة من الضوء على مستوى عالٍ، فإنّه سيتمكن من طيّ وثني الزمكان.

طبعا هذا يتطلب تقنيات عالية التطور على مستوى أعلى من إدراكنا الحالي، ولكن التقنيات التي وصلنا إليها لا يستهان بها، حيث أنشأ الإنسان في سويسرا أكبر وأعقد آلة في تاريخ البشرية التي يجتمع فيها علماء من ٨٥ دولة من العالم للعمل فيها وهي بدأت العمل في نوفمبر ٢٠٠٩م وهي تتألف

من قناة تمتد علـى ٢٧٠٣٦ كيلومتراً تسرع فيها البروتونـات إلى سرعات تقارب سرعة الضوء حيث تصبح كتلتها سبعة آلاف ضعف كتلتها الأصلية.

إنَّ جميـع النظريـات الفيزيائيـة التي أمامنـا اليوم غـير كاملة، فـإنَّ هذه الآلة التـي ستساعـد علـى إتمامهـا من خلال إعـادة تمثيل نشأة الكـون من خلال تسريع البروتونات وصدمهـا ببعضها البعض، فإنَّ هذا التصادم قد يكشف لنا عن أبعاد أخرى وهـذا يعطي قوانين أخرى قـد تساعد في المستقبل للوصـول إلى حاجز سرعة الضوء أو تخطيه.

إذن، السفـر عبر الزمن هو غاية لا مفر منهـا وكلما تقدم العلم ازدادت معرفتنا عن الكون الذي يحيط بنا وبالتالي ازداد تقدمنا نحو تحقيق هذه الغاية، مهما كنا متأخرين عنها، لا بد أن يأتي اليوم الذي سنسافر فيه عبر الزمن، لأن كل مغامرة، تبدأ بخطوة.

الهوامش

١- إنَّ الزمن يتباطئ بالنسبة للكتل الكبيرة، فنرى الزمن أبطأ في الأسفل وكلما ازداد الانفلات من اثر الجاذبية يتسـارع الزمـن. إنَّ الساعة الذرية تخطئ ثانية واحدة كل ٣٠٠ مليـون سنة، فإذا وضعت هذه الساعة في أسفل البرج يكون زمنها أبطأ وعند أعلى البرج يكون زمنها أسرع إذ يبلغ الفارق بين الزمنين المرصودين ٤ × ١٠ أس ناقص ١٦ جزءاً من الثانية.

٢- إن الشعاع ينحني عندما يمر في مجال جذب ثقالي.

كيـف تجـذب الشمس الأرض علـى الرغم من أنّه لا يوجد بينهما شيء، حسـب آينشتاين لا يوجد جذب بل هندسة، فالمادة تحفر أخدوداً في الزمكان، فتقع المادة في أسر الأخدود الزمكاني.

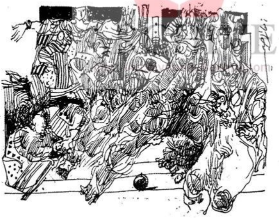
المصادر

1- National Geographic Time Travel The Truth Documentary.
2- The Science of Time Travel History Channel Documentary .
3- Wikipedia.
4- Britannica Online Encyclopedia.
5- You Tube.
6- Discovery Channel.
7- BBC Channel.
8- HowStuffWorks.com.

إحصائية لعدد سكان العالم
هل نتوقف عند «المليار العاشر»؟[١]

رينه- إيريك داغورن[٢]

ترجمة: د.ماري شهرستان ✿



بعد أن تجاوز عدد سكان العالم السبعة مليارات عام ٢٠١١م، يجنح هذا العدد إلى الاستقرار، لكن سكان الكوكب يميلون إلى أن يصبحوا أكثر حضرية وأكثر كثافة وأقل أنوثة: هذا هو وجه عالم الغد.

✿ كاتبة ومترجمة سورية.

العمل الفني: الفنان أنور الرحبي.

في عام ٢٠١٢م سبعة مليارات سكان الأرض.. وماذا بعد؟

في ٣١ تشرين الأول من عام ٢٠١١م ولدت الإنسانة التي أكملت المليار السابع من سكان الكرة الأرضية. إنّها طفلة فلبينية، تدعى دانيكا ماي كاماشو[٣] وزنها ٢،٥كغ، وذلك وفق سجلات الأمم المتحدة للسكان[٤]. قدموا لها الحلوى (الكاتو) وهنّؤوا الوالدة كما قدموا لها منحة لدراساتها المستقبلية، إضافة إلى مساعدة للأبوين كي يتمكنوا من تأسيس مخزن للمبيعات.

جزر الفيليبين هي البلد الثاني عشر من بين البلدان الأكثر كثافة سكانية في العالم: ٩٤،٩ مليون نسمة، منهم ٥٤٪ دون سن الخامسة والعشرين (وفق السجلات الإحصائية لمكتب الأمم المتحدة للسكان).

يُظهر هذا البلد إحدى السمات الكبرى لما وصلت إليه الإحصائية الحالية لسكان الكوكب: شعوب بلاد الجنوب مستمرة في التزايد بسرعة، بينما أتمت بلدان الشمال تحولها الديمغرافي وترى أن شعوبها لا تتزايد إلا ببطء شديد (هذا إذا لم تتناقص كما في روسيا وألمانيا).

نهاية الانفجار السكاني

هذه الولادة التي أتمت المليار السابع هي النتيجة (المؤقتة) لأحد المظاهر الرئيسة للقرن العشرين: وهي الانفجار السكاني العالمي.

كان تعداد سكان العالم سنة ١٨٢٠م مليار نسمة وأقل من مليارين عام ١٩٢٠م. أمّا بعد عام ١٩٤٥م فقد أصبح الازدياد السكاني قريباً من المعقول بالنسبة إلى عدد الكائنات البشرية: ثلاثة مليارات عام ١٩٦٠م، وأربعة مليارات عام ١٩٧٤م، وخمسة مليارات عام ١٩٨٣م، وستة مليارات عام ١٩٩٩م، وأخيراً سبعة مليارات عام ٢٠١١م. هذا وسوف يتناقص زمن الانتقال من مليار إلى آخر بشكل كبير في المستقبل.

هذه الأرقام المدوّخة كانت وراء إثارة مخاوف كبيرة في القرن العشرين: احتل الخوف من القنبلة السكانية مكان الخوف من القنبلة الذرية في فترة الستينيات[٥]. وصلنا في يومنا هذا إلى نهاية ذلك الانفجار السكاني العالمي. فأصبح عدد الأطفال بالنسبة إلى النساء يتناقص في كل مكان ويظهر في تقارير الأمم المتحدة عن اتجاه نحو الاستقرار التدريجي: تسعة مليارات عام ٢٠٥٠م ومن دون أدنى شك نحو استقرار نهائي بعشرة مليارات عام ٢١٠٠م. إذا تحققت هذه الأرقام هذا يعني أنّ عدد سكان العالم سيزداد بمقدار الثلث.. وضمن شروط آخذة بالتغير (العلاقة بين الريف/ والمدينة، الأمن الغذائي، ونسبة عدد النساء إلى الرجال) (المصادر)[٦].

من القنبلة السكانية إلى قنبلة الشيخوخة

لقد كانت القنبلة السكانية تشكل الخوف الديمغرافي الأعظم في سني الستينيات. عندما نشر بول إيرليش Paul Ehrlich عام ١٩٦٨م الكتاب المعنون بها، سادت عندها «التحليلات المالتوزية» التي تؤكد على أخطار الازدياد السكاني بالنسبة إلى الموارد المحدودة. وعلى غلاف النسخة الأصلية التي كانت باللغة الإنكليزية يظهر عنوان ثانوي: «ريثما تنهي قراءة هذه الكلمات، يكون قد مات في العالم أربعة أشخاص جوعاً، ومعظمهم من الأطفال».

ولو أنَّ الخشية من الازدياد السكاني مازالت مستمرة إلى اليوم، غير أنَّ الديمغرافيين لم يعد يقلقهم هذا الازدياد أو ما يسمى بالقنبلة السكانية، لأنّها استبدلت بقنبلة الشيخوخة. ففي الواقع، طالما أنَّ التحوّل الديمغرافي يتقدم، والحماية الاجتماعية تتوسع وتنتشر وطالما أنَّ أنماط التغذية تتغيّر، فإنَّ معدل سني عمر الإنسان يطول، لأنَّ أهرامات الأعمار تزدحم في الأعلى (حيث تصبح مكفولة ومعتنى بها) وتقفر في الأسفل.

ففي الصين: وفي عام ٢٠١٢م، كان هناك ٢٠٠ مليون صيني من أصل مليار وثلث ١,٣ يزيد سنهم عن الستين. وأصبحت النتائج جراء ذلك ملموسة، منها: ارتفاع عدد اليد العاملة المهاجرة داخلياً باتجاه المدن للتعويض عن نقص الشباب في بعض الأماكن الحضرية التي فيها إنتاج، مع تمييز عنصري حضري أكثر وضوحاً على سبيل المثال. غير أن ما يقلق أكثر هي العواقب على المدى البعيد: كيف يمكن تامين نظام تقاعدي عندما يتجاوز سن ٤٠٠ مليون صيني السبعين عاماً خلال فترة تتراوح بين عشرين وثلاثين سنة؟ لقد اختصر الصينيون هذا التحدي بشعار جذري: «أصبح غنياً قبل أن أصبح شيخاً!» (المصادر)(٧).

تحول ديمغرافي، تحول ديمقراطي؟

السلوكيات الديمغرافية في كل بلدان العالم اتبعت النموذج نفسه: وهو نموذج «التحوّل الديمغرافي». في البداية كانت معدلات الولادات والوفيات مرتفعة فكانت تقارب الـ٤٠٪ (وكان ذلك في القرن الثامن عشر بالنسبة إلى الأوروبيين، وبداية القرن العشرين بالنسبة إلى بلدان الجنوب). فكان عدد السكان يزداد قليلاً حيث كان عدد الولادات يقارب عدد الوفيات.

في المرحلة «أ» أي في القرن التاسع عشر في الغرب، وأواسط القرن العشرين في بلدان الجنوب، هبط معدل الوفيات بشدة بفعل الانتشار التدريجي للأنظمة الصحيّة في مجمل المجتمعات؛ لكن الولادات ظلت مرتفعة جداً وبالتالي ازداد عدد السكان بشكل كبير.

هذه المرحلة «آ» تشرح الانفجار السكاني في الأعوام ما بين ١٩٥٠م إلى ٢٠٠٠م. في المرحلة «ب» من التحوّل، انخفضت معدلات الولادات بدورها بفعل النمو وازدياد أهمية الفرد (حيث كل ولادة جديدة تعتبر على أنّها أساسية ولم تعد تذوب في المجموع) كما يحدث بفعل التغيرات الاجتماعية (مكانة هذا الفرد الجديد فريدة وغير قابلة للتبديل في الإنتاج الاقتصادي). فأصبح النمو الطبيعي أكثر ضعفاً حالما تتقارب الخطوط البيانية للوفيات والولادات.

في نهاية هذه المرحلة «ب» تتواجد بلاد الجنوب اليوم (الصين، الهند، إيران، إلخ). أصبح عدد الأطفال للمرأة الواحدة ٢،١ وهو معدل استقرار سكاني. ففي إيران عدد الأطفال للمرأة هو ١،٧٧ عام ٢٠١٠م، وهو أخفض من معدل الخصوبة في فرنسا الذي بلغ ١،٩٧.

خصوبة، محو الأمية، ديمقراطية..

وأخيراً، في نهاية المرحلة «ب»، أصبحت الولادات والوفيات في المستوى نفسه: كل عام، يولد ويموت حوالي عشرة أشخاص بالنسبة إلى ١٠٠٠ نسمة. فلم يعد هناك سوى ازدياد بسيط في عدد السكان، هذا إن لم يتناقص هذا العدد إذا ما انخفض معدل الولادات بالنسبة إلى معدل الوفيات. وهذا هو الوضع الحالي في البلدان المتطورة وفي جزء من البلدان النامية.

اقترح بعض الكتّاب البحث عن العلاقة بين التحوّل الديمغرافي وبين التطوّر العالمي البطيء نحو الديمقراطية. ويؤكد الباحثان إيمانويل تود ويوسف كرباج أنّ انخفاض الخصوبة وانتشار التعلم هما شأنان مترافقان: فعندما يتعلم الناس القراءة والكتابة والعد، يصبح بإمكانهم السيطرة على محيطهم المادي. «فترافق محو الأمية عند الجماهير وتنظيم الولادات أمر يخطط لتاريخ عالمي مختلف وأكثر إشراقاً ويعطي الأمل أكثر من التاريخ الذي تنشره وسائل الإعلام المتلفزة».

غير أن هذا لا يعني أنّ التحوّل الديمغرافي/ الديمقراطي سيؤدي مباشرة إلى مجتمع مستقر آمن، بل على العكس من ذلك: «ففي أغلب الأحيان، وربما في معظم الحالات، الإقلاع الثقافي والذهني يترافق بأزمة تحوّل. فالشعوب غير المستقرة تبدي سلوكيات اجتماعية وسياسية عنيفة». وما نشهده من ثورات في الشرق الأوسط هي ربما نتيجة التغيرات التي تربط التعلم والديمغرافيا والسياسة. (المصادر)[٨]

الصين: عندما ينقلب الهرم

الصين: عندما ينقلب الهرم. أهرامات الأعمار والتي يعبّر عنها بملايين الصينيين وفق شريحة عمر من خمس سنوات، تلخّص التحديات التاريخية التي تواجهها الصين اليوم: تعاظم شريحة الشيخوخة في الشعب وفقدان التوازن في النسبة بين عدد الرجال وعدد النساء.

التطور السكاني وفق مناطق الكرة الأرضية بين عام ١٩٥٠ وعام ٢١٠٠م.

سوف يزداد عدد سكان الكرة الأرضية بمقدار ملياري نسمة من اليوم إلى مدة ثلاثين عاماً ليصبح تسعة مليارات. أين سيعيش هؤلاء الناس الإضافيون؟ وهذه الزيادة ستكون في آسيا وأفريقيا بشكل أساسي.

ففي آسيا، حيث تراجعت الخصوبة كثيراً، إلا أن هذه الأجيال الجديدة ستلد في الهند بشكل رئيسي (٢.٧ طفل لكل امرأة عام ٢٠١٠). وفي صحراء أفريقيا لا تزال الخصوبة قوية (أكثر من أربعة أطفال لكل امرأة) وقد يصبح عدد سكانها عام ٢٠٥٠ ما يقارب المليار نسمة.

التوزيع السكاني العالمي عام ٢٠٥٠

هل سيكون هناك حرب ضد البنات؟

«صرف ٥٠٠ روبية اليوم خير من ٥٠٠٠ غداً»، هذا ما ظهر في دعاية هندية لعيادة إجهاض، تقارن فيها سعر كلفة الإجهاض مع كلفة المهر للزواج من فتاة شابة!

تبدو الإحصائيات مرعبة. فبينما يلد بشكل طبيعي ١٠٥ من الذكور بالنسبة إلى ١٠٠ بنت، قفزت اليوم النسبة إلى ١١٢ ذكراً لـ١٠٠ بنت في الهند و١٢١ ذكراً لـ١٠٠ بنت في الصين (وحتى قد يصل العدد إلى ١٥٠ في بعض المدن الصينية). وبما أن هذين البلدين يمثلان أكثر من ثلث سكان الكرة الأرضية، فإن العواقب لا تبقى مناطقية محلية فقط، بل عالمية (النسبة العالمية اليوم هي ١٠٧ ذكور إلى ١٠٠ إناث).

إنَّ سبب هذا الخلل في النسبة ينبغي البحث عنه في عمليات الإجهاض الانتقائية. حيث تستخدم الصور الشعاعية (الإيكو) كما فحص الغشاء الأمنيوسي للجنين وهي فحوص توافرت بفضل التقدم الطبي العظيم في هذا المجال لكنها تستغل للتحقق من جنس الجنين الذي سيولد وبالتالي إجراء إجهاض في حال كان الجنين أنثى غير مرغوب بها. ففي المجتمعات الريفية التي لا تزال تقليدية جداً (في الهند، وفي الصين، وفي أفريقيا الوسطى..) قد لا يكون للبنت «القيمة العائلية» نفسها التي للولد الذكر، الذي يعتبر وكأنه السند المنتظر في الأعمال الزراعية، وفي واردات الدخل عندما يسافر للعمل، بينما تعتبر البنت وكأنها عبءٌ حيث ينبغي تزويجها وتوفير المهر للعريس، من دون استرجاع واستثمار ما صرفوه على تعليمها!.

هذه الأوضاع ليست هامشية أبداً: لنذكر بأنَّ عدد الريفيين الصينيين اليوم يبلغ ٧٠٠ مليون نسمة.

ينقص الكرة الأرضية ١٦٠ مليون بنت وفق إحصاء المجلة العلمية «مارا هفيستندال Mara Hvistendahl». وفي كتاب ظهر عام ٢٠١١م، تحت عنوان «انتقاء غير طبيعي»،

يؤكد على عواقب هذه «الحرب ضد الإناث»: تاريخياً، المجتمعات التي فيها الذكور أكثر من الإناث كانت مجتمعات عنيفة، وكان هذا حال اليونان في القرن الخامس، والصين منذ ثورة تايبنغ في القرن التاسع عشر، والمجتمع الأمريكي في حدود عام ١٨٨٠ حيث كانت النسبة بين عدد الرجال إلى عدد النساء في نيفادا ٧٦٨ ذكراً إلى ١٠٠ أنثى! هذا ناهيك عن الإهمال الضمني للقيمة الإنسانية للأنثى بالنسبة لقيمة الذكر، ومن هنا تطور المفهوم الآبائي... إضافة إلى العنف هناك العواقب في موضوع الخصوبة الذي يطرح التوازنات الديمغرافية والاقتصادية (حيوية التجدد، ودفع التقاعد..) حيث نعود فنجد أخيراً مشكلات قنبلة الشيخوخة. (المصادر)(٩)

الهوامش

١- دراسة في العدد الشهري من مجلة العلوم الإنسانية رقم (٢٤١)، تشرين الأول- تشرين الثاني، ٢٠١٢م:

Démographi emondiale10 milliards et on s>arrête?

2- René-ÉricDagorn

3- Danica May Camacho

4- les officiels de l'UNFPA

٥- وظهرت في الأغاني كأغنية جاك دوترون Jacques Dutronc الشهيرة: ٧٠٠ مليون صيني وأنا وأنا..

700 millions de Chinois, et moi, et moi, et moi, en 1966

المصادر

6- «milliards d'hommes7», Problèmes économiques, La Documentation française, n° 3046, juin 2012, World population prospects. The 2011 revision2012». ,http://esa.un.org/unpd/wpp.

٧- المجتمعات الهرمة تغير وجه العالم، ريشار لوفرانسوا، Richard Lefrançois، دراسة متوافرة على الرابط التالي:

http://blog.mondediplo.net/201103--06-Les-societes-vieillissantes-changent-la-face-du

هل ينبغي وضع سياسة سكانية؟ جاك فالان،

»Faut-ilunepolitique de population?« Jacques Vallin.

دراســة متوافرة في العدد رقم ٤٨٩ أيار ٢٠١٢ من مجلة العلوم الإنســانية تحت عنوان «ســكان ومجتمعات «Population et sociétés».

٨- ملتقى الحضارات، يوسف كرباج وإيمانويل تود، إصدار سوي:

Le Rendez-Vous des civilisations, Youssef Courbage et Emmanuel Todd, Seuil, 2007.

- ما بعد الإمبراطورية، بحث حول تفكك النظام الأمريكي، إيمانويل تود،

Après l'empire. Essaisur la décomposition du systèmeaméricain, Emmanuel Todd Gallimard, coll. « Folio», 2002.

٩- انتقــاء غير طبيعــي، اختيار الذكور وتفضــيلهم على الإناث، ســتكون نتيجته عالم ملــيء بالرجال، مارا هفيستندال، قضايا عامة:

Unnatural Selection. Choosing boys over girls and the consequences of a world full of men, Mara Hvistendahl, Public Affairs, 2011.

- الحرب ضد البنات، جوناثان لاست، صحيفة ول ستريت:

The war against girls, Jonathan v. Last, The Wall Street Journal, 24 juin 2011

الجراثيم
حليفة الكائنات الحية

ترجمة: محمد الدنيا ✪

الجراثيم حليفةٌ قبل أي شيء آخر! تستخدمها الكائنات الحية لتنشيط أداءاتها والتكيف مع التغيرات الفجائية في بيئاتها. هل يصل ذلك إلى الحد الذي يجعلها الممثل الرئيسي في سباق التطور؟

لنأخذ أي كائن حي مثالاً؛ سواء أكان حشرة، أم مرجاناً، أم نباتاً، أم سمكة أم بقرة تدر حليباً. ولنستكشف خصوصيته تحت عين مجهر قوي جداً. سنكتشف فيها حتماً جراثيم كثيرة. وإذا ما كنّا دقيقي الملاحظة جدّاً، سنلاحظ وجود حبكة غريبة بين هذه الجراثيم والبدن الذي تقيم فيه.. تعمل غالبية هذه العاملات الدقيقة لحسابها في ظل مأواها الحي؛ تنطلق إحداها لتسهّل الهضم من خلال تفكيك الأطعمة، وتنتج الأخرى سماً يمكن أن تستخدمه من أجل الدفاع عن نفسها. وتطلق ثالثة مضادات حيوية ضد جراثيم خبيثة، وتتيح رابعة لمضيفها إنتاج رائحة جوهرية في بحثه عن التكاثر...

ما تقوم المكروبيولوجيا microbiologie بكشفه في هذه السنوات الأخيرة، بنتيجة قدرة تحليلات الـ «دنا»، هو كلية التعايشات، في فئات الكائن الحي كلها، مع المكروبات - وفي مقدمتها الجراثيم.

✪ كاتب ومترجم سوري.

إن هـذا تعايش والترابط الوثيق بين كائنين، لمصلحة الشريكين المتبادلة. إنّ هذا الدور الأوّل الذي تؤديه الجراثيم حتى الآن في الظل يمكن أن يغير فعلياً بعض مبادئ نظرية التطور.

تآثر متقدم

كانت الحشرات، التي هي موضوع دراسات مفصّل بالنسبة للبيولوجيين، كمُتلفة وناقلة للأمراض، من بين أولى الكائنات التي كشفت عن تعايشات عدّة وجذابة.

«تضم الحشرات نسبة عالية من المتخصصات الغذائية بشكل وثيق، وهذا ما يعرضها لحالات عوز». مثلاً، تتميز الأرقات بنظام غذائي، النسغ، الفقير جداً بالبروتينات. وهكذا، فقد شكلت أعضاء حقيقية تسمى «باكتريومات» bactériomes مليئة بالخلايا المتخصصة المسماة خلايا باكترية bactériocytes والمصممة بحيث تأوي جراثيمها المتعايشة معها. وتقوم هذه الجراثيم الأخيرة، المسماة Buchnera aphidicola، بتركيب الأحماض الأمينية كلها التي تنقص مضيفها، وقد طورت تآثراً كبيراً معه إلى درجة أنّ الحشرة باتت عالمها الواحد والوحيد...» ، يشرح «فرانسوا لالييه» François Lallier، مدير الأبحاث في محطة «روسكوف» البيولوجية.

في الواقع، تنتقل الجراثيم إلى الذرية من خلال البيضة. وما هو أكثر إثارة للدهشة أنّ قسماً من الجينات التي تمكّن الجرثومة Buchnera من القيام بوظائفها قد هاجرت إلى جينوم مضيفها!.

«بالنتيجة، هناك تطور مشترك شبه تام بين الجراثيم والحشرات، لأنّه عندما تغير حشرةٌ نباتها المضيف، فيتحور غذاؤها، تكون الجرثومة في المقدمة لمواجهة التغير بالتكيف. وعندما نرسم أشجار تطور الأرقات، نكتشف توازياً تاماً مع شجرة تطور جراثيمها!» ، يضيف «فرانسوا لالييه» .

السيكادا cicadelle، وهي حشرة أخرى ماصة لعصارة النبات (النسغ)، مثالٌ أكثر جاذبية. لقد كشف لديها مُعايشان جرثوميان، Slucia و Baumania . وبعد دراسة جينومهما، تبين أن الأول ليس لديه أكثر من ٢٦٣ جيناً، مقابل ٦٥١ للآخر، بينما يبلغ عدد جينات غالبية الجراثيم ٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ جين. لدى الجرثومة Baumania، فضلاً عن ذلك، جينات تتيح تخليق حمضين أمينيين، وهما «المثيونين» و«الهيستيدين» اللذان لايستطيع المعايش Slucia إنتاجهما، بينما هما ضروريان للسيكادا. ومن شأن هذا الوضع أن يجعلنا نتصور السيناريو التالي: تمضي هذه الحشرة حياة تعايشية

سعيدة ومزدهرة مع Slucia منذ ٢٠٠ مليون سنة على الأرجح، بعد أن وجدت نفسها مجبرة على تغيير نظامها الغذائي، منذ نحو ٣٠ مليون سنة. هل كان ذلك بسبب انطفاء النبات المضيف؟ أم بنتيجة إنتاج هذا النبات لأحد السمّينات؟ أم أنّ التنافس كان قد أصبح أشد حدّة؟ لا أحد يعرف ذلك. لكن النتيجة هي أنّ السيكادا وجدت نفسها من دون حمضين أمينيين، و«أسرَت» جرثوماً جديداً لمعالجة هذا العوز. إنّها طريقة للتكيف في غاية الفعالية: تسريع التطور استناداً إلى كائن حي لديه الجينات التي تنقصه!.

تنوع تعايشات كبير

توجد مجموعة واسعة جداً من التعايشات. وفي حالة التعايشات الجرثومية، حيث إنّ أحد الشريكين أكبر من الآخر بكثير، يسمى ذاك الذي يأوي «مضيفاً» بينما يسمى الضيف «معايشاً». ويمكن أن تكون هذه التعايشات إجباريةً بالنسبة لهذا أو ذاك من الشريكين، ولا يمكنه أن يبقى حياً بمفرده، أو اختيارية – حيث يمكن هنا أن يحيا الشريك من دون معايشه أو بالتعايش مع كائن حي آخر. ويمكنها أن تنتقل عمودياً (تتزود عندئذ ذرية المضيف بالمعايش بشكل مباشر مع الأعراس gametes) أو أفقياً، حيث يتوجب أن يُحشر المضيف من جديد مع كل جيل. ويشير البعض أيضاً إلى وجود تعايش جَوّاني endosymbiose عندما تعيش الجرثومة حتى داخل خلايا المضيف (كما هو حال Slucia مع السيكادا) وتعايش براني ectosymbiose عندما تقيم ببساطة في تجاويف البدن أو على سطحه (كما هو حال الجراثيم المثبّتة لنتروجين التربة من جنس «الآزوتية» Azotobacter).

وفي أحيان كثيرة، يمارس الكائن الحي أنواع الشراكات كلها (إجبارية وغير إجبارية، بانتقال عمودي أو أفقي) مع مئات من الجراثيم المختلفة. والمرحلة الأخيرة من التعايش هي التحول من معايش إلى عضيّ organite، وهو «اندماج» حقيقي للشريكين: جُبَيْلات plastes النباتات (التي تؤمن التركيب الضوئي بشكل خاص) والمتقدرات لدى حقيقيات النواة كلها (التي تؤمن تزويد الخلايا بالطاقة) هي بذلك جراثيم أصبحت أجزاءً تكوينية للخلايا تنتقل من جيل إلى جيل في السيتوبلازما.

جينومات متشابكة

النباتات، ولو أنّها معروفة بشكل خاص بتعايشاتها مع فطور التربة، هي أيضاً مرتبطة على نحو معقد بالعالم الجرثومي: ولو فقط من خلال وجود تعايشات جرثومية

إجبارية عديدة جداً بالنسبة للفطور. وبشكل خاص، الجراثيم وحدها قادرة على تحويل نتروجين الجو إلى أشكال معدنية يمكن أن تتمثلها النباتات.

إذن، انتهى الأمر بعدد كبير من النباتات بأن «أسرت» جراثيم من التربة، خصوصاً من جنس «المُسْتَجْذِرَة» Rhizobium، لإيوائها في أعضاء خاصة، أي التعقّدات nodosités، هذه الأعضاء التي جعلها التطور متقنة بشكل رائع لتحسين إنتاج النشادر من النتروجين. تمثل أحد الابتكارات الأبرز للتطور المشترك بين نباتات ومُسْتَجْذِرَات في تخليق بروتين معقد للغاية اسمه «ليغيموغلوبين» (صبغ في الخضراوات Leghémoglobine (LegHb)، شبيه جداً بالهيموغلوبين (خضاب الدم) لدى الحيوانات وقادر أيضاً على تثبيت الأوكسجين. «المُسْتَجْذِرَة» هي في الواقع جرثومة تسمى «لاحيوائية» (قادرة على الاستقلاب بغياب الأوكسجين الحر) anaérobie، لا يتمكن من تحمل التركزات المرتفعة من الأوكسجين! وهناك شيء بارز جداً: الجينات التي تتيح تخليق «الليغيموغلوبين» موزعة بين النبتة والجرثومة. وفي ذلك ما يشير إلى مدى تشابك الجينومات الذي أحدثه التطور...

ولهذا التعايش المثبت للنتروجين، العام في القارات، مكافئ في المحيطات أشارت إليه مجلة Science في أيلول ٢٠١٢م. المضيف هنا طحلب مجهري بحجم ١ إلى ٣ ميكرومتر. وتقيم «الزَّراقِم» التي تثبت نتروجينها، أي الـ Atelocyanobacterium thalassa، في جريبات دقيقة موزعة في بشرتها؛ إلا أنه يمكن لهذه الجرثومة الصغيرة أن تؤمّن بمفردها أكبر مقدار من تثبيت النتروجين في العوالق العالمية! وليس هذا كل شيء؛ فبلح البحر، ومعديات الأرجل gastéropodes، والشُّقّار والمرجان هي أيضاً تعتمد في المحيط على التعايشات الجرثومية.

وهكذا، في الأعماق الكبرى، قرب ينابيع المياه الحارة، تستمر الدودة الضخمة Riftia pachyptila (١،٥٠ م) حيةً في الظلمات بلا فم وبلا أنبوب هضمي: تصلها أغذيتها كلها من خلال الخياشيم. تأوي مستعمرةً عملاقة من الجراثيم كيميائية التغذّي (قادرة على العيش باستخدام طاقة الوسط الكيميائية) في عضو خاص يمثل ١٦٪ من كتلة الجسم: الجسم التغذوي. «في هذا العضو الإسفنجي، شديد التروية، نجد بين ١ إلى ١٠٠ مليار جرثومة في الغرام الواحد من النسيج - بينما قلما تتجاوز ١ مليار جرثومة في غالبية أجهزة التخمير الصناعية!»، يقول «فرانسوا لالييه» معبراً

عن دهشته. لا يمكن بلوغ هذا التركز غير المعروف من قبل إلا من خلال نقل شديد التعقيد للأغذية والجراثيم عبر الخياشيم وجدران الجسم التغذوي.

وليست الفقاريات استثناء. إذ تأوي الثدييات، مثلاً، مستعمرات جرثومية تعايشية ضخمة على جلدها، وفي قنواتها البولية التناسلية، وتجاويفها (الأذنين، والمنخرين...)، وأنبوبها الهضمي بشكل خاص. وما تزال الجراثيم مفيدة لديها، وستبقى كذلك، في زيادة فعالية الهضم عبر تفكيك الجزيئات التي لا يتوافر لدى المضيف أنزيمات لها؛ بل لها أدوار أخرى كثيرة: تبني بشكل خاص الجهاز المناعي وتنحت بعض الأعضاء مثل الأنبوب الهضمي (الذي ينمو بشكل غير سوي في غياب الجراثيم).

عامل تواصل

تؤدي الجراثيم دوراً أساسياً في التواصل بين الحيوانات!. إذ ظهرت دراسة عام ٢٠١٢م حول الضبع قد أوضحت مثلاً أنّ تعرُّفَ الجماعة، المهم جداً عند هذا الحيوان الكلبي الاجتماعي، يمر عبر غدة شرجية تفرز سائلاً زيتياً هو مزرعة جراثيم حقيقية. ويجري تبادل هذه الجراثيم بين أفراد الجماعة عندما تحدد إقليمها عبر الفرك بالأشياء، وبذلك تتميز كل جماعة بمجموعة جرثومية (وبالتالي رائحة) خاصة.

«هذا مكون حاسم من مكونات الرصيد السلوكي لكل حيوان، ويعني ذلك أنّ لديه منظومة تواصل فعالة. كما يعني أنه من الممكن أنّ كثيراً من الحيوانات لا يمكنها أن تقول «شيئاً كثيراً من دون جراثيمها»، حسب عبارة «كفن ذيس» Kevin Theis من جامعة «ميشيغان» ومؤلف هذه الدراسة.

إذاً، لا جدال في الأمر: التعايش مع الجراثيم محرك تطوري رئيسي. «يتيح هذا التعايش للحيوانات أن تسكن مواطن بيئية جديدة، لكنه يجبرها بالمقابل أن توفر أفضل موطن بيئي ممكن لمعايشيها، مع التحاور الدائم للحفاظ على التوازن»، يلخص «فرانسوا لالييه». وكما أشرنا، غالباً ما تصنع الكائنات الحية أعضاء جراثيم حقيقية، أعضاءً ضخمة إذا ما قيست بحجم الحيوان. لنأخذ البقرة مثالاً على ذلك. إنَّها حيوان غير قادر بذاته على هضم ميليغرام واحد من العشب. إلا أنها التقطت ذات يوم جرثومة يمكنها القيام بذلك، وحوَّرت مع مرور التطور مورفولوجيتها كلها كي تنشئ لها معدة ضخمة (الكرش) الذي هو ليس سوى أداة تخمير جرثومي بسعة ١٥٠ لتراً. كان التعايش في قلب التطور المشترك لهذين الكائنين الحيين»، يقول الباحث «يوجين روزنبرغ» Eugene Rosenberg.

ويذهب الباحث أبعد من ذلك: يرى أنه لم يعد لمفهوم الفرد معنى كبير على المستوى التطوري! ووفقاً لنظريته، المسماة «نظرية الجينوم الشامل «hologénome»، فإنَّ مايهم ليس جينوم المضيف، الذي يشكل بمفرده موضوع دراسة التطوريين «الكلاسيكيين» ، بل جينوم كامل الكائنات الحية المتعايشة معاً، أي المضيف وما يرافقه من كائنات حية معايشة له، الجراثيم، بل أيضاً الفطور، والأركيا، والفيروسات... . «مجموعة الكائنات الحية هذه، المنتقلة من جيل إلى جيل، هي وحدة انتقائية حقيقية. نشكل أنت وأنا والنباتات والحيوانات كلها جماعات كائنات حية. وحينما نتنافس، تشارك في ذلك هذه المجموعة كلها من الجينات» ، يؤكد «يوجين روزنبرغ» . «ذلك أن الجراثيم من الناحية الاستقلابية أكثر إبداعاً من فروع الكائن الحي الأخرى كلها. إنها كيميائيات ابتكارية بشكل مذهل، أكثر من الحيوانات والنباتات، التي هي أكثر تميزاً بالابتكار المورفولوجي»، حسب تقدير «بوريفيكاسيون لوبيز غراسيا» Purificacion Lopez gracia من «المركز الوطني للأبحاث العلمية «بباريس / فرنسا.

إذاً، الاستعانة بالبكتيريا من أجل التكيف مع تغير معين – سُمِّين جديد، أو مستقلَب يتعذر هضمه، أو منافس... – هو أمر شائع لدى الكائن الحي. «عندما يواجه الكائن الحي تغيراً فجائياً، غالباً جداً ما يسعى إلى التكيف بالتعاون مع مكروباته، لاغياً بعضها لصالح أخرى، أي بإلحاقه مكروبات جديدة به» . في الواقع، تتكيف المكروبات سريعاً جداً بفضل دورات أجيالها السريعة، وتبادلها الجينات على نحو متكرر. وبفضل ذلك، يمكن للمضيف أن يتجه نحو الأهم وأن يبقى حياً ومن المحتمل لاحقاً أن يطور جينومه الخاص» ، وفق ما لاحظه «روزنبرغ».

قدرة استثنائية على التلاؤم

توحي دراسة نشرها باحثون من جامعة «ميشيغان» الأمريكية في تموز ٢٠١٢م بأنَّه في حال حدوث تغير فجائي في الظروف (جفاف، احترار)، يكون النسق الأول من التلاؤم... مكروبياً. وعرّض الباحثون نباتات (من فصيلة الصليبيات crucifères، قريبة من اللفت Brassica rapa) للجفاف بغرسها في نوعين من التربة: أحدهما لم يسبق أن تعرض مطلقاً للجفاف، والآخر كان قد تعرض لفترات جفاف متكررة خلال ثلاث سنوات (تمثل هذه المدة ٥٠٠٠٠ جيل جرثومي.. وثلاثة أجيال نباتية فقط!). تبين أنَّ عدد الثمار كان أعلى بشكل ملموس

في التربة – وبالتالي مكروباتها – التي سبق أن «اعتادت» على قلة المياه. وعلى العكس، النبتة نفسها، لم تتطور: لا يلاحظ أي اختلاف في عدد الثمار إذا ما أخذت بذور التجربة من نباتات تنحدر من ثلاثة أجيال عُرّضت للجفاف بدلاً من إجراء التجربة مع بذور تنحدر من نباتات أصلية.

ولكن أخيراً، هل يمكننا أن نسأل، على صعيد هذه الشراكات المنعقدة بين الحيوانات والنباتات والجراثيم، من يتحكم بمن في نهاية الأمر؟ طبعاً، في أغلب الأحيان، عندما يزداد التحالف وثوقاً، يهاجر جينوم الجراثيم شيئاً فشيئاً نحو خلايا المضيف، موحياً بأنّ هذا الأخير هو المستفيد من التطور النهائي. ولكن يمكن أن نعتبر، في هذه الحال، أنّ الجراثيم لا تفعل في نهاية الأمر شيئاً سوى أنها تحمي معطياتها في جينوم أفضل حماية من جينومها. إنّه شكل من التخزين الخارجي! فضلاً عن ذلك، يجب أن نفترض بأنّ تطور «الماكروبات macrobes» الشديد خلال الـ ٥٠٠ مليون سنة الأخيرة من التطور لم يلحق أي أذى بالجراثيم – لا بل زادت عددها بالتأكيد وأكثرت أعشاشها البيئية. هل يجب على «الإنسان العاقل Homo sapiens»، المتصوِّر منذ زمن طويل أنه يتربع على قمة شجرة التطور، أن يبتلع كبرياءه حتى درجة تنزيل مرتبته إلى «مبنى بكتيريا» فترتّبه على أساس أنّه مأواها وموئل غذائها؟. يستحق السؤال الطرح على كل حال!

تؤدي دوراً مفتاحياً في صحتنا

ربما يكون كل واحد منا يتميز بخاصية جرثومية تحدد نقاط ضعفه وقوته على المستوى الصحي. تلك هي النتيجة التي تمخض عنها عمل السَلْسَلَة العملاق لجيناتنا «الودية» الذي انخرط فيه باحثون من أنحاء العالم كافة.

«أعرف أنكم تنظرون إلى أنفسكم على أنكم كائنات بشرية: أما أنا، فأرى أنكم جراثيم بنسبة تزيد على ٩٩٪» ، قالت «بوني باسلر» Bonnie Bassler لجمهور الحاضرين خلال محاضرة لها عام ٢٠٠٩م. هل هو استفزاز؟ بالتأكيد، من جانب اختصاصية المكروبيولوجيا الأمريكية، من جامعة «برنستون» !. إلا أنها مع ذلك محقة تماماً: إذ إنّ هناك خلية واحدة من كل عشر خلايا في جسدنا هي خلية Homo sapiens فعلاً؛ أمّا الأخرى فهي جراثيم. وتعد بمئات آلاف المليارات على جلدنا، وفي فمنا، وأنفنا، ورئتينا، وأنبوبنا الهضمي... حتى تمثل ١,٥ كغ إلى ٢ كغ من جسدنا، أي بمقدار ما يمثله دماغنا! وما هو أكثر إثارة أيضاً أنه لو أجرينا إحصاءً بعبارة الجينات

التي نؤويها لهبطت نسبة البشر فينا... إلى ٠،٥٪.

تشكل جراثيمنا عضواً بحد ذاته تقريباً، الميكروبيوم microbiome، الحتمي بالنسبة لنا تماماً. «يساعدنا بعضها في هضم ما نأكله. في الواقع، نحن غير قادرين على أن نفكك بذاتنا سكريات وألياف بعض النباتات، لافتقادنا للأنزيمات اللازمة في جينومنا. وربما كانت بمجموعها تضاعف قدرتنا على استخلاص الطاقة بنسبة ١٠٪. وتخلق أخرى فيتامينات ضرورية، مثل الفيتامينات B٢، B٩، B١٢، و K...»، يوضح «دوسكو إرليش» Dusko Ehrlich، مدير الأبحاث في «المعهد الوطني للبحث الزراعي» بفرنسا (Inra).

لكل واحد نمطه المعوي

والأمر هنا لا يتعلق بأكثرنا بها معرفةً. ذلك أنَّ هذا العالم اللا متناهي، غير المستكشف بشكل كامل تقريباً منذ خمس سنوات فقط، بدأ بالبوح بأسراره. ففي تشرين الأول/أكتوبر عام ٢٠٠٨م، وفي رصانة مدينة «هايلدبرغ» الألمانية الصغيرة، قرر باحثون من أنحاء العالم كله دراستها بشكل منهجي، عبر اجتماع من أجل تشكيل اتحاد عالمي للميكروبيوم البشري. وكان الهدف هو الكشف عن تأثير الميكروبيوم على عمل جسمنا وعلى صحتنا.

هل تحمينا جراثيمنا من بعض الأمراض؟ هل تساهم في ضبط استقلابنا؟ وإلى أي حد؟ باختصار، ما هي - بشكل دقيق - طبيعة الروابط بين هذا الجينوم الثاني وحالتنا الصحية؟.

تتطلب الأجوبة على هذه الأسئلة عملاً جباراً، بطموح وأهمية فك رموز الجينوم البشري نفسه، على أقل تقدير! أحصي ٣،٣ مليون جين في الفهرس المرجعي الأوّل لمكروبات الأنبوب الهضمي (الأكثر دراسةً وحده، الذي طبق عام ٢٠١٠م على ١٢٥ شخصاً.

وفي الثاني، الذي أنجز على ٧٠٠ شخص، أحصي نحو ٤ مليون جين، أي أكثر بـ ٢٠٠ مرة من الجينوم الذي يبلغ في حده الأعلى ٢٣٠٠٠ جين تقريباً. «إن كان قد تم كشف نواة الجينات الأكثر تقاسماً فمن المعتقد أنَّ هناك أربعة ملايين أخرى من الجينات الجرثومية بانتظار الكشف.

المسعى لا نهاية له!» ، حسب تقدير «دوسكو إرليش» ، رئيس الاتحاد العالمي.

النتيجة الأولى: تنتمي هذه الجراثيم كلها في غالبيتها إلى أربع شعب جرثومية رئيسية: الـ bactéroïdètes والـ firmicutes والـ actinobactéries والـ protéobactéries، بينما هنالك ما لايقل عن خمسين شعبة جراثيم مفهرسة على

الأرض. عدا ذلك، يبدو الميراث الجرثومي أكثر تشابهاً من فرد لآخر مما كان معتقداً، خصوصاً بمستوى النبيت الجرثومي المعوي flora intestinale: «حددنا ٧٥ نوعاً موجوداً لدى نصف الأشخاص، و٥٧ لدى أكثر من ٩٠٪ من الأشخاص. لكن غزارتها النسبية متغيرة جداً وفقاً للأفراد» ، يشرح «دوسكو إرليش» . إجمالاً، يأوي أنبوبنا الهضمي ١٧٠ نوعاً وسطياً، ثلثها فقط معروف، ولدى كل جرثومة ميراث تعداده ٣٤٠٠ جين.

لكن أكثر ما يثير الدهشة هو أنّ الباحثين تمكنوا انطلاقاً من هذه المعاينات من أن يحددوا ثلاثة شواكل profils جرثومية ممكنة من الأنبوب الهضمي. وهكذا، على غرار الزمرة الدموية، قد يكون لكل منا «نمطه المعوي» entérotype (زمرة تركيبية جرثومية معوية نوعية) الذي يتوافق مع نمط جرثومي كبير سائد ويستعمل سبلاً استقلابية مختلفة: ربما يكون كل منا إما Bacteroides، أو Ruminococcus أو بالأحرى Prevotella. وقد نوّهت مجلة Science الأمريكية بهذا البحث كواحد من خمسة نجاحات علمية بارزة لعام ٢٠١١م. ذلك أنّ تحليلات أكثر تعمقاً جارية الآن تتيح الاعتقاد أنّ بالإمكان ربط تأثير ما على الصحة بكل نمط معوي! وعلى نحو تبسيطي جداً، ربما تكون الشاكلة التي تسيطر عليها الجراثيم من نمط Bacteroides عاملاً غير مؤات، بينما ربما يكون النمط Ruminococcus مشجعاً بالأحرى على الصحة الجيدة؛ أمّا النمط Prevotella فلم يربط بعد بأي تأثير.

دور النبيت الجرثومي المعوي

هل يمكن إذاً أن يكون الإرث الجرثومي المناسب مفتاحاً لصحة جيدة عند الإنسان؟ هذا ما توحي به المعطيات المتعددة المجمعة. ولكن يبقى من المطلوب القيام بجهد كبير كي توصف بشكل دقيق الـ ١٩٠٠٠ وظيفة التي يقوم بها الـ ١٧٠ نوعاً التي تشتمل على ٣٤٠٠ جين. ما هو مؤكد أن اختلال الميكروبيوم يمكن أن يسبب أضراراً هامة: «لقد لوحظ أنّ الأشخاص البدينين ليس لديهم النبيت الجرثومي المعوي نفسه الموجود عند الآخرين وأنّ بعض الجراثيم تحث على تخزين الدهون» ، يقول «جويل دوريه» Joël Doré، مدير الأبحاث في «المعهد الوطني للأبحاث الزراعية» . ذلك مع تأثرات معقدة جداً: مثلاً، اتضح أنّ وجود الجنس الجرثومي Methanobrevibacter smithii لدى الفأر يحسّن قدرة استخلاص الحريرات من سكريات الجرعة الغذائية التي تؤديها الـ Bacteroides thetaiotaomicron

(«العَصَـوانيّة الثَّائيّـة»)، مما يتمخض عن زيادة الكتلة الدهنية بنسـبة ٥٠٪. قد تكون شـواكل جرثومية أخرى ضالعة في أمراض التهابية مزمنة في الأنبوب الهضـمي، كداء كرون Crohn، في المتلازمة الاسـتقلابية، أو الداء السكري النمط ٢.

هل يعني ذلك أنه قد يكون ممكناً تغيير هذه الشاكلة لتحسـين الصحة؟ ليس الأمر بهذه السهولة، حسب اعتقاد «جويل دوريه»: لأنّ الشاكلة الجرثومية محددة كثيراً أو قليلاً لشخص بعينه.

وهكذا، فقد أظهر عدد من الدراسـات أنـه يوجـد لـدى الشخصـين التوءمـين ميكروبيومان متشابهان، ولو افترقا منذ زمن طويل وعاشـا في مكانين متباينين جداً! إلا أن ميكروبيوميّ الأخوين، ولو كانا يعيشـان في الأسرة نفسها، ليسـا متشابهين أكثر من ميكروبيوميّ شخصين لا على التعيين.

هـل ينبغـي أن نـرى في ذلـك تأثـيراً لجينـوم الفرد، الذي ربما كان يحدد الهوية الجرثومية؟ ممكـن. ولكن يمكن جـداً أن يكون السبب مع ذلك بيئياً. وعلى نحو أدق، إنّ البيئـة عند الـولادة، بالتعريف القريب جداً بالنسـبة لتوءمين، هـي التي يمكن أن تكون حاسمة.

في الواقـع، يتغـير الجينـوم قليلاً من فرد لآخـر، بينما يتغـير الميكروبيوم كثيراً.

عدا ذلك، أشـارت دراسـات عـدة إلى أن الميكروبيـوم يتحدد منذ وقت باكر جداً من الحياة. وهكذا، وبعد أربع وعشرين سـاعة من الوضـع، تبدو «اللُّقيحة» inoculum (البكتريا المنحدرة مـن الأم والحالة هذه) أنها تكون قد اسـتعمرت الأنبوب الهضمي للوليد.

أكثر من ذلك: عثر على جراثيم مهبلية، في حـالات ولادة طبيعيـة، وعلـى جراثيم جلدية، في حالات ولادة قيصرية. وسـتبقى هـذه الجراثيـم إجمالاً ثابتـة بعد عمر ٣ سـنوات ومدى الحيـاة كلها، مثلمـا أكدته دراسات وبائية.

توازن حيوي

كان يجـب علـى الاتحـاد العالمـي للميكروبيـوم البشري أيضـاً أن يجد إجابة على سـؤال آخـر: لمـاذا لا يرفض الجهاز المناعـي النبيت الجرثومي المعـوي؟ «يتأثر الجهاز المناعي والنبيـت الجرثومي المعوي باسـتمرار لإيجاد توازن حيـوي من خلال جزيئات تحث على حدوث الالتهاب أو الحد منه» ، يشرح «جيرار إبيرل» Gérard Eberl من معهد «باستور» . في الواقع، يتمكن بعض الجراثيم من تسكين دفاعاتنا . السبب: على الأرجح، هو مسـتقبلات المعقَّد الرئيسـي للتوافق النسـيجي histocomptabilité

الــذي يحدد الذات ويفضــي إلى رفض ما هو غريب عنه. أمّا تلك المستوطنة الأصلية فربما كان جهازنا المناعي يميزها على أنها طبيعية ومتحمَّلة.

عدا عن ذلــك، الجراثيم التي هي غير «واطنة» natives ليست قادرة على استيطان الأنبوب الهضــمي بشكل دائم ولا تبقى فيه سوى وقت عبورها. إنّ تناول البروبيوتيكات probiotiques[1]، أي المتممــات الغذائية التي تحوي عدداً كبيراً جــدّاً من الجراثيم لا يتمخض ســوى عن مفعول قصير الأمد، وجيز، ولكنــه معبر احتمــالاً. «لدينا 10^{11} جرثومــة في كل غــرام واحد مــن المادة في القولــون و10^{6} / غ في المعي الدقيق. وتناول لبن رائب يعني موروداً عابراً لا يقل عن 10^{8} جرثومة / غ زيادةً في الأنبوب الهضمي. أي أكثر من الميكروبيوم الموجود أصلاً في المعي الدقيق!» ، يوضح «جويل دوريه» .

لدى جهازنا المناعي ســبب وجيه لقبول مســتعمرات جراثيمنا: إنها أفضل حلفائه في مواجهــة العوامــل الغازيــة الممرضــة، التــي تراها على أنّها أعــداء! وهكذا، فإنّ العُنْقودية البَشْرَويّــة Staphylococcus epidermis التي تغطــي الجلد (بمعدل ١٠٠ إلى ١ مليون جرثومة / سم٢) تتعايش مع «الوَتَديّات» corynébactéries، الجراثيم المسؤولة عن روائح الجسد. إلا أنّها تعيق إقامة «العنقودية الذهبيــة» Staphylocoque doré الســامة جــدّاً. وتتيح أيضــاً تطوير دفاعات مناعية فعالة: لا تتمتع الفئران التي لا تســتوطنها «الوَتَديّات» باستجابة مناعية فعالــة، وفقاً لدراســة أنجزت في تموز عام ٢٠١٢م. وبمــا أنّ الجراثيم المعوية الواطنة موجودة خلال النضج المناعي فإنها تساعد الجهاز المناعي في قيام تحمُّل جوهري إزاء «الطبيعي» وتفاعلية أساسية بالمقدار نفسه إزاء المُمرِض. وفي عــام ٢٠١١م، أظهرت دراسةٌ أنّ تركيب الميكروبيوم الجلدي يمكن أن يحدد قوة جاذبيتنا بالنسبة للأنوفيلات anophèles، البعوض الناقــل لعوامــل الملاريا.

تحديد الميكروبيوم: طريقة استعمال

خذوا عينات من بشــر وحركوا (فككوا الأغشية لاستخراج الجينات)، وحللوا: تلك هي الوصفة العلمية للميتاجينوميك[2] التي تتيــح معرفة مجمــل الجينــات الجرثومية الموجودة عند شخص معين. وإذا كان المشروع الأوروبــي MetaHIT (نيســان ٢٠٠٨ – حزيران ٢٠١٢) يركز جهوده على فهم متقدم لجراثيــم أنبوبنا الهضــمي، فــإنّ المشروع الأمريكــي Human Microbiome Project (٢٠٠٩ – ٢٠١٢م) هــدف إلى وصــف جراثيــم الجلــد والأنف واللســان

والخدين واللويحة السنية والأمعاء والمهبل. وبالنسبة للمستقبل، صُمم المشروع الفرنسي - الأوروبي MétaGénoPolis (٣٨ مليون يورو)، في «جوي - أن - جوزاس» في شمال فرنسا، كمنصة تكنولوجية تربط بين الحواسيب العملاقة بالنسبة للسَلسَلة، والتحليل والتخزين الرقمي، وبنك بيولوجي بدني قادر على تخزين ١ مليون عينة. وستوضع هذه المنصة تحت تصرف الباحثين، والإكلينيكيين، والصناعة.

خطر اضطراب؟

مثال آخر: أظهر عدد من الدراسات منذ خمسين سنة أنّ تلقيح أشخاص ملوثين بسلالات مستديمة من «المِطَثيَّة العَسِيرة» Clostridium difficile المسببة للإسهالات المعاودة، والمقاومة للمضادات الحيوية، بالمستتبت المعوي الجرثومي المأخوذ من أشخاص سليمين، يتيح أحياناً حالات شفاء مدهشة. وتكون الميكروبيومات الناتجة عن هذا التلقيح هجينة مؤقتاً. وفي وقت أحدث، قام «ماكس نودورب» Max Neuwdorp من Academic Medical Center في أمستردام بزرع (من خلال البراز) ميكروبيوم أفراد سليمين لدى تسعة مرضى مصابين بمتلازمة إستقلابية (مقاومة الأنسولين التي تتطور إلى داء السكري نمط ٢). النتيجة: حساسية متنامية للأنسولين، بعد ستة أسابيع. ولكن للأسف، عادت الميكروبيومات ومقاومة الأنسولين بعد سنة إلى الحالة الأصلية، وفقاً لدراسة نشرت في أيار عام ٢٠١٢م.

أيّاً كان الأمر، يمكن أن يكون تعيين ميكروبيوم الفرد مفيداً لتحديد الإستراتيجيات العلاجية التي تتوافر فيها الفرص الأكبر من حيث الفعالية. هل سنتعرف قريباً على الشواكل المكروبية التي تحث على حدوث الأمراض الأكثر شيوعاً؟ إنّ تعيين مثل هذه الواسمات التشخيصية هي الهدف الذي تسعى إلى تحقيقه شركة Enterome للتقانات الأحيائية ومقرها باريس. تعمل الشركة على أمراض إستقلابية عدة (الداء السكري نمط ٢، والسمنة...)، والإلتهابات المعوية (داء كرون maladie de Crohn، والتهاب المستقيم والقولون النزفي). وأعلنت، بالنسبة للعام ٢٠١٣م، عن اختبار يتيح كشف الأشخاص الذين يخشى أن يطوروا الأشكال الأوخم من التنكّس الدهني الكبدي (تراكم الدهون في خلايا الكبد).

إلا أنّ هذه الآفاق يواكبها سؤال شائك. إذا كان الميكروبيوم يفعل فعلة بالتآثر الوثيق بهذا القدر مع بدننا، مساهماً في تحسين

صحتنا، أفلا يخشى بالاستخدام المكثف للمضادات الحيوية من أن يحدث ذلك خللاً فيه مما يعرضنا للخطر؟

هذا ما يعتقده «مارتن بلازر» Martin Blaser أستاذ المكروبيولوجيا في كلية الطب بجامعة «نيويورك». وحسب رأيه، يمكن أن يكون ظهور بعض الأمراض، مثل الربو، والحساسيات وأمراض المناعة الذاتية مرتبطاً باستخدامنا الكثيف بشكل زائد للمضادات الحيوية.

جرثومة تسرق جيناً

ويشار إلى أنّ بعض الجراثيم المرضة نافعةٌ: «توحي دراسات كثيرة إلى أنّ «المَلْوِيَّة البَوّابِيَّة» Helicobacter pylori، التي تسبب قرحات وسرطانات المعدة، تخفف الربو بنسبة ٤٠٪ عند الأطفال، وتخفف الحساسيات الناتجة عن الطلع pollen والعفن وكذلك بعض سرطانات المريء إن لم نقل الإبقاء على السل في حالة خفاء والذي تسببه جرثومة أخرى هي «المُتَفَطِّرة السُّلِّية» «Mycobacterium tuberculosis».

إنّ في ذلك ما يؤيد الفكرة القديمة التي تفيد بأنّ التعرض للأخماج المكروبية ما يستحث جهازنا المناعي ويمنعه من أن ينقلب ضدنا، وفقاً لتحذير «مارتن بلازر»: «نفقد بأقصى سرعة مكروباتنا القديمة، التي هي نتاج ملايين السنوات من التطور. نحن لا نعرف ما نفعله!». وربما أيضاً كانت هناك جراثيم قادرة على سحب جينات من أنواع أخرى كي تحسن نفسها في خدمتنا! وهكذا، وفقاً لدراسة أنجزها «غورفان ميتشل» Gurvan Michel و«ميريام كزجزك» Mirjam Czjzek من محطة «روسكوف «البيولوجية بفرنسا، فإنّ الجرثومة Bacteroides plebeius ربما تكون قد سرقت من الجرثومة البحرية Zobellia galactanivorans جينَ الأنزيم porphyranase القادر على تفكيك الطحالب السوداء. وهذا الجين غير موجود إلا لدى الجراثيم Bacteroides plebeius التي تعيش في الأنبوب الهضمي لليابانيين، الذين يستهلكون الكثير من الـ «ماكي» makis، هذه الوجبات التي يحضرونها من الرز والسمك وطحالب الـ «نوري» noris.

وتسود شيئاً فشيئاً فكرة أنه سيكون من المستحيل الحصول على لائحة كاملة عن بيولوجيتنا إن لم نفهم التأثرات بين الجينومين البشري والجرثومي. وبعد الجرد الكبير الذي أنجز خلال السنوات الخمس

الأخيرة، ما السبيل إلى الانطلاق أبعد من ذلك في فهمها؟

يرى «دوسكو إرليش» أنه بات ضرورياً الانتقال إلى مستوى الجينات الموجودة لدى كل نوع جرثومي، وذلك من خلال سَلْسَلَة جينوماتها كاملةً لتعيين الجينات والآليات المتتابعة الضالعة» . ذلك أملاً بتحديد مواد جديدة فعالة للأدوية حينئذ؛ أو العمل على إيجاد طب أدق وأكثر شخصية من ذاك الذي أمكن أن نشهده حتى الآن.

المصدر

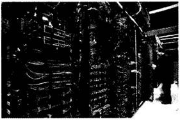
Science & Vie الفرنسية

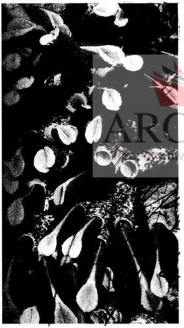
الهوامش

١- البروبيوتيك probiotique كائنات حية دقيقة (جراثيم أو خمائر) تضاف كمتممات لبعض المنتجات الغذائية كالألبان الرائبة أو الحبوب مثلاً والتي من المفترض أن لها تأثيراً مفيداً على صحة من يتناولها. «المترجم».

٢- Métagénome مجموع جينومات الجماعات الجرثومية في وسط معين. والطريقة المستخدمة في تحليل هذا المجموع - والمسماة «ميتاجينوميك» Métagénomique - تقوم على دراسة الجينات بشكل مجموعي من دون تفصيلها فرداً فرداً. «المترجم»

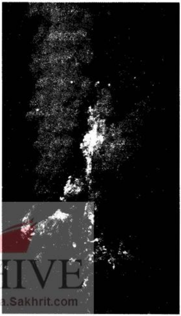










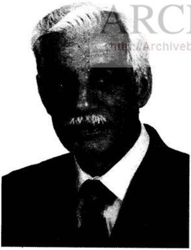




مع:

الأديب عدنان كنفاني

إعداد وحوار: محمد خالد الخضر ٭



الأديب عدنان كنفاني شاعر وروائي وقاص حمل جرح فلسطين بيد وبالأخرى استل قلماً ينبض بألم شعب لم يشهد العالم مأساة كمأساته فرقصت كلماته على إيقاع الحياة وغاصت قصصه بين زواريب المخيمات وطموحات الإنسان الساعي للحب والحرية والوجود وحملت أوراقه البيضاء منمنمات من أحلام أطفال فلسطين فكانت ناقلة أمينة لرائحة ليمون البلاد وجاءت قصائده شلالاً هادراً من ماء يافا ليروي عطش السنين وللتعرف أكثر إلى عالم عدنان كنفاني الأديب والشاعر والإنسان كان لنا معه هذا الحوار:

٭ شاعر وأديب وصحفي سوري.

- أنت شاعر موهوب تكتب الرواية والقصة والشعر، هل هذه الأجناس ترتبط ببعضها وترتكز على موهبة أم أن مرآة التشرد واحتلال فلسطين وتركك الأرض هي التي أوجدت هذه الرغبة للكتابة عندك؟

• لا شك في أنّ المعاناة تصقل الجوهر المؤسّس فطرياً على موهبة، وتراكم خبرة ودراسة ونضوج، ولا شك أيضاً في أن كل ما ذكرته من أسباب هي أسباب حقيقية مضافة إلى ملكة الكتابة، والأجناس الأدبية بشموليتها هي طرائق للتعبير كلّ بما يتهيأ له من قدرات ورغبة، ومن هنا أتصوّر وهذا ما كان شاغلي دائماً أنّ الكتابة الإبداعية على وجه الخصوص هي التزام ومعرفة وموهبة وتخلق مجتمعة أفق المبدع، وهذا يقود إلى أنّ الكاتب قد يمضي عمراً وهو يكتب ويمزّق ويلقي في سلّة المهملات إلى أن يصل إلى درجة من الرضى عن نفسه، والرضى يأتي من خلال الاطّلاع على إبداعات الآخرين، ومقارنة السويّة الشخصية مع سويّة المشهد الثقافي، ومن أوّل المبدئيات، حسب ما أرى، أن يتعامل المبدع مع قضاياه التي هي قضايا مجتمعه سواء منها الوطنية أو الحياتية الاجتماعية أو الإنسانية، وأن يكون في كل الحالات ممثلاً لضمير الناس.. هذا بالشكل العام، أما عني أنا فأنا أكتب منذ أكثر من خمسين أو ستين سنة لكنني لم أنشر وأنتشر إلا متأخراً وهذا يعود إلى أسباب عدّة لا أعتقد أنها تهم القارئ كثيراً، وقد بدأت بكتابة القصة القصيرة وأصدرت ثلاث مجموعات قبل أن أنشر روايتي الأولى (بدّو)، باختصار وتواضع أنا راضٍ عن تجربتي حتى الآن وأعمل بجهد على تطوير أدواتي وزيادة معرفتي.

- هل شعرت برغبة في الكتابة أم أنك وجدت ضرورة لإكمال مسيرة أخيك الأديب غسان كنفاني وماهو دوره في حياتك الاجتماعية والأدبية؟

• لا يستطيع أحد أن يُكمل مسيرة شخص بعينه بقدر ما يسعى ليكمل مسيرة عامّة، فلكل كاتب طرائقه وقدراته والفترة التي عاش فيها والأحداث والظروف والمعطيات والتداعيات، لكن يبدو أنّ هناك شبهاً في التصميم على مواصلة هذا التوجّه من قبل الكثير من الأدباء والكتّاب تحقيقاً لقيمة وطن وحريّة وخلاص من احتلال، وللمعلومات فقط أقول بأنني بدأت مع الشهيد غسان (الذي يكبرني بأربع سنوات) بالكتابة تقريباً في الفترة نفسها، وكنا ننشر نتاجاتنا في وقت واحد، لكنني، وبعد استشهاد غسان رأيت أن أتوقف عن النشر سنوات كثيرة، وهذا شأن آخر لا أحب أن أتحدث فيه أو عنه.

لقد مثّل لي غسان في كل مراحل حياته نبع المعرفة الأصيل، وكنت أجد عنده في كل وقت أجوبة عن الأسئلة الصعبة، تعلّمت منه الكثير (رحمه الله)، وأعتبره رمزاً وطنياً لم يعد ملك أسرته ومحيطه فقط بل انتشر إلى العالمية، وكان المتقدّم في مرحلته ووقته وكان المعبّر الأصدق عن الفعل المقاوم وجدواه في موضوع صراعنا الضاري مع الصهيونية.

- أي الأجناس الأدبية تراه أقرب إليك وأكثر اتساعاً وتحملاً لهمومك وجراحك ومادور كل جنس عندك؟

• نعم هو كما قلت «الهموم والجراح»، وأعتقد أنّ الاختصاص لا يمكن أن يقف حائلاً دون رغبة الأديب في التحليق في فضاءات إبداعية أخرى، لكنه ينتمي في كل حال إلى توجّهه الرئيس، أعني في الاختصاص «الشاعر أو الروائي أو القاص». ومن وجهة نظري المتواضعة أعتقد أنّ اللغة، والقدرة على الإمساك بناصية اللغة تمكّن الأديب من أن يجول في حدائق الأجناس الأدبية المختلفة، وهي مؤسسة بل ومرفوعة على الموهبة، والموهبة بذاتها لا تكفي إذا لم يعمل الموهوب على صقلها وتطويرها بالدراسة والاطلاع والتجريب.

القصة نوع في جنس الكتابة النثرية، لها شروطها ومقوّماتها الخاصّة، تستهويني عندما يشاغلني الحدث المختلف الذي يلامس قضايانا الوطنية والاجتماعية والإنسانية، وتستغرقني شعرية اللغة كشرط جمالي مكمّل، أمّا الشعر فهو عين الموسيقا التي فُطرنا عليها، ولا أجد غرابة في محاولات أي أديب مبدع التجوال في دروب تلك الأجناس.

لا أريد بكل الأحوال أن أدلّل على قدراتي، لكنني في الوقت نفسه لا أكتب إلا ما يقنعني أولاً ويتماشى مع معتقداتي ومبادئي، أمّا في طريقة التعبير عن ذلك فكل الوسائل متاحة، والفضاءات الإبداعية تتّسع للجميع.

- تتصدر فلسطين كل كتاباتك أو معظمها ألا تخشى مصير البطل الشهيد غسان كنفاني الذي اغتالته يد الموساد الغادرة في لبنان؟

• لا أعتقد أنّ الشعور بالألم فقط يملك سلطة التصدّر، إنّها مجموعة شروط يجب أن تتوافر في الكاتب المبدع كي يسعى إلى وضع بصمة تخصّه لمسيرته الأدبية، أمّا عن الألم فهو يحفر في نسيج الروح، وهو، أعني المعاناة بشكل عام، حافز محرّض بلا شك على تفجير الطاقات الإبداعية إذا عايشت مفردات حياة الكاتب ومن حوله، ونحن شعب مقهور ومظلوم يعايشنا الألم فكيف لانكون الممثلين لضمير المظلومين؟

علينا أولاً أن نفصل فصلاً تامّاً وحقيقياً في المرحلة الحاليّة على الأقل بين الرسالة المرتجاة من الأدب بالعام وأعني أدب العالم المترف الذي لا يعاني من مشاكل حقيقية في حياته اليومية، وبين الأدب الذي يخص حياتنا وواقعنا كأمّة مستلبة، مستباحة تتعرض للإبادة في كل لحظة، جزء من شعبها مشرّد يعاني ما يعاني من فقر وقهر وغربة، وجزء تحت الاحتلال، وجزء ما يزال لاجئاً على الرغم من أنّه يقيم على جزء من أرضه الجغرافية والتاريخية.. هذه الخصوصية تفرض على نتاجات مثقفينا وعلى جوهر نتاجاتنا الأدبية والإبداعية بأجناسها المختلفة أن تحمل طابعاً خاصّاً أيضاً، وأنا بطبيعة الحال خيط في هذا النسيج لا أرى غير الوطن على واجهة الأولويات، وعندما أقول الوطن أعني المكان بكلّ تجلّياته والناس في كل حركاتهم والذاكرة وما تحمله من نبض ساخن..

أمّا الخشية من مصير كمصير الشهيد غسان، فصدقني، وأقولها بصدق ورجاء وتمنٍّ، ليتها.. فكلنا في مواجهة هكذا مشروع إحلالي غادر نُعتبر مشاريع شهداء.

- ما الذي صقل موهبتك وأي الأشياء أكثر تأثيراً في أدبك سواء أكان ثقافة أو أزمة أو تحولات اجتماعية أو غير ذلك.؟

• أعتقد أنّ هذه «التهمة» كبيرة وفضفاضة، فأنا لم أصل بعد إلى تمام الصقل، ولا للاحتراف أيضاً، وأتعلّم في كل يوم، ومهما حاولنا أن نبتعد عن صخب وزواريب ودهاليز السياسة تبقى السياسة حتى في خبزنا اليومي، ولا نستطيع أن ننفصل بأيّ حال، فالسياسة ليست فقط بالحراك على مستوى القضايا الوطنية، بل تتداخل مع مفردات حيواتنا، وعلى الأديب كطليعي أن يكون في وقت ما سياسياً عندما تتصادم الأفكار والتوجّهات، ودعني أقول وأكرر ما أقوله في كل وقت ومناسبة: إنَّ أكثر وأهم الأسباب التي تسم زمننا هذا بالسطحية والعبثية هو ذلك الخلل في المعايير، عندما نضع الحصان خلف العربة ترتبك مسيرة الحياة، ولو اطّلعنا على تجارب الشعوب، حتى من نعتبرهم أعداءنا، نجد أنَّ الأدب، أو كي أكون دقيقاً أكثر أقول، إنَّ الثقافة بكل أشكالها كانت البوصلة التي تهدي توجّه السياسي، وليس العكس، فالمثقف (الأديب الملتزم) هو الممثل الرسمي لضمير وإرادة الناس، والناس هم الغاية، أو المفترض أن يكونوا الغاية، ومن أجلهم

يستقيم حراك السياسي والأديب، كل هذه الأحداث، والتداعيات الوطنية والسياسية والاجتماعية، وفي أعلى هرمها المعاناة المؤلمة والقاسية، وعشق الكتابة، والتجدد، كلها مجتمعة كان لها التأثير الكبير في مسيرة حياتي.

- تعتمد في كتاباتك على الرمز والدلالة هل ترى أن المتلقي على علاقة جيدة بدلالاتك أم قد تخدم المباشرة بالحالات الوطنية؟

• الرمز الأبرز هو فلسطين كمكان وكوطن وكمرجع وكهوية في كل رواياتي وأعمالي القصصية، فهي الأم والحاضنة، ولا شك في أن الذاكرة الوطنية لها القيمة الكبرى في الحفاظ على خصوصية الهوية ونحن كشعب توارثنا هذه الذاكرة من الآباء والأجداد، سواء بالحكايات الشخصية أو بالذكريات المرويّة أو بالتراث الملموس من الملابس والأواني والعادات والتقاليد والأمثال الشعبية، وحتى اللهجة والكلمة، كلها أمور تعمل على إبقاء الذاكرة طازجة وتفرض على الأديب في كل نتاجاته الأدبية أن يشتغل عليها، والحقيقة أننا الآن وسط هذا القليل الذي نمتلكه كسلاح ووسيلة من وسائل النضال، نستطيع أن نتلمّس مدى أهمية الحفاظ على الذاكرة الوطنية، إلى جانب استخدام الرمز، كذلك يمكن أن نسلك طريق المباشرة في بعض الحراك التعريفي سواء في القصة أو في الرواية.

لا بد لكل عمل أدبي أن يمتلك مقومات فنية تجعل منه عملاً فنياً إبداعياً ناجحاً، ففي الأعمال النثرية كالقصة والرواية هناك حدث وشخوص، وفي تجربتي أختار الشخصيات الأقرب إلى عالمي الفلسطيني الخاص والذي أستمد تفاصيله من الذاكرة الجمعية الفلسطينية، وقد أكون الراوي نفسه كما في روايتي «بدّو» التي أعتبرها إلى جانب الكثير من المتخيّل والذاكرة سيرتي الذاتية بجدارة، ورواية «رابعة» التي تُحكى على لسان سيدة اسمها رابعة، تتحرك في محيطها الفلسطيني في الداخل والخارج، وتعيش المعاناة الوطنية والقومية وسط المتغيرات التي تحدث، وهذا ما يخلق بلا شك اهتزازات في الشخصية العامة، ويكمن دور الكاتب أو الروائي في قيادتها كبطلة للرواية إلى ملامسة الخلاص الذي يصب في موضوع النضال ومواصلته بأشكاله المتعددة.

- هل جسدت حياتك خلال كتاباتك أم أنك تقتصر على عكس الواقع الاجتماعي والوطني والقومي مادامت حياتك تحكي كثيراً من الحكايات والمتاهات؟

• على الكاتب في كتابة الرواية أو القصّة وهو يحمل مضموناً يتحدث عنه، أن يركز على المكان بجدارة ولا يترك التفاصيل الصغيرة التي تمكن القارئ من أن يعيش المكان بكل تفاصيله، وأن يستعيد مع الكاتب الصور الحية من ذاكرته عن المكان، الوطن، يُقال إنني أكتب المكان بكل تفاصيله بحيث لا أترك تفصيلاً ولو كان صغيراً في المكان الذي أتحدث عنه إلا وأسجله، وقد أشار كثير من النقاد إلى أنني ألتزم بدقة بموضوع المكان كمساحة للكتابة لا على الورق فقط بل في واقع الحياة كذلك، لما يعنيه المكان (فلسطين) لكل روائي فلسطيني وعربي، وفي الحقيقة إنّ الخصوصية الفلسطينية وحالة الاحتلال والتشرد، ومحاولات تغييب المكان وتغيير معالمه كلها لطمسها وتغريب الإنسان الفلسطيني عن ذاته ووطنه، تهدف إلى إلغاء الهوية الوطنية، وهذا ما يفرض علينا أن نتمسك بالمكان كقيمة سامية دالّة على أحقية قضيتنا الوطنية، ولا أقصد بالمكان الشارع أو البيت، وقد تفرض الحياة التغيير في الشكل، بل أتحدث عن المعالم التي تحيط بكل هذه التفاصيل، بمعنى أنني أهيئ المكان الخاص بي ثمّ أشكله متى امتلكته كيفما أشاء، ولست أضيف جديداً إذا قلت بأن أي نصّ يكتبه كاتب يجب أن يحمل شيئاً منه ومن روحه، وبما أنني من نسيج هذا الشعب، فإن أيّ حراك في هذا المجال يعنيني تماماً لأنني أعيش فيه واقعاً وتخيّلاً ومعاناة وأمل عودة.

- لماذا كتبت شعر الشطرين ولم تكتب غيره من الأجناس الشعرية وهل تراه أقدر على استيعاب مكنوناتك؟

• أنا لم أدّعِ يوماً بأنني شاعر، أكتب الشعر عندما توقعني الجملة والمفردة في دائرة الرتم والموسيقى فأطرب لها وأكتبه ليس أكثر، لكنني أعتبر الشعر أرقى مراتب الإبداع، وهو الذي سيبقى ديوان العرب، وهو الأقدر على التعبير عن اللحظة والتجاوب الأسرع مع الحدث، ونحن كمجتمع عربي تعودنا على سماع الشعر والإصغاء ثم إطلاق الاستحسان من خلال الوقع الموسيقي وروعة الكلمة وجمالية الصور، وهذا ما نفتقده الآن كثيراً وسط هذا الكمّ الكبير من الشعراء المدّعين وهم بالحقيقة أشباه شعراء والشعر منهم بريء، وهم المسببون لغياب أو تغييب الشعراء الحقيقيين، وهذا موضوع آخر لا أرغب الدخول في تفاصيله. أمّا عن النثر الحكائي في مجال القصّة والرواية والخاطرة فهو ما يهمني ويشدني أكثر بالتأكيد.

أين تجد نفسك وعلى أي جنس أدبي ويمن تأثرت ومن هم الأدباء الموجودون في ذاكرتك الثقافية؟

• أعتقد أنني أجبت عن هذا السؤال في موضوعة أين أجد نفسي، أمّا بمن تأثرت، فللحقيقة أقول إنّ النص هو الذي كان قادراً على التأثير في بغض النظر عن كاتبه، وهذا لا يقلل أبداً من قيمة أدباء كبار تعلمنا الكثير من عطاءاتهم الأدبية والإبداعية.

كما أنني أعتقد، ربما من إحساسي الخاص بأنّ الشعور بالظلم هو أقسى ما يمكن أن يسبب للإنسان الألم والقهر، ولا أعتقد بأنّ هناك شخصية بعينها تحرضني على الكتابة ولكن ما يحرضني حقاً هي حالة الشخصية، وغالباً ما أسعى ليكون ملهمي ذلك الإنسان المسحوق المظلوم، وأحياناً دمعة من عينيّ رجل، وبكاء طفل، وزغرودة وداع أم لولدها الشهيد.

- في ظل عزوف الكثيرين عن القراءة، فما أسباب الابتعاد عنها.؟ وما مهمتنا أمام الجيل الصاعد لحثه للعودة إلى الكتاب.؟

• الحضارة والحداثة تفرضان التغيير، وثورة الاتصالات والإنجازات المتسارعة بتطوير وسائل الاتصال والإعلام والمعرفة أصبحت أوسع وأشمل من الكتاب وأسهل وصولاً وتحقيقاً، وسياسات التجهيل والتسطّح أصبحت سمة العصر، وهذه كلها مشكلات تشكل أعباءً ثقالاً على الكتاب، ولا يحضرني الآن كيف يمكن أن ننقذ الكتاب من الموت لكنني أقول بأنّ الغث يذهب جفاء والسمين يبقى ما بقي الدهر.

- النكبة الفلسطينية استجلبت أدب المقاومة، والنكبات المتتالية جعلت الأدباء الفلسطينيين يصبّون حبر أقلامهم فوق جراح الشتات، فهل وصل هذا الأدب لمستوى الحدث.؟ وهل نفذ إلى أعماق الشعب العربي ليحقق وعياً بجوهر القضية.؟

وهل تعتقد أنّ أي فعل مهما ارتقى وسما يمكن أن يصل إلى قيمة الدم.؟

• لقد حقق أدب المقاومة حضوره الباهر على الساحة، وحقق تواصلاً فاعلاً بين الأجيال، إذ استطاع أن يستولد ذلك الأدب مفردات جديدة وثقافات جديدة، كثقافة الصمود والرفض والتصدي والاستشهاد والأسر والأمعاء الخاوية... إلخ، واستطاع أن يحقق حضوراً في ضمير العالم وليس فقط في ضمير الشعب العربي في أقطاره المترامية.

- المرحلة الانتقالية في مسيرة تاريخ القضية الفلسطينية، هل سينعكس على أقلام الأدباء في الوطن العربي عامة والفلسطينيين خاصة؟

• أعتقد أنك تعني ما يستجد الآن على مسار القضية.؟ أنا شخصياً عندي إيمان مطلق بأنّ شعبنا الفلسطيني قد تجاوز منذ زمن التبعية والخنوع والرضوخ لغير مبادئه

الثابتة، وقدم من أجل ذلك التضحيات بلا حدود، وهذا يعني باختصار أنَّ القضية ستبقى على المرجل ما لم تتحقق الأمور الثابتة والمطالب العادلة للشعب والتي تتلخص بتحرير فلسطين الجغرافية كاملة وعودة أهلها إليها، ولا أقول هذا شعاراً بل عندي إيمان كامل بأنَّ مسيرة التاريخ والأمثولة التي نتابع مشاهدها في كل يوم، وارتقاء الأجيال تباعاً إلى مستوى الفهم الأكثر وابتداع وسائل المقاومة ستحقق أمانينا مهما طال الزمن.

- ما هو المقياس في تقييم عمل فكري بأنه مميز أو أنه لا يصلح للنشر؟

• متى لامس العمل الإبداعي أحاسيس الناس فقد حقق التميّز، وأعتقد أنَّ الرضى الشخصي المؤسّس على معرفة ملتزمة وصادقة هو معيار هام وضروري، أمَّا مسألة النشر فهذه تخضع لظروف أكثر من أن تحصى وأنت أدرى ماذا أعني بذلك.

- هل هناك تقسيم ما في نسيج الأدب العربي بين أقلام ذكورية وأخرى نسوية.؟ ولماذا.؟

• الأدب والإبداع نتاج لغة ومفردات ومشاعر، ومن ملَك ناصية اللغة فقد تجاوز عقبات كثيرة وهذا ينطبق على الجنسين ومن دون تفريق، هناك أدب واحد ولغة واحدة تكتبها المرأة ويكتبها الرجل، ولكنني أعتقد بأنَّ المرأة هي خير من يكتب عن المرأة، والرجل خير من يكتب عن الرجل ولكن كلا الجنسين يعيشان في بوتقة مجتمع واحد ويتشاركان الهموم والأماني ولايمكن الفصل من حيث الإبداع بين ما يكتبه الجنسان وليس هناك أدب ذكوري وأدب نسائي.

- قلتَ بأنَّ امتلاك ناصية اللغة هي العامل الذي يحدد مدى تفاعل الكاتب مع الحدث، وقلت بأنَّ خير من يكتب عن المرأة أو الرجل هو الجنس بعينه. فهل تعتبر مثلاً أن هناك قضايا تخص المرأة وأخرى تخص الرجل؟ وأنَّ التعبير عمّا يختلج في النفس البشرية يجب أن يخضع لتلك المعطيات؟

• إن ما أعنيه هو ما يختص بالمشاعر الحميمة، ولا أعني الأحاسيس العامة، هناك أمور تتعلق بالمرأة خاصة وشفيفة ووجدانية قد لا يتقن فهمها الرجل كما تفهمها المرأة، وكذلك الأمر بالنسبة للرجل وهذا ما أعنيه بالضبط، وأعيد وأقول بأنَّ الأدب هو أدب ولكن التعبير عن الخصوصية فقط هي التي تميّز بين الجنسين، أمَّا عن امتلاك ناصية اللغة فلا شك بأنَّها المعوّل الأساسي عليه في المقدرة على التعبير من خلال الأجناس الأدبية كافة.

- تردد دائماً بأنَّ السياسة تدخل في خبزنا اليومي، وقلت: حتى لو كتب الكاتب الفلسطيني عن الحب مثلاً يجب أن يصب

هذا الحب في قلب الوطن.. إلى أي مدى تجد نفسك ملتزماً ككاتب بهذا القول.؟

• نعم وأقولها.. نحن يا سيدي شعب مظلوم ومقهور نعيش أقسى ما يمكن أن يتصوّره كائن، ويجب أن يفعل هذا شيئاً في دواخلنا، وعواطفنا وممارساتنا، ويجب أن تكون لنا خصوصيتنا، ما من بيت إلا وقدم الشهداء تباعاً. ما من أسرة إلا ومشرّدة في أصقاع الدنيا، كيف إذاً نخرج من معاناتنا إلى ترف ليس لنا.؟ نعم قلت وأقول حتى لو نكتب عن الحب عن أي شيء يجب أن تكون اللمسة فلسطينية، ونحن أيضاً كسائر البشر نحب ونكره ونفرح ونحزن ونستطيع تصوير ذلك كله أعني إبداعياً ولكن بلمسة تصبّ في مسألة الالتزام، والالتزام بحد ذاته قيمة تحسب للوطن. أليس كذلك.؟ والكاتب في كل الأحوال موقف.

○ ○ ○

عدنان محمد فايز كنفاني

- مواليد يافا. فلسطين ١٩٤٠م، مقيم في سورية.
- مهندس ميكانيك.
- أديب وكاتب وصحفي: عضو اتحاد الكتّاب العرب.
- عضو الاتحاد العام للكتّاب والصحفيين الفلسطينيين.
- عضو المكتب التنفيذي للحملة الأهلية لاحتفالية القدس عاصمة للثقافة العربية للعام ٢٠٠٩م.

صدر له:

- غسّان كنفاني، صفحات كانت مطويّة.. «سيرة» دار الشموس/ دمشق ١٩٩٨م.
- حين يصدأ السلاح.. قصص، دار الشموس/ ١٩٩٩م.
- قبور الغرباء.. قصص، دار اليازجي دمشق/ ٢٠٠١م.
- على هامش المزامير.. مجموعة قصص قصيرة (ومترجمة للإنكليزية)، اليازجي ٢٠٠١م.
- بِدّو.. رواية «وهو اسم قرية فلسطينية تقع شمال غرب مدينة القدس»، مطبعة اليازجي/ ٢٠٠٢م.
- أخاف أن يدركني الصباح.. قصص «عن اتحاد الكتّاب العرب» ٢٠٠١م.

. مسرحيّة وطنية «مونودراما» تحت عنوان «شمّة زعوط» عرضت على مسارح سورية ٢٠٠٢م.

- وتطير العصافير.. مجموعة قصصية، دار الطارق/ دمشق ٢٠٠٥م.
- رابعة.. رواية، دار الطارق/ دمشق ٢٠٠٥م.
- خدر الروح.. قصص ٢٠٠٦ «عن اتحاد الكتاب العرب».

- بئر الأرواح وقصص أخرى... «عن مؤسسة فلسطين للثقافة ٢٠٠٧م».
- رؤى.. بروق.. أطياف.. قوس قزح. قصص مشاركة في مجموعات قصصية مع مجموعة قاصّين. دار اليازجي، واتحاد الكتّاب والصحفيين الفلسطينيين/ دمشق.
- الجثة ودائرة الرمل (رواية).. عن دار الهادي، بيروت ٢٠٠٧م.
- إيقاعات الذاكرة قصص ٢٠٠٨م اتحاد الكتّاب العرب «جائزة د. نبيل طعمة للإبداع».
- معارج الإبداع «إعداد» ٢٠٠٩م الحملة الأهلية لاحتفالية القدس، مؤسسة فلسطين للثقافة.
- الهالوك.. قصص «عن اتحاد الكتّاب العرب» ٢٠١٠م.
- الغالية.. خواطر وجدانية، مطبعة اليازجي ٢٠١١م.
- قبيل طلقة الفجر.. مجموعة قصص فازت بمسابقة اتحاد الكتّاب العرب للإبداع ٢٠١١م.
- مثّل الثقافة الفلسطينية في مهرجان دول حوض البحر المتوسط في إيطاليا ٢٠٠٤م.
- حاصل على جوائز عن بعض أعماله الأدبية.
- شارك في مهرجان دعم الانتفاضة في طهران ٢٠٠١م.
- حائز على جائزة أفضل عمل إبداعي في مسابقة الخميني للإبداع في يوم القدس.
- شارك في مهرجان نصرة مقاومة الشعب الفلسطيني في إسبانيا ٢٠٠٥م
- عضو فخري في جمعية الفكر والأدب المعاصر، وفي جمعية كرمة بن هانئ، وفي ثلاثة من قصور الثقافة في القاهرة. مصر.
- كان ضيفاً في كثير من الندوات الإذاعية والتلفزيونية الأدبية في سورية ولبنان ومصر وتونس وليبيا والإمارات العربية المتحدة.
- كرمته جهات رسمية وخاصة على الكثير من أعماله الأدبية.
- جائزة وتكريم تجمّع الأدباء الفلسطينيين العالمي للتميّز الإبداعي في القصّة.
- فاز بجائزة الدكتور المهندس نبيل طعمة للإبداع للعام ٢٠٠٨م.
- فاز بالمركز الأول في مسابقة القصة في اتحاد كتّاب وصحفيي فلسطين ٢٠١٠م.

تحت الطبع

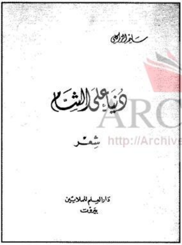
- الحرية ٣١٣ (رواية).. دماء بلون البنفسج (رواية).. مجموعات قصصية، ومسرحيات وروايات وديوان شعر.

ويكتب أيضاً الشعر والمقالة والدراسة والبحث وينشر في الصحف والمجلات والدوريات المحليّة والعربية والأجنبية..

عودة إلى سليم الزركلي و(دنيا على الشام) وفاء وشاعرية

د. إسماعيل مروة *

لاشك في أنَّ المهنة أو الإبداع المشترك بين فردين من أفراد أسرة واحدة أو أكثر يعود سلباً على اللاحق، إذ يأخذ الرائد الأوَّل نصيب الشهرة، ويصبح التالي تبعاً للأوَّل، ويضيع بريقه ويخبو مهما كان متفوقاً، والأمثلة كثيرة على متفوقين لم يأخذوا حقهم من الشهرة لأنَّ الأسرة قدّمت من أخذ الشهرة وطار بها ومعها، وهذا يحدث سواء أكان الأوَّل متفوّقاً حقاً أم لم يكن، وشاعرنا سليم الزركلي واحد ممن تعرضوا لهذه المعضلة، فهو شاعر متفوق، وشاعر ملحمي، يحمل نفساً طويلاً في الشعر ونظمه، ولكن شهرة خير الدين الزركلي جعلت بريقه أكثر، فعندما يذكر الزركلي فخير الدين هو المقصود، وزاد الأمر التباساً أنَّ الشاعرين كانت اهتماماتهما مشتركة في الميول والسياسة، بل واشتركا في اهتماماتهما وموضوعاتهما الشعرية..



اللقاء الأوَّل:

أذكر أنني سمعت اسم الشاعر سليم

* أديب وشاعر وأستاذ جامعي وإعلامي

الزركلي من صديقي الأستاذ الشاعر أحمد المفتي، وقرأ علي شيئاً من شعره الذي استغربته يومها، وظننت أن الأمر التبس في الاسم على الأستاذ، لكنه بيّن لي أنَّ الاسم صحيح، وأنني مقصر في معرفة شاعر من الفحول من شعراء سورية، ولا أنكر أنَّ الأستاذ المفتي كان معجباً بخير الدين ومهتماً بديوانه ورسمه، لكنه في الوقت نفسه دلني على شاعر آخر مهم، اختلط اسما الشاعرين، لكن شعرهما افترق ، فلكل هويته ونَفَسُهُ الشعري المختلف..

عندما بدأت الاهتمام بالشاعر سليم الزركلي، وبحثت عن ديوانه غير الموجود في الأسواق إلا بندرة، وكلما سألت عن ديوانه في مكتبة كان ديوان خير الدين هو الذي يقدم لي حتى وصلت إلى مكتبة فرعية فوجدت لدى صاحبها مجموعة (دنيا على الشام) لسليم الزركلي، والتي طبعت في بيروت - دار العلم للملايين ١٩٦٨م، فأخذت النسخة التي لم تمضِ سوى ليلة واحدة حتى كنت قد التهمتها قراءة ومحاكاة، وبوحي من هذا الديوان نظمت قصيدة (نور على الشام) وعنوانها يوحي بالمحاكاة والتقليد لشاعر من النسق الأعلى صورة ولغة وشعراً، وصارت مجموعة (دنيا على الشام) رفيقتي في كل لحظاتي، في الجامعة والبيت وفي وسائل المواصلات، أقرأ فيها كلما سنحت الفرصة، واليوم أستشعر أثر الشاعر في نفسي تجاه الشام، حيث صار اسم شام لصيقاً بي لايغادرني حتى إلى اسم دمشق الذي اشتهر لدى الناس والشعراء الآخرين.. وبسبب هذه المجموعة تابعت الشاعر وسيرته وشعره، ليتملكني العجب من هذا التطابق بين سيرته وسيرة الشاعر خير الدين..

الأسرة وشام الممتدة:

كما ولد خير الدين في بيروت لأبوين دمشقيين، كذلك ولد الشاعر سليم الزركلي عام ١٩٠٥م في بعلبك لأبوين دمشقيين، والفارق في الحياة أنَّ خير الدين توفي في القاهرة ودفن هناك، لكن سليم توفي في دمشق ودفن فيها فكسب ما خسره خير الدين من محبوبته الشام وتربتها.. كلاهما ولد خارج الشام، وفي هذا دليل على الإقليم الشامي، فالوالد كان يعمل هناك، وكان متنقلاً بين عدد من مدن الإقليم، لكنه يعود إلى الشام ليركن إليها ويستمد الحياة منها..

وكما انخرط خير الدين في الحياة العامة والسياسية كذلك كان حال الشاعر سليم الزركلي القريب نسباً وروحاً، اختار

خير الدين الإعلام المقروء، وكان من نصيب سليم الإعلام المسموع، والفارق أنَّ خير الدين قضى حياته متنقلاً بين عدد من الوظائف منها الدبلوماسية، وسليم قضى حياته في العمل الوظيفي داخل سورية، ويحسن أن نذكر أعماله (نال شهادة دار المعلمين ١٩٢١م، علَّم في مدرسة الملك الظاهر ١٩٢١، ١٩٢٢م، شارك في النضال السياسي وهو في ميعة الشباب واعتقل وسجن وغادر البلاد بسبب شعره، عمل في التربية حتى عام ١٩٤٧م حيث صار مديراً لإذاعة دمشق، عام ١٩٤٩م عُين مديراً للمطبوعات، عام ١٩٥٤م عُين مديراً معاوناً لمعرض دمشق الدولي، عام ١٩٦٢م، شغل منصب مدير السجل العام للموظفين..

وتوفي في دمشق عام ١٩٨٩م.. ترك مجموعة من المؤلفات شعراً ونثراً: (دنيا على الشام) ١٩٦٨م، (نفحات شامية - عرس الشهداء - عيد الجلاء - دمعة على شقيق الروح خير الدين الزركلي - نفحات قلم - رحلات..)

ومن يقرأ ديوان الشاعر سليم الزركلي يلمس هذا الحب والاحتفاء بهذا القريب، ولم يمنعه من هذا الاحتفاء مانع، وكذلك رثاه بقصيدة طويلة مع أنه خسر الكثير من الشهرة والأضواء لتقدم خير الدين في العمر والعمل السياسي، وربما في مصنفه الأهم (الأعلام) الذي كان وراء شهرة خير الدين أكثر من شعره على أهمية شعره وعذوبته، ففي الأعلام جاء بما لم يسبق إليه، وعجز الآخرون عن اللحاق به وتقديم شبيه لما قدمه في هذا الكتاب الرائد..

وكما بكى خير الدين في جلّ شعره، وفي قصيدته المتفردة (نجوى) فصار شاعراً للشام، كذلك فإنَّ سليم أخلص للشام والحديث عنها في كل شعره الذي وصل إلينا، وهنا نلمس الجانب الآخر الذي أثّر على سيرورة شعر سليم بين الناس، فتشابه الموضوعات ترك أثراً سلبياً لم يمحه قيام عدد من المطربين والمطربات بالغناء له..

كانت الشام هي الوحيدة في شعر سليم، وإن كان الغناء في غيرها ولغيرها، فهي الحاضرة على الدوام، والحبيبة التي يرى الحياة دنيا ترفّ لها وعليها، ولاتختار شيئاً دونها، ومناسبات شام هي الغالية التي يخصها بالكثير من شعره وقصائده المطولة، وفي هذا الجانب يتميز سليم عن خير الدين بمطولاته وابتعاده عن الومضات القصيرة، ونادراً ما نعثر على قصيدة قصيرة كما في ديوان خير الدين، ومع أن (دنيا على الشام) طبع مبكراً عام ١٩٦٨م إلا أنه لم يحظَ بالاهتمام اللائق والمناسب!.

دنيا على الشام:

ديوان (دنيا على الشام) لسليم الزركلي إضمامة من الشعر المخلص للشام ومناسباتها وإنسانها، وإن نظرنا إلى شعره الوجداني الأسري من منظور الانتماء الشامي، كان كل الديوان شامياً، لذا جاءت قصائد الديوان شامية أو ذات ارتباط بالشام (تحية النهضة النسائية في مؤتمر دمشق – صرخة ضمير – منحة الله – شمس الأصيل – فتية النيل – ذكرى الاستقلال – تحية العراق – اليتيمة دمشق – يا ابن إسماعيل – هذي الطريق – خواطر في اليتم – بني وطني – يوم الجلاء – ذكرى العدوان – دمعة – رموز قاسيون – الظل الممدود – شهداء أيار – ذكرى أحمد مريود – سبيل المجد – ذكرى مجاهد – أريحية دمشق – صور وأصيل – هبة آذار – وادي الهوى – الشهيدة رجاء – دمشق الشراع الهادي – تحية الشام – يا نجي الشعر – الحرية المرابطة – دنيا على الشام – دنيا الشباب – وقفة – فرحة الدهر – الشام تتكلم – خواطر في ذكرى الجلاء – ذكرى ميسلون – تحية – هذا الجلاء – دموع الورد – خرافة – يا ابن الأهلة – رمز الشهادة).

وهذه القصائد الطويلة جال فيها سليم الزركلي بين حادثات الشام ومناسباتها، فللمستعمر وظلمه وبطشه شعر مؤثر، وللجلاء قصائد عدّة حرص عليها عند كل ذكرى أو مناسبة، وللشام مرابع الشباب والرجولة قصائد وصور لاتحصى، وللحنين إلى الشام وهو بعيد عنها كل عصارة الحب، ولرجالات سورية من صالح العلي إلى أحمد مريود وفخري البارودي وسعيد الغزي قصائد التخليد والوفاء، وللمرأة الشامية احتفاء خاص... هذا الديوان على ضخامته مخصوص للشام، وعليه نثارات من الوجدان والوله المرتبط بالشام وإنسانها.

المستعمر وعدوانه:

سجل الشاعر سليم الزركلي بكلمته ما قام به المستعمر الفرنسي في سورية، كما سجل ما جرى لشهداء أيار الذين كانوا شهداء قبل تقدمهم من أعواد المشانق لينضموا إلى قوافل الشهداء، لهؤلاء الشهداء يقول الزركلي مستذكراً الماضي المجيد، وموازناً بين الماضي وما فعلوا هم:

حيّاكِ في حَرَمِ الخلود
شعبٌ أفاقَ من الرّقود
أ قوافلَ الشّهداءِ ماذا
في سمائِكِ من جديد
تيهي عُلىً فالدّهرُ غيـ
ـرُ الدّهرِ في شَرِّ العهود

أ قوافل الشهداء كفـ
ـفي من دُموعكِ لاتزيدي
قد كنتِ تبكينَ العُلى
أسفاً على وطنٍ شهيد
ماذا أعدَّتْ يعربٌ
من عدَّة أو من عديد؟!
ماذا أعدَّتْ للأولى
انتهكوا محاريبَ السجود؟!
شهداء يعرب يا عيون الـ
ـمجد في الحلك الشديد
أنتم صدى الماضي البعيـ
ـد ورفة الأمل العتيد
قرّوا بما جَنَت العلى
عيناً، وفي خلدٍ مديد

في صورة شعرية آسرة، وفي محاكاة للماضي المجيد النبيل يتوقف شاعرنا بعيداً عن النظم المفتعل والمرتجل، ليقدم صورة ولا أبهى لهؤلاء الشهداء العظام الذين لبوا نداء العلى، متسائلاً عن موقف العرب مما يجري على الأرض، وكأن الأمر لم يتغير ولم يتبدل بين الأمس واليوم، ففي كل يوم يستصرخ الشعراء الأمة، ويستنهضون الهمم، ولكن لا من يجيب! وكأن قدر الأمة أن تخرج من دائرة لتدخل في أخرى بحثاً عن مجير مما يحدث، وهو يتحدث عن حادثة البرلمان عام ١٩٤٥م ولايجد سوى الدمع الهامي على وجه الشام لما جرى:

كفكفي الدمع يا بنات الهديل
وامسحي بالدماء جفن الأصيلِ
نشرَ الغدرُ في (دمشق) رواقاً
يبعثُ الرُّعبَ مالَهُ من مثيل
يا ضحايا، وما أجلَّ الضحايا
في جهادٍ على البقاء طويل
يا بلادي، وما ألوتك نصحاً
لاتسيري مع الهوى وتميلي
ولو أنَّ العدوان يُقتل باليأ
س لفازَ الجبانُ بالمأمول
ضلَّة الرأي أن يراودنا الـ
ـيأس، ونرضى من العُلى بالقليل
إنَّما المجد أن يُطاوعكَ الـ
ـدَّهرُ وتزهى بعسكرٍ وخيول!!!

كذلك هي الأوطان تستحق منا أن نقدم لها كل جليل ونفيس، والشاعر لايمارس النواح بقدر ما يبحث عمّا يمكن أن يخلد الإنسان والوطن، لذلك يدعو إلى التقدم دون أن يراود الإنسان المدافع عن أرض وطنه أي وجل أو خوف، وهذا مادفعه في مكان آخر لمخاطبة أبناء الوطن للالتفاف من أجل الخلاص من هذا المستعمر:

«بني وطني» والكارثاتُ محيقة
وشر نُيوب السّوء تسعى أراقما

سيحزبكم ويلٌ، إذا لم تضافروا
ولم تنزلوا ساح النضال ضراغما
نشدتكم ألا تلينَ قناتُكم
ولا ترهبوا، خوض الوغى والملاحما
فإن لكم في غابر الدّهر أسوة
«أمية» تغزو الخافقين قشاعما
كفى حسداً، أو نقمة، أو تعنُّتاً
فما فيكم من يستسيغ المظالما
أقيموا لدى الجلى سواعدَ أمة
تبيتُ على وجدٍ، وتصحو سواهما
إذا الفلكُ الدوار أمّن خطوها
تطلع مجد العرب في الشرق باسما

وللجلاء فرحته ومكانته:

سليم الزركلي عاش الجلاء في رجولته واكتمالها، وهو الذي عانى من الفرنسي، وشهد رحيل التركي، قال وسجن وشرّد عن بلده، وعن شامه التي يتعشقها وهو فيها، أو وهو بعيد عنها، لذلك كانت علاقته بالجلاء علاقة من أسهم فيه وعمل لأجله، علاقة من شاهد وتابع في كل لحظة من اللحظات، وبسبب هذا الإيمان كان كغيره من الشعراء الذين أعطوا هذه المناسبة العزيزة ذوب كلماتهم، وخلاصة أشعارهم، ولم يكتف بقصيدة واحدة، ولو عدنا إلى قصائده المطولة عن الجلاء، رأينا تلك الصور الملونة، ما بين فرحة الجلاء في أول الأمر، والفرحة بالحكم الوطني فيما بعد حين تحول حلم الجلاء إلى حقيقة، ومن خلال قصائد المعاصرين يومها وسليم الزركلي تحديداً يتعرف القارئ إلى التاريخ السوري. فقد أعلن هذا الاستقلال عام ١٩٢٠م في ٨ آذار وقبل دخول المستعمر الفرنسي في تموز من العام نفسه، ولذا لم يسمّ الجلاء وسمي الاستقلال:

آن للمجد أن يعود حميدا
فاملؤوا الدهر عُدّةً وعديدا
المروءات ما استكانت لباغ
يزرع الأرض قسوة ومرودا
إنّ للعرب ما تنكرت الأقـ
ـدار حصناً ممرداً مجدودا
وثبة من عزائم العرب أذكت
في ضمير الزمان بعثاً جديداً
إنّ للعرب سؤدداً، ما تسا
مى الدهر يحبوه رفعة وخلودا
جلّ عن قبضة الزمان فإمّا
رامَهُ بالأذى أجدّ صدودا

ولمّا لم يستقر الاستقلال، وذهبت الأحلام أدراج الرياح، ودخل المستعمر الفرنسي سورية، قُصّ جناح كبرياء الشعر، وكان عليه أن يقاوم ويصور ويفضح لربع قرن من الزمن

حتى يتحقق اليوم الأسمى في تاريخ سورية، وهو يوم الجلاء، وسليم الزركلي ينظم في اليوم نفسه ١٧ نيسان ١٩٤٦م قصيدة تحت عنوان يوم الجلاء:

«أدمشقُ» ما أنت الغداة بثاكل
ما أنت بالنادي الخصيب العاني
ما أنت بالبلد المضيع حقه
ما أنت بالوطن القليل الشان
اليوم عيدُكِ يا «دمشق» فهلّلي
وتفتّحي عن عالمٍ محسان
أبت العروبة أن تنامَ على الأذى
أو تنطوي في اليأس والنسيان
وإذا العزائم شمّرت عن ساقها
ومشت على الأحقاد والأضغان
ملكت زمام المجد من أشطانه
وتربعت في الجاه والسلطان
يا يوم يعرب في دمشق لك الفدى
حُييتَ في الأزمان والأوطان

وللجلاء وقاسيون ورموزه مجال واسع في شعر سليم الزركلي:

نحن والمجد والظُّبى
في سعير تمدّد
إن حجبنا عزائماً
لأن منّا المعرّدُ
يا بلاداً عبدتُها
والمروءات تُعبَدُ
يا رُبى الخلد طاعة
«قاسيون» يُخلَّدُ
للتعالي جهادنا
والمواضي تحدّدُ
وعلى دوحة العلى
فالجلاء المؤبّد

وفي ذكرى الجلاء وبعد عقود تأتي خواطر على ذهن الشاعر سليم الزركلي، ومن مصادفات القدر أن يكتب الشاعر وهو من هو، هذه القصيدة، ويلقيها في المركز الثقافي العربي في درعا:

خواطرُ في اليوم الجليل تهيبُ بي
فأمتحُ في ذكرى الجلاء جليلا
ولكنّها ذكرى توَجّج ما انطوى
من الوجد، والأطياف تلحف سولا
فأرجع، والأمجاد تدمى جراحُها
مراجل تغلي بالتّراب حفولا
«بني الشام» يا حصن العروبة لاخبت
لكم جذوات كم شفين غليلا
حملتمْ رسالات العروبة فاستوت
كتائبكم تغذو نُهىً وعقولا
«بني الشام» لا تذهب بكم ريحُ فرقة
فإنّ ربيب الشرّ ليس غَفولا
ولاتَدَعوا الأهواء تعبث بالحمى
وتضرم بالحقد الرهيب غيولا

سبيل العلى حزمٌ وبذلٌ وحكمةٌ

ومُذْ كان دهرُ العربِ، كان بَذولا

وللعشق والهوى يحيا:

لم يكـن بالمقـدور أن أقف عنـد ديوان الشاعر سليم الزركلي الغاص بالشام والوطن والجلاء والتحدي والمقاومة من دون أن أقف عند شعره في العشق، وهو من الشعر المتفوق الذي لو أخلص له الشـاعر لـكان الديوان العشقي عنده من النوع الأرقى، لكن المرحلة فرضت على الشاعر أن يكون شاعراً وطنياً لشام وقاسيون كما فرض الفقه على الإمام الشـافعي أن يكـون فقيهاً ومن ثم شـاعر حكمة لا يتجاوز هذه الحكمة، وشـعر سليم الزركلي في العشق من الشعر العذب السلس البعيد عن التكلف:

ودّعيـنـي بـقـبـلـة وعـنـاق

ما أمـرَّ الـفـراقَ بـعـد الـفـراق

ودعـيـنـي أسـحّ دمـعـة حُـرٍّ

طالما جرّحت جفون المآقي

يـا لـهـا سـاعـة أودع فـيـهـا

بعض دهري عسى يتم التلاقي

يا رحيقي ويـا سَوانحَ حُبّي

أنت إنسانُ بهجتي وائتلاقي

وتـسـارى الـهـوى إليّ بـوجـد

لـيـس يـخـبـو مجـنـح بَـرّاق

وفي قصيدة أخرى يقول الشاعر:

بعينيك والصبوات ملء كياني

نُجَيْمانِ في نجواهما قلقان

مَهرتُهما حُبّي ولستُ بسائلٍ

أ بالحبِّ أم بالشوق يأتلقان

هبي لي أنفاساً من الحب تستقي

مراشف جناتي وصوغ بناني

وهبتُ لدُنيا الحبِّ فيضَ حُشاشةٍ

لها في ضمير الكون سفرُ أغانِ

تكريم الأصدقاء الفرسان:

أقف أخيراً عند ظاهرة دالة على الوفاء والعرفـان لدى الشـاعر، فالشـاعر يرثي الفرسان السوريين الذين أسسوا لسورية التي نحيا بها، سواء أكانوا من المقاتلين أو الأعلام أو الزعماء، فكتب عن مريود وصـالح العلي وسـعيد الغزي وفخري البارودي، ونظراً لما يحمله الزعيم فخري البـارودي من مكانة شعبية وأدبية وزعامة سياسية وحزبية، فقد رثاه الشاعر بقصيدة جميلة اخترت منها:

خلَتْ ديـارُ أحبابي وخلاني

وأوحشَ الدار أصحابي ونُدماني

يا فخر جِلّقَ يا إنسانَ عالمها

يا نسرها في مراقي العزّ والشانِ

يا قلبَها، وقلوبُ الناس نابضةٌ

بما تحسّس في سرٍّ وإعلان

نفخت في الشام روحاً ما تُطاولُها

معاقد النجم في دارات أكوان

غنّيت قومك في حزم وفي شغف

لحن الخلود «بلاد العرب أوطاني»

فطار لحنُكَ من نجدٍ إلى يَمَنٍ

ومن مشارف لُبنان لبغدان

ومن ذُرى القدس للخضراء مندفعاً

ومن دمشق إلى مصر فتطوان

إنَّه دنيا على الشام حقيقة لشاعر من شعراء الشام الكبار الذين أعطوا الشام والوطن والإنسان ذوب إحساسهم وعاطفتهم، وتكاد يد النسيان تطويهم، كان سليم الزركلي كوناً من وطنية وعاطفة وحب، وديوانه يمثل سجلاً نابضاً لسورية وتاريخها، يمور بالعاطفة والحب، ويلبس القافية المتفوقة صناعة وشعراً عفوياً دفّاقاً قلما يحملها شاعر آخر، أقدم هذه النثيرة على روحه لعلّ البشر يصل إليه وقد خاطبنا كثيراً، وطالبنا أن نحرص على الوطن وذرات ترابه من قاسيون إلى الغوطة إلى كل فاصلة في الوطن الكبير.

آخر الكلام

رئيس التحرير

العرب وعلم «توافق النغم»

منذ قيام الإنسان باكتشاف الموسيقى، أدرك أنَّ لديه لغة جديدة عجيبة، قادرة على التعبير عمّا في قلوبنا من عواطف، وما يمرّ في عقولنا من خيالات، وما يستكن في نفوسنا من انفعالات.. لذلك كانت الموسيقى لغة نعبّر بها عن تأثير العالم الخارجي في أنفسنا، وليس عن العالم الخارجي المحيط بنا، فبالموسيقى نعبّر عمّا يمر في سرائرنا لا عمّا يحدث خارج نفوسنا..

في دراستنا لعلم توافق النغم، الذي هو أداة التعبير في الموسيقى، الكل يعرف الفارق بين الصوت المطرب والضوضاء، ولكن ما هو السبب في أنَّ صوتاً ما يبعث في النفس الطرب، أكثر من صوت آخر؟ وهل يختلف النغم الموسيقي عن الأصوات الموجودة في الطبيعة؟ وبإيجاز يمكن القول: إنَّ الأصوات جميعاً تحدث نتيجة لذبذبات، أو دقّات في الهواء، صادرة عن اهتزاز جسم ما، فإذا حدثت الذبذبات في فترات منتظمة، نتج عنها صوت مطرب، نسميه «نغمة موسيقية»، وإذا حدثت في

فترات غير منتظمة، أو بعبارة أخرى إذا كانت الذبذبات فجائية، نتج عنها صوت أقل طرباً نسميه ضوضاء..

وقد دلّت البحوث العلمية على أنّ لكل نغمة موسيقية عدداً محدوداً من الذبذبات في الثانية، وأنّ كل زيادة في عددها في الثانية، يتبعه ارتفاع في درجة النغمة الموسيقية، ويعبّر الموسيقيون عن ارتفاع النغمة أو انخفاضها بكلمة خاصة وهي (تون) أي درجة، فإذا ازداد عدد الذبذبات في الثانية، ارتفعت درجة الصوت، وإذا قلّت الذبذبات انخفضت درجة الصوت، وعلى هذا فلكل نغمة موسيقية درجة خاصة، أو بعبارة أخرى عدد معين من الذبذبات في الثانية، وتستطيع الأذن البشرية أن تسمع النغمات الموسيقية إذا كان ترددها محصوراً بين عشرين ذبذبة في الثانية إلى عشرين ألف ذبذبة في الثانية، وعلى هذا يستخلص أنّ مادة الموسيقى، وهي الأنغام، عبارة عن مجموعة أو نوع من الأصوات، تتراوح ذبذباته ما بين عشرين إلى عشرين ألف ذبذبة في الثانية..

ويجب هنا أن نفرّق بين الشعور الإيقاعي، وهو الشعور بالإيقاع، والشعور بالنغم، فالشعور بالإيقاع أكثر شيوعاً في الجنس البشري، من الشعور النغمي، لذلك نجد أنّ موهبة الغناء والعزف على الآلات الموسيقية قليلة نسبيّاً، في حين أن أغلب الناس يستطيعون مشاركة المغنّي أو الموسيقي الدق بأرجلهم أو التصفيق الإيقاعي، ويمكن القول إنّ الشعور الإيقاعي في بلاد الشرق، أكثر نماء من الشعور بالنغم في الموسيقى، وهذا يفسّر سبب تأثر موسيقيي الغرب المعاصرين بموسيقى أفريقيا وإيقاعاتها، وكذلك بالإيقاعات الشرقية التي وصلت عن طريق موسيقى الرقص الروسية والإسبانية..

ومن خلال العودة إلى مكتشفات الآثار الموسيقية في سورية وبلاد ما بين النهرين ومصر القديمة، ندرك جيداً مدى التطور الحاصل في الحضارات التي مرّت على بلادنا، فأوغاريت على الساحل السوري في الألف الثاني قبل الميلاد عرفت «النوطة»

والسلالم الموسيقية، وعرفت الآلات الموسيقية المتنوعة، كما أنَّ العرب في فترة ازدهار حضارتهم في العهد العباسي، ثبت علمياً أنَّهم عرفوا بالتوافق النغمي، أو ما يطلق عليه في الغرب اسم «الهارموني» وهناك من يؤكد بأنَّ هذا العلم قد عرف عند قدماء المصريين من خلال دراسة النقوش المدوَّنة على جدران المعابد، كما عرف سكان ماري «تل الحريري» على الفرات الأوسط، وبابل نظام الفرق الموسيقية..

في العصر العباسي ذكر الفارابي (توفي سنة ٩٥٠م) في كتابه «الموسيقي الكبير» معلومات مهمة عن علم «توافق النغم» والعلاقة الرياضية بين كل نغمة وأخرى، وحدد مواقعها على أوتار العود، وتذكر المصادر التاريخية أنَّ فن توافق النغم،كان يدرّس في المدارس العربية للموسيقى في الأندلس، وحول ذلك يقول المؤرخ الأندلسي «فيرجيل القرطبي»: (كان في المدارس أساتذة يعلمون في الموسيقى ذلك الفن الذي يسمّى «أورجانوم») والمقصود بـ«الأورجانوم» (فن الأرغنة) وهو علم توافق النغم، ولم يكتف علماء العرب بتوثيق ما عرفوه من هذا العلم، بل اكتشفوا أيضاً العديد من النغمات المتوافقة، وأثبتوها في كتاباتهم، مما كان له أبلغ الأثر في تطوير موسيقى الغرب، بل وأصبح علم توافق النغم أو «الهارموني» هو عماد الموسيقى الغربية فيما بعد.

❁ ❁ ❁